جولى ماكليود ريتشيل طومسون

بحث التغير الاجتماعى

(المقاربات الكيفية)

ترجمة
سحر توفيق

مراجعة
محمود الكردى

1992

المركز القومى للترجمة

قدم هذا الكتاب دليلاً مهماً في مجال العلوم المنهجية الكيفية التي تبحث عملية التغير الشخصي، والجيلي، والتاريخي، ويعرض فى صفحاته مناهج تستكشف الخاصية الزمنية والعلاقات الدينامية بين الماضي والحاضر والمستقبل. ومن خلال دراسات الحالة يستعرض ستة علوم منهجية: عمل الذاكرة، وتاريخ الحياة، والتاريخ الشفاهي، والبحث الطولي الكيفي، والإثنوجرافيا، والدراسات بين الأجيال، ودراسات المتابعة، ويصور كيف أن هذه المقاربات تترجم إلى مشروعات بحثية وتدرس التحديات العملية والنظرية والأخلاقية التي تضعها أمام الباحثين ويعد هذا الكتاب مصدراً قيماً للدارسين والباحثين في مجالات العلوم الاجتماعية - خاصة فى حقول النوع، والشباب، ودراسات العائلة والمجتمع، والتعليم، والصحة، والمناهج الكيفية -الذين يهتمون بفهم وبحث التغير الاجتماعي.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح

بحث التغير الاجتماعى

المقاربات الكيفية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 1992
- بحث التغير الاجتماعى: المقاربات الكيفية
- جولى ماكليود، وريتشيل طومسون
- سحر توفيق
- محمود الكردى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:
RESEARCHING SOCIAL CHANGE: Qualitative Approaches
By: Julie Mcleod & Rachel Thomson

Copyright © 2009 by Julie Mcleod & Rachel Thomson
Arabic Translation © 2014, National Center for Translation
English language edition published by SAGE Publications of London, Thousand Oaks, New Delhi, Singapore and Washington D.C.
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بحث التغير الاجتماعى

المقاربات الكيفية

تــــــــــــأليف : جــولــى ماكليــود
ريتشيــل طــومسون
تــرجمــــــــــة : ســحــر تــوفــيــق
مراجعــــــــــــة: محــمــود الكــــردى

2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ماكليود، جولى
بحث التغير الاجتماعى: المقاربات الكيفية / تأليف: جولى ماكليود، ريتشيل طومسون، ترجمة: سحر توفيق، مراجعة: محمود الكردى.
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤.
٣٨٠ ص، ٢٤ سم
١ - التغير الاجتماعى
(أ) طومسون ، ريتشيل (مؤلف مشارك)
(ب) توفيق ، سحر (مترجمة)
(ج) الكردى ، محمود (مراجع)
(د) العنوان ٣٠١,٢٤

رقم الإيداع: ١٤٣٩١ /٢٠١٢
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 015 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة المترجم **7**

بحث التغير الاجتماعى **13**

شكر **15**

مقدمة: بحث التغير والاستمرارية **17**

الجزء الأول التذكر

عمل الذاكرة **41**

التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة **76**

الجزء الثانى أن نكون معا

البحث الطولى الكيفى **125**

الإثنوجرافيا **167**

الجزء الثالث الميراث

الجيل **213**

إعادة الزيارة **245**

الزمن والعاطفة والتدريب البحثى **285**

خاتمة **325**

مراجع الكتاب **335**

مسرد بالمصطلحات والأسماء الأجنبية الواردة فى الكتاب **339**

مقدمة المترجم

يتناول هذا الكتاب مناهج البحث الاجتماعى، فيؤرخ لبعض هـذه المنـاهج ويناقشها بعمق، ويهتم على الأخص بالمناهج التى تبحث عمليات التغير الاجتماعى والشخصى. ومن هذا المنطلق فإن هذا الكتاب يعتبر بالغ الأهمية بالنسبة للبـاحثين فى العـلوم الاجتمـاعية بـأنواعها، وخاصـة مـن يبحثـون عمليـات التغيـر الاجتماعى والشخصى.

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية، أولها تحت عنوان "التذكر"، ويتناول محاولات الاتجاه النسوى فى منهج سُمى بـ"عمل الذاكرة"، وقد سـبقت المنـاهج النسوية إلى هذه الطريقة فى محاولة منها لتفعيل الذاكرة للكـشف عـن التـاريخ الطويل من تهميش المرأة. وقد انتشر هذا المنهج فى أنحاء العالم، وعملت جماعات بحثية كثيرة من النسويات به. ويتناول الكتـاب بعـض هـذه التجـارب بالبحـث والتحقيق، مستكشفا خصائص هذا المنهج البحثى، وما توصل إليه مـن منتجـات فكرية، وتجارب منهجية، مع عرض لبعض الكتب التى نتجت عنه.

وفى هذا السياق، أود أن أشير إلى أن الجماعة المصرية التى تأثرت بهـذا المنحى، واتخذت عنوانا لها "المرأة والذاكرة" قد تأسست عام ١٩٩٥، بهدف "إنتاج معرفة ثقافية بديلة حول النساء العربيات، وإتاحتها كمادة يمكن توظيفها فـى رفـع الوعى ودعم النساء". وقد قام بتأسيسها "مجموعة من الباحثات والباحثين المهمومين بتغيير الصور النمطية للنساء فى الثقافة السائدة"، وذلـك لأن "الـصور والأفكـار

الثقافية السائدة "تمثل" حجر عثرة أمام تحسين أوضاع النساء وحصولهن على حقوقهن". ... وأيضا بسبب.... "غياب مصادر المعرفة الثقافية البديلة بشأن أدوار النساء فى التاريخ وفى الحياة المعاصرة" (http://www.wmf.org.eg).

قدمت مؤسسة المرأة والذاكرة المصرية كثيرا من الأنشطة المفيدة، منها الندوات والملتقيات الثقافية والبحثية، وأصدرت مجلة بعنوان "نور"، قدمت مجموعة من الأبحاث والتحقيقات وعروض الكتب المهمة. غير أن هذه المجلة لا تزال، كشأن كل الأنشطة الثقافية الحقيقية فى مجتمعنا، متعثرة. كذلك أصدرت الجمعية عددا من الكتب من أهمها كتاب: زمن النساء والذاكرة البديلة، والذى يضم ١٨ بحثا، وقامت بتحريره سمية رمضان، وهدى الصدة، وأميمة أبو بكر. وللجمعية موقع على الإنترنت يتحدث عن بعض أهدافها وأنشطتها. وقد قصدت ذكر هذه الجمعية لما تقوم به من مجهود ثقافى وبحثى يستحق الاهتمام من ناحية، وكدليل آخر على تأثير وانتشار هذا المنهج، الأمر الذى وصل إلى بلدان كثيرة فى أنحاء العالم، منها مصر، والذى أدى إلى التأثير فى مناهج بحث أخرى توردها المؤلفتان فى كتابهما.

لقد كان للنظريات النسوية، وخاصة "عمل الذاكرة" تأثير كبير فى العديد من الأفرع العلمية الأخرى، وكان من نتائجها أن حثت على ظهور مناهج أخرى اتخذت من القصص الشفاهى ومحاولة التذكر أساسا منهجيا لها، وأول هذه المناهج هو التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة، والذى استخدم بشكل متزايد فى الأبحاث التاريخية منذ سنوات العقد ١٩٧٠، وكانت قصص الحياة التى يرويها أصحابها ممن عايشوا المراحل التاريخية المهمة والصعبة من أهم مصادر معرفة الحقائق عن تلك الفترات، خاصة مع محاولة رجال السياسة دائما رواية الحكاية من

منظورهم الخاص، وفرض روايات رسمية ذات أهداف شخصية أو خاصة بالسلطة فى مختلف البلدان والعصور.

فى القسم الثانى تتناول الباحثتان -تحت عنوان "أن نكون معا"- منهج البحث الطولى الكيفى، وهو من المناهج الكيفية التى تأثرت بالقص الشفاهى، غير أنه يستمر على مدى حقبة زمنية طويلة نوعا لمتابعة بحث حياة بعض الناس الذين يختارهم البحث من البداية، ويظل يتابعهم لاستكشاف ما يطرأ على شخصياتهم وحياتهم ومجتمعاتهم من تغيرات. ويعتمد هذا المنهج أيضا على الرواية الشفاهية والتاريخ الشفاهى، حيث تجرى مقابلات شخصية مع الحالات المبحوثة وتسجل هذه المقابلات بكل طرق التسجيل الممكنة، بالكتابة، والصوت، والصورة، وفى السنوات الأخيرة ظهرت طرق التسجيل الديجيتال أيضا لتسهم فى تسهيل البحث والأرشفة. وقد أدى هذا المنهج إلى ظهور بعض التحديات الأخلاقية فى استخدام البيانات الشخصية وعرضها بشكل قد يعرض أصحابها لمشاكل أو قد يجعلهم يتضايقون من تفسيرات الباحثين لشخصياتهم، ... إلخ.

ثم يظهر مع هذا المنهج علم منهجى آخر لا يقل عنه أهمية، ألا وهو الإثنوجرافيا. وهو "علم دراسة أصول الأعراق والثقافات". وكلمة إثنوجرافيا تعنى "كتابة الثقافة". وهو يقوم أيضا على فكرة الذاكرة والمقابلات الشخصية ومتابعة الميدان البحثى لفترة طويلة.

وقد ظهر البحث الإثنوجرافى فى البداية داخل الأنثروبولوجيا، والتى ينتقدها الباحثون قائلين إنها "كانت مسخرة لمشروعات الهيمنة الكولونيالية، وإجراء مسوح للآخرين ووضعهم فى كتالوجات". لكن الإثنوجرافيا بدأت تتخذ منحى مختلفا، حيث ظهر من الإثنوجرافيين الذين يكتبون عن قومياتهم وأعراقهم وثقافاتهم. وقد أثار

هذا العلم العديد من التوصيفات، مثل "الموقف الإثنوجرافى"، زمن الباحث، وزمن المقابلة، إلخ. وقد أدت تلك إلى بعض التحديات المنهجية فيما يختص بزمن الكتابة وزمن البحث الميدانى، أو ما سُمى "بالحاضر الإثنوجرافى". ومشكلة علاقة التاريخ بالإثنوجرافيا أيضا. لكن الإثنوجرافيا تقدم تأريخا مهما للحياة الاجتماعية، وتتيح المقارنة عبر الأجيال وعبر الزمن.

وهذا يؤدى بنا إلى القسم الثالث والأخير من الكتاب، تحت عنوان: "الميراث"، وتتناول فيه الباحثتان مناهج البحث بين الأجيال، وكيف يقوم البحث بين الأجيال باستكشاف التغير الاجتماعى بالمقارنة بين أحوال الناس وآرائهم، بين ما استمر موجودا وما أصابه التغير، فى جيلين أو عدة أجيال مختلفة (فى أحد الأبحاث يتناول التغير بين أربعة أجيال من عائلة واحدة).

ثم يأتى دور "العودة للزيارة"، فقد يعود الباحث إلى أبحاثه الماضية، والتى مضى زمن على إجرائها، أو قد يعود إليها باحثون آخرون، بهدف معرفة التغير الذى حدث منذ إجرائها وحتى وقت الزيارة الثانية. وهذا يشمل منهجين فى الواقع من مناهج البحث، منهج إعادة بحث لدراسة سابقة يقوم به من قام بالدراسة أو باحث آخر، ومنهج المتابعة. وهذه الأبحاث أيضا تثير قضايا منهجية عديدة، من أهمها ما يختص بأرشفة البيانات، وكيفية الأرشفة، وما إذا كان من الممكن إعادة استخدام البيانات، وتأثير ذلك على الأبحاث وعلى أصحاب البيانات أنفسهم، وعلى من قام بالبحث لأول مرة.

وفى تناول الكتاب للمناهج التى يعرضها- وعددها ستة مناهج- لا توفر الباحثتان جهدا فى متابعة المناقشات التى أثارتها هذه المناهج والآثار التى تركتها على العلوم المنهجية، ومكانتها التاريخية فى البحث العلمى. والواقع أنه فى الكتاب

كله، تحضر دائما تلك العلاقة الزمنية بين البحث والباحث، وميدان البحث، وكــذا العلاقة الزمنية بين الماضى والحاضر والمستقبل، ومكانها فى البحــث، والــزمن، والصيغة الزمنية، فضلا عن الزمن وأهميته بالنسبة للباحث، وخاصة تلك الأبحاث التى تستغرق الكثير من حياة الباحث، مثل أبحاث المتابعة، والبحث الطولى الكيفى.

وفى الفصل الأخير من هذا القسم تتحدث المؤلفتان عن "العاطفة" وتأثيرهــا فى البحث، وهى مشكلة خطيرة فى الأبحاث التى تقوم على المقابلة، إذ إنه لا يمكن فصل الباحث عن مشاعره. والحق أن مسألة الموضوعية الكاملة من جانب الباحث عسيرة التحقيق فى الواقع، إن لم تكن مستحيلة. وتقدم الباحثتان تجربتين فــى هــذا السبيل وكيف تعامل الباحثون معهما. والمشكلات المثارة هنا تتعلــق بالحــساسيات الخاصة التى يشعر بها الباحث تجاه المسألة التى يبحثها، أو تجاه الأشخاص الــذين يتخذهم موضوعا للبحث أو مصادر للمعلومات. هذه الحساسيات شديدة الــصعوبة فى يومنا هذا خاصة تجاه بحث المسائل الخاصة بالعنصرية على وجه التحديد، لكن الباحثتين تضيئان شمعة أخيرة، فى قولهما: "فى فترة تاريخية أخرى، ربما فقط منذ عقدين من الزمان، كنا كباحثين من الممكن أن نكون... أكثــر حــساسية تجــاه... التهميش القائم على النوع... وفى سنوات العقدين ١٩٥٠ و١٩٦٠ كان يمكــن أن نكون أكثر حساسية تجاه التفاوت الطبقى. ولكن، فى أواخر أعــوام ١٩٩٠، كــان محك الاختبار... هو العنصرية".

ورغم أن "التهميش القائم على النوع" لم ينته بعد، خاصة فى بلداننا، ورغــم أن "التفاوت الطبقى" لم ينته أيضا، فإن كليهما تغير، واتخذ شكلا مختلفــا، أحيانــا أكثر بساطة، وإن كان فى أحيان أخرى أكثر صعوبة وقسوة. وفى كــل الأحيــان، وفى ظروف كثيرة، وفى بلدان معينة، يمكن أن نقول إنه أصــبح أكثــر مباشــرة، وبهذا فهو عرضة بشكل أكبر للتحدى والمواجهة.

ومرة أخرى، رغم كل ذلك، يمكننى أن أرحب بتوصيف المؤلفتين المفعم بالأمل. نعم، هذا التوصيف يجعلنا نتمسك بأمل أن يأتى يوم نرى فيه عالمنا أكثر عدلا، وأكثر تسامحا.

بحث التغير الاجتماعى

إن الأسئلة عن التغير فى الحياة الاجتماعية والشخصية ملمح لكثير من الكتابات فى عالمنا المعاصر. ورغم وفرة نظريات التغير الاجتماعى، فإن المناقشات حول كيفية إجراء الأبحاث حوله أقل انتشارا. هذا الكتاب يقدم دليلا زمنيا للمنهجيات الكيفية التى تبحث عمليات التغير الشخصى، والجيلى، والتاريخى. ويقدم عرضا للمناهج التى تستكشف العلاقات الزمنية والدينامية بين الماضى والحاضر والمستقبل. ومن خلال دراسات الحالة، يستعرض ستة تقاليد منهجية: عمل الذاكرة، وقصص الحياة/ السرد الشفاهى، والبحث الطولى الكيفى، والإثنوجرافيا، ودراسات ما بين الأجيال، ودراسات المتابعة. ويصور كيف أن هذه المقاربات البحثية مترجمة إلى مشروعات بحثية ونضع فى اعتبارها التحديات العملية وكذا التحديات النظرية والأخلاقية التى تمثلها. والمناهج البحثية أيضا أحد منتجات الأزمنة والأمكنة، وهذا الكتاب يضع فى المقدمة السياقات الثقافة والتاريخية التى نشأت وتطورت فيها هذه المناهج، والتقاليد النظرية التى تعتمد عليها، والقضايا التجريبية التى تتوجه إليها.

هذا الكتاب مصدر بالغ القيمة للباحثين وطلبة الدراسات العليا فى جميع أفرع العلوم الاجتماعية- خاصة فى حقول الدراسات الخاصة بالجنسين، والشباب، والعائلة، والمجتمع، والتعليم، والصحة، والمناهج الكيفية - أى الأفرع التى تهتم بفهم وبحث التغير الاجتماعى.

شكر

هناك الكثير من الناس ساعدونا فى صنع هذا الكتاب. بدأ المشروع عام ٢٠٠٤ بملتقى فى جامعة London South Bank حول "بحث التغير والاستمرارية: وجهات النظر الكيفية" ('Researching Continuity/Change: Qualitative Perspectives')، وفيه رسمنا خريطة للبنية الأساسية وموضوعات هذا المسعى. ونود أن نشكر هؤلاء الذين ساهموا فى ذلك الملتقى، وباتريك بريندل Patrick Brindle، محرر الكتاب فى دار نشر Sage، والذى كان موجودا منذ البداية وكان مرشدا للمشروع طوال العمل فيه. وأثناء عملية الكتابة، شعرنا بقيمة المناقشات مع كثير ممن وصفنا أعمالهم هنا، ومنهم: جوليا برانين Julia Brannen، وجانيت هولاند Janet Holland، وشيلا هندرسون Sheila Henderson، ولين ييتس Lyn Yates، وهارييت بجيروم نيلسن Harriet Bjerrum Nielsen، وديانا ليونارد Diana Leonard. وقد أفدنا أيضا من التعليقات المفيدة لأحد كتاب عروض الكتب ومن قرائنا، والذين يشملون بالإضافة إلى من ذكرنا أسماءهم: شين أرنولد Sean Arnold، ودافيد جودمان David Goodman، ومارى جين كيلى Mary Jane Kehily، ونعومى رودو Naomi Rudoe، وكاتى رايت Katie Wright، مع دعم بحثى قيم من كلير تشارلز Claire Charles وجلين سافيدج Glenn Savage. ونود أن نشكر الدور التمكينى لكليات الصحة والرعاية الاجتماعية Faculties of Health and Social Care فى الجامعة المفتوحة، والتعليم فى جامعة ديكين Deakin University، وكذلك جامعة ملبورن مدرسة الخريجين

للتعليم University of Melbourne Graduate School of Education. ونشعر بقيمة الدعم الذى قدمته هيئة تحرير وإدارة دار نشر سادج. وأخيرا، وليس آخرا، نشكر عائلتينا لمساعدتنا على أن نجد، ونصنع، ونختلس الوقت الذى احتجناه للسفر، والحديث، ولقراءة، وكتابة، وتحرير هذا الكتاب.

١

مقدمة: بحث التغير والاستمرارية

يتناول هذا الكتاب بحث التغير فى الحياة الشخصية والاجتماعية. فهو يستعرض مناهج ترى تميزا للجانب الزمنى. ونأمل أنك سوف تتمكن من استخدامه بطرق متعددة. فمن خلال دراسات الحالة، سوف ترى كيف تعمل المناهج المختلفة فى التطبيق، وفى فهمها كمناهج تقع فى أوقات وأماكن معينة. وسوف تقدم لك فصول الكتاب مجتمعة فهما للأبعاد المعرفية والأخلاقية للبحث الذى يسعى لوضع يده على العمليات الدينامية. لا يتناول هذا الكتاب موضوع استخدام البحث لعمل تغيير (Greenwood and Levin, 2006)، ولا حتى بحث الناس الذين يغيرون العالم (انظر Andrews, 2007). بل هو كتاب عن نوع من البحث نقوم به ونعجب به، بحث كيفى يأخذ الجانب الزمنى بجدية.

تحيط بنشأة هذا الكتاب بعض الموتيفات الزمنية التى نستكشف من خلالها التذكر والتزامن. فمن حيث التزامن، لأننا التقينا فى عام ٢٠٠٠، ووجدنا أننا نحن الاثنتين قد خططنا لدراسات تسعى لاستكشاف العمليات المشتركة للتغير الشخصى والاجتماعى، وأننا نشترك فى اهتمامات منهجية ونظرية بالجانب الزمنى، واكتشفنا نفس الأدوات المفاهيمية لمساعدتنا فى هذا العمل. وسرعان ما عرفنا أن هناك آخرين يفكرون بنفس الطريقة ويقربون مسارات الفكر الأكاديمى والشعبى، ويسعون لصياغة فهم دينامى للعمليات الاجتماعية. وعند تلك النقطة قررنا أننا نود

وضع كتاب حول تحديات بحث التغير الاجتماعى، اعتمادا على تقاليد البحث الكيفى التى كان لها الأثر فى تشكيلنا، والتى وظفناها فى ممارستنا للبحث. كان هذا المشروع تعبيرا عن الصداقة، ورغبة في التعاون ولجعل لقائنا وتآلفنا أكثر صلابة.

وتطلب المشروع أيضا أن نحدد موقع هذا المجهود فى الوقت والمكان، مما قادنا لتتبع التقاليد البحثية المختلفة، ولإعادة الاشتباك بالأدبيات، ولتذكر أيها جاء أولا، وكيف وصلنا إلى هذه النقطة. هذا التذكر كان شخصيا وأكاديميا على السواء، وقد نعمنا بفرصة لوضع خريطة بالمؤلفات التى أحاطت بخريطتنا المنهجية، لاكتشاف وإعادة اكتشاف الكلاسيكيات، ولتقديم ذلك إلى الجمهور المعاصر. وفى هذا الفصل التقديمى سوف نرسم الخطوط العامة للموتيفات النظرية والمنهجية الموجودة فى هذا الكتاب. ثم نضع الخطوط العامة لبنية الكتاب وأساس تنظيمه.

رواية القصص عن التغير الاجتماعى

فى عام ١٩٦٥، نشر المؤرخ الإنجليزى بيتر لازليت كتابا بعنوان **The World We Have Lost** [العالم الذى فقدناه]، وانتقد فيه اتجاه الكتابات الماركسية لقراءة الماضى من خلال النظرية. وانتقد الطريقة التى وظف بها هذا العمل التواريخ المرتبة زمنيا لكى يركز على الانقطاع المزعوم الذى تسبب فيه التصنيع وخلق مجتمع الكتلة الجماهيرية من مجتمع يقوم على العائلة كوحدة للمجتمع، والمنزل كموقع للصناعة. كان الحل الذى قدمه لازليت هو أنه استبدل بالمقاربة السردية "إعادة رواية التاريخ" تناولا مقارنا يوضع فيه المجتمع قبل الصناعى والمجتمع المعاصر متقابلين، مما يمكن المحلل من رؤية المزيد من الأشياء التى استمرت كما هى حينئذ والآن، وكذا الأشياء التى اختلفت. وهو يعترف أن مثل هذا

التناول قد "يبدو غير تاريخى فى المعنى النهائى، حيث إنه يتخلى عن منهج الشرح عن طريق رواية قصة" (232 :1965)، إلا أنه يحذر من إغراء روايـــات الحنـــين. ويقول:

> **هناك ما هو أكثر من مجرد الوصف الخاطئ لكيف تغيرت الأشياء. إن نظرتنا الكلية لأنفسنا تتغير لو توقفنا عن الاعتقاد بأننا فقدنا بعض الإنسانية، وكثيرا من النمط الطبيعى للعلاقة التى يمكن أن يقدمها المجتمع الصناعى. [..] وفى الميل للنظر إلى الماضى بهذه الطريقة، فى تشخيص الصعاب باعتبارها محصلة شىء فقده مجتمعنا حقا، يعانى هؤلاء المهتمون برفاهية المجتمع من فهم مزيف لأنفسنا بمرور الوقت [..] إن المعرفة التاريخية هى معرفة ينبغى أن نقوم بها بأنفسنا، والآن. (236-7 :1965).**

فى عام ٢٠٠٧، قام المؤرخ والاجتماعى البريطانى جيفرى ويكس **Jeffrey Weeks** باستخدام عنوان لازليت فى كتاب بعنـــوان **The World We Have Won** [العالم الذى كسبناه]، وفيه سعى لتحدى ما يرى أنه منتشر ومشهور وأكاديمى مـــن "الحنين لثقافة أخلاقية أكثر استقرارا وتنظيما مما يبدو أنه لدينا اليـــوم" **(2007: ix)**. لم يكن هدف مجادلة ويكس المادية التاريخية للاجتمـــاعيين الماركـــسيين، ولكـــن جماعة من المتشائمين الثقافيين (والـــذين شـــمل مـــنهم المحـــافظين الأخلاقيـــين، والاجتماعيين والدارسين الراديكاليين) الذين فشلوا، فى رأيه، فى التعرف والاحتفال بـــ"التغيرات فى الحياة الجنسية والحميمة، والتى تحدث تحولا فى الحيـــاة اليوميـــة والعالم الذى نعيش فيه، والذى يسير بسرعة نحو العولمة" **(p. ix)**. ويرى "ويكـــس" أننا نعيش فى عالم انتقالى، فى وسط ثورة عميقة، رغم أنها طويلة، معقدة، متسمة بالفوضى، غير مكتملة، ثورة غيرت إمكانات أن نحيا تنوعنا الجنسى وخلق حيوات حميمة"(ص٣). ويقدم كتابه صفحة متوازنة للمكاسب والخسائر التى تـــساهم فـــى

شخصية هذا التغير على مدى ٣٠ سنة. ولم يكن مشروعه لمجرد إظهار أن الأشياء قد تغيرت، ولكن أيضا ليحتج بأنها تغيرت إلى الأحسن. وفى بناء قضيته، يحذر من سلسلة من الأساطير: الأسطورة التقدمية، التى "تنسى بسهولة مصادفات التاريخ، والطرق المتشابكة التى أوصلتنا إلى الحاضر"؛ وأسطورة الانحدار المتصلة بالمحافظين الأخلاقيين، والتى "تحتفل بتاريخ لم يكن موجودا أبدا، وعالم لم يُفقد تماما كما يتخيلون- من زاوية الحنين إلى الماضى- أنه مقابل للحاضر"؛ وأسطورة الاستمرارية المتصلة بالنسوية والباحثين الرديئين الذين "يؤكدون استعصاء هياكل مخبأة، ولكن فى فعل ذلك ينسون قوة الفعل والوقع الهائل للتغيرات الدقيقة فى الحياة الفردية، والتى تصنع الثورة غير المكتملة لعصرنا" (2007: 7).

ويؤكد ويكس أن كلا من تلك الأوضاع "تعوق ما يبدو لى أنه الحقيقة التى لا مفر منها: أن العالم الذى كسبناه مكننا من أساليب حياة تمثل تقدما وليس تراجعا فى العلاقات الإنسانية، والتى اخترقت شبكة السلطة لتعزيز الاستقلالية الفردية، وحرية الاختيار، والمزيد من أنماط المساواة فى العلاقات" (2007: 7). ويحذرنا ويكس- مرجعا صدى الأفكار العاطفية عند بيتر لازليت- من تفسيرات التغير الاجتماعى المحملة بالنظريات، بدلا من الاحتجاج بأنه فقط عن طريق "التمسك بالصلات، والاتجاهات، والعلاقات المتداخلة بين الماضى والحاضر فى تاريخنا الحاضر وحاضرنا التاريخى يمكن أن نقيس مكاسبنا وخسائرنا، النجاح والفشل، الإمكانات ومواطن العناد، المتع والأخطار" (ص٣). ويرى ويكس أن امتلاك حس بالماضى يمكننا من أن "تجعل الحاضر ذا مغزى، ونعدّل طبيعته الأصلية، ونجعله نسبيا، معلنين أنه إبداع تاريخى، مؤكدين أنه نتيجة المصادفة" (ص٣).

وفى وضع هذين المثالين متقابلين، يمكن أن نرى مدى بقاء الأسئلة حول مكانة الادعاءات الخاصة بالتغير والاستمرارية الاجتماعيين، والمرتبطة بالجدل حول الأوضاع السياسية، والأطر النظرية، والمناهج التجريبية. وبينما أهداف الباحثين المتجادلَين مختلفة، فإنهما يشتركان فى الارتياب فى الروايات النظرية والعاطفية التى تحدد طريقة تشكيل مفاهيم العمليات الزمنية، وكذا يشتركان فى الاهتمام بالطرائق التى يمكن بها للممارسات التجريبية المساهمة– وإيقاع الفوضى– فى فهمنا للتفاعل بين الماضى والحاضر والمستقبل. وتلك مشاعر وجدانية مشتركة بيننا، رغم أن الرغبة فى إعلان أو الاحتفال بالتفجع على التغير تؤثر فينا بدرجة أقل من الرغبة فى استكشاف إستراتيجيات عملية يمكن أن تمكننا من توثيق، وتصور، وتمثيل العمليات الزمنية ومن استكشاف العلاقة بين الديناميات الشخصية والاجتماعية.

مناهج ولحظات

نكتب هذا الكتاب فى لحظة ثقافية مهمة، تتميز بوفرة المناقشات متزايدة القلق حول التغير الاجتماعى والمستقبل. نظريات ما بعد الحداثة، الحداثة المتأخرة، الحداثة العالية، والحداثة الانعكاسية، كلها تشير إلى تغير حقبة معادل للثورة الصناعية، تغير يحدث فى عملية تحويل العلاقات الاقتصادية والمادية والاجتماعية والشخصية. وسواء كانت مثل هذه الروايات تضع هذا التحول بمعنى "نهاية" الحداثة، أو "بداية" مرحلة جديدة تكتسب قوة جديدة، فإنها رغم كل شىء تشترك فى الاهتمام بسرد عمليات التحول. إن مجموعة من المصطلحات الدالة على التخلص من التقاليد، وكشف المستور، والانعكاسية والاتجاه الفردى تبنى فكرة وجود الفرد

فى مركز العمليات الاجتماعية والتاريخية، وتواجه مشهدا من عدم اليقين المتزايد. وبالمصطلحات الزمنية، نحن نقابل "حاضرا ممتـــدا" (Adam, 2003, 2004) يوقــع الفوضى فى الترتيب الزمنى الحداثى (Harootunian, 2007). وقد وصف برايـــان هيفى مثل تلك التوجهات النظرية بأنها "منعطف لإعادة البناء"- يشبه مـــن نـــواح كثيرة الروايات التأسيـــسية "البنــــاءة" للحداثـــة (Marx, Durkheim, Freud and Weber) التى اشتركت فى الميل لــ"معرفة اتجاه التغير الاجتماعى والجزء الـــذى تلعبه الوساطة الإنسانية فيما يتعلق بذلك" (2007: 26). ويتميز منعطف إعادة البناء بتغير إلى نغمة أكثر تفاؤلا، وإلى سجل زمنـــى لا يبـــالى بمحـــددات (أو بنـــود) الماضى، ويهتم بالطرق التى يمكن بها خلق المستقبل فى الحاضر. والأفكار مـــن نوع السيرة الذاتيـــة الاختياريـــة (Beck, 1992) والمـــشروع الانعكاســـى للـــذات (Giddens, 1991)، تعتمد بشدة على التقاليد الخاصة بالظواهر وفكـــرة الحاضـــر الممتد. وقد احتج البعض بأن مثل تلك الأشكال من السيرة الذاتية جديدة تاريخيـــا، وموجودة على نحو مستقل عن الماضى، دون ذاكرة، أو جذور، أو تقاليد.

ولحظتنا المعاصرة تتميز أيضا بالتعرف على تأثيرنا فى خطابـــات التغيـــر والوعى بالذات فيما يتعلق باحتمالية مطالبنا المعرفية. ويـــرى هيفـــى Heaphy أن هذه الازدواجية تنشأ من "منعطف تفكيكى"- تزامن "تشكوكية" ما بعد البنائيـــة فـــى الروايات العظمى (التى تنقلب على فكرة الحداثة كحركـــة ذات اتجـــاه؛ Heaphy, 2007: 65)- تزامنها مع البواعث التفكيكية الأخرى (بسيطة فى مستهلها ومتزايـــدة الراديكالية) التى نشأت من النسوية، والدراسات المريبة وما بعد الكولونيالية التـــى صنعت إشكالية من مطالبة العلوم الاجتماعية بالمعرفة الحياديـــة، والموضـــوعية، والشرعية. وكان فى مركز هذين الاتجاهين الفكريين عرض فوكـــو للتسلـــسلات النسبوية الثقافية التى تجعل الحاضر غريبا بتعريـــف الانقطاعـــات أو الطـــوارئ

المحتملة، التى كانت سببا فى نهضة علاقات سلطة/ معرفة معينة والتى بدورها تنتج أنظمة للحقيقة وللأفراد. ويقود المنعطف التفكيكى إلى موقف انعكاسى ومتناقض، والذى بناء عليه "لا بد أن يعترف علم الاجتماع بأنه متورط فى الإنتاج السردى، وأنه مشترك فى عملية إنتاج معرفة محتملة مفتوحة أمام المناقشة والتفنيد، ويمكن فى أحسن الأحوال أن تقدم أساسا لتفسيرات متنوعة للعالم الاجتماعى" (Heaphy, 2007: 43).

إن عمل المنظرة السياسية والنسوية الأمريكية وندى براون (١٩٩٥) يقبض تماما على ما فى هذا الموقف من ازدواجية وتناقض. فمن ناحية، تحذر براون الاتجاهات النسوية من أخطار حكاياتها الخاصة، والتى يتم فيها الدفاع بحمق عن جراح الماضى من حيث إنها تقدم أساسا لهويات الحاضر. إلا أنها أيضا تدعو الاتجاه النسوى "ألا يلوم التاريخ الذى ولد فيه" (1995: 51)، وتقترح أنه من الممكن الحفاظ على صلة بالذاتية، والهوية، والنزعة الأخلاقية دون التورط فى مشاعر "استياء عدوانى" (وهو مصطلح مأخوذ من تصوير نيتشه لمشاعر الاستياء من الألم الذى يصحب شعور المرء بالدونية، والذى يصبه على كبش فداء خارجى). وترى براون أن قدرتنا على خلق هويات سياسية يتوقف على قدرتنا على التحرر من مثل تلك الاعتمادية لكى نتخيل مستقبلا يتطلب بدوره "شعورا بالحركة التاريخية" (2001: 9). وقبول الميراث التفكيكى لما بعد البنائية والاختلاف الراديكالى لا يعنى التخلى عن السياسة، ولكنه يعنى بالفعل التخلى عن الحكايات التاريخية التبسيطية. وتحتج براون بأنه "كما تزداد صعوبة اختصار الماضى فى سلسلة واحدة من المعانى والتأثيرات، وكما يجبر الحاضر على توجيه نفسه وسط 'كل هذا' التاريخ و'كل تلك' القصص، يظهر التاريخ نفسه أكثر ثقلا وأقل تحديدا مما كان أبدا من قبل" (2001: 5).

انعطاف نحو الزمن

سوف ترى من طريقة تناولنا فى هذا الكتاب أننا تأثرنا بالتراث الانعكاسى للمنعطف التفكيكى. نحن مهتمتان بالقصص التاريخية وليس بالتاريخ، ولدينا وعى ذاتى بتأثيراتنا الضمنية فيما نصوغه من سرد سوسيولوجى وتجريبى. إلا أننا لا نرغب فى التخلى عن مشروع تحديد موقعنا نحن والآخرين داخل منظور تاريخى وثقافى، ونسعى لاستخدام إستراتيجيات عملية وتجريبية تقبض على تفاعل الماضى والحاضر والمستقبل، وفى ذات الوقت نسعى أيضا للتعرف على كيف أن تحديد الأوضاع الاجتماعية والثقافية والتربوية تشكل السرد الناتج والأسئلة التى نسألها عن المناهج. فى كتابه **After Method** [وراء المنهج] والصادر عام ٢٠٠٤، يقدم جون لو **John Law** دفاعا حارا عن نوع جديد من المنهجية الخاصة بالعلوم الاجتماعية تعترف بأن المناهج تنتج الحقائق التى تفهمها، والتى هى قادرة على تصوير "الزائل، وغير المحدد، واللامنتظم" (ص٤). ويقول لو: "إننا بحاجة لأن نجد طرقا لدراسة وتفسير مناهج هادئة، أو مناهج بطيئة، أو مناهج متواضعة. وعلى وجه الخصوص، نحن بحاجة لاكتشاف أساليب لعمل مناهج دون إمبرياليات مصاحبة لها" (ص١٥). وفى هذا الكتاب، لم نسع لاختراع مناهج جديدة، ولكننا على العكس، نظرنا إلى ما هو موجود بالفعل، ولكن تلك المناهج التى نعتقد أنها تمتلك بعض الصفات التى وضع جون لو خطوطها العامة. وتلك كلها مناهج تقبض على شىء من الشخصية الهاربة لبُعدى الزمن سريعى الزوال، وتفاعلهما- البُعدين الذاتى والموضوعى للزمن. وهى مناهج – من خلال أشكال مختلفة من "الدوام"... فى العمل الميدانى و/أو التحليلى- تتعرف على الحركة، والتبادل، والعملية الدينامية.

وقبل عشرين عاما من كتاب جون لو، في مقدمة لمجموعة من الأوراق حول السيكولوجية التاريخية، عرّف كينيث جرجين (1984) ثلاث "قصص خيالية" أو أساطير ضمنية حول الزمن تعين حدود هذا الفرع المعرفى. أولى هذه الثلاث هى تفضيل التحليل التزامنى على التحليل التاريخى- تركيز على الكيانات الساكنة (مثل الطبقة الاجتماعية) بدلا من الحالات عبر فترة زمنية (مثل الحراك الاجتماعى). والثانية هى التمسك بمناهج بحثية تضخم من الأنماط الزمنية بدلا من أن تتيح الفترات/ التدفقات الزمنية. وهنا يشير جرجين إلى كيف أن الملامح المألوفة للحياة اليومية كلها تتطلب آفاقا زمنية ممتدة: سواء كان ذلك ظاهرة على المستوى المصغر ("إجراء محادثة، لعب ألعاب، تدريس درس، الدخول فى مشاجرة، ممارسة الحب" (ص٨)، أو ظاهرة تحدث على مدى أفق زمنى رحب ("الحصول على التعليم، تكوين صداقات، عمل علاقة حب، تربية طفل، التقدم فى الحياة المهنية")، أو حتى تلك الظواهر الكبيرة جدا المؤهلة لأن تعتبر تغيرات تاريخية واجتماعية. والقصة الخيالية الثالثة عن الزمن هى ما يطلق عليه "تفضيل الثبات الظواهرى على الطوارئ الزمنية"(ص٨)- البحث عن القوانين بدلا من المعانى القائمة ومحاولة استثناء عملية البحث من موقع محتمل إلى جانب البيانات. وبعد أكثر من ٢٠ عاما، نشعر أن الانعطاف نحو الزمن فى البحث الاجتماعى، والذى يعتبر هذا الكتاب جزءا منه، يتجه إلى حد ما نحو الانقلاب على تلك القصص. وهذا باعث مشترك بين أفرع معرفية مختلفة، وفى تفضيل الأنماط المتعاقبة يكون المرء أكثر قدرة على بيان الزمانى والمكانى. وهو مشروع منهجى يحتاج لأن يكون المرء على وعى تاريخى، ويعتمد على رؤى وأعراف خاصة بمختلف العلوم الاجتماعية والفنون، ويتطلب معرفة بمكانه فى مركز التقاء عدد من

التواريخ المنهجية والتعليمية، وقد يبدو هذا ساذجا بالنسبة للمؤرخين، لكن قراءة سخية للحقل يمكن أن تتعرف على ضرورته.

"موتيفات" مناهج البحث

يعرض الكتاب ستة من تقاليد مناهج البحث: عمل الذاكرة، والتاريخ الشفاهى/ وتاريخ الحياة، والبحث الطولى الكيفى، والإثنوجرافيا (دراسة أصول الأعراق والثقافات)، والدراسات بين الأجيال، ودراسات المتابعة. وهذه المقاربات المنهجية تتداخل وتتشابك؛ فبعض دراسات الحالة التى نتناولها هنا كان من الممكن أن تظهر فى أكثر من فصل، ونفس "المناهج" وظفت داخل تقاليد علمية مختلفة. وفى عرض تلك المقاربات المنهجية، أصبحنا مدركين لعدد من الموضوعات المتكررة، والتى بدورها كانت متضمنة فى توجهاتنا النظرية. وقبل وضع تصور عام لتركيب الكتاب، سوف نناقش كلا من هذه التقاليد باختصار.

تورخة المنهج

مناهج البحث من منتجات الأزمنة والأمكنة. فلها تاريخ، والأشكال المعرفية التى تنتجها تنتج بدورها علاقات المعرفة/ السلطة **(Alastalo, 2008)**. جاء "اختراع" مناهج الفحص القائمة على الاستبيان والعمل الميدانى الإثنوجرافى فى نهاية القرن التاسع عشر، فمكّن من تصوير الحاضر، وحل محل طرائق التناول التى تعتمد على السرد والبحث المكتبى، والتى يصفها بيتر بيرك **(1992)** بأنها تعبير عن لحظة جديدة فى الحداثة وتحول النفوذ من أوروبا القديمة إلى العالم

الجديد. وكانت نهضة مناهج البحث التى تعتمد علــى الــسيرة الذاتيــة والروايــة الشفاهية فى سنوات العقدين ١٩٨٠ و١٩٩٠ تدل على ارتفاع فى نفوذ الحركـــات الاجتماعية الجديدة وتحول إلى الذاتية داخل الثقافات الغربية وعبر فروع المعرفــة الأكاديمية. وقد جرى الكلام فى وقت أحدث عــن "الأزمـــة فـــى الـــسوسيولوجيا التجريبية"، بما يشمل القلق من نقص وسائل المسح ومناهج المقابلة فـــى مواجهــة تكنولوجيات المعلومات التجارية أو أنواع توثيق الحياة الواقعية، ويمكن رؤية ذلـــك كله كلحظة أخرى فى هذا التاريخ الخاص بمناهج البحث الاجتماعى (**Savage and Burrows, 2007**). ويوحى الحديث عن "انعطاف وصفى" فى سياق تجريبية جديدة بالابتعاد عن التعليلات والتفسيرات كهدف مثالى نحو روايات أكثر ترابطا، وكثافة، وتنظيرا (**Latour, 2005; Savage and Burrows, 2007**).

والمناهج التى نعرضها فى هذا الكتاب كان لكل منها مكانته فى وقت مـــا، عندما أثارت حماس الباحثين مما أدى إلى ظهور صيغ جديدة للتـــصوير والفهـــم، والتى بدورها صاغت إحساسا جديدا بالإمكان. ازدهر عمل الذاكرة فـــى ســـنوات العقد ١٩٨٠، إلا أنه أعيد اكتشافه بانتظام فى أمـــاكن مختلفـــة. وتزامنـــت ذروة التاريخ الشفاهى مع ذروة مطالبة التوجه النسوى والتوجه الاجتمـــاعى باســـترجاع ماضيهما. أما المناهج الطولية الكيفية فهى تزداد شعبية وانتشارا أثناء كتابتنا لهـــذا الكتاب، والإثنوجرافيا لها تاريخ معقد يمتد على طول القرن الماضى، تعرضت فيه لكل من المطالبة بها ولعنها فى أوقات وأماكن وأفرع علمية مختلفة. أمـــا طرائـــق البحث بين الأجيال التى تعزز التفاعل النفسى والمادى، فهى تـــصبح بـــارزة فـــى لحظات الأزمات والتغير السريع. ومع نهضة تكنولوجيا الديجيتال تصبح إمكانيـــة أرشفة البيانات والمشاركة فيها أكثر حتمية، وبينما ينـــضج "أبنـــاء الازدهـــار" (أو

"الزخم")(*) يصبحون أكثر اهتماما بالعودة إلى زيارة دراساتهم السابقة. وبمحاولة رواية قصة مجموعة من الدراسات البحثية المختلفة، كل منها له بعض التحكم في تصوير عمليات الاستمرارية والتغيير، نأمل أن نبين الطرق التي تكون بها مناهج البحث هي نفسها تقنيات مستقرة تاريخيا، والتي تنتج أشكالا مستقرة من المعرفة.

تاريخية موضوع الدراسة، مع تضمين الباحث

كُتب الكثير عن دور الباحثين في إنتاج المعرفة في وقائع البحث ودورهم في إنتاج الانعكاسية (Denzin and Lincoln, 2005). وقد ساعدتنا استكشافاتنا في فهم السبب في أن الباحث لا يستطيع أبدا أن يكون خارج عملية إنتاج المعرفة واستخلاص البيانات. وعندما نفكر بالمصطلحات الزمنية والتاريخية، نجد أن كلا من الباحث والمبحوث (من يجري البحث، ومن يُجرى عليه البحث) يقعان معا داخل دائرة تأويلية. ويعتمد مدى "ملاحظتنا" الفعلية لحضور الباحثين في تقارير أو بيانات البحث جزئيا على المناهج المستخدمة ونوع التقرير. وعلى سبيل المثال، فإن الالتزام المتعمد بالانعكاسية والرواية عن الذات في البيانات ينتج لنا تصويرا للسيرة الذاتية للباحث. وإنتاج الملاحظات الحقلية كجزء من استخلاص البيانات يصوغ صوتا يمكن تمثيله على نحو مباشر أو غير مباشر في روايات البحث. كذلك العودة إلى البيانات (سواء في حالة المتابعة أو في الدراسات التحليلية الثانوية) أو العودة إلى الذات، كما في العودة إلى عمل المرء المبكر، في البحث الطولي الكيفي أو عمل الذاكرة، يمدنا أيضا بطريقة لإنتاج شخصية الباحث كجزء

(*) أبناء الازدهار (أو الزخم) Baby Boomers: الذين ولدوا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. أي في السنوات من ١٩٤٦-١٩٦٤. [المترجمة].

من تسجيل البيانات. وإذا أخذنا منظور كاتب السيرة الذاتية المفكر (عن نفسه أو عن آخرين) يمكننا أن نرى الباحث فى اختياره لمادة الموضوع، أو النظرية، وعلى نحو أكثر دقة فى المرئى وغير المرئى من البيانات، وأنواع الأشياء التى حظيت باهتمام خاص أو التى حذفت والتى تميز القصص التى ترويها (**Coslettet al., 2000; Stanley, 1992**). والحركات الحديثة داخل المقاربات النفسية للبحث والتى ترى موضوع البحث كموضع للدفاع، تنبهنا أيضا إلى الديناميات التبادلية للنقل والتخطيط داخل حدث البحث، وكذلك مضمون الباحث المدافع فى إنتاج وتحليل المادة (**Frosh et al., 2002; Hollway and Jefferson, 2000; Lucey et al., 2003; Walkerdine et al., 2001**).

علاقات زمنية دينامية

تتميز مناهج البحث، والبيانات التى تستخلصها، وتفسيراتنا لها، بعلاقة دينامية بين الجداول الزمنية. ورغم أنه ربما يكون ضروريا للأغراض التحليلية واليومية أن نميز بين الماضى، والحاضر، والمستقبل، فإنها متلازمة، كلها مكونات للتدفق الزمنى (**Elias, 1992**). وقد وضع فلاسفة الزمن مفهوم ذلك بطرائق مختلفة. والنقطة المهمة التى نأخذها من هذا العمل هى التمييز بين "ساعة زمنية" موضوعية ويمكن قياسها، وفهم للزمن كخبرة ذاتية. وعلى سبيل المثال، يميز برجسون **Bergson** بين المدة **temps** (اتجاه مكانى للوقت يتميز بالامتدادية) والدوام **durée** (اتجاه زمانى يتميز بالكثافة) (**Mullarkey, Ansell Pearson and 2002**). ويقدم هايدجر مفهوما أنطولوجيا للوجود، "**Dasein**"، والذى يتكون بتوجه نحو المستقبل (الوجودية)، وتوجه نحو الماضى (الواقع الفعلى)، وتوجه نحو

الحاضر (الوقوع فى الأحبولة)- وكلها تتوافق بالترتيب مع الأساليب التجريبية للسعى نحو المستقبل، مع حمل الماضى والتصرف/ الاندفاع داخل الحاضر (Farrell Krell, 1993). هذه المفاهيم كان لها تأثيرها فى تشكيل علم الظواهر وعلم النفس لدى جى. إتش. ميد ووليام جيمس، وتدل ارتباطاتها النظرية فى زمن أحدث بالصفة الزمنية على تراثها المستمر (Grosz, 2004, 2005).

وفكرة أن الماضى والمستقبل مدركان دائما فى الحاضر لم تجد طريقها فى كل الأحوال إلى النماذج التجريبية. ورغم أن الإستراتيجيات المنهجية المختلفة قد تعزز جداول زمنية مختلفة (على سبيل المثال، قد يبدو أن التاريخ الشفاهى يدور حول الماضى)، فإن الأبعاد المتبادلة بين الماضى والحاضر والمستقبل دائما فى حالة فعالية. ومن ثم فإن الروايات عن الماضى تكون على علاقة بمتطلبات الحاضر وفى روايتها تثير مستقبلا ممكنا. ورغم إدراكنا أن الماضى- الحاضر- المستقبل كلٌ لا يتجزأ، فإن الكتاب مقسم لإظهار كيف أن المقاربات المختلفة كل منها تفضل منظورا زمنيا معينا: فى القسم الأول، التذكر (المناهج التى تبحث الماضى من خلال الذاكرة والسرد الشفاهى)، والقسم الثانى، المشاركة (المناهج التى تسعى للقبض على الحاضر وكشف الأحداث والحيوات)، والقسم الثالث: الميراث (المناهج الموجهة إلى المستقبل، إلا أنها تقاربه باستكشاف مرور الزمن والعلاقات بين الأجيال).

وهناك عنصر آخر لهذا المذهب الدينامى يختص بالجانب المزدوج للاستمرارية والتغير. فالنظرية الاجتماعية تقليديا كان قد تم التخطيط لها على أنها إما تشرح الاستمرارية أو تشرح التغير (مثلا، عبر تصوير التمايزات بين نظريات التعارض والإجماع). إلا أن البحث التجريبى يواجهنا بانتظام بالطبيعة المتناقضة للظواهر التى تعبر عن جوانب كل منهما (Crow, 2008). ومن ثم، مثلا، فإن فكرة

"التقليد المخترع"، وهو مصطلح صاغه المؤرخان هوبسبوم ورانجر، تساعدنا على رؤية أن اختراع احتفالات قومية تبدو فى ظاهرها تدعم استمرارية مع الماضى هو فى الواقع ظاهرة حديثة للغاية، ذات دلالة على المستقبل. وكما يقول بول كونرتون، البدايات تتطلب التذكر، ونحن نميل إلى سماع "صدى التقاليد فى اللحظة التى تفقد فيها نفوذها" (9 :1989). ويصور فريد ديفيز هذه المفارقة بالنوستالجيا (الحنين إلى الماضى)، مقترحا أنه فى أوقات التغير السريع نميل إلى تلطيف "خوفنا من المستقبل باستعادة جدارة الماضى" (71 :1979)، وأن ذلك "يتيح وقتا للتغير المطلوب كى يتم هضمه بينما يعطى مظهر... اتصال ذى مغزى بالماضى" (ص١١٠). وعلى العكس، الظاهرة التى تبدو "جديدة" بالكامل أيضا تنم عن الماضى. وهكذا، مثلا، فإن صياغة "الحل السحرى" الذى ولدته روايات الدراسات الثقافية حول ثقافة الشباب فى سنوات العقد ١٩٧٠ أظهرت كيف أن ثقافة حلاقة الرأس عند المراهقين(*) يمكن فهمها باعتبارها موجودة فى الحوار مع ثقافة الآباء وفقدان مجتمعات الطبقة العاملة التقليدية (Hall and Jefferson, 1976). تُقدِّم هذه الأنواع من فهم الدينامية المتبادلة الاعتماد بين الاستمرارية والتغير- والمتجذرة فى الإدراك التجريبى لكيف يمكن أن نعيش الحياة وكيف تعمل الثقافة- تقدم طريقة للتفكير فى التغير يتجاور فيها الماضى والحاضر، ويكون التكاثر المجتمعى إنجازا مستقرا وبارزا.

التمفصل بين الإمكانية والقرابة

التجريد أداة للبحث الاجتماعى، ويميل لتأدية دوره بإخراج الفرد من الاجتماعى، أو تفريغ الاجتماعى من الذاتية. وكلاهما بدوره ينتج ويبقى على

(*) انتشرت حلاقة الرأس عند المراهقين فى إنجلترا فى سنوات الفترة من ١٩٧٠ وحتى سنوات العقد ١٩٩٠، كتعبير من الشباب عن خروجهم عن المجتمع. [المترجمة].

المشكلة النظرية الخاصة بالعلاقة بين البنية والوساطة الشخصية. هذه الأنواع من التجريدات مفيدة، وبراجماتية، ومضللة. وقد كتبت دورين ماسى **Doreen Massey** **(1993,1994)** عن هذا الأمر فيما يختص، من ناحية، بالميل إلى تفضيل المكانى (مثلا، علاقات البنية، وموقع المجتمع، والتعايش)، ومن الناحية الأخرى، الميل إلى تفضيل الزمانى، والذى يعبر عنه بشكل عام من خلال التوكيد على الفرد، والعملية، والإمكانية وكيف تتسع الأشياء عبر الزمن. وبعض المناهج جيدة فى أولهما (مثل المناهج المستعرضة)، ومناهج معينة جيدة فى الثانى (مثل المناهج الطولية والسردية). وكلها مجتمعة تتيح منظورا ثلاثى الأبعاد، إلا أن هذا المنظور يتسم بالسكون والثبات. وتحتج ميسى بضرورة إدخال الحركة للحصول على علم اجتماع رباعى الأبعاد يصل بين الاثنين ويحفظهما فى حالة حركة. ونحن نرى أن هذه مقاربة جذابة جدا وطموحة، تفتح الإمكانات لإظهار الاندماج بين المكان، والزمن، والذاتية، والاجتماعية: فهى تشرح السبب فى أن قصصا معينة يمكن أن تُحكى وتُسمع فى لحظات معينة، وما ينتج عن ذلك. ويلقى كل منهج من المناهج التى نهتم بها فى هذا الكتاب بعض الضوء على نواحى علم الاجتماع رباعى الأبعاد الذى تحدثت عنه ميسى. ويوحى بكل من الوعد والقيمة لهذا التناول، لكن أيضا، بالصعوبة فى إحراز المستوى المطلوب من التعقيد التحليلى والمنهجى عبر أنواع مختلفة من المشروعات البحثية.

وقد بذلت محاولات متعددة للقبض على هذه العلاقة المفصلية بين الإمكانية والقرابة. وعلى سبيل المثال، فى عمل أقدم لجولى، استكشفت قيمة مفهوم بورديو عن مفهوم مصطلح **habitus**، والذى يمكن ترجمته بـ "الذاتية الاجتماعية"، الترتيبات و"طرائق الكينونة" المجسدة، بما يشمل القيم وسبل تكيف المرء، والتى تشكلت فى تفاعل مع "المجالات الاجتماعية"- كيف يستطيع الأفراد أن "يكونوا أنفسهم". والمؤلفة تدخل فى تجارب مع توقيت "تكوين الذاتية الاجتماعية على مر الزمن" والتى من خلالها يمكن للأفراد "الارتجال" **(McLeod, 2000)**. ولفعل ذلك،

اعتمدت على انتحال هاريت بجيروم نيلسن لاستعارة فرويد لـــ"رقعــة الكتابــة السحرية" والتى من خلالها تلتقط المصادر من التجربة والأشكال الثقافيــة لتــشرح نوع الشخصية الأنثوية التى تريدها المرأة لنفسها. وتلك النقوش [على رقعة الكتابة السحرية] وضعت مجازيا على شكل صفحة، لكى يمكن رصها مع صفحات أخرى كلما أتيح ذلك. إلا أن كل نص يترك علامة، أو نوعا من التضاريس علــى كتلــة شمع ناعمة خلف صفحة الورق. وبينما الورقة تُمــسح وتــرص مــع النــصوص الجديدة، تتراكم كلها لتصبح سجلا أقل وعيا ولكن أكثــر بقــاء. ويكــون البعــدان الخاصان بهوية النوع وذاتية النوع موجودين فى علاقة دينامية وجدليــة بمــرور الوقت، مما يبرز النوع كعملية. إنها "جدلية تنتهى بالحالة 'السحرية' التــى فيهــا التغيير لا يمنع الدوام، ويتسبب الدوام لا يمنع التغيير. وبدون الكتابــة لــيس ثمــة تغيير فى الذاتية، وبدون الكتلة الشمعية لن يكون ثمــة شــخص لعمــل الهويــة" (Bjerrum Nielsen, 1996: 10).

ونحن لا نقدم حلا أو إطارا نظريا واحــدا فــى هــذا الكتــاب، فالمفــاهيم والنظريات تظهر بين الفصول، نتيجة أنواع من أسئلة البحــث المثــارة والحلــول المنهجية التى اتبعت. أى عدد من الإطارات العملية النظرية يمكــن أن يكــون ذا صلة بالمجهود المبذول فى هذا الكتاب، وقد جــاءت اختياراتنــا نتيجــة انعكــاس مدروس لرغبتنا فى وضع النظرية داخل أغراض المشروعات المعنية.

تنظيم الكتاب

تناولنا هذا الكتاب كمجهود مشترك يشمل ضمنا تقسيما للعمل. وقد استرشدنا بدليل فى كل فصل، كل دليل ينصب على تناول منهجى واحد داخــل قــسم. وقــد أخذت جولى المسئولية عن الفصول الخاصة بالتاريخ الــشفاهى، والإثنوجرافيــا، ودراسات المتابعة، وأخذت ريتشيل المسئولية عن عمل الذاكرة، والبحث الطــولى

الكيفى، والدراسات بين الأجيال. وقد اشتركنا فى مهمة التحرير، وكذلك فى كتابة المقدمة والخاتمة، وكتابة الفصل الثامن حول "الزمن، والعاطفة، والتطبيقات البحثية". والكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء، يمثل كل منها جدولا زمنيا مختلفا. فى الجزء الأول، "التذكر"، نستكشف المناهج التى تركز على الماضى، وعمل الذاكرة، والتاريخ الشفاهي. ويحكى الفصل الثانى قصة عمل الذاكرة من خلال ثلاثة أمثلة: التجربة الأصلية للنسوية الألمانية فريجا هاوج وزميلاتها فى سنوات العقد ١٩٨٠، وتبنى مجموعة من السيكولوجيات النسويات الأستراليات لهذا المنهج فى العقد ١٩٩٠، وأخيرا مقاربة للدراسات الثقافية يمثلها كتاب أنيت كيون. ويقدم الفصل دليلا إلى المنهج، وكذا يستكشف الاختلافات والاتفاقات فى استخدامه. الفصل الثالث يركز على الرواية الشفاهية وتاريخ الحياة، التى تستخدم المقابلات الشخصية للحصول على السير الذاتية والشهادات التى توفر نافذة على الماضى. وتخلق دراسة حالة تقوم على تقرير "إعادتهم إلى البيت" **Bringing Them Home report** (١٩٩٧)، الذى أوصل إلينا صوت الأهالى الأصليين لأستراليا الذين أبعدوا قسرا عن عائلاتهم (الأجيال المسروقة). ونستكشف العلاقة المعقدة بين التجربة والسرد، ووقع التراكم السردى، وقصص الحياة كشهادة وشكل من أشكال الميراث. ودراسة الحالة الثانية تفحص دراسة قصة حياة معلمات نيوزيلندا اللائى تأثرن بنظرية النسب الفوكولدية والنظرية النسوية، وتضع فى الاعتبار كيف أن هذه التناولات تفكك ألفة الحاضر وتعوق الرواية الخطية للتاريخ، والتقدم، والتغيير.

القسم الثانى من الكتاب، "المشاركة"، يعرض إستراتيجيتين لبحثين كيفيين يهتمان بالحاضر. يستكشف الفصل الرابع بحثا كيفيا طوليا يسعى للاستمرار مع المساهمين فى البحث على مدى فترة زمنية محددة. ومرة أخرى نسعى لوضع المنهج فى سياق تاريخى وثقافى، مع التساؤل حول لماذا، وكيف يكتسب هذا النوع من الأبحاث شعبية وشهرة. فنصور ما يكمن فى المنهج من إمكانية عبر أمثلة

مأخوذة من عملنا على حياة الشباب، بحيث نظهر كيف يمكن للتغير الشخصى أن يتصل بعمليات مؤسسية ومجتمعية أوسع، كما نتأمل فى التحدى الذى يحمله تحليل، وتخزين ومشاركة مثل هذه المجموعات من البيانات. ويتناول الفصل الخامس الإثنوجرافيا، فيستكشف كيف لـ"حاضر عرقى" مجمَّد أن يصبح بؤرة للنقد المعاصر، وكيف يجرى التوسع فى ذلك لكى يرتبط بأسئلة التغير والاستمرارية على السواء. ومن خلال مثالين للدراسات الإثنوجرافية، كلاهما على اطلاع جيد بالاتجاه النسوى ويمثلان لحظتين مختلفتين فى النظرية النسوية والبحث الاجتماعى، يصور الفصل كيف يمكن استخدام المنهج لتمييز تركيز على الفعل، والأداء، ومرور الزمن، وبفعل ذلك يكشف احتمالية وبنية ما يمكن أخذه كشىء مسلم به أو ما يفترض أنه أمر طبيعى.

والقسم الثالث من الكتاب، "الميراث"، يتصل بإستراتيجيتين بحثيتين تتمان عن المستقبل، فتصوران انتقال المعانى والخبرات بين الأجيال. والأولى من هاتين، فى الفصل السادس، تستكشف البحث عبر الأجيال والدراسات الكيفية للسلاسل بين الأجيال. يبدأ الفصل باستكشاف التناولات السوسيولوجية للجيل، قبل الاهتمام بفحص عميق لمثالين من البحث بين الأجيال: دراسة نرويجية لتسلسل من ثلاثة أجيال من النساء، ودراسة لأربعة أجيال من العائلات الإنجليزية. ويقدم الفصل نظرات ثاقبة داخل التحديات المنهجية لمثل تلك الدراسات كما يقدم نظرة عامة لكيف يمكن للبيانات المستخلصة من مثل تلك الدراسات أن تثرى وتعقد فهمنا للتغير الشخصى والاجتماعى. وينظر الفصل السابع، "العودة للزيارة"، إلى التغيرات بين أجيال من الباحثين. وهنا نأخذ فى اعتبارنا الاهتمام المتزايد بالعودة إلى دراسات العلوم الاجتماعية فى الماضى. وهذا يمكن أن يختص بمجموعة جديدة من الباحثين أو الباحثين الأصليين فى مرحلة مختلفة من مسار حياتهم. ومثل

هذه الدراسات ترفع مجموعة من الأسئلة الحتمية والعملية والمعرفية حول إمكانية إعادة خلق سياق البحث الأصلى وكذا المأمول من البحث الحديث أو البيانات التى أعيد تعيين سياقها كوسيلة لتوثيق التغير الاجتماعى.

والفصل قبل الأخير من الكتاب- "الزمن، العواطف، ومزاولة البحث"- يمدنا بدراسة حالة للتحليل البحثى أثناء الممارسة، مما يحرك بعض التقنيات والاتجاهات التي وصفت خلال الكتاب. وبالعودة إلى حالتين بحثيتين مثيرتين ومتصلتين بعد عدة سنوات، نستكشف الطرائق التى يمكن بها مساءلة وقائع بحثية بعد فترة من الزمن لكي نفهم بشكل أفضل "الحاضر" الذى "كان". من خلال الفحص النقدى لحالة من العنصرية فى المجموعة التى يركز عليها البحث، نستكشف بعض الأبعاد الإثنية المرتبطة بإجراء البحث والكتابة عنه، مظهرين الشخصية الارتدادية والتكرارية للتحليل، وكيف أن ذاتية الباحث يمكن أن تكون مصدرا لهذا العمل. وينتهى الكتاب بخاتمة نستعرض فيها موضوعات الزمنية، والتغير، والاستمرارية وخصائص التقاليد البحثية التى استكشفناها فى هذا الكتاب.

وبوضع مناهجنا المختارة داخل سياق أوسع من تواريخها الفكرية، نأمل أن نكون قد قطعنا بعض المسافة نحو إبقاء الدينامية بين التحديد والتأويل- وإظهار كيف أن الماضى يؤثر على الحاضر، وكيف أن الحاضر يشكل ما نرى أنه الماضى (**Connerton, 1989**). وربما تساعدنا المناهج على التفكير فى عمليات الاستمرارية والتغيير، وأيضا فى نفس الوقت التعرف عليها كمطالبة بالمعرفة. وفى رأينا أن هذه توترات يمكن التعرف عليها وليس حلها، ويمكن أن تكون منتجة لروايات ثرية، وليس لمجرد نهايات نسبية ميتة. إن ما نقدمه فى هذا الكتاب هو دليل عملى على مجموعة من المناهج التى تنطوى على إمكانات هائلة لو استخدمت مع تفكير وتأمل عميقين. ونقدم أيضا سلسلة من المقالات حول الطريقة

التى ظهرت بها مناهج مختلفة ونوع الرؤى التى قد تقدمها، بما يشمل الأطياف النظرية التى قد تستلهم منها. ونأمل أن يشجع الكتاب الناس على عمل أبحاث لا تفضل الزمنية فقط، بل التى تقطع بعض المسافة نحو نوع البحث الاجتماعى رباعى الأبعاد الذى استشرفته ماسى: "المهم هو محاولة التفكير بمصطلحات المكان- الزمان. إنه أصعب كثيرا مما قد يبدو عليه لأول وهلة" (Massey, 1994: 264).

الجزء الأول

التذكر

٢

عمل الذاكرة

رجال يبدو مظهرهم موضة قديمة، يرتـــدون بـــدلات وقبعات سوداء وكأنهم مضطرون للاحتفاظ بماضيهم معهـــم فى كل الأوقات خشية فقدانه. (Kiran Desai, 2006: 81).

مفارقة الذاكرة هى نفس ما يشار إليـــه بــــ"الـــدائرة التأويلية": الماضى يبنى الحاضر من خلال تراثه، لكنه الحاضـــر هو الذى يختار هذا التراث، ويحفظ بعـــض جوانبـــه وينـــسى أخرى، وهو الذى يعيد باستمرار صياغة صـــورة الماضـــى فى أذهاننا بإعادة رواية القصة مرارا وتكرارا. (Paolo fedlowski, 2001:41).

يشير هذان الاقتباسان إلى تعقيد العلاقات الزمنية، وكـــذلك براعـــة صـــيغ التعبير الأدبية فى القبض على مثل ذلك الوجود المتزامن. هدفنا فى هذا الكتاب هو عمل خريطة لمجموعة من أساليب التناول الأكاديمية التى تستطيع تصوير العلاقـــة الديناميكية بين الماضى والحاضر، والتى تتميز بكل من ثبات الاتجـــاه (الماضـــى يقوم بتشكيل الحاضر) والتأويل (الحاضر يبنى الماضى) (Connerton, 1989). إلا أننا ندرك أن لغة العلم الاجتماعى ليست دائما مناسبة تماما للتعبير عـــن غمـــوض

العمليات الزمنية، ولهذا فنحن نقوم بتوظيف الأمثلة الأدبية طوال الطريق. وفى هذا القسم الأول من الكتاب نستكشف منهجين بحثيين يتخذان الذكريات مادة خاما لمشروع بحث التغير الاجتماعى: عمل الذاكرة[1] وتاريخ الحياة/ التاريخ الشفاهى. ومقاربتنا ترصد هذين المنهجين فى المكان والزمان، وتبيِّن كيف أن استخلاص المعرفة عن التغير الشخصى والاجتماعى يشكِّل جزءا من أجندات ثقافية وسياسية أعرض. ومن خلال الأمثلة، نطرد بعض التحديات العملية والمعرفية (الإبستمولوجية) الخاصة بالعمل مع الذاكرة. الذكريات -حسب التعبير الفرويدى- دليل غير مباشر ولا يعتمد عليه، هى تجمع بين معنى التجلى والاستتار، وقد وضعت القدرة على التذكر بديلا للتكرار القسرى. إلا أن الشخصية المعقدة والذاتية للذاكرة هى التى تجعل منها مصدرا شديد الثراء لاستكشاف العمليات الزمنية.

فى هذا الفصل سوف نتأمل عمل الذاكرة، وهى تقنية تستخدم لاستكشاف العلاقات بين ما يرتبط عن قرب بتطور الحركة النسوية من ماض، وحاضر، ومستقبل. كان لعمل الذاكرة لحظات رواج فى مختلف المجتمعات الأكاديمية. ونقدم هنا نظرة عامة على الطرق المختلفة تماما التى اتبعت وتبنت تقنية عمل الذاكرة، ونفصل هذه النظرة من خلال ثلاثة أمثلة تتناول أعمال كل من: فريجا هاوج وزميلاتها (كتاب: Female Sexualization [اكتساب الشخصية الأنثوية])، وجين كراوفورد وزميلاتها (Emotion and Gender [العاطفة والنوع])، وأنيت كيون (Family Secrets [أسرار عائلية]). وفى سردنا لقصة عمل الذاكرة، نسعى لإثبات كيف تنشأ المناهج والأفكار فى حالات ملموسة، إلا أنها يجرى امتلاكها إبداعيا وتحويلها إلى سياقات جديدة، فتؤدى إلى نشأة مطالبات معرفية لها كينونتها.

هذه الأمثلة كلها تشترك فى علاقة بالسياسات التحررية، وتقع داخل نوعين من فروع المعرفة: العلوم الاجتماعية، والدراسات الثقافية. والمناهج نفسها تتسم

بالمرونة والقدرة على التكيف. ورغم أن العمل أحيانا يؤدى إلى نتائج لافتة للنظر، فإن أهم محصلة فى الواقع قد تكون العملية نفسها- بذل المجهودات الفكرية الجمعية. ورغم أن مشروعات عمل الذاكرة المختلفة داخل هذا التاريخ بشكل عام اهتمت بالعلاقة بين الثقافة الشعبية والذاكرة الشخصية، فإن المجموعة نفسها تصبح وعاء لتواريخ أخرى، مخبأة، للعلاقة المتغيرة بين الحركات الراديكالية والثقافات الأكاديمية. ومن الممكن رؤية توازيات فى مشروع التاريخ الشفاهى الذى نصفه فى الفصل الثالث، حيث نظرنا إلى منهجية معينة من أجل ما تعد بها من تحول سياسى، ولكن فى هذه الحالة يفهم أيضا أن منهجية عمل الذاكرة لديها الإمكانية لتحويل الذاتية والوعى.

وقد انهمكنا فى عمل الذاكرة كبحث تكميلى لعشر سنوات، بحيث أصبح عمل الذاكرة المنتظم جزءا حيويا من الاتصال داخل جماعات البحث، يتغذى على تراكم الفهم الانعكاسى لاستثمارنا فى موضوعاتنا البحثية، أو ما بيننا من ارتباطات أو اختلافات، وكذلك على نحو مباشر فى التنمية المنهجية والتنظيرية. وبكتابة هذا الفصل أصبحنا على وعى بأننا نتبادل الجدل من أجل المنهج، ومن خلال وصف ومقارنة المشروعات، وتفصيل مناهجها والتعرف على حدودها، نأمل أن نبيِّن ما ينطوى عليه عمل الذاكرة من إمكانية كمنهج لاستكشاف نقاط التقاطع بين التغير الاجتماعى والشخصى.

عمل جمعى للذاكرة

بقدر ما نعرف، فإن مصطلح "عمل الذاكرة" قد صكته "فريجا هاوج" وزميلاتها فى كتاب نشر أولا فى ألمانيا عام ١٩٨٣، بعنوان **Frauenformen** فى

جزأين، ١ و ٢. ثم نشرت له ترجمة إنجليزية (قامت بها إريكا كارتر) بعنوان Female sexualization [اكتساب الشخصية الأنثوية] (١٩٨٧). وصدرت منه طبعة ثانية فى ١٩٩٢ ثم أعيد نشره ضمن كلاسيكيات فرسو Verso عام ١٩٩٩. وكانت هاوج وزميلاتها مجموعة من نسويات ألمانيا الغربية الاشتراكيات- وكانت بعضهن أكاديميات أيضا- واللائى كن يعملن معا فى هيئة تحرير الجريدة والمنبر الثقافى الماركسى Das Argument. وكان كتاب Female Sexualization نتيجة مشروع لمدة عامين، ومقدمة الطبعة الإنجليزية تقدم رواية استعادية لكيف التقت المجموعة وكيف عملن فى زمن كان يتسم بالاندفاع السياسى. كان طموح مجموعة هيئة التحرير من النساء ككل هو "إعادة بناء الماركسية العلمية وفق التوجهات النسوية" (١٩٩٩: ٢٣)، وأقيمت سلسلة من "المشروعات" حول مجال من الموضوعات لبلوغ هذه الغاية. وكان ما يحتويه الكتاب نتيجة المشروع الذى يستكشف كيف "يتشكل النوع الجنسى كمجال وجود منفصل" (p. 34).

دعمت إريكا كارتر محاولات تقديم ما قامت به هاوج وزميلاتها من عمل الذاكرة وتعيينه للقراء الإنجليز فى الطبعة الإنجليزية لعام ١٩٩٢ بمقدمة مطولة. وكانت تسعى- بتقديم عمل الذاكرة للقارئ الإنجليزى فى سنوات ١٩٩٠- إلى ترجمة ثلاثة عناصر أساسية. أولا، تقدم لنا تميز المشروع بـ"ألمانيته"، وتتأمل كارتر حول صعوبة ترجمة بعض المصطلحات التنظيرية، وصقل الترجمة بين لغة الماركسية العلمية والوعى المتزايد لما بعد الماركسية. ثانيا، تعيد كارتر وضع هاوج وزميلاتها نظريا بما يتماشى مع أطر العمل الأكاديمى البارز لهذا القارئ الجديد. ومن ثم، مثلا، فإن انتباهنا يتجه إلى التأثير على مجموعة عمل مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة (Birmingham Centre for Contemporary Cultural Studies [BCCCS]) (مثلا، McRobbie and

وتخصيصهم لوجهة النظر الألتوسيرية حول كيف (McCabe, 198l;Willis, 1981 نصل إلى الرغبة فى- أو امتلاك- الاضطهاد، وفى فعلنا ذلك نعيد صناعة التفاوت الاجتماعى. هذا التناول الدينامى والمتأثر بالسيكولوجيا لفهم الطريقة التى تصبح بها ملكة الوساطة الشخصية للإنسان نشطة، وإن كانت مكبوحة تصلها كارتر بتأثير ثان على المجموعة- قراءتهم لفوكو وفكرة أن السلطة مرنة ومتداولة. وتقترح أن المؤلفات يعتمدن على نحو منتج على تلك الأفكار فى استكشافهن للجسم كموضع للخطاب، بيسر فهما للأيديولوجية كوسيط فى المادة ومن خلالها. ثالثا، توجه كارتر القارئ إلى استخدام عمل الذاكرة كمصدر فى ارتباط النسوية بما بعد الحداثة، وخاصة بإمداد النسوية بوسيلة لفهم كيف أن الذاكرة "تُعبأ جمعيا" مع تجنب بناء نوع من "التنمية التاريخية الخطية نحو التحرر" (14 :1992) وهو ما كان موضعا لكثير من النقد السياسى والفكرى.

والترجمة الإنجليزية مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، تفتتح برواية عن عمل الذاكرة الذى استخدمته المجموعة. وتشرح المقدمة أن قرار تفضيل منهجية المشروع اتخذ فى وقت متأخر من اليوم بناء على نصيحة منضدى الطباعة، الذين اقترحوا أن الفصل الافتتاحى المعنى (والذى يرتبط بفوكو) ربما كان شديد الكثافة وغير جذاب. وهكذا يفتتح الكتاب بمناقشة مكثفة للمنهج (الفصل الأول)، وفيها تُعرض مشكلة الكتاب على أنها "الطريقة التى تبنى بها الكائنات البشرية أنفسها داخل العالم... خيوط ذلك التطور ونقاط علاقاتها المتداخلة فى ذكرياتنا" (p. 52). ويتبع ذلك فى الفصل الثانى ("إزاحة المشكلة" 'Displacements of the Problem') بأقسام تمثل سلسلة من المشروعات التى اضطلعت بها المجموعة فى أوجه التجسيد الأنثوى وعلاقتها بالتكيف الاجتماعى الأنثوى: مشروعات الشعر؛ ومشروعات الجسم؛ ومشروعات البنت الجارية المستعبدة؛ ومشروعات الأرجل؛ وملاحظات حول

الألعاب الرياضية للنساء. والمصدر الرئيسى فى هذه المشروعات هو ذكريات مكتوبة وتحليل لتلك الذكريات، رغم الاعتماد أيضا على الصور.

وتصف المجموعة أن عملها قائم على مقدمتين منطقيتين:

> الموضوع وموضوع البحث شيء واحد. برفض النقد القائل بأن الذكريات مصدر شديد الذاتية بحيث لا يصلح للعلم الاجتماعي، فهن يعاملنها كدليل على تشكيل الشخصية– وهو بؤرة بحثهن. ولكن هذا لا يعني ببساطة معاملة "الخبرة" أو القصص المحكية عن النفس باعتبار أنها لا تمثل إشكالية؛ على العكس، فهن يعترفن بأن مثل هذه القصص سوف تصقل أنواع التناقضات، والمسكوت عنه، والصدوع ذات الأهمية لمن يقوم بالتحليل. وقُدِّم استخلاص وتحليل ذكريات التجسيد كطريقة لرأب الصدع والوصول إلى تلك الأماكن.
>
> لا بد أن يكون البحث عملية جمعية. تحتج المؤلفات بأن تحليل المجموعة يجعل من الممكن جعل حدود النسيان مرئية. كما يجعل من الممكن بناء الموضوع الجمعي– "الأشياء المتعاصرة تاريخيا والمرتبطة بإعادة تركيب فسيفساء التجارب التي تدربنا بها على دخول المجتمع" (p. 58). وكلما كانت المجموعة أكثر تنوعا، كانت الرؤى أكثر ثراء.

وتقول المؤلفات بوضوح إنه "ليس ثمة منهج حقيقى منفرد" (p. 70). "وفى تجربتنا، هناك أنماط جديدة من التحليل تعلن عن وجودها باستمرار" (p. 70)، و"ما

نحن بحاجة إليه هو الخيال" (p. 71). ورغم ذلك، فهن يتأملن في منهجهن ويشتركن في الدروس التي تعلمنها. ولا تعرض هذه الدروس مقدما كوصفة، ولكن لا بد أن تكتشف من النص، والذى نلخصه كما يلى:

مبادئ عمل الذاكرة

- *أهمية أسئلة البحث* الجيدة أمر مركزى في تناولهن. لا ينبغي أن تكون الأسئلة مجرد إعادة إنتاج أفكار معيارية. ومن ثم، مثلا، فقد بدأن في مشروع الجنسانية بسؤال "كيف يتشكل الشعور بالجنسانية داخل الإنسان كمجال منفصل من الوجود؟" (p. 34) الأمر الذى ساعدهن، بدوره، على بناء المشروعات. ويضعن هذا في مقاربة مع تناول يأخذ الجنسانية حسب قيمتها السطحية ويتساءل ببساطة في الجوانب الرئيسية مثل "فقدان العذرية" أو "التعليم الجنسى"، ويتشككن إن كان يمكن لمثل هذا التناول أن ينتج أى شيء مفيد يتجاوز قصص التعرف المؤلمة والإحباط.
- ومن الأمور المركزية أيضا تطوير *تقنيات تقليل التحيز*. ورغم أن عمل الذاكرة في نظرهن يدل ضمنا على عدم وجود فصل بين الذات والموضوع، فإنهن أيضا يسعين إلى مقاربة وتطبيقات منظمة لضمان عدم "التحيز". ومقاربتهن هنا تشكلها رؤية نفسية تحليلية تتعامل مع قصص الذات باعتبارها قائمة على "استمراريات يتم إنتاجها عن طريق الاستذكار والاستعادة في العقل" (p. 48). وهذه التقنيات لتقليل التحيز في إبداع نصوص الذاكرة تشمل التركيز على حالة معينة (بدلا من الحياة في كليتها)، باستخدام ضمير الغائب (وبهذا نقترب من أنفسنا الماضية كغرباء)

ونحاول أن نتخلص من قيود الصلة بوصف كل شيء وأى شيء. كما يقترحن أيضا وضع الماضى والحاضر متجاورين بدلا من البحث عن صياغة قصص ذاتية، وبهذا يتم تجنب الأحكام التقييمية والتعمد فى محاولة تخيل الدوافع والأوضاع الخاصة بكل ما له علاقة.

- ويتميز تناولهن المنهجى أيضا بـ *تركيز على الشكل*. فمناقشتهن للمناهج تلقى كثيرا من الانتباه إلى اللغة والكتابة. ويشمل هذا ملاحظة الأنواع الأدبية المستخدمة، واستخدام الكليشيهات، والاستعارة والأمثال المشهورة، ومعاملة هذه الأشياء كدليل على تداخل الاجتماعى فى صلب الشخصى. وفى السعى لتجاوز تلك الأنواع المنتشرة من الخطاب، فإن عملهم يتميز أيضا ببحث عن صوت أصيل، قائم على رؤية أن أصوات النساء والأصوات الخاصة بكل يوم مسكوت عنها فى الأدب. إن كتابة الذكريات وإعادة كتابة الذكريات تمثل محاولة لصياغة الصوت المفقود.

وقد وجدنا من المهم أن نعود إلى هذا النص، بعد ٢٣ سنة من كتابته وربما عشر سنوات منذ نظرنا فيه جيدا. وفى ضوء الاستخدامات اللاحقة لـ "عمل الذاكرة"، أدهشنا مدى ما اتسم به المنهج من الانفتاح والبعد عن المألوف، واختصاصه بمجال متنوع من التطبيقات من قراءات جماعية نقدية حتى الوصول إلى تجارب الكتابة. وأدهشنا أيضا كم كان الكتاب نتاج زمنه ومكانه، يعكس التقاء ممارسات رفع الوعى وتوليد رؤية نظرية. فبعض اللغة عفا عليها الزمن، وارتج التفاؤل السياسى وكشف عن غيابه فى الأجواء المعاصرة. ومع ذلك فهو ليس بالسذاجة النظرية التى قد يخشاها المرء، ربما باستثناء واحد، البحث عن صوت أنثوى أصيل من خلال الكتابة.

فى السنوات الأخيرة ظهر منظور متزايد الانتقاد داخل النظرية النسوية يختص باستخدام التجربة و"رفع الوعى كطريقة لإبصار وتوصيل 'الحقيقة' عن النساء" (Brown, 1995: 41). تصف ودنى براون رفع الوعى على أنه يؤدى دور "اللحظة الوضعية المعرفية الخاصة بالنسوية". والمادة المستخرجة فى تلك الحالة مثل المادة التى يكشف عنها فى التحليل النفسى أو فى الاعتراف، وتُقيَّم باعتبارها الحقيقة المخبأة لوجود النساء- وهذا صحيح لأنها مخبأة، ومخبأة لأن إخضاع النساء يعمل جزئيا من خلال الإسكات، والتهميش، والخصوصية" (1995: 41). ويمثل موقف براون تحديا للمناهج مثل عمل الذاكرة التى "تطلب الحق فى استخدام التجربة كأساس للمعرفة" (Haug et al., 1999: 34). وتشير براون إلى "التوترات الحادة ولكن التى يتم تجاهلها كثيرا بين التمسك بنظرية البناء الاجتماعى من ناحية، وتفضيل إبستومولوجى لحكايات النساء عن الحياة الاجتماعية من الناحية الأخرى" (Brown, 1995: 41). وترى براون أن خطورة رفع الوعى (ووجهات النظر الاستشرافية) هى أن المعرفة المستمدة من تلك المقاربات "بينما يمكن الاعتراف بأنها "كائنة"، لا يمكن إخضاعها للتأويل دون التخلى عن قيمتها الحقيقية" (p. 423).

إلى أى مدى تقع هاوج وزميلاتها فى هذا الفخ؟ من المؤكد أن ممارسة عمل الذاكرة الجمعى يتأصل فى نوع من ممارسات رفع الوعى التى كانت جزءا مألوفا من الحركة النسوية فى ذلك الوقت. وتفرق هاوج بين "عمل الذاكرة" الخاص بهن من الاجتهادات الجماعية الأقل تعقيدا وجماعات رفع الوعى التى فشلت فى اتخاذ مقاربة نقدية لموضوع بحثهن (وهو هنا الجنسانية) أو لتنظير رؤى أتاحتها ممارسات الاسترجاع والتحليل الجمعى. وقد اختلفت الأجندات المنهجية والسياسية التى كُتب على أساسها هذا الكتاب (Female Sexualization) عن تلك الخاصة بيومنا هذا. كانت مجادلاتهن قائمة على المذهب الوضعى وليس على ما بعد

البنيوية. وكان عليهن التدليل على مشروعية استخدام ذاتيتهن الخاصة كمادة خام لإنتاج المعرفة، وأنها لم تكن– حسب تعبيراتهن نفسها– "متحيزة"، وهو ما قد يتجه إلى حد ما نحو شرح توظيفهن لبعض المجهود فى إقصاء التقنيات. ومن الناحية النظرية، كانت تلك الباحثات مهتمات للغاية بالتأويل، وبكلية الموضوعات والبنى وغير قابليتها للتجزؤ، واستحالة الوقوف خارج تلك العمليات. ولكن، من الناحية السياسية، عبرن عن توظيف لطاقاتهن فى مشروع نسوى غير إشكالى، بما يشمل أفكارا عن صياغة صوت أنثوى أصيل فى كتاباتهن.

تتخذ هاوج وزميلاتها سياسة طيبة بالنسبة لاتهامات براون للوضعية النسوية، والتى هى نفسها ذروة سلسلة طويلة من المناظرات المكثفة مع النسوية فيما يختص بمكانة التجربة، و"الصوت" وعلاقتهما بالسياسة والوساطة (الوكالة) **(Ramazanoglu and Holland, 1999; Scott, 1992)**. ومن المؤكد أن مقاربتهن قائمة على نقد للتجربة الأنثوية باعتبارها غائبة من المعرفة القائمة، وبينما عمل الذاكرة مقدم كطريقة لتوليد المعرفة من التجربة الأنثوية، من أجل غرض مباشر هو تغيير حيوات النساء. وبهذا المعنى، يمكن فهم عمل الذاكرة كدخول فعلى فى العالم، فعل للتحرر والانعتاق، وليس كمجرد أداة لجمع أو عمل البيانات. ويُعامل المصطلحان "نساء" و"نسوية" بطريقة لاإشكالية. ولكن، فى دفاعهن، لا يعتبرن قصص الذاكرة المنتجة فى العمل أمرا شفافا أو "صادقا" بأى حال. وهن ينتقدن، على وجه الخصوص، الجزء الذى يلعبه السرد عن الذات فى "فهم" المتناقضات، مع الإشارة إلى الاستجواب الجمعى للذكريات باعتباره مركزيا فى خلخلة استقرار تلك الروايات: "إننا نشرع فى التحقيق فى العملية التى من خلالها شكلنا أنفسنا كشخصيات متميزة، بدلا من الطريقة التى كانت بها الأشياء "حقا" – وعلى نحو موضوعى" **(p. 40)**. ولا شك أن مقاربتهن تستلهم الصلة بينهن وبين أفكار الضمير

الزائف والعمليات الخاصة باللاوعى وليس نقد القصص الخيالية للشخصية المنفردة. وهو موقف تردد كثيرا فى المناخ النظرى والسياسى لأوروبا الغربية أثناء سنوات العقد ١٩٨٠.

إلى أى مدى يمكننا أن نفهم مشروعهن الخاص بعمل الذاكرة كدرس فى التغير الاجتماعى؟ لعب الخطاب التاريخى، كما سوف نستكشف فى الفصل التالى، دورا حيويا فى تشكيل النسوية كمشروع ثقافى وسياسى. وفى بؤرة هذا كان استخدام كل من المنهج التاريخى والأنثروبولوجى للتدليل على الخصوصية فى تشكيل الأنثوية (**De Beauvoir, 1949/1997; Rubin, 1975**). وربما كان الإنجاز الأول للموجة النسوية الثانية إعلان الشخصية غير الشاملة ذات البنية الاجتماعية للنوع الأنثوى، والطريقة التى كان، وما زال، التعبير عن مثل تلك التشكيلات من خلال تشكيلات أخرى محددة تاريخيا وثقافيا للطبقة الاجتماعية والإثنية، والجنسانية، والمكان، وهلم جرا. كان مشروع الكشف عن البنية الاجتماعية ناجحا جدا داخل الحركة النسوية حتى أنه قلل من مطالبة النسويات بموضوع مشترك؛ سواء أكان "المرأة" أم "النسوية".

ويبرز عمل هاوج وزميلاتها فى نفس نقطة التحول هذه فى تاريخ الموجة الثانية من النسوية الغربية. ومشروعهن يتعلق بأسئلة عن التغير الاجتماعى بطرائق معقدة التركيب. وتأخذ المجموعة عملية "التأهيل الاجتماعى" كنقطة بؤرية فى عملهن، المرور من الطفولة إلى الأنثوية الناضجة. وهن لا يعاملن ذلك كعملية تطورية طبيعية أو شاملة، ولكن كعملية هن فيها يمتلكن الوكالة الشخصية، يعملن من خلال مؤشرات محددة تاريخيا. والعمل على نحو جمعى وفى مجموعة جيلية يمكنهن من التعرف على تلك المؤشرات المحددة تاريخيا. وحقيقة أنهن التقين لاستعراض هذه العملية من خلال عمل الذاكرة أيضا يحدد موقعهن داخل مشروع

للتغيير من أجل المستقبل. وهن يعملن على الفكرة، مدينات للتحليل النفسى، حتى أنه فى فهم كيف حدث أن أصبحن ما هن عليه اليوم، فهن أيضا يتدخلن فى مستقبلهن نفسه. هؤلاء النسوة يدرسن ويحثثن أنفسهن كجيل واع بذاته مرتبط فى عملية تحول تقدمى. والـ"نحن" التى يقدمها بحثهن تجمع بين كونها الـ"نحن" المحددة للجماعة، ومن خلال التنظير، هى أيضا "نحن" التى تشمل "النساء"، "إضفاء الصفة الجنسية" و"التأهيل الاجتماعى" على النحو الجمعى.

انتحال عمل الذاكرة فى تجربة أسترالية

فى ١٩٨٥-١٩٨٦، زارت فريجا هاوج جامعة ماكوارى Macquarie University فى أستراليا كأستاذة زائرة وقدمت سلسلة من المحاضرات. وكان من بين الحضور السيكولوجيات النسويات جين كراوفورد، وأونا جولت، وسو كيباكس. وكن يعملن معا (مع جينى أونيكس وبام بنتون) فى جماعة قراءة تستكشف الأفكار النقدية فى السيكولوجيا الاجتماعية. وعندما وجدن إلهاما وتحديا فى الأفكار والتطبيقات التى قدمتها هاوج، بدأت النسوة العمل كمجموعة لعمل الذاكرة، لاستكشاف فكرة "العاطفة"، والتى كان من محصلتها نشر كتاب **Emotion and Gender: Constructing Meaning from Memory (Crawford et al., 1992)** [العاطفة والنوع: بناء المعنى من الذاكرة]. وهذا الكتاب، بدوره، لعب دورا حاسما فى نشر وتبسيط طريقة معينة لعمل الذاكرة بين جمهور دولى.

وفى مقدمة هذا الكتاب، تمدنا المجموعة بشرح كيف تطور مشروعهن. والأصول مختلفة تماما عن ثقافة النشاط النسوى الماركسى فى برلين فى أوائل أعوام العقد ١٩٨٠. هنا القصة هى عن جماعة من الصديقات النسويات

الأكاديميات، كل منهن عانت من التهميش بين الاتجاه السائد داخل أقسام السيكولوجيا الأكاديمية، وأرادت أن تستكشف أفكارا جديدة بدأت تُثار داخل السيكولوجيا الاجتماعية النقدية. وهن يصفن أنفسهن بـ"أكاديميات، وسيكولوجيات، ونسوة" (p. 1) استطعن الحفاظ على انتظام في الالتزام بالعمل الجمعى فى "الفترات الفاصلة للعمل مدفوع الأجر طوال الوقت والعمل الذى لا ينتهى والمختص بالأقارب من الأطفال الصغار والكبار والمرضى أو كبار السن، وبالدراسة والسفر عبر البحار، وبالالتزامات السياسية" (p. 1). وفى شرح الدين الذى فى أعناقهن لهاوج، يرجعن إليها الفضل فى تطوير منهج "تجريبى ولكن لا يعتمد على المذهب التجريبى" (p. 4)، "كانت نظرية نسوية أكثر منها تحليلاً نقديًا للمجتمع القائم، نظرية نسوية تشمل منهجها الخاص للبحث التجريبى" (p. 4). وعند مناقشة حماسهن للعمل مع المذكرات المكتوبة، تشرح المجموعة أنه "أعجبنا التوجه النسوى السياسى. أعجبتنا طريقة العمل الجمعى. وأثار فضولنا انهيار الذات والموضوع، وأثار فضولنا النظرية والمنهج، فكرة أن تصبح ذواتنا نحن هى موضوعنا" (p. 4).

وفى وقت ومكان مختلفين، وضعت كراوفورد وزميلاتها عمل الذاكرة فى استخدام جديد لا مفر منه. الكتاب، والذى كُتب جمعيه فى نهاية أربع سنوات من العمل الجماعى، يمثل تطويعهن الإبداعى للمنهج العلمى. إنه صيغة أكثر تحديدا من مجال الممارسات التى وصفتها هاوج وزميلاتها (١٩٩٩)، يركز خاصة على التحليل الجمعى للذكريات المكتوبة. والمنهج أيضا مقدم بطريقة أكثر وضوحا وأكثر تخطيطية، كمجموعة من "القواعد".

قواعد عمل الذاكرة

ويقسم عمل الذاكرة لديهن إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

"اكتبى إحدى الذكريات"[٢]

١- عن حادثة عرضية معينة، أو فعل، أو حدث.

٢- بضمير الغائب.

٣- بأكبر قدر من التفاصيل بقدر الإمكان، بما يشمل حتى التفاصيل "غير المنطقية" أو التفاصيل التافهة (قد تساعد على التفكير فى تفصيلة مهمة: صورة، صوت، طعم، رائحة، لمسة).

٤- ولكن بدون وضع تفسيرات، أو شروح أو معلومات شخصية.

٥- اكتبى واحدة من ذكرياتك المبكرة، (p. 45).

كل هذه الوصايا ما عدا الأخيرة منها مستمدة مباشرة من هاوج (رغم أنها فى الأصل أكثر اتساعا، ومقدمة على نحو أكثر استطرادية). والوصية الأخيرة أضافتها كراوفورد وزميلاتها، اللائى فى استكشافهن العواطف من منظور سيكولوجى اعتبرن أنفسهن يتأملن عملية نمو تكون أكثر نشاطا فى الطفولة. وبهذا، أردن أن يحفرن بحثا عن الذكريات فى تلك الفترة.

من المثير للاهتمام أيضا أنه بينما تخلت الجماعة عن كثير مما يميز منهج هاوج الأصلى، فقد احتفظن، وتوسعن، فى الاهتمام بتجنب "التحيز". وفى مقدمتهن اعترفن بأنه فى استخدام مقاربة مثل عمل الذاكرة، "كنا ننكر القواعد الأساسية فيما تعلمناه"، ويسألن إن كان يمكنهن أيضا "الاستمرار فى الدقة الصارمة" **(p. 4)**. ويؤكدن تحذير هاوج وزميلاتها ضد الترابط المخادع الذى تجلبه السيرة الذاتية. "الترابط يخفى المقاومة، وبهذه الطريقة يعمل ضد المنهج" **(Haug et al., 1987: 41)**؛ وهو منهج، التحليل فيه "لا بد من رؤيته كميدان للصراع بين قيم الثقافة السائدة والمحاولات المعارضة لانتزاع المعنى الثقافى والمتعة من الحياة" **(Crawford et al., 1992: 47)**. وهكذا، لا بد من كتابة الذكريات بضمير الغائب وتجنب التفسير فى المراحل التمهيدية. وتم شرح اختيار المؤلفين لاستخدام أسماء مستعارة فى الكتاب كمحاولة للاحتفاظ بالشخصية مجهولة، ولكن "والأهم، أنه يساعد فى مقاومة الإغراء بكتابة سيرة ذاتية" **(p. 6)**.

قد تستغرق الذاكرة المكتوبة أسبوعا لتتشكل فى رحم الذاكرة. وما أن تكتب الذكريات، يمكن أن تجتمع المجموعة من أجل المرحلة الثانية. وتعرض كراوفورد وزميلاتها مجموعة من القواعد لهذه المرحلة من عمل الذاكرة، إلا أننا ينبغى أن نلاحظ "لم نتمسك بها كلها بصرامة" **(p. 48)**.

١- كل عضو فى مجموعة لعمل الذاكرة تعبر عن آرائها وأفكارها عن كل ذكرى بالدور، و

٢- تبحث عن المتشابهات والاختلافات بين الذكريات، وتبحث عن عناصر مستمرة بين الذكريات التى تكون علاقة كل منها بالأخرى ليست واضحة بشكل مباشر. كل عضو ينبغى

أن يستجوب تلك النواحى، خاصة من الأحداث التى لا تظهر عرضة للمقارنة. ولكن لا ينبغى اللجوء إلى السيرة الذاتية أو الترجمة الذاتية.

٣- كل عضو فى مجموعة عمل الذاكرة يتعرف على الكليشهات، والتعميمات، والتناقضات، والحتميات الثقافية، والاستعارة... و

٤- يناقش النظريات، والمفاهيم الشعبية، والأقوال والأمثال والصور عن الموضوع.

٥- وأخيرا على كل عضو أن يفحص ما لم يكتب فى المذكرات (ولكن، ما يمكن توقع أن يكون مكتوبا)، و

٦- يعيد كتابة الذكريات (p. 49).

ومرة أخرى يوضحن أنه "من المهم تجنب السيرة الذاتية والترجمة الذاتية التى تعزز النواحى الفردية للتجربة. ليس المهم لماذا فعل والد "فلان" كذا وكذا، ولكن لماذا يفعل الآباء مثل هذه الأشياء" (p. 49).

المرحلة الثالثة من العملية هى "التى نقوم فيها بتقييم محاولاتنا للتنظير" (p. 51)، وبالنسبة لكراوفورد وزميلاتها يتعلق هذا بدراسة مقارنة للروايات المتولدة عن مراحل مختلفة من عمل الذاكرة، وبمحادثة متكررة بين عمل الذاكرة الخاص بهن والمؤلفات السيكولوجية حول الانفعالات. كان الكتاب من محصلات هذه المرحلة الأخيرة. وهن يعلقن بأنه من الممكن أن تسير هذه المراحل على نحو متزامن فى مجموعة مستمرة فى عمل الذاكرة.

التأمل فى الشخصية المميزة لانتحال هذه الجماعة لعمل الذاكرة يكشف عن الأساليب التى تبرز بها مناهج البحث وهى تتحرك عبر الأزمنة والأمكنة. وأشد ما يلفت النظر هو الطريقة التى يأخذون بها الممارسات التى تتصف بالارتباط والتطبيق غير المحدود، وعلى درجة عالية من التسييس ويضعونها فى "تقنية" يمكن أن يستخدمها الآخرون. ولا شك أن هذا كان ينبغى أن يكون نتيجة محاولة استخراج، ومشاركة، وتبرير منهج من خلال إطاره التنظيمى- السيكولوجى الصارم بشكل خاص. وتذكر كراوفورد وزميلاتها أنه لم تكن لهن فقط مجموعة عمل الذاكرة الخاصة بهن، ولكن أيضا دفعن الآخرين للعمل بالتوازى، حيث يمكن أن يقوموا بدور تسهيل، و/أو أعضاء بحثيين. وكن ناجحات فى الحصول على منح بحثية كبيرة للاضطلاع ببحث تجريبى باستخدام مناهج عمل الذاكرة. تلجأ كراوفورد وزميلاتها إلى نسخ وترجمة عمل الذاكرة على نحو فعال من الجنس الأدبى الأصلى الخاص بالنسوية الماركسية إلى النسوية الأكاديمية المؤسسية التى يستطعن من خلالها الحفاظ على الشخصية التأويلية للمنهج.

ورغم أن صيغة عمل الذاكرة الخاصة بهن كانت تميل إلى تخطيطية شديدة، فقد رأى الفريق أن تلك الوسائل تساهم فى مشروع منهجى أوسع لترقية البنيوية الاجتماعية داخل إطار عمل سيكولوجى. وبينما هاوج وزميلاتها يوظفن لغة علماء الاجتماع فى اهتمامهن بالوكالة الشخصية، والبناء، والتوليد والتغيير، فإن كراوفورد وزميلاتها درسن المنهج فى ضوء اهتمام اجتماعى سيكولوجى بالذاتية الجماعية التى كانت رائجة فى أوائل سنوات العقد ١٩٩٠ (إشارة إلى العمل الكلاسيكى لميد وفيجوتسكى، والذى كانت إليه عودة فى عمل شوتر، الذى كان حينئذ معاصرا). وهن يعبرن عن انفعالهن بالإمكانية الكامنة فى المنهج للقبض على بُعدَىْ الذات "أنا" و"نى" (حالتى الفاعل والمفعول لضمير المتكلم)، ويقترحن

أنه فى المرحلة (١) من العملية تتحدث الذات مـــع نفـــسها، وفـــى المرحلـــة (٢) تستجيب الذات لنفسها كما يستجيب الآخرون لها. وثمة حرص على أن يكون النمط الجمعى للتحليل نقديا يعكس ويؤكد الحالة الجمعية للذات، والتى يمكن القبض عليها فى الذكريات، مع عمليات مناظرة لوحظـــت فـــى "اعتياديـــة المراحـــل والإدراك الفطرى الذى تم التوصل إليه" (p. 52). وكل من الـــ"أنـــا" الخاصـــة بالـــذكريات المكتوبة، والـــ"نى" لمناقشة المجموعة قد تتشكل اجتماعيا، مما يؤكـــد للمجموعـــة "الذاتية الجماعية التى تنشأ عن الذاتية" (p. 52).

لماذا نتذكر

وتهتم كراوفورد وزميلاتها على نحو خاص بانهيار التمييـــز بـــين الـــذات والموضوع، الأمر الذى يعرفنه باعتباره السمة المميزة لعمل الذاكرة. فهذا هو مـــا يضع عمل الذاكرة بالنسبة لهن داخل نظرية المعرفة التأويلية، وفـــى مقابلـــة مـــع تجريبية لانظرية. وهن محاذرات فى المطالبة بالقدرة التعميمية للرؤى المتولدة من خلال عمل الـــذاكرة، وحجـــتهن هـــى أن "الـــصدق الظـــاهرى" 'plausibility'، و"المصداقية"، و"الإدراك"، والتوليد النظرى قد تكون مطالب أكثر ملاءمة للمـــنهج. وفى فصل بعنوان "التذكر والنسيان"، تتهمك المجموعة فى مناقشة موســـعة عـــن صدق الذكريات، وكيف أنها تتوسط فى نقل العلاقة بين الحاضر والماضى. وعـــن مسألة الصدق، يوضحن أن هناك فرقا بين الذكريات الحقيقية والأحـــداث الحقيقيـــة وأن تركيز عمل الذاكرة هو "عملية البناء... البحث عن الوضوح، وليس الحـــدث الفعلى" (p. 151). وهن واضحات أيضا حـــول مـــسألة الحقيقـــة مقابـــل البنـــاء. فالذكريات إعادة بناء لأحداث ماضية، وفى عمل الذاكرة "نحن لا نـــسعى للكـــشف

عن طبيعة الحدث نفسه، ولكن إلى الكشف عن المعنى الذى كان يمثله الحدث بالنسبة لنا حينئذ، والآن" (p. 152). وهن يصادقن على مقاربة تتفهم النفس باعتبارها مكونة من ذكريات. نحن لا نتذكر كل شيء، وما نتذكره يتميز بانتقائية عالية. واعتمادا على كمية واسعة من المؤلفات السيكولوجية، تشمل كتابات فرويد عن الكبت، ترى كراوفورد وزميلاتها أننا نميل إلى "تذكر فصول من أشياء لم تكتمل" (p. 154). فالأشياء الدنيوية لا نتذكرها بشكل عام، ولا ما يتم حله. مثل تلك الذكريات يمكن استعادتها، ولكن يمكن فقط الدخول إليها على نحو غير مباشر. ووفقا لفرويد أيضا يلاحظن أن المادة المكبوتة، أو بتعبير أكثر وعيا، المادة المقموعة، يمكن أن تكون منسية و/ أو غير متاحة. وهن يلخصن رأيهن كما يلى:

الطرائق التى ننتج بها الذكريات فى عمل الذاكرة الخاص بنا، أحجار البناء فى نظريتنا عن الذات، تمثل انتقاء متحيزا من بين كل التجارب التى حدثت لنا أبدا. والتحيز له مغزاه.... ومع ذلك، فى تنظير ذكرياتنا، نهتم بالإمكانية التى تقول إنه كانت هناك تجارب لا نتذكرها، ولهذا لا ننتج فى عمل الذاكرة ما كان مهما فى بنائنا، ولكن لم نتأمله، كما حدث مع تلك الأشياء التى أنتجناها" (p. 159).

وفى مناقشة مثال لذكرى مكبوتة، يقترحن أن أحد الأسباب التى تجعل إحدى الذكريات غير متاحة لمثير معين هو أن هذا الإطار من العمل الثقافى- والذى من خلاله تصبح التجربة جلية واضحة- لم يكن متاحا بالنسبة للفرد فى ذلك الوقت.

وعمل كراوفورد وزميلاتها هو جزء من تقليد جارٍ داخل السيكولوجيا الاجتماعية التى فيها يتم مساءلة التجربة والمذهب الذاتى على خلفيات نظرية

متغيرة (Gillies et al., 2004, 2005; Stephenson and Papadopoulos, 2006; Stephenson et al., 1996). وقد أظهرت هذه المناقشة إلى أى مدى اختلف مشروع كراوفورد وزميلاتها عن مشروع هاوج وزميلاتها (حيث هو أقل التفاتا إلى الفكر الاجتماعى/ الماركسى؛ وأكثر التزاما بالحدود؛ وأكثر تركيزا على التقنية؛ وأكثر ارتباطا بأسئلة الذاتية والسيكولوجيا). ولكنه أيضا مشابه من بعض النواحى (تركيز مشترك على التكيف الاجتماعى، البنية/ الوكالة؛ التوليد النظرى؛ بنيوى جزئيا/ تأويلى جزئيا؛ مهتم بتقنيات التنائى؛ وتجنب السيرة الذاتية). ورغم أن كراوفورد وزميلاتها استخدمن طفولتين لاستكشاف المعنى، فإن محصلة مشروعهن لا تحمل الكثير من الضوء لأسئلة التغير الاجتماعى، إلا فيما يتعلق بالمساهمة أكثر فى فهم للانفعالات باعتبارها "مبنية"؛ وبالتالى فلا هى منتجة بشكل شامل، ولا هى متعمدة. هذه الموضوعات تصل إلى الحل عندما نقارن هذا الانتحال الأسترالى لعمل الذاكرة بأحد تقاليد البحث الثقافى فى المملكة المتحدة، والذى تأثر بهاوج وزميلاتها وبغير ذلك من التناولات.

أسرار عائلية

نشرت الترجمة الإنجليزية الأصلية لـ(1987) Female Sexualization فى دار نشر فارسو فى السلسلة التى تصدر تحت عنوان "قضايا نسوية" 'Questions for Feminism'، والتى تحررها مجموعة تضم أنيت كيون. وتقدمت كيون لتنشر معلما آخر من أمثلة عمل الذاكرة فى ١٩٩٥، وهو كتاب Family Secrets: Acts of Memory and Imagination *[أسرار عائلية: أفعال الذاكرة والخيال]*. وهناك علاقة واضحة بين مقاربة كيون وتلك التى وظفتها هاوج وزميلاتها، رغم أن كيون

نفسها لا تفعل أكثر من ذكر **Female Sexualization** كنموذج لمزيد من القـراءة. وتأخذ كيون المنهج إلى اتجاه مختلف تماما عن ذلـك الـذى اتبعتـه كراوفـورد وزميلاتها، إلى تقليد تشكله الفنون أكثر مما تشكله العلـوم الاجتماعيـة والعلاقـة بالتاريخ الشفاهى، والدراسات الثقافية والتحليل النفسى. هذا القـسم يبـدأ بوصـف للمكونات الرئيسية لتناول كيون قبل دراسة سوابقها وبعض التطورات التى جـاءت فى أثرها.

أفعال الذاكرة والتخيل

> **تمد الذاكرة بمادة للتفسير، لكى يتم استجوابها، واعتبار ما بها من معنى وإمكانات. وهى ترتبط بتقديم عرض فعّال للذاكرة؛ فهى تأخذ موقفا متسائلا نحو الماضى وإعادة بنائه من خلال الذاكرة. (Kuhn, 1995: 157).**

فى تباين صارخ مع طريقة فريجا هاوج، وجين كراوفـورد وزميلاتهمـا، يرحب مشروع أنيت كيون لعمل الذاكرة بالسيرة الذاتية، والتى تفهـم كـأداة مـن خلالها من الممكن العثور على آثار من الجمعية والتاريخية وليس كعائق لمثل هذا الفهم. ويعتمد مشروع كيون الخاص على مساحة من المواد الخام البـصرية فـى الأساس. تشمل ألبوم صور عائلتها وآثار استخدامها عبر الـسنوات، بمـا يـشمل الكتابات خلف الصور، وقص وإعادة ترتيب الصور. وهى أيـضا تعتمـد علـى الأفلام، والموسيقى، والرسوم، وكذلك على مجال من المثيرات الحسية والوسـائط الاتصالية (الميديا) التى تمثلت من خلالها، واستهلكت، صيغ من الماضـى. وهـى تصف مقاربتها بأنها تسير على "خط بين النقد الثقافى والإنتـاج الثقـافى" (p. 4)،

يدفعها اهتمام بالطريقة التى تشكل الذاكرة بها القصص التى نرويها، وما الذى يجعلنا نتذكر.

وبالنسبة لكيون، يمكن لعمل الذاكرة أن يكون نشاطا فرديا. والحق أنها تسترسل فى سهولة الوصول إلى المنهج، وتصف عمل الذاكرة بأنه يتطلب "الحد الأدنى من المصادر وأبسط الإجراءات. فالاستفادة بما فى متناول اليد- مواده الخام تقريبا متاحة بشكل شامل- هى العلامة الأساسية لما يتسم به عمل الذاكرة من ميزة عملية وديمقراطية" (p. 7). وبالإضافة إلى ذلك، إن عمل الذاكرة "من السهل إنجازه، ويقدم الصرامة المنهجية، وهو مثمر بطرائق لا تحصى، وعادة على نحو غير متوقع" (p. 6).

وصفة لعمل الذاكرة

تمدنا كيون "بوصفتها" الخاصة لعمل الذاكرة، والتى يمكن مقارنتها على نحو مفيد بالأخريات. وهى تفترض أن المشروع سوف يبدأ بصورة فوتوغرافية:

- تأمل الشخصيات الإنسانية فى الصورة. ابدأ بوصف بسيط، ثم انتقل إلى حكاية تأخذ فيها موقف الشخصية. وفى هذا الجزء من التمرين، من المفيد أن تستخدم ضمير الغائب (مثلا، "هى" بدلا من "أنا"). ولإخراج المشاعر المرتبطة بالصورة، لا بد أن تتصور نفسك الشخصية كما كانت فى تلك اللحظة، فى الصورة: يمكن لهذا أن يتم بدوره مع كل شخصيات الصورة، وحتى مع الحيوانات والأشياء غير الحية فى الصورة.

- تأمل السياق الذى التقطت فيه الصورة. أين، متى، كيف، من التقطتها ولماذا؟
- تأمل السياق الذى يمكن فيه إنتاج صورة من هذا النوع. ما هى التكنولوجيات الفوتوغرافية التى استخدمت؟ ما هى جماليات الصورة؟ هل تتفق مع أعراف فوتوغرافية معينة؟
- تأمل تيار الصورة فى سياقه أو سياقات الاستقبال. لمن أو لأى شىء صنعت الصورة؟ من يحتفظ بها الآن، وأين يحتفظ بها؟ من رآها حينئذ، ومن يراها الآن؟ (p. 8).

ورغم أن كيون تقترح استخدام ضمير الغائب فى استكشاف الصورة، فإنها لا تفعل ذلك من منطلق أنها "تقنية التنائى". بل إنها تشجع من يعمل بالذاكرة على تعريف مختلط مع كل شخص وكل شىء فى الصورة، كتدريب على التخيل. وربما سبب ذلك أن طريقتها فى العمل الاجتماعى والجمعى ليست من خلال عملية التكيف الاجتماعى أو التطور (كما هو الحال مع هاوج وزميلاتها، وكراوفورد وزميلاتها، بالترتيب) ولكن من خلال فحص شكل الإنتاج الثقافى. وهكذا نجد تشجيعا لرؤية دليل محتوى داخل شكل الصورة، ونوعها الفنى، وتكنولوجيات إنتاجها. وهنا نُدعى للبقاء مع هذه الصورة خلال مرور الوقت ولأن نتفحص الجزء الذى تلعبه فى بناء ذاكرة وهوية معاصرتين. وبدلا من السعى للهرب من "تماسك" السيرة الذاتية، تسعى كيون لاستكشاف الممارسات القائمة التى بُنيت هذه القصص من خلالها.

وفى سياق الكتاب، تتبنى كيون عددا من المقاربات المختلفة، والتى تتراكم لتمد بذكرى ذات شرائح، وفى هذه الشرائح يمكن تتبع الذكريات من الأصل إلى

التطبيق. وتشمل الأمثلة تأملات فى صورة لنفسها منذ الطفولة. الصورة التقطها فى الأصل والدها، والذى كان مصورا شبه محترف، وبالنسبة لكيون هى سجل لعلاقتهما الرائعة والحصرية. هذه الصورة يتم تتبعها من خلال مكانها فى ألبوم صور العائلة الذى صنعته هى بنفسها البالغة ثمانى سنوات، وفى هذا الألبوم استؤصلت كل صور أمها. وفيما بعد، قامت أمها بتعديل الألبوم والصور التى، من خلال إعادة ترتيب، وقص، وكتابة، تفرض حكايتها الخاصة لقصة العائلة. واستمرت الصور تلعب دورا فى علاقات الاتصال بينها وبين أمها المستبعدة، واستخدمتها كيون كطريقة لمحاولة فهم تفضيل أمها لصيغة معينة لابنتها- أنيقة الملبس، نظيفة ونحيفة. والصورة البسيطة لنفسها الطفلة، تحمل طائرا فى يدها، وعلى ظهر الصورة ملاحظات متقاطعة، هى موضع الصراع على الذكرى، والتى لا يمكن الوصول فيها إلى الكلمة النهائية. فكيون ترى أنه "فى عملية استخدام الصور، وإنتاجها، واختيارها، وترتيبها، وعرضها- فإن العائلة فى الواقع تكون داخل عملية صنع نفسها" (p. 19).

مقاربة تعتمد على السيرة الذاتية

ومقاربة كيون تدين لأفكار وتطبيقات التحليل النفسى، وهى تأخذ من هذا الحقل معجما ثريا لتأمل عمليات الذاكرة: التنامى (كيف تقوم الذكريات بمراكمة المعنى بمرور الوقت)، والتكثيف (كيف تتكثف المعانى وتصبح "أبسط" بمرور الوقت)، ومراجعة ثانوية (الطريقة التى نخلق بها سرديات استعادية لتتناسب مع حاجات الحاضر)، والكبت (مادة "منسية" أو دفعت إلى اللاوعى)، والانقباض (السوداوية، عدم القدرة على صرف الذهن عما فقد- شكل من التذكر المفرط).

والتحقيق الذى تجريه حول ألبوم صور عائلتها من المحتم أيضا أن يكون بحثا عن الكوكبة النفسية المتفردة، والتى هى عائلتها نفسها. لكن فى قبول المادة المأخوذة من السيرة الذاتية، فهى تمكننا أيضا من الدخول بسهولة إلى تفاصيل معينة من الماضى وإلى الطرق التى تقع بها السير الذاتية فى شراك التاريخ. فترجمتها الذاتية تأخذ مكانها بثبات فى الزمان والمكان- لندن فى فترة ما بعد الحرب- وتتشكل على عملية مؤلمة من الحراك الاجتماعى. هى حكاية تقبض على تفاعل التغير الشخصى والاجتماعى. واهتمام كيون فى التمثيل وإيحاءات الذاكرة تمتد إلى ما وراء ترجمتها الذاتية الخاصة، إلا أنها دائما تبدأ بتجربتها. وبدء كيون بنفسها يمكنها من رؤية ما وراء نفسها، سواء كان هذا قراءة من صورة نفسها فى "رداء التتويج" الخاص بها حتى خلق نوع من القومية الشعبية، أو ألفة العالم الذى يسبق ميلادها، وقد استحضرت من خلال مثير هو صورة لكاتدرائية سان بول تحترق. توظف كيون الذاكرة والعلاقات التى أثيرت من خلالها (بما يشمل ما يصفه بارت بـ"عمليات النفاذ" التى تظهر لتتجاوز الزمن التاريخى أو زمن السيرة الذاتية) كطريقة للإبحار خلال التدفق المتواصل والمتكرر الذى نعرفه بالثقافة السائدة. والمفارقة، هى أنها رغم كونها أكثر استخداما للسيرة الذاتية من كل من هاوج وزميلاتها، أو كراوفورد وزميلاتها، فإن مقاربتها أيضا تفصح مباشرة عن الاهتمام بالعمليات الاجتماعية والتاريخية مثل الطبقة الاجتماعية، الحراك التعليمى، القومية، وعمليات الحنين إلى الماضى.

وفى الصفحات الافتتاحية من الكتاب تشرح كيون للقارئ:

من المؤكد أن أسرار العائلة ملك لى- يمكن أن نقول هذا؛ ومثل كل تلك الأشياء، لها جذور فى الماضى وترجيعات

> فى الحاضر. ولا يمكن التوصل إلى فهم أى منها حتى تستعاد الذكريات المختبئة وراء الأسرار إلى الحياة وتفحص بعناية. وهذا يدعو إلى قدر معين من التنقيب فى الماضى، والاستعداد لمقابلة غير المتوقع. والمطلوب هو عمل نشيط ومباشر للذاكرة. .(p. 3)

وفى البدء بـ"الأسرار" بدلا من مجرد الذكريات، تتطلب مقاربة كيون أن تكون ترجمة الذات هى الطريق الذى نسير فيه إلى عمل الذاكرة. وهى مقاربة تضع أولوية للحاضر، ولفكرة "عمل لم يكتمل". تتحدث كيون عن الذاكرة باعتبارها "موقفا أو وجهة نظر فى اللحظة الجارية" (p. 128) وعمل الذاكرة باعتباره "العمل رجوعا إلى الخلف- بحثا عن مفاتيح، كشف مغاليق العلامات والآثار، عمل حذوف، لصق شظايا من الأدلة معا لإعادة بنائها" (p. 4). وأيضا، ترجمة الذات وسيط نستطيع إدراك الآخرين من خلاله، أن نتخيل دوافعهم ووجهات نظرهم، ونحرر هذه المادة لتدخل إلى عالمنا الداخلى.

وتنهى كيون كتابها **Family Secrets** بست فرضيات عن الذاكرة، رؤى متبصرة حازتها من خلال انهماكها فى عمل الذاكرة، ملخصة كما يلى:

١- *الذاكرة تشكل عالمنا الداخلى* (هناك علاقة بين الذاكرة، والنفس واللاوعى).

٢- *الذاكرة منتج نشط للمعانى* (الماضى ليس موجودا هناك لكى نسترجعه ببساطة. الذاكرة دائما مراحل، تشكلها "مراجعة ثانوية"؛ تفسير استطرادى دائما).

٣- *نصوص الذاكرة لها قناعاتها الشكلية الخاصة* (غير خطية/ تتابعية/ متزامنة/ متناقضة/ متباينة).

٤- *نصوص الذاكرة تفصح عن خيال جمعي* (رغم أن طريقنا إلى الذاكرة قد يكون فرديا، فإن الذاكرة نفسها، كما تبرهن أيضا هاوج وزميلاتها، وكراوفورد وزميلاتها، تتداخل مع الاجتماعي/ الجمعي).

٥- *الذاكرة تجسد الاتحاد والتشرذم على السواء* (هنا تشير كيون إلى كل من الطريقة التي تقدم بها الذاكرة نوعا من التماسك، لكن أيضا كيف أن كثرة نصوص الذاكرة التي تيسرها تكنولوجيا الاتصال تقلل من هذا الوعد بالتماسك، حيث تتزايد صعوبة صياغة سرد عن الذات).

٦- *الذاكرة مؤثرة في تكوين مجتمعات ذات صفة قومية* (من الصعب أن نعرف إن كانت كيون تريد أن تقترح أن هناك علاقة متميزة بين الذاكرة والشعور القومي، أو أنها كانت قادرة على استخدام عمل الذاكرة لاستكشاف القومية، بنفس الطريقة التي استخدمتها هاوج وزميلاتها لاستكشاف الشخصية الجنسية **sexualization** وكراوفورد وزميلاتها لاستكشاف العاطفة).

تحدد كيون موقع تمرينها في عمل الذاكرة داخل تقليد لـ"مراجعة السيرة الذاتية"، والذي تضمنه نصوصا مفتاحية مثل مجموعة ليز هيرون من القصص النسوية عن الطفولة **Truth, Dare or Promise (1993)** [*الحقيقة، الجرأة أو الوعد*]، وكتاب المؤرخ الشفاهي رونالد فريزر: **In Search of a Past (1984)** [*بحثا عن ماض*]، وكتاب المؤرخة النسوية كارولين ستيدمان: **Landscape for a Good Woman (1986)** [*مشهد لامرأة مثالية*]، وعمل المصورة جو سبنس:

Putting Myself in the Picture (1986) [*ضع نفسك فى صورة*]. كل هذه نماذج لاستخدام الذاكرة كمصدر لتقييم التاريخى والثقافى، ولكن أيضا استخدام الشخصى كتفسير لخطاب أكاديمى أكثر تقليدية. تتحدث كيون عن كُتاب سيرة الآخرين الذاتية من النسويات والاشتراكيين، المنهمكين فى تفكيك نقدى للذات المترجمة، والذين بالنسبة لهم هناك فجوة بين الـ"أنا" التى تكتب، والـ"نى" التى يُكتب عنها فى هذا الجيل. ويقدم عمل الذاكرة باعتباره "أداة لإيقاظ الوعى: إيقاظ الضمير النقدى من خلال أنشطته الخاصة من التلقى والتعلم، بين هؤلاء الذين يفتقدون القدرة" (p. 9).

عمل الذاكرة: خصائص العائلة

عندما ننظر إلى هذه النماذج من "عمل الذاكرة"، يتضح لنا أنه رغم إدراك أنها تنتظم داخل "عائلة"، إلا أنها تختلف كثيرا، وهى مؤثرة فى معظم التقديرات. هذه الاختلافات تتشكل جزئيا بالوقت، والمكان، وسياق الفرع المعرفى الذى تحدث فيه تمرينات عمل الذاكرة. ومن هذا المنظور، من الصعب أن نرى عمل الذاكرة كمنهج واحد- كما ترى هاوج وزميلاتها، ليس ثمة "منهج حقيقى". إلا أنه فى خلق وتحسين الخطوط التى يمكن السير على هداها، اجتذب مختلف الباحثين الانتباه على نحو مثمر إلى إمكانات مختلفة كامنة داخل منهج بحثى بشكل عام. وفى وضع تلك المقاربات متجاورة، نسعى إلى مزيد من إثراء فهم لما يمكن فعله مع، ومن خلال، عمل الذاكرة.

والأمر المشترك بين كل المقاربات هو الترحيب بنظرية معرفية تأويلية تعترف بأنه عند التعامل مع الذاكرة، فإن الماضى يفهم من خلال الذات. وفى هذا الموقف التأويلى (الذى يتحد فيه الذات والموضوع) ثمة فهم متأصل للزمن كتجربة

ذاتية. ويشير هذا إلى الزمنية والتى وصفها برجسون بالديمومة **durée**، حيث الماضى ليس مجرد شيء "باق هناك" لكى نستعيده، ولكن هو شيء لا بد دائما من إثارته ذاتيا ومن خلال الحاضر. وفى كل نموذج من نماذج عمل الذاكرة التى ناقشناها فى هذا الفصل، نستطيع التعرف على أن اختيار الذاكرة (أفعال التذكر/ النسيان) وتمثيلات الذكريات (فى الألبومات، وسرد الروايات، والأجناس، منقولة عن طريق الحنين الشعبى/ الهلع الأخلاقى) هى كلها ممارسات للحاضر. وبهذا، فإن كلا الأمرين يشكله السياق والمجتمعات التى يحدث التذكر لها وداخلها (**Halbwachs, 1950/1992**). ومن الانتقادات الموجهة لجذور رفع الوعى الخاص بعمل الذاكرة أن مثل هذه المقاربات للكشف عن "التجربة" تعطيها أفضلية فوق الأنواع الأخرى من المعرفة: اعتراف بأنها "كائنة... دون التخلى عن قيمتها الحقيقية" (**Brown, 2001: 42—3**). وكما أبرزنا بالفعل فى هذا الفصل، يعتبر ذلك تحديا جادا لعمل الذاكرة، ولكنه تحد يمكن الاستجابة له بثقة إن لم يكن بحسم. من المؤكد أن كل مقاربات عمل الذاكرة المذكورة هنا تمضى شوطا بعيدا فى "تحديد موقع" المادة المتولدة. ويميل عاملو الذاكرة المختلفون إلى فعل ذلك من خلال خلق إشكالية العلاقة بين نص الذاكرة وما يتصل به من سرد، ولكن بطرائق مختلفة. وفى تقاليد العلوم الاجتماعية، توظف كل من هاوج وزميلاتها، وكراوفورد وزميلاتها تقنيات تنائى لتمزيق تشكيل سرديات الترجمة الذاتية. وداخل تقاليد الدراسات الثقافية، تحتفل كيون بنصوص الترجمة الذاتية ثم لتعاملها كمنتج ثقافى، له وضعه التاريخى فى الزمن وموقعه فى المكان. ومسألة قيام باحثات عمل الذاكرة "بالتخلى عن القيمة الحقيقية" للذكريات التى يعملن بها، فهذا أمر آخر. فالجميع يستجيب لقضية الصدق داخل مصطلحات فرعهم المعرفى، مع فهم الذكريات كبنى و"مادة خام" لأعمال التحليل الاجتماعى والسيكولوجى والثقافى.

لكن السؤال عن صدق أو دقة الذكريات أو ما يسميه هاكينج (١٩٩٥): "سياسات التذكر" قد أصبح موضوعا متقلبا ومسيسا، له تاريخ خاص به. ولا بد من فهم عمل الذاكرة كمنهج لاستخلاص الذكريات على أنه يوجد جنبا إلى جنب ثقافة أوسع من التذكر والشهادة أصبح ممكنا من خلالها، وعلى سبيل المثال، "استخراج" وسرد القصص عن التعرض للإيذاء الجنسي والبقاء (Plummer, 1995; Reavey and Warner, 2003). وفي ٢٠٠١، تأملت فريجا هاوج الرعب الذي عاشته أثناء زيارة لكندا في أوائل سنوات العقد ١٩٩٠، ورأت أنه عدم قدرة تلاميذها على التمييز بين دعوة للمشاركة في عمل الذاكرة ودعوة لكشف تجارب التعرض للإيذاء الجنسي في مرحلة الطفولة. وتستوعب هاوج هذا كعلامة على نمو الفردية الخاصة بالحركة النسوية التي تركز على الاعترافات الشخصية وجرائم الأفراد بدلا من التركيز على العمليات الاقتصادية الكوكبية. وفي استجابة لاحقة لمقالها، تفسر جين كيلبي رأي هاوج بأنه "محاولة لإعادة ترسيخ الماركسية التي تدعم كتابتها المبكرة والمؤثرة على عمل الذاكرة. ... أما بالنسبة لهاوج، فترى أن عمل الذاكرة منهج ينبغي أن يأخذنا إلى ما وراء التاريخ المنزلي" (Kilby, 2002: 201). ومع أن كيلبي متعاطفة مع هاوج، إلا أنها تبرز مدى ارتفاع المخاطرة في المجادلات حول الذاكرة وصعوبة موازنة الفهم التأويلي للماضي الذي يشكله الحاضر (وهو اعتراف بأن ذكرياتنا تشكلها هويات الحاضر، وسياقه الثقافي، ومجتمعاته التي نتذكر معها ومن أجلها) والموقف المحدد من الحاضر حيث يقرره الماضي (مثلا، فهم الهويات الحالية باعتبارها نتائج لأحداث تذكرناها).

ورغم أنه من الممكن قبول نوع من التفاعل بين ديناميات التأويل والحتمية في النظرية الاجتماعية ونظرية التحليل النفسي، فإن مثل هذه الشكية وعدم التحديد أكثر إثارة للاهتمام في الحقول السياسية والقانونية والبرهانية. وهذا نوع من التوتر

يشكل جزءا من مجال المناقشات المعاصرة، بما يشمل "حروب التاريخ"، التى سوف نتأملها فى الفصل الثالث. ويمكن أن نضيف إلى هذا الجدل المستمر داخل النسوية وغيرها من الحركات السياسية التقدمية فيما يختص بمشكلات الامتعاض الشديد اعتماد الهويات النسوية/ الاشتراكية/ المهمشة على جراح الماضى (Brown, 2001) ورغبة للانفتاح على المستقبل البديل المتخيل من موقع حاضر منفتح، حاضر لا تعوقه أية روايات معينة (Grosz, 2004, 2005).

استنتاج

فى هذا الفصل تتبعنا تطور عمل الذاكرة باعتبار تميزه بأنه تطبيق تجريبى، وكذلك أنه من حقول التطور الفكرى. والنماذج الثلاث من عمل الذاكرة التى ناقشناها تقع داخل أطر معينة، زمنية، ومكانية، وعلمية، وإلى حد ما يمكن فهمها كمنتج واستجابة لتلك الظروف. وهى تشكل معا "عائلة" منهجية ذات مقاربة تأويلية مشتركة تُفهم فيها الذكريات الماضية باعتبارها بنى شخصية داخل الحاضر، إلا أنها تشمل داخلها آثارا من الأحوال التى أنتجت فيها.

عمل الذاكرة له جذوره فى أشكال رفع الوعى الجمعى و"رفع مستوى الوعى" الفردى، وكلاهما يسعى لإخراج القصص والتجارب التى كانت مخبوءة من قبل إلى العلن، ولكن أيضا، تلك القصص التى تجعل من الذات التى تتذكر إشكالية. كل المقاربات تشعر بالرضا عن فكرة وجود لاوعى، بالمعنى الكامن والظاهر فى ذات الوقت، وتعترف بعلاقة بين الذكريات والروايات المتجزئة/ المتناقضة التى تصوغ شكلا مزيفا من التماسك. كيف نتوجه إلى ذكرياتنا؟ أمر يمر بمنطقة تفسير أخلاقى وسياسى. وليس ثمة سبب يجعل عمل الذاكرة يؤدى حتميا إلى "صلات

بالماضى كئيبة ومثيرة للانقباض"، لكن على العكس، قد تساعد على الوعى بظهور الماضى إلى السطح وانتشاره فى الحاضر (Brown, 2001). وفى أحسن الأحوال، يصر عمل الذاكرة على أن نتساءل: ماذا، ولماذا، نتذكر وننسى؟. ورغم أنه يبدأ بالشخصى على نحو ثابت، فمعظم المقاربات إلى عمل الذاكرة تسعى فى النهاية إلى التعليق على عمليات اجتماعية وثقافية وتاريخية على نطاق أوسع. ومحصلة عمل الذاكرة ليست وحدها التى تجعله تطبيقا واسع الانتشار بين فروع المعرفة الأكاديمية والحقول الاجتماعية. إن عملية القراءة، والتفكير، والتذكر، والتحليل، والتنظير، والكتابة، على حدة أو مجتمعة يمكن أن تجعل عمل الذاكرة مثمرا كتطبيق بحثى موازٍ لغيره من المشروعات، يولد أفكارا متماسكة ويتغذى على تحليل بيانات أكثر. وكما يشير جروز Grosz (٢٠٠٥)، الإدراك يثرى بالذاكرة، وربما تنشأ هذه الإمكانية التوليدية مما تسميه وندى براون "التذكر ملء العقل". وتجاربنا الخاصة تؤيد تعليقات كراوفورد وزميلاتها اللائى يؤكدن: "ما لم يكن متوقعا، ما غلبنا وأثار انفعالنا، هو قوة عمل الذاكرة فى تمكيننا من تأصيل النظرية المنبثقة من بياناتنا وتحليلها. لقد وجدنا أن عمل الذاكرة يؤدى فعله أفضل حتى مما توقعنا" (1992: 43).

نقاط تلخيصية

- الذكريات ليست مجرد تسجيلات للماضى، ولكنها فى استثارتها تمثل الماضى داخل الحاضر.
- الذكريات مبنية حيث يتداخل الشخصى، والاجتماعى، والتاريخى.

- الذكريات معرضة لأن تكون مؤلفة من شظايا، أو متناقضة، وتشمل معانى كامنة وكذلك معانى ظاهرة.
- الذكريات يمكن تمييزها/ إبعادها من السرد الذى يعطيها تماسكا. ومن الممكن أيضا استكشاف الذكريات من خلال القصص التى تكون مناسبة لسردها/ عرضها.
- نصوص الذاكرة يمكن تحليلها على نحو منتج كنصوص ثقافية: بوضع أسئلة عن الجمهور، والجنس الأدبى، والتأليف، إلخ.
- السياق الذى تنتج الذكريات فيه ومن خلاله دائما مناسب. نحن نتذكر من أجل الآخرين ومعهم، وهذا سوف يشكل ما يتم تذكره، وكيف.
- عملية الارتباط بعمل الذاكرة يمكن أن ترفع من الإدراك وتساهم فى التوليد الإبداعى والنظرى.
- لا تتوقف قيمة عمل الذاكرة على أنه يمد بمدخل إلى ما هو شخصى أو إلى ترجمة ذاتية، ولكنه وعاء لفهم كيف تتشكل المكونات الاجتماعية والثقافية والتاريخية.

مصادر للاستزادة:

Fraser, R. (1984) In Search of a Past: The Manor House, Amnersfield, 1933-1945. London: Verso.

مجموعة رائعة ومؤثرة من الذكريات، والتاريخ الشفاهى، والتحليل الذاتى. نموذج لكيف يمكن أن نلمس عمليا تعقيد الذاكرة من خلال تقنيات الكتابة الاصطلاحية.

Marker, C. (1998) Immemory. Berkeley, CA: Exact Change.

سى دى روم من صنع صانع الأفلام والفنان كريس ماركر Chris Marker، الذى يستخدم تقنيات الميديا الفائقة لرسم خريطة لأنواع العلاقات غير الخطية التى تصل الذكريات الممثلة بتذكارات عمر كامل: كتب الطفولة، وصور العائلة، وصور البطاقات البريدية.

Radstone, S. (ed.) (2000) Memory and Methodology. Oxford: Berg.

مجموعة محررة تجمع كُتابا مشهورين فى الذاكرة، ومنهم أنيت كيون، وفريجا هاوج، وريتشارد جونسون. تستكشف سياسات الذاكرة، ووقع التكنولوجيات وفنون عمل الذاكرة فى فرع معرفى مختلف.

Reavey, 1'. and Brown, S.D. (2006) 'Transforming agency and action in the past, into the present time: adult memories and child sexual abuse', Theory and Psychology, 16: 170-202.

استكشاف لكيف يمكن أن توظف نظريات التذكر لخلق أساليب جديدة للتفكير فى أزمات ذكريات الطفولة. تعزز الطريقة التى تبنى بها الذكريات مكانيا.

Smart, O (2007) Personal Life: New Directions in Sociological Thinking. Cambridge: Polity Press. (Chapter 5,'Secrets and Lies'.)

استكشاف للأسرار وفجوات الصمت داخل العائلات، وكيف أن التكنولوجيات الجديدة وأطر العمل القانونية تشكل ما يمكن إخفاؤه أو الإفصاح عنه.

الهوامش

١) هذا النص يتبنى المصطلح التركيبى "عمل-الذاكرة" **memory-work** (وفقا لاستخدام هاوج وزميلاتها وكراوفورد وزميلاتها) بدلا من الاستخدام العام "عمل الذاكرة" **memory work** والذى تبنته كيـون، إلا فـى الاقتباسـات المباشرة. [فى الترجمة العربية، لجأت المترجمة إلى الاستخدام الثانى الذى يتناسب بشكل أفضل مع الاستخدام اللغوى العربى].

٢) بمجرد اختيار موضوع معين، تتولد كلمة منبهة، أو مثير **trigger word**. ويصفن عملية توليد الكلمات- المثير أو المنبه- بأنها عمليـة تكراريـة. وعند البدء بالمثير "آسف" أدهشهن أنهن لا يكتشفن أى ذكريـات تتميـز بالشعور بالذنب أو الخجل. ثم حاولن المثير "انتهاك". وبعد ذلـك جـربن كلمة مثيرة للانفعال مباشرة "سعادة"، وبعدها مباشـرة "غـضب" ككلمـة مقابلة. واستخدمن المثير "إطراء" فى مجاورة مع الاستخدام السابق لكلمـة "إثم" والمنبه الحالى "لعب" لرؤية إن كان سينتج عنها تقارير عن السعادة. وقد أنتجت ذكريات من الطفولة والنضج على الـسواء اسـتجابة لكلمـة "أعياد". وتنصح المجموعة بأنه ثمة حاجة لحوالى أسبوع لكى يتم "تمثـل" المنبه أو المثير فى المرحلة الأولى.

٣
التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة

"كل شيء يبدأ، ليس من الأرشيفات، ولكن من الشهادات"، هكذا يقرر بول ريكوير (147 :2004)، ويقول: "في التحليل النهائي، ليس لدينا ما هو أفضل من الشهادة لنؤكد لأنفسنا أن شيئا قد حدث في الماضي بالفعل" (Ricoeur 2004: x). وسواء يصل الآخرون إلى هذا المدى الذي وصل إليه ريكوير أم لا، فكثير من الباحثين اليوم يعملون على السرد الشخصي، والشهادات، والذكريات. وهم يفعلون ذلك لكي يحصلوا على مدخل لتجارب ماضية غير موثقة بالطرق الأخرى، وكذلك لأنهم يعتقدون أن مثل تلك المصادر يمكن أن تعطيهم فهما أكثر ثراء بكثير للعلاقة بين الماضي والحاضر. فالتركيز على القصص الفردية غالبا مصحوب باهتمام بكيفية تخيل وبناء القصص التي تروى عن التاريخ، وفي ما يكشفه هذا عن الزمان والمكان اللذين تروى فيهما. وقد أدى هذا بدوره إلى أسئلة عن مدى اليقين في تذكر أشياء ونسيان أشياء أخرى، وللاحتفاظ بالتأمل في العمليات الاجتماعية والسيرية الخاصة بالتذكر والنسيان. ويؤكد رافائيل صمويل "الذاكرة مكيفة تاريخيا، تغير اللون والشكل وفقا لطوارئ اللحظة الآنية"؛ ويقول: "إنها تتغير على نحو تقدمي من جيل إلى جيل" (x :1994). وفي هذا الفصل سوف نستكشف مقاربات التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة من خلال موضوعات الشهادة، والذاكرة، والعلاقة بين الماضي والحاضر. ونبدأ برسم مخطط لجزء من تاريخ دراسات التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة منذ سنوات العقدين ١٩٦٠ و١٩٧٠ فصاعدا، والآمال التى

أضفت حيوية على تطور هذه الدراسات. وفى الإجمال، هذه قصة عن اتجاهات شاعت داخل المملكة المتحدة وأستراليا، ولكن هناك اتجاهات موازية للتطورات فى أوروبا وأمريكا الشمالية، وسوف نذكر هذه، مثلها فى ذلك مثل التأثير عبر العالمى للمجادلات المؤثرة حول الذاكرة، والسيرة الذاتية، والتاريخ. وكما حدث مع قصة عمل الذاكرة، يقدم لنا الفصل رواية عن كيف أن مناهج البحث الاجتماعى قد برزت فى وقت ومكان معينين، ليس كمجرد إستراتيجية لتوثيق التغير، ولكن أيضا كإستراتيجيات للتأثير وإحداث التغيير.

والحالتان اللتان نتناولهما بالدراسة فى هذا الفصل تعتمدان على تقاليد نظرية مختلفة، إلا أن كلا منهما ارتبطت بقصص الحياة لاستجواب سياسات الحاضر. والحالة الأولى تأخذ فى بؤرتها جمع واستخدام القصص والشهادات الشفاهية للأهالى الأصليين لأستراليا، وأهميتها فى العلاقات العرقية المعاصرة، والتراث الاجتماعى- السياسى لرواية قصص الحياة – فى الحاضر ومن أجل المستقبل. وهى تقدم نموذجا للسرد الشفاهى الكامن فى صراعات سياسية أكثر اتساعا وتواريخ مجتمع محلى، وتستعرض مقاربات منهجية ونظرية متقابلة لفحص هذا السرد. ودراسة الحالة الأولى هذه هى أطولهما عن قصد منا. وهذا يرجع غالبا إلى أنها تتطلب مستوى أكبر من التفاصيل والشروحات لتوضيح تعقيد الاستخدام المعاصر والإشكالى للتواريخ الشفاهية "عمليا". وهذا يمدنا بفرصة فريدة لتفصيل المواضيع المركزية التى نناقشها فى هذا الفصل، مثل الذاكرة الفردية والجمعية، ذات الصلة بقضية حالية تلقى بضوء قوى على المآزق المهمة، الأخلاقية والإبستمولوجية، فى تطبيقات التاريخ الشفاهى وتفسيراته. ودراسة الحالة الثانية تعود إلى نوع مشروع البحث الأكاديمى، وتتناول دراسة تجمع بين تسلسل تاريخ

الأفكار الفوكولدى(*) وقصص الحياة النسوية لفحص تجارب المعلمات في نيوزيلاند. وفي وضع طليعة الموضوع يوجد توجه لكتابة "تاريخ للحاضر"، ودراسة الحالة هذه تمثل مقاربة لتحقيق تاريخى له تأثير متزايد ويجلب أبعادا إضافية مهمة لمناقشتنا حول العلاقة بين الماضى والحاضر.

بدأنا كتابة هذا الفصل فى وقت كانت فيه قضايا علاقة التاريخ بالحاضر تعلو المانشيتات الصحفية فى أستراليا. وكان هناك جدل عام مكثف حول تعليم التاريخ الأسترالى فى المدارس يتردد صداه في الخلفية ونحن نبحث مزايا وأغراض التاريخ الشفاهى وصلاته بالحركات الاجتماعية والتواريخ العامة. وكانت هذه المجادلات عن منهج التاريخ تجرى على خلفية "حروب التاريخ" (Clendinnen, 2006; Macintyre and Clark, 2003)، التى كانت سلسلة من النزاعات العامة الساخنة بين المؤرخين والقادة السياسيين حول كيف ينبغى كتابة تاريخ أستراليا. ووجه رئيس الوزراء السابق المحافظ، جون هاوارد، اتهاما لمؤرخى أستراليا بتقديم التاريخ محاطا بـ"شريط أسود"[1]. وأعلن أن هذا النوع من التاريخ يبرز النواحى السلبية لماضى أستراليا، خاصة فيما يتعلق بوقع "المستعمرة" البريطانية على الأهالى الأصليين، وتأثير ما أعقب هذا من طريقة معاملة المستعمرين لهم. واحتج قائلا: إننا بحاجة إلى تاريخ قومى أكثر إيجابية، تاريخ يحتفل بإنجازات أستراليا ويلقى الضوء على الأشياء المشتركة، لا الاختلافات، بين الأستراليين. كانت هذه المسائل أساس النزاع حول كيف ينبغى

(*) تسلسل تاريخ الأفكار الفوكولدى Foucauldian genealogy: استخدم فوكو مصطلح genealogy، متأثرا بنظرية نيتشه عن تسلسل تاريخ الأخلاق، خاصة فى إيحائها بأصول معقدة، ودنيوية، ومغمورة فهو يريد القول: إن نظاما معينا من الفكر هو نتيجة تحولات تاريخية محتملة، مصادفة، وليست محصلة اتجاهات منطقية حتمية. (Stanford Encyclopedia of Philosophy - بتصرف، المترجمة).

تدريس التاريخ الأسترالى فى المدارس(٢). ولم تكن نقطة الخلاف هـل ينبغـى أن يكون التاريخ الأسترالى جزءا من المنهج المدرسى (فقد كان كذلك بالفعل)، ولكـن أى نوع من التاريخ ينبغى تعليمه وأى جانب سوف تُروى قصصه. وحتما، أكـدت "حروب التاريخ" هذه الزاوية السياسية البارزة فى المعرفة التاريخية، وأظهرت أن السرد التاريخى هو عن الماضى وكذلك عن الحاضـر، يتـشكل حـسب الزمـان والمكان اللذين يكتب وينشر فيهما. وأنه أيضا عن المـستقبل. إن تعلـيم التـاريخ القومى يتصل بتشكيل المواطنة والقرارات حول المعرفة والقيم التى تعتبر ملائمـة للأجيال المستقبلة. كانت السياسة وإنتاج المعرفة التاريخية موضوعين مركزيين فى تطوير التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة.

السياقات ونقاط التقاء الأنساق المعرفية

يستخدم كل من التاريخ الـشفاهى وتـاريخ الحيـاة المقـابلات الشخـصية لاستخلاص الذكريات، والمواقف، والتأمل فى التجـارب والخبـرات. ويمكـن أن تكون المقابلات الشخصية جماعية أو فردية، عميقة أو غير مخطط لهـا، تجـرى على شكل محادثة أو ما يشبه المحادثة نسبيا، اعتمـادا علـى الإطـار المنهجـى والغرض. ويمكن أن تختص بأنواع من المثيرات- مثل الـصور أو التـذكارات- وعرض لأشياء منطقية بسيطة، وتشمل الصور، والتسجيلات الصوتية، والنصوص المكتوبة أو المنسوخة وغير ذلك من الأشياء المصنوعة، أو ما يطلق عليـه كـن بلامر (2001) على نحو دال: "وثائق الحياة"؛ وهذه يمكن أن تكون وثـائق حادثـة بشكل طبيعى، مثل الرسائل، والمذكرات، والمدونات، أو مستخرجة من مـشروع بحثى معين. والإطارات المنهجية والمفهومية لدراسة هذه المـادة تأخـذ أشـكالا

عديدة، ولكن التحدى الشائع هو كيفية تفسيرها بطرق تلقى الضوء على حياة الفرد، وكذلك على الظواهر أو العلاقات الاجتماعية التى هى جزء لا يتجزأ منها أو التى يجرى استكشافها.

ويرى الاجتماعى الفرنسى دانييل برتو أن "هدف الدراسة لا ينبغى أبـــدا أن يكون فرديا فى حد ذاته، بل سوسيولوجيا؛ أى مجموعـــة محـــددة مـــن العلاقـــات الاجتماعية" (1981a: 9). ويقترح بلامر أن "بحث قصة الحياة فى أفضل الأحـــوال دائما يوجه التركيز إلى التغير الاجتماعى، الحركة بـــين تـــاريخ الـــسيرة الذاتيـــة المتغيرة للشخص، والتاريخ الاجتماعى لحياته أو حياتها. ... لا يمكن رواية قـــصة الحياة دون إشارة مستمرة إلى التغيـــر التـــاريخى" (Plummer, 2001: 39—40). وبناء عليه، فإن قصة الحياة الفردية كثيرا ما تستكمل بأبحاث إضافية، مثل مقابلات مع آخرين– من أفراد العائلة، الأصدقاء، زملاء العمـــل– وتـــسجيلات توثيقيـــة، وصور، وما إلى ذلك، والتى عند ضمها إلى قصة الحياة– القـــصة التـــى يرويهـــا شخص عن حياته– تـــشكل الأســـاس لبنـــاء تـــاريخ حيـــاة (Bertaux, 1981a; Chamberlayne et al., 2000).

واليوم يعتبر التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة جزءا مـــن تطبيقـــات البحـــث السائدة، وتدرس على نحو متسع فى الجامعات، وتتبناها المؤســـسات الاجتماعيـــة والمجتمعية. ويمكن تعيين نصوص كلاسيكية، وصحف متخصـــصة، وجمعيـــات مهنية، وكذلك تواريخ مراحل تطـــور الميـــادين (Chamberlayne et al., 2000; Perks and Thomson, 2006; Plummer, 2001). وهذا الموقف المتوطد يتبـــاين مع بداياتهم التى كانت أكثر معارضة وتبدو دخيلة، فى وجـــود أنـــصار يتحـــدون التقاليد المنهجية الجامدة ويدافعون عن سياسات أشكال جديدة مـــن بحـــث الـــسيرة الذاتية والبحث التاريخى.

وفى تلك البدايات، كما هو الآن، كان التاريخ الشفاهى وقصص الحياة يشتركان فى أهداف ووسائل متشابهة، حتى رغم أنهما يتصلان بتقاليد مناهج علمية مختلفة. الأول بالتاريخ، والآخر بالسوسيولوجيا (Thompson, 1981). ويتقارب الاثنان فى الأهمية التى تعقد على التجربة الذاتية، والذكريات، والسرد- قصص الحياة- لتوليد رؤى داخل العمليات الاجتماعية ولإدخال منظور التجربة الفردية والمحلية فى التصورات الاجتماعية والتاريخية الكبرى. "كان المؤرخون والاجتماعيون يكتشفون أرضيات مشتركة بينهم فى إضفاء قيمة على التجربة الذاتية" (Chamberlayne et al., 2000: 4). وبالنسبة لبرتو، كان تركيز مهم على مقاربة لقصص الحياة هو استكشاف "العلاقة بين الديناميات الاجتماعية والتغير التاريخى: ما هى العلاقة بين التطبيقات الفردية والجمعية والتغير الاجتماعى- التاريخى؟" (Bertaux, 1981a: 6).

وهناك سياقان آخران وثيقا الصلة بهذا الموضوع: الأول، هو التاريخ الشفاهى الخاص بـ"الاسترداد"، الذى يشمل محاولات توثيق الفولكلور أو أصوات جيل قبل أن يختفى. والحق أن الدراسات الخاصة بحفظ التاريخ قد يكون الباعث عليها الاهتمام بحماية وحفظ الماضى أكثر من ترقية أجندة للتحول السياسى. وهناك أنماط أخرى من مشروعات "الاسترداد" تقوم بتسجيل جماعة، مثل جيل من الكهول عاش أحداثا تاريخية هائلة أو صادمة. وعلى سبيل المثال، قامت فيدرالية الكتاب فى الولايات المتحدة فى سنوات العقد ١٩٣٠ بمشروع تسجيل ذكريات العبيد السابقين، والذين كانوا فى ذلك الوقت عجائز جدا، ووضعوا أرشيفا استثنائيا بقصص العبيد (Hirsch, 2003; Yetman, n.d.). ومثال آخر هو توثيق ذكريات الناجين من الهولوكوست الذين هم عجائز حاليا. وفى كلا المثالين، قدمت المعرفة المتولدة من قصص الحياة أيضا أملا لمنع مثل تلك الأحداث من أن تحدث مرة

أخرى، ولكى نتأكد أن لا ننسى. وهكذا، فإن هناك سياقا ثانيا هو أنه رغم أن أنواعا كثيرة من المشروعات تشترك فى الاهتمام باسترداد وتسجيل القصص الشفاهية فى الحاضر، فإنها تجلب وجهات نظر مختلفة إلى علاقة الحاضر بالماضى وعلاقة التاريخ الشفاهى بمشروعات التغير الاجتماعى.

تحدى التاريخ

أحرز التاريخ الشفاهى- كحركة، وكمنهج- أرضية أثناء سنوات العقد ١٩٧٠ وسط ازدهار للتاريخ الاجتماعى، والعمالى، والنسوى (**A.Thomson, 2007**). وفى أجزاء كثيرة من العالم، فى ذلك الوقت، تخللت حركات التغير الاجتماعى والسياسى، مثل النسوية، الجامعات، وتحدت الأشكال التقليدية للمعرفة. وتزامن مع ذلك نقد راديكالى لمناهج البحث التاريخى منذ سنوات العقد ١٩٦٠ فصاعدا (**Munslow, 1997**)، والذى اعترض على اختيار وترتيب المصادر، ودور الأرشيف، وتفضيل الوثائق المكتوبة والموضوعات التى تقيم بأنها جديرة بالبحث التاريخى: ماضى من؟ وأى نوع من التجارب والأحداث أصبحت مسجلة كتاريخ؟ وسعت برامج جديدة تاريخية اجتماعية إلى فهم تجارب الناس الذين كانت حياتهم، على نحو نموذجى، مهمة أو خاضعة فى السجل التاريخى- النساء، والعمال، والأميين- وساعدت مناهج التاريخ الشفاهى وقصص الحياة على تحقيق هذه الطموحات (**Gluck and Patai, 1991; Perks and Thomson, 2006**).

وفى الأيام الأولى لبحث تاريخ الحياة، نظر كثير من المؤرخين والسوسيولوجيين إليه على أنه يعيد تنشيط الفرع العلمى الذى يعملون عليه. وقد اتهم برتو[٣] (**1981b**) السوسيولوجيا بأنها متوقفة فى حالة من الفلسفة الوضعية

الجامدة تحاول (دون نجاح) تكرار مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الديناميات الاجتماعية. ورأى آخرون أن السوسيولوجيا ضائعة فى تجريدات البنيوية، ورأوا فى تاريخ الحياة طريقة لبناء تركيز أكثر إنسانية على التجربة الفردية داخل عمليات التغير الاجتماعى (Plummer, 2001). وكما يحتج الباحثون الكيفيون حاليا بشكل عام، هناك اعتماد على المسح والبيانات الكمية أضفى غموضا على التجارب الذاتية، ولم يقدم رؤى تذكر حول كيف تقابل، وتعاش، بالفعل الظواهر الاجتماعية (Crotty, 1998; Denzin and Lincoln, 2005). وهناك أنواع أخرى من البيانات والمناهج مطلوبة لفهم الخبرة البشرية؛ فلم يكن تحديد كمياتها وقياسها، وكذلك التنظير القائم عليها، كافيا.

وبنفس الطريقة، أصدر المؤرخون الاجتماعيون حكمهم على خبرات التاريخ التقليدية بأنها غير موجهة بقدر كاف نحو الخبرات الفردية (Samuel, 1994; Thompson, 1978). ويحتج بول ثومبسون بأن الديناميات الاجتماعية جرى تنظيرها على نحو نمطى عند مستوى البنى، وليس عند مستوى قدرة الأفراد على تحقيقها. إن فهمنا للاقتصاد والتغيرات الأيديولوجية قاصر دون معرفة "كيف تتفاعل مثل تلك القوى عند المستوى الفردى... لتشكل ذلك العدد الوافر من القرارات التى فى تراكمها تعطى، ليس فقط شكلا لكل قصة حياة، ولكن أيضا تشكل اتجاه ومعدل كل تغير اجتماعى كبير" (Thompson, 1981: 299). وهكذا كان التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة مشتركين بين أفرع علمية مختلفة، يجمعان عناصر من التقاليد التاريخية والسوسيولوجية لتحدى القناعات المستقرة فى فرعهم العلمى، ولكى يتفحص ديناميات علاقة الماضى/ الحاضر والتغير الاجتماعى- التاريخى عبر تركيز على خبرة الترجمة الذاتية والذاكرة.

تقاليد راديكالية

فى سنوات العقدين ١٩٦٠ و١٩٧٠، انبعثت نهضة حيوية فى الكثيــر مــن كتابات التاريخ الشفاهى نتيجة الإثارة الفكرية ونوع من الحس المــتحمس بالغايــة السياسية (A.Thomson, 2007) ورأى كثير من الممارسين أن أبحاثهم تقدم نوعــا من المنهجية التحررية لتوضيح وتكريم أصوات من عانوا من القهر أو الإســكات، لإنقاذ التاريخ من النخب، وإنقاذ الناس العاديين من النسيان والتجاهل- ليتمكنوا من رواية قصص جديدة عن الماضى من أجل الحاضر. ورتل المتحمــسون قــصائد التمجيد للبحث الذى مكّن من سماع أصوات الناس "العــاديين"، ومــن أن تــصبح قصصهم جزءا من الصورة التاريخية والثقافية الأوسع (Hamilton and Shopes, 2008).

وسواء كانوا مدفوعين بالاهتمام بالتاريخ الاجتماعى أو النسوى، فإن كثيرين من المؤرخين الشفاهيين، الذين جاءوا من خلفيات متنوعة، كانوا مــشتركين فــى الرغبة لخلق نوع مختلف من التاريخ. وبالتنقيب عن قصص القمــع والمقاومــة، سعوا إلى تحويل فهم الماضى، وبناء تقاليد مضادة يمكن بدورها أن تــساهم فــى إعادة تشكيل الحاضر، والمستقبل. يقول بول ثومبسون: إن التاريخ "ينبغى أن يقــدم تحديا، وفهما يساعد على التغير" (1978: 17).

بالإضافة إلى ذلك، كانت الشعبية المتزايدة للتاريخ الشفاهى وتاريخ الحيــاة ترفض سيطرة التاريخ الأكاديمى. فالتاريخ ينتمى إلى الناس والمجتمعات، ولــيس الخبراء، وفى سنوات العقدين ١٩٧٠ و١٩٨٠ ازدهرت مشروعات كثيرة فى بحث التاريخ العام والمحلى، مدفوعة بالتواريخ/ الروايات الشفاهية وما يتصل بذلك مــن اهتمام بتوثيق الحياة اليومية للمجتمع. وتؤكد جوانا بورنات وهنا داياموند أن العمل

القائم على المجتمع "خارج أسوار الجامعة، كان من الخصائص المميزة لكل تاريخ شفاهى فى العالم المتحدث بالإنجليزية" (**Bornat and Diamond, 2007: 22**).

كانت الطموحات الراديكالية والسياسية للتاريخ الشفاهى جزءا من اتجاه أوسع فى البحث الأكاديمى والمجتمعى. وقد عززت أجندات تحويلية الكثير من المقاربات البحثية الاجتماعية التى نالت بالمثل شهرة منذ سنوات العقد ١٩٧٠ فصاعدا ولا زالت مؤثرة حتى اليوم، مثل منهجيات بحث المشاركة والنشاطية التى قامت على النظريات النقدية والنسوية. مع ذلك، فإن مشروعات التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة يميزها الإبراز الذى تضفيه على الماضى فى مشروع التغير.

تذكر الماضى فى الحاضر

أعلن برتو: "حاضرنا تاريخ" (**Bertaux, 1981b: 35**). إن التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة يمثلان الماضى، ليس كنطاق زمنى منفصل، مقطوعا عن الحاضر، ولكن كصلة لا فكاك منها بالحاضر. إن ما نراه فى الماضى- الأشياء التى نتذكرها أو ننساها- تتشكل بما يحدث فى الحاضر، وبالظروف الاجتماعية التى يكون المرء جزءا لا يتجزأ منها. وإلى حد ما، لم يكن يظهر فى مشروعات التاريخ الشفاهى المبكرة هذا الفهم للعلاقة بين الماضى والحاضر، أو لم يكن يجرى تناوله على نحو نمطى (**Bornat and. Diamond, 2007; A. Thomson, 2007**). لكن، منذ سنوات العقد ١٩٨٠ فصاعدا، بدأت هذه الرؤى تدخل التطبيقات السائدة فى أبحاث التاريخ الشفاهى.

وفى فصلنا السابق حول عمل الذاكرة، أكدنا أن الذكريات الماضية هى دائما أيضا تركيبات شخصية داخل الحاضر. وتنطبق هذه الحجة بنفس القدر على مشروعات التاريخ الشفاهى، حتى إذا لم يكن الغرض المصرح به هو استكشاف

الروايات الخاصة بالترجمة الذاتية أو الذكريات الخاصة بالذات. إن ما نستعيده من الأحداث، أو من الحياة العملية، أو العلاقات المجتمعية أو العائلية، تبرز فى الحاضر استجابة للاهتمامات والحالة المزاجية الخاصة بالزمن، وفى سياق مرحلة الحياة الخاصة بالراوى وموقعه الاجتماعى. إن سرد تاريخ الحياة بهذا لا يمكن أن يكون مجرد تدفق لذكريات غير توفيقية للماضى، ولكنه مشوب بعوامل عديدة. وبطرق أخرى أيضا، الحاضر "تاريخ" فى أن كيفية حكاية القصص أو تذكرها اليوم تصبح مصادر مستقبلية لفهم هذا الحاضر- الذى هو ماض فى المستقبل. هذه العلاقات الزمنية تشبثت بها بكثافة تقاليد كتابة التاريخ المتنوعة (**Foucault, 1984; Harootuman, 2007; Koselleck, 1985; Ricoeur. 2004**)، ولكن ما يهمنا هنا هو المنظور الخاص الذى قدمه التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة.

وقوبلت الآمال العريضة فى تاريخ شفاهى بالنقد أيضا، من كل من معارضى ومؤيدى الأبحاث القائمة على السيرة الذاتية. فمن ناحية، وضعت قصص الحياة والرواية الشفاهية موضع المساءلة كمعلومات تاريخية من قبل التجريبيين الشكاكين الذين وجدوا من الخطأ الاعتماد على ذكريات فاعلين اجتماعيين أفراد، حيث إنها معيبة حتما، ومتحيزة. هل يمكن التعويل على القصص الشخصية؟ هل يمكن اعتمادها كدليل بحثى؟ وماذا عن الذكريات الزائفة أو المشوهة؟ هل الاستماع إلى ما يتذكره الناس ويختارون أن يخبرونا به تاريخ حقا؟ ومن ناحية أخرى، كانت هناك انتقادات لما نظر إليه باعتباره تجريبية التاريخ الشفاهى نفسه، والواضحة فى تشجيع اعتبار الشهادة الشفاهية هى المصدر التاريخى الجديد والنافذة المطلة على الماضى، مع ما يرافق ذلك من تجاهل للأبعاد الشخصية والثقافية للذاكرة (**Popular Memory Group, 1982**).

إن توثيق هذه المناظرات ونواحى القصور هـى الآن جـزء مـن القـصة المعتادة عن تطور التاريخ الشفاهى، والتى تروى كحركة من السذاجة إلى معرفـة أكثر تعقيدا بديناميات بحث المقابلات الشخصية والتفاعل المركب للذاكرة والنسيان فـى بنـاء التـواريخ الجمعيـة والشخـصية (Bornat and Diamond, 2007; Summerfield, 2000; A.Thomson, 2007).

الذاكرة الفردية والجمعية

فى حكايات تاريخ التاريخ الشفاهى، يبدأ تطور اهتمام بالذاكرة أثناء أواخـر العقد ١٩٧٠ وبدايات العقد ١٩٨٠. وحتى تلك النقطـة كانـت المناقـشات حـول التاريخ الشفاهى تدور غالبا بين المؤمنين بالمحافظة، المتحمسين لطاقتها التحررية، والشكاكين التجريبيين، الذين تشككوا فى مدى قابلية أدلة التـاريخ الـشفاهى للثقـة والتعويل عليها. ومن نواح كثيرة، كان "التحول إلى الذاكرة" يتجنب تلك المجادلات بالتركيز على كيف، ولماذا، يتذكر الناس الأشياء. ويصبح الموضوع الأساسى ليس إن كان من الممكن التثبت من صحة أو زيف الذكريات، ولكن مـا الـذى تكـشفه الذكريات عن السياقات والخبرات الجمعية والفردية؟. وقاد هذا- حسب مـا أكـده المؤرخ الأمريكى مايكل فريش- إلى التركيز على "كيف يفهم الناس ماضيهم، كيف يصلون بين التجربة الشخصية وسياقها الاجتماعى؟ وكيف يصبح الماضى جـزءا من الحاضر؟" (Frisch, 1990: 188). وقد ميّز معظم منظرى الذاكرة، بطريقـة أو بأخرى، بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجمعية أو الاجتماعية، وقد عبروا على نحو مميز عن اهتمام بالأخيرة أكثر من الأولى (Hamilton and Shopes. 2008).

أيضا، برز الاهتمام بدراسة الذاكرة في سياق الاهتمامات المتبادلة عبر أفرع العلوم بالذاتية والتأثير المتزايد للدراسات الثقافية، بتركيزها على البناء الاجتماعي والاستطرادي للمعنى. وتشكل دراسات الذاكرة في وقتنا الراهن حقلا مزدهرا من حقول البحث (Darian-Smith and Hamilton, 1994). ويؤكد هاملتون أن هناك اتجاهين كبيرين داخل دراسات الذاكرة: "الأول ينبع من التاريخ الشفاهي والعمل في التراجم الذاتية الجماعية؛ والثاني ينبع من الاهتمام بتوثيق عملية التذكر الجمعي على مستوى قومي" (Hamilton, 1994: 17)، ويشمل دراسات أشكال المادة مثل تذكارات الحرب أو الاحتفالات القومية. ولكن العلاقة بين التاريخ الشفاهي ودراسات الذاكرة، رغم تشابك الاهتمامات، تظل محل نزاع إلى حد ما. يرى هاملتون وشوبس أنه، رغم التوسع الكبير في دراسات كل من التاريخ الشفاهي والذاكرة، فإن التبادل بين الاثنين كان محدودا نسبيا، مع "قليل جدا من الأعمال المنشورة التي تفحص كيف أن التاريخ الشفاهي، كشكل راسخ لصنع ذاكرة بشكل فعال، يعكس، كما يشكّل الذاكرة الجمعية أو العامة" (Hamilton and Shopes, 2008: vii-viii). ويقولان: إن التفسير الوحيد لذلك هو أن التاريخ الشفاهي مهتم في المبدأ بقصص حياة الأفراد، بينما "دراسة الذاكرة، على عكس التاريخ الشفاهي، كانت مهتمة إلى حد كبير بالذاكرة التي تبقى فيما يتجاوز مجال حياة الفرد، وغالبا في الأشياء التذكارية، والآثار، أو الشعائر، وهي مهتمة أساسا بذاكرة الجماعات" (Hamilton and Shopes, 2008: x). هذا الفهم لدراسة الذاكرة يتباين مع شكل عمل الذاكرة الفردي والجماعي الذي ناقشناه في الفصل الثاني، إلا أنهما كليهما يشتركان في التركيز على الذاكرة باعتبارها ليست فردية فقط، ولكنها أيضا مغروسة في المجتمع.

ومن أهم المداخلات المؤثرة فى الجدل فى المملكة المتحدة وأستراليا فيما يتعلق بالعلاقة بين التاريخ الشفاهى والذاكرة مقال نشره فى ١٩٨٢ أعضاء "جماعة الذاكرة الشعبية" فى مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة. وعنوان المقال: "الذاكرة الشعبية: النظرية، السياسات، المنهج" **'Popular memory: theory, politics, method' (Popular Memory Group, 1982)**، والمقال يفحص الأبعاد الاجتماعية والذاتية للذاكرة. وكانت أهم مساهمة له الإصرار على الطبيعة الثقافية والجمعية للذاكرة، والتعبير عن العلاقة بين التمثيلات العامة والذكريات الخاصة. وقد أكد أن التاريخ الشفاهى لا يدور حول الماضى، ولكنه "العلاقة بين الماضى والحاضر" **(p. 240)**، وأن تلك القصص "تأثرت بعمق بخطابات وخبرات الحاضر" **(p. 243)**. وبينما تعتبر مثل هذه الآراء مألوفة نسبيا فى وقتنا الحالى، فقد اكتسبت انتشارا فى وقت ومكان معينين واستجابة لمأزق معروفة فى بحث العلاقات المتداخلة بين العمليات التاريخية، والاجتماعية وخبرات السير الذاتية.

ويشير الإنتاج الاجتماعى للذاكرة إلى كل الطرق التى "تبنى بها الذكريات وإحساس بالماضى": والتاريخ الأكاديمى عنصر واحد فقط من هذا الإنتاج **(Popular Memory Group, 1982: 207)**. "إن الإنتاج الاجتماعى للذاكرة هو إنتاج جمعى يشارك فيه كل شخص، ولكن ليس بنفس القدر" **(p. 207)**: فالذاكرة التاريخية مشكوك فيها، فقد شكلتها علاقات السلطة والظلم واللامساواة. ووفقا لمجموعة الذاكرة الشعبية، رغم أنه من الممكن رسم فروق بين التمثيلات العامة والذاكرة الخاصة، فهناك علاقة تكافلية بين الاثنين. وقد تكون الذكريات السائدة داخل التمثيلات العامة محل خلاف، ولكنها تشكل تقريبا ما يجرى تذكره فرديا. وهذا يشكِّل تعارضا كبيرا بين الذاكرة المهيمنة والذاكرة المضادة، ولكنه على العكس، ينقل المدى الذى يجرى به انتشار وترشيح ما يسمى بالذكريات الخاصة

أو الفردية. وفى تطوير تلك المجادلات، يرجّع المقال صدى مسار طويل من الجدل حول الذاكرة، مع مفهوم "الذاكرة الجمعية"، المستمد من عمل موريس هالبواتش (Halbwach, 1950/1992)، والذى يرى أن الذاكرة، رغم أنها تجربة شخصية، فليست ظاهرة فردية، وإنما هى ظاهرة اجتماعية. وبناء على هذه الرؤية، يقترح كونرتون: "إنه من خلال عضوية المجموعات الاجتماعية يتمكن الأفراد من حيازة، ومركزة، واستدعاء الذكريات" (32 :1989).

الذاكرة الخاصة والأساطير الثقافية

إن صعود دراسات الذاكرة قد يوحى، من ناحية، بتكثيف وتوالد "الذاكرة". ولكن، من الناحية الأخرى، يؤكد المؤرخ الفرنسى بيير نورا أن "الذاكرة باستمرار على شفاهنا لأنها لم تعد موجودة" (1 :1996)، حيث حل محلها "تسارع عجلة التاريخ" (p. 2). وينعى نورا أن المجتمعات القائمة على الذاكرة "لم تعد موجودة"، وأن "المؤسسات التى كانت تنقل القيم من جيل إلى جيل– الكنائس، المدارس، العائلات، الحكومات– قد توقفت عن القيام بتلك المهمة كما كانت تفعل من قبل". وبنفس الطريقة، "الأيديولوجيات القائمة على الذاكرة توقفت عن العمل أيضا" (p. 2). وفى تباين مع رأى أكثر نفوذا يرى أن توسع الذاكرة وأهميتها فى الحياة المعاصرة، يقول نورا: "إن إدراكنا نفسه للتاريخ قد توسع على نحو هائل بمساعدة الميديا، ومن ثم فإن الذاكرة التى كانت ذات يوم تراث ما يعرفه الناس عن قرب حل محلها طبقة رقيقة من الأحداث الجارية" (p. 2). ويعلن نورا أن الذاكرة "قد أصبحت شأنا شخصيا. ونتيجة هذا التفسير النفسى، فإن النفس الآن تقف فى علاقة مختلفة مع الذاكرة والماضى" (p. 11).

وعلى عكس إحساس نورا بالحنين وشعوره بالفقدان والانحدار، يقترح آخرون رواية أقل تشاؤما، فيلاحظون استمرار حيوية وقوة الذاكرة المجتمعية والفردية. إن تفاعل الذاكرة الجمعية والفردية أيضا جزء من ما يعطى الأساطير الثقافية قوتها، هكذا يقول رافائيل صمويل وبول ثومبسون، بعد عقد من "جماعة الذاكرة الشعبية" (Samuel and Thompson, 1990). ويرى صمويل وثومبسون أن المؤرخين الشفاهيين لديهم فرص خاصة لـ"مراقبة الإحلالات، والحذوفات وإعادة التفسير التى من خلالها تأخذ الأساطير فى الذاكرة الشخصية والشعبية شكلها" (p. 5).

> إن الخاصية الفردية لكل قصة حياة تتوقف عن أن تكون عائقا غير ملائم للتعميم، وتصبح بدلا من ذلك وثيقة حيوية لبناء الوعى، وتعزيز كل من تنوع التجربة فى أى جماعة اجتماعية، وأيضا كيف تعتمد كل قصة فردية على ثقافة مشتركة: تحدى التصنيف الصارم للخاص والعام، مثلما هو بالنسبة للذاكرة والحقيقة (Samuel and Thompson, 1990: 2).

ما مضمون تلك المجادلات حول قصة الحياة والذاكرة بالنسبة للممارسات البحثية؟ أولا، الذكريات فردية واجتماعية على السواء، وهى تتجلى، وتلقى الفهم والدعم، فى قصص حياة معينة. ولهذا فإن المقابلة الخاصة بالتاريخ الشفاهى أو تاريخ الحياة يمكن أن تأخذ تركيزا مزدوجا على الجمعى والفردى، وتمد الذكريات بجسر بين الاثنين. ثانيا، رغم أن الذكريات الفردية تتميز باقتصار أهميتها على صاحبها، فإن لها قدرة على إلقاء الضوء على الأساطير الثقافية، والذاكرة المهيمنة، والتواريخ العامة. والأفراد، فى روايتهم لقصتهم، ينهمكون فى عملية صناعة تاريخهم الخاص، والرد على، والمشاركة فى بناء، التاريخ العام أو الجمعى. وهكذا تكون بؤرة التحليل والبحث معا حول ما يحدث تذكره- أو نسيانه، (المحتوى) وحول كيف تروى هذه الذكريات (الشكل).

المقابلات الشخصية- التذكر، والنسيان، والبناء

من الانتقادات الشائعة للمقابلات المبكرة فى التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة أنها تركز بإفراط على المحتوى (وليس على الشكل) الخاص بما رُوى فى المقابلات، وعلى تكديس تفاصيل معينة. وعند النظر إلى الماضى، تذكر رافائيل صمويل وبول ثومبسون أن مثل تلك المقابلات كانت تتميز بـ"واقعية ساذجة":

> **لأننا كنا ملهمين بالوفرة الغزيرة للمصادر المكتشفة حديثا فى الذاكرة الحية التى فتحنا بابها، فقد كنا ولوعين بكل ما يختص بالحياة اليومية، نستخدم وصفا "مكثفا"، بالطريقة التى اقترحها الأنثروبولوجيون، لإعادة تركيب التفاصيل الصغيرة للحياة المنزلية: ولكننا لم يكن لدينا إلا القليل جدا مما يمكن أن نقوله حول أفكار- الأحلام والحياة الجنسية المخبأة للعلاقات العائلية"** (1990: 2).

كان هدف مثل تلك المقابلات الخاصة بتاريخ الحياة من ناحية كشف العمليات السيكولوجية للذاكرة والانفعالات الفردية أقل من بناء شعور بسياق وبنى اجتماعية أكبر حدثت فيها تلك التجارب التى نذكرها. وبالإضافة إلى ذلك، كما لاحظت "جماعة الذاكرة الشعبية"، تجاهل مؤرخو التاريخ الشفاهى "علاقات القوة التى تدخل فى المنهج، بلا وعى لأنها ليست منظرة، فى كل نقطة بداية من تدبير موعد المقابلة حتى عرض النص التفسيرى النهائى" (**Popular Memory Group, 1982: 223**). ومع ذلك، فإن يو (**Yow, 1997**) يرى أنه منذ أواخر العقد ١٩٨٠ "تحدث المؤرخون الشفاهيون "عن المقابلة باعتبارها مجهودا تعاونيا، ليس بين السلطة والرعية، ولكن بين اثنين من الباحثين فى الماضى والحاضر" (**1997: 69-70**).

ومعظم المؤرخين الشفاهيين في وقتنا الراهن، كما هو الحال مع كثيرين ممن ينهمكون في أبحاث قصص الحياة والسير الذاتية (Chamberlayne et al., 2000; Erben, 1998; Hollway and Jefferson, 2000; MacLure, 2003; Plummer, 2001)، يرفضون رؤية أصحاب النزعة الموضوعية الذين يرون أن المقابلة بحث عن الوقائع الحقيقية أو الكشف عن القصة الحقيقية والكاملة. ويتجلى هذا في الانتقال من رؤية مقابلات تاريخ الحياة كسجلات لما جرى تذكره، إلى اهتمام أكبر بما لم يفصح عنه، أو يبدو منسيا، والعلاقة بين الذاكرة الواعية واللاواعية (Summerfield, 2000). وكان عمل المؤرخة الشفاهية الإيطالية لويزا باسريني مؤثرا من هذه الناحية. فدراستها لذكريات الفاشية في زمن الحرب في إيطاليا "بيّنت كيف أن تأثير الثقافة والأيديولوجية العامة على الذاكرة الفردية يمكن كشفه في المسكوت عنه، والتناقضات، والحساسيات الخاصة للشهادة الشخصية" (A. Thomson, 2007: 54; see Passerini, 1987, 2002). وتعتنى باسريني بعالم المتخيل، وليس التذكر الفعلي، محتجة بأن "الأحلام، والصور، والأساطير، والخيالات" شكلت حياة من أجرت مقابلات معهم وجعلت من الممكن رؤية الخبرات الحياتية الفعلية لمقابلاتها، واستمرت تترك صداها وتأثيرها عبر قصص الحياة التي تذكروها (Passerini, 1990: 54).

وبنفس الطريقة، اعتمادا على سيكولوجية الذاكرة والرغبات الذاتية، يصف أليساندرو بورتللي (١٩٩٠) سلسلة من المقابلات التي أجراها تذكر فيها المصادر أحداثا أو سردوا قصصا عن دورهم المحوري في شيء كان يمكن أن يحدث، ولكنه لم يحدث، أو لم يحدث بالضبط بالطريقة التي تذكروها. ويمكن أن نفهم تلك الروايات بشكل مثمر باعتبارها "قصصا لازمنية"(*):

(*) Uchronic: لازمني، (مبنية على غرار utopia التي تعني في الأصل اليوناني: لامكان)، وUchronia الزمن الموازي أو البديل: حقبة زمنية افتراضية موازية لعالمنا. وهو مفهوم مشابه لـ "التاريخ البديل"، ولكنه مختلف في أن الأزمنة الموازية ليس من السهل تحديدها (حيث تقع في نقطة زمنية بعيدة)، وتذكرنا بـ "صورة لعالم متخيل". [المترجمة]

كل تلك القصص لا تدور حول كيف كان مسار التاريخ، ولكنها تدور حول كيف كان يمكن أن يسير: عالمها ليس هو الواقع، ولكن الإمكان. إننا نصل إلى فهم أفضل لها لو عقدنا الصلة بينها وبين الشكل الأدبي العظيم لرفض التاريخ الموجود بالفعل: الزمن الموازى أو البديل. والزمن الموازى هو "ذلك الموضوع المدهش الذى يتخيل فيه المؤلف ما كان يمكن أن يحدث لو لم يقع حدث تاريخى معين"؛ إنه تمثيل لـ"حاضر بديل، نوع من الكون الموازى الذى لم يحدث فيه ظهور لحدث تاريخى معين". (Portelli, 1990: 150).

مثل هذه الطريقة لقراءة الروايات التى يسردها أصحاب المقابلات تدعم الزمن الحاضر للتذكر وإطاره من خبرات الماضى المُتذكَّر: وسوف نعود إلى تلك النقطة فى الفصل السادس فيما يتعلق بقصص الحياة فى البحث بين الأجيال.

الذاتية الجماعية ومقابلات قصص الحياة

تلك الطرق لقراءة قصص الحياة تغير نقل الانتباه من الاعتبار السوسيولوجى السائد للإنتاج الجمعى للذاكرة والتاريخ العام تحوى انتباها أكثر تناغما مع البعدين الخاصين بالدينامية السيكولوجية والذاتية الجماعية للذاكرة والرغبة، والتاريخ، وإلى كيف تتجلى الأشكال والرغبات الأسطورية فى تجارب الماضى وفى إعادة تذكرها أيضا. وتتسم مقابلات تاريخ الحياة، كما هو الحال مع المقابلات البحثية العميقة الأخرى، برغبات وردود أفعال من يجرى المقابلة، كما

مع من تجرى معه المقابلـــة (McLeod and Yates, 2003; Schostak, 2006; St Pierre and Pillow, 2000).

ساهم الانتقال من استنباط الحقائق والمحتوى إلى إدراك الديناميـــة المثمـــرة للمقابلة بالضرورة فى تركيز أكبر على الذاتية- لطرفى المقابلـــة علـــى الـــسواء. وعلى سبيل المثال، يرى باسرينى أن إدراك العملية وتأثير الذاتية الجماعيـــة أمـــر جوهرى:

> إن الذاتية الجماعية من العناصر الأساسية للمقابلة، التى تشمل الشهادات الشفاهية، كما أنها من العناصـــر الأساســـية للتفسير. وفضلا عن ذلك، الذاتية الجمعية هى أحـــد أصـــول الروايات التى نجمعها، ليس بمعنى أننا- نحن من نجرى المقابلة- نولدها.. ولكن بمعنى أن الروايات نفسها نشأت أصلا فى سياق من التبادل، قبل تدخلنا. (Passerini, 2002: 4).

وكما رأينا من مناقشتنا لعمل الذاكرة فى الفـــصل الثـــانى، وبينمـــا نحـــن نستكشف فيما يتعلق ببحثنا الخاص فى الفصل الثامن، إن تناول الأبعـــاد الديناميـــة السيكولوجية للمقابلات يمكن أن تمدنا بمفاتيح مهمة لتطوير تحليل ما يحـــدث فـــى المقابلة نفسها وما تعنيه المقابلة (Hollway and Jefferson, 2000; Walkerdine et al., 2001). وفيما يتعلق ببحث التغير الاجتماعى، يتطلب الأمر عقد صلات بين الديناميات الداخلية للمقابلة، والخلفية الثقافية- الاجتماعية التى تنشأ فيهـــا المقابلـــة والرواية الشفاهية. ومثال على ذلك فى بحث تاريخ الحياة هو المـــنهج التفـــسيرى لسرد السيرة الذاتية (Biographic Narrative Interpretive Method [BNIM])، والذى يجمع بين منظور سيكو - دينامى، فى إطار تاريخى وسوسيولوجى واضحين

لتسهيل فهم "كل من العالم 'الداخلى' والعالم 'الخارجى' لـ 'أشخاص ناشئين تاريخيا فى أحوال ناشئة تاريخيا'، وخاصة التبادل التفاعلى لديناميات العالم الداخلى والخارجى" (Wengraf, 2006: 1; see also Chamberlayne et al., 2000). إن فحص ما يقال أو ما لا يقال، ما جرى تذكره أو ما جرى نسيانه، يمكن أن يلقى الضوء على حياة فردية، ولكن لأن الذاكرة اجتماعية، وتتعلق بالسيرة الذاتية على السواء، فإن رواية تاريخ الحياة لها صدى ثقافى أوسع.

ودراسة الحالة التالية ترسم لنا الخطوط العامة لبعض تلك الموضوعات، والعلاقة المعقدة بين الذاكرة الفردية، والخطابات السائدة، والتاريخ العام، وتظهر القدرة الثقافية لقصص الحياة فى السياسات المعاصرة. وهى تستكشف وقع القصص الشفاهية التى رواها أهالى أستراليا الأصليين، وتتأمل استخدام قصص الحياة كقوالب للشهادة والتسجيل التاريخى.

الجيل المسروق: الذاكرة والخطاب السياسى

علق الزعيم الأهلى والمؤرخ جاكى هاجينز (٢٠٠٥) قائلا: "ذاكرة الرواية الشفاهية للأهالى الأصليين محفوظة فى قصص الحياة وتجارب الحياة. ... يتذكر المسنون قصصا، وأغانى، ورقصات، ويعيشون قصصهم كمحاولة لأن يعيشوا حياة طيبة. وهكذا فإن ذاكرة الرواية الشفاهية الأهلية عملية حيوية، عملية نشاط جمعى، وهى فى الجوهر خريطة لإمكانات الوجود التى يمكن أن يعتمد عليها الناس لفهم التجربة" (p. 3). إن رواية المرء لتاريخ حياته له بعد سياسى مضاف بسبب التأثيرات العميقة للكولونيالية، التى أساءت تمثيل أو محت- فى ذات الوقت- تجارب الأهالى الأصليين عن طريق توليد معلومات "عنهم"، وكأن الأهالى

الأصليين ليست لديهم القدرة أو المسئولية للتحدث أو التصرف نيابة عن أنفسهم. وهكذا كان التاريخ الشفاهى وسيلة مهمة استخدمها الأهالى الأصليون أنفسهم لرواية تاريخهم الخاص مباشرة، بدلا من ترك تاريخهم يروى من طرف أناس غير أهليين أو من منظور عنصرى. وبناء على ذلك، يحتج هاجينز بأنه من المهم بنفس القدر أن جمع وتناول هذه التواريخ الشفاهية ينظم عن طريق فعاليات أهلية، حيث إن "الطريقة الوحيدة التى يمكن بها فهم ذاكرة الرواية الأهلية على نحو دقيق هى من خلال نماذج من الأهالى الأصليين" (2005: 3). فالتحدى ليس مجرد تسجيل الروايات الشفاهية، ولكن أن تعرف كيف تفسرها، وأن تفهم الطريقة التى أصبحت بها هذه الروايات متجذرة اجتماعيا. ليس هناك "منظور أهلى" واحد يتكشف فى العديد من قصص الحياة المختلفة، وتاريخ الحياة الفردية دائما جزء من تاريخ اجتماعى جمعى (p. 3).

اكتسب جمع الروايات الشفاهية الأهلية قوة دافعة من البحث والتوصيات التى قدمها تقرير **Bringing Them Home: Report of the National Inquiry into the Separation of Aboriginal and Torres Strait Islander Children from their Families (1997)** (إعادتهم إلى البيت: تقرير التحقيق القومى حول فصل أطفال الأهالى الأصليين وأطفال جزر مضيق تورّس عن عائلاتهم، الصادر ١٩٩٧). كان هذا التقرير بتكليف من حكومة الكومونولث، وتحت إدارة اللجنة الأسترالية لحقوق الإنسان والفرص المتكافئة، وقام التقرير بتوثيق ممارسات وتأثيرات العملية التى جرت تحت رعاية الدولة بالنزع التعسفى لأطفال الأهالى الأصليين وأطفال جزر مضيق تورّس عن عائلاتهم، ووضعهم مع عائلات بيضاء أو فى ملاجئ وبيوت للأطفال. ويعرف الأطفال المنتزعون تعسفيا وعائلاتهم بـ"الأجيال المسروقة". وفى بعض الولايات الأسترالية استمرت مثل تلك

الممارسات، والتى توصف بأنها نوع من الجينوسيد الثقافى، من سنوات العقد ١٩١٠ حتى سنوات العقد ١٩٧٠، وكانت لها تأثيرات مدمرة على العائلات والمجتمعات الأهلية. ويلتفت الباحثون الآن إلى دراسات الأزمة والهولوكوست ليفهموا التأثيرات طويلة المدى على مجتمعات وأفراد العائلات التى أجبرت على الانفصال عن أطفالها **(Haebich, 2002; Huggins, 2005)**.

تقدم إلى التحقيق القومى العديد من المنظمات الخاصة بالأهالى الأصليين وأكثر من ٥٠٠ من الأهالى، ومن ضمنهم أولئك الذين انتزعوا تعسفيا، أو كان لهم أطفال انتزعوا منهم. وكان كثير من المساهمات المقدمة على شكل تاريخ حياة، مقدم كشهادة على آثار سياسة انتزاع الأطفال(٤). وأوصى التحقيق، مصدقا على أهمية الروايات الشفاهية لمجتمعات الوقت الحاضر ولأجيال المستقبل، بتأسيس وكالات أهلية ملائمة لـ"تسجيل، وحفظ، وإدارة شهادات الأهالى الأصليين حول سياسات النزع التعسفى والذين يرغبون فى تقديم رواياتهم على شكل صوتى، أو صوتى- مرئى، أو مكتوب" **(Bringing Them Home, 1997: 18)**.

فى تقرير "إعادتهم إلى البيت"، جرى الاعتماد على الروايات والشهادات الشفاهية لنقل تأثير نزع الأطفال على الأفراد، والعائلات، والمجتمعات. وبالعودة إلى أسئلتنا الإطارية التى تدور حول كيف أن الروايات الشفاهية تدور فى محور الماضى، والحاضر، والمستقبل، تمثلت قصص الحياة بأنها تُظهر كيف تستمر تجارب الماضى فى تشكيل الحياة فى الحاضر، وكيف يستمر تأثيرها على أجيال المستقبل: "تستمر الإساءة فى الأجيال التالية، مؤثرة على أطفالهم وأحفادهم". وفى نفس الوقت، شكلت ظروف الزمن الكيفية التى رويت، واستقبلت، بها هذه الروايات والذكريات عن الماضى. فتلك الذكريات احتفظت بها العائلات والمجتمعات قبل التحقيق، لكن تدوينها أضفى تصديقا رسميا، وإن كان متأخرا، على تلك الذكريات،

حيث اعترف بها كدليل، ورأى أن روايتها والاستماع إليهـا أمـر مهـم للعمليـة السياسية للتعويض عن الظلم. ووجد "التقرير" أن "تجربة مؤسسة شـواه [التـى وضعت فيها شهادات الناجين من الهولوكوست] وتجربة هذا التحقيق هى أن الإدلاء بالشهادة بينما هى لا تزال مؤلمة للغاية بالنسبة للغالبية، هو غالبـا بدايـة عمليـة الشفاء" (p. 18).

> **الماضي باق جدا معنا اليوم، فى التخريب المستمر لحيـاة أهالى أستراليا الأصليين. هذا التخريب لا يمكن علاجـه إلا إن استمع المجتمع كله بقلب وعقل مفتوحين إلى قصص ما حـدث فى الماضى، وعندما يسمع ويفهم، يلتزم بالتعويض والمصـالحة**
> Human Rights and Equal Opportunity Commission,)
> .(Australia

منذ نشر التقرير، أصبحت رواية تلك القصص ذات أثر بعيد فـى تنـشيط النداء للحكومة الأسترالية لكى تقول "آسفة"، لكى تعتذر رسميا عن الأفعال الماضية الخاصة بالنزع التعسفى للأطفال. ورفض رئيس الوزراء المحافظ الـسابق جـون هاوارد أن يفعل هذا، محتجا بأن الجيل الحالى لا يمكن أن يكون مـسئولا، ولا أن يشعر بالذنب عن أفعال ارتكبت فى الماضى- وهى نظرة تتـسق مـع تشخيـصه لمنظور رؤية التاريخ محاطا بـ"شريط أسود".

وبينما نكتب الفصول الأخيرة من هذا الكتاب، كانت تأملاتنـا حـول هـذا الموضوع قد فوجئت بالأحداث الجارية. فعقب انتخاب حكومة عمالية فى أسـتراليا فى نهاية عام ٢٠٠٧، قدم رئيس الوزراء الجديد، كيفين رود، فى افتتاح البرلمـان يوم ١٣ فبراير ٢٠٠٨، اعتذارا رسميا للأهالى الأصليين. وأذيع هذا على مستوى

الأمة، وتوقف الناس عن العمل، وتجمعوا فى الأماكن العامة، وتحدثوا عن أين كانوا عندما سمعوا هذا الاعتذار، وكيف كان شعورهم إزاءه. وفى خطبته، أعاد رئيس الوزراء رواية قصة امرأة من الأهالى الأصليين، نونجالا فيجو، التى انتزعت من أهلها طفلة. وأثناء إعداد هذه الخطبة، قابل رئيس الوزراء المرأة الأهلية، وتحدث معها، وطلب منها الإذن باستخدام قصتها؛ ومثل هذا بروتوكولا أخلاقيا رمزيا مهما. فقصص "الأجيال المسروقة" تلك احتوت على ذكريات مؤلمة؛ وهى تخص أناسا، ولا بد من استخدامها باحترام، وبموافقة أصحابها. هذا الفعل- الاستشارة والسعى للحصول على الموافقة لاستخدام قصة حياة- اكتسب المزيد من الأهمية عندما كشف أن زعيم المعارضة، مستر برندان نلسون، فى خطبته ردا على اعتذار رئيس الوزراء، اعتمد على نحو انتقائى على التاريخ الشفاهى لامرأة من الأهالى الأصليين، فاى لينام، والتى لم يستشرها. استخدم مقتطفات من تاريخها، وحذف الأجزاء المهمة، لكى يدعم حجته بأن سماع كلمة الاعتذار من الأستراليين البيض لم تكن له أهمية كبيرة بالنسبة للأهالى الأصليين. وفى الأيام التالية، أذيعت هذه القصة على نطاق واسع فى الصحافة، مع اعتراض لينام على ما رأت أنه تمثيل نلسون المشوه لذكرياتها. وكتبت تقارير الصحف أن نلسون "سرق كرامتها عندما اقتبس كلماتها دون موافقة منها"؛ وأعلنت لينام: "كيف يجرؤ على استخدام كلماتى، هذا الكاذب اللعين. إنه لا يعرف مدى ما سببه ذلك من ألم، إنها خطبة سامة" (**The Age, 16/2/2008:4**).

وهكذا كان استخدام قصص الحياة جزءا لا يتجزأ من الإطار الذى استخدمته الحكومة- والحزب السياسى المعارض- لاعتذارها، وللاستقبال العام للاعتذار. هذه القصص أظهرت بالطرق الشخصية والمباشرة كيف أن السياسات السابقة قد أثرت على حياة الأفراد، وأضفت إلحاحا وفورية على المناقشات حول الحاجة إلى

معرفة أخطاء الماضى لكى ننظر نحو سياسات مستقبلية. وكما قال رئيس الوزراء فى خطبته: "هناك شيء أساسى على نحو مرعب فى تلك القصص المأخوذة من مصادرها المباشرة؛ إن الألم فيها لافح، يصرخ من بين الصفحات. إن ما ينطوى عليه فعل الفصل المادى للأم عن أطفالها من ظلم، وإذلال، واضطهاد، ووحشية فظة، هو عدوان عنيف على مشاعرنا وعلى جوهر إنسانيتنا".

من الصعب أن نكتب عن هذه الشهادات فيما يتعلق بمناقشة مناهج البحث، وكأن دروس الأساليب المنهجية يمكن استخلاصها منها خالصة. فلا يمكن أن تكون كذلك، وهذا جزء من القصة التى نحاول أن نقولها عن الموقع الاجتماعى لمناهج البحث. إننا نحاول أن نظهر الأهمية السياسية للروايات الشفاهية، وكيف يمكن إدراك روايات السيرة الذاتية والذكريات فى عمليات اجتماعية- تاريخية أوسع. فمناهج البحث ليست تقنيات منزوعة عن السياق؛ فلها تاريخ، وهى تتطور وتكتسب انتشارا فى أوقات وأماكن معينة، وكما نرى من هذا المثال، يمكن لهذه المناهج أن تصبح وسائل لإثارة ردود أفعال سياسية ووجدانية قوية. وفضلا عن ذلك، فإن الاعتذار الرسمى- الذى لقى تأييدا جماهيريا كبيرا- يوحى ليس فقط بأن سياسات الحاضر قد تغيرت، ولكنه يؤكد أيضا قدرة الشهادة وقصص الحياة على التأثير فى ذلك التغير السياسى والثقافى.

التراكم السردى- تداول وتحويل قصص الحياة

كنا نتأمل وقع الشهادة الفردية وقصص الحياة، والآن نلتفت لنلقى نظرة على روايات حول الأجيال المسروقة من ناحيتين أخريين. إحداهما جاءت من تحليل الإنتاج الاجتماعى للذاكرة والأخرى مفاهيم نفسية تحليلية للذاتية والصدمة. وهذا

أيضا يتطلب نقلة زمنية، إلى الفترة التالية لنشر تقرير "إعادتهم إلى البيت" في ١٩٩٧. ونبدأ بحجة المؤرخ الأسترالى باين أتوود الذى يقترح أنه في سنوات العقدين ١٩٨٠ و ١٩٩٠ كانت هناك كثرة من القصص حول فصل أطفال الأهالى الأصليين عن عائلاتهم، إلى درجة أن هذا أصبح موضوعا رئيسيا في التاريخ الأسترالى، وكانت له وضعية خطاب رسمى صادق. وبدلا من النظر إلى ذلك كتعرية لتاريخ محجوب، يفحص أتوود الإنتاج الاجتماعى لما يسميه "رواية الجيل المسروق". وهو يقول إن هذه الرواية القوية حاليا نشأت واكتسبت شعبية في زمن معين ونتيجة عدد من الخطابات والأحداث (Attwood, 2001: 183)، وليس الهدف المعلن له تفنيد وجود أو آثار الانتزاع التعسفى للأطفال، ولكن أن يسأل كيف ولماذا استطاع خطاب معين أن يدخل الذاكرة الجمعية ويصبح بهذا الانتشار الشعبى عندما حدث ذلك. كانت هناك قصص قبل ذلك عن نزع الأطفال، ولكن منذ سنوات العقد ١٩٧٠ فصاعدا سادت رواية "الأجيال المسروقة" على نحو غير مسبوق. وانتقلت روايات نزع الأطفال عن عائلاتهم من كونها قصصا محلية وعائلية لتصبح تاريخا قوميا. ويرى أتوود أنه بحلول سنوات ١٩٩٠ 'كانت قصص الإبعاد يعاد إنتاجها مرات ومرات، و/أو كانت تفسر وفق وجهة النظر التى يعبر عنها عنوان "الأجيال المسروقة"' (p. 196).

فالمشكلة التاريخية في تعريف أتوود هى: كيف يمكن شرح الأحوال التى مكنت من التعبير عن هذا الخطاب وسماعه، وأن يكون له فعاليته الثقافية والسياسية: كانت مهمته هى فهم "تاريخانية قصة الأجيال المسروقة" (p. 188)؟. وتشمل العوامل المُعَرِّفة هنا صياغة عبارة "جيل مسروق" في مقال شديد التأثير للمؤرخ بيتر ريد Peter Read في أوائل سنوات العقد ١٩٨٠ (Read, 1982)، وتأسيس مؤسسة "Link-Up" لإعادة الجمع بين أعضاء العائلة الأهلية المفصولين،

وتنامى الاهتمام ضمن الأستراليين غير الأصليين بما ينتجه الأهالى الأصليون من الفن، والقصص الخيالية، والتراجم الذاتية، وصيغة المناقشة والتحقيق، بما يـشمل استخدام الشهادة الشخصية، فى تقرير "إعادتهم إلى البيت".

واعتمادا على المناقشات النظرية حول التاريخ والذاكرة، يدعو ذلك عمليـة "تراكم سردى" أو "اندماج سردى"، والتى تندمج فيها مجموعة أحاديـث صـغيرة داخل رواية شفاهية صرحية كبرى". يحتج أتوود بأنه "هناك دائما فرق بـين مـا حدث فى الماضى وما سُرد ويسرد فيما بعد.. ليس التاريخ هو الماضـى، ولكنـه تمثيل وإعادة تقديم الماضى... تخضع الروايات التاريخية لتغيـر كبيـر بمـرور الوقت، فهى تتغير بتغير زمن سردها" (**Attwood, 2001:188**). وهو يؤكد أنه فى تفسير الذكريات نحن بحاجة إلى "أسلوب لا ينظر بسذاجة إلى النصوص من مثـل نصوص الأجيال المسروقة باعتبارها مصادر بسيطة تقـدم نافـذة شـفافة علـى الماضى، بل إلى منهج يعتبرها على العكس "نصوصا غامضة تتطلـب قـراءات معقدة قبل أن نستطيع القول بأنها تكشف حقيقة ماضية أو أنها تمنحنا رؤية داخـل تلك الحقيقة" (**p. 211**).

إلا أن أتوود يمدنا بمفاتيح قليلة بالنسبة لما يمكـن أن يكـون عليـه ذلـك الأسلوب المنهجى، فيما عدا تكرار الحجج عن الإنتاج الاجتماعى للذاكرة. وبـذلك فهو يكشف بعض القصور فى هذا الإطار عندما يركز بوضـوح علـى الأبعـاد السوسيولوجية للذاكرة ويستغنى عن التأثيرات السيكولوجية والبيوجرافيـة لأنـواع معينة من التجارب والذكريات. وبالإضافة إلى ذلك، فـإن روايتـه عـن الإنتـاج الاجتماعى لرواية الجيل المسروق تميل إلى اعتبار التجارب العائلية المؤلمة أحداثا تاريخية مجردة يمكن فحصها بطريقة مـستقلة دون التفـات للمـشاعر الجمعيـة

والفردية. وقد تكون رواية الجيل المسروق قد نشأت فى مناخ ثقافى معين، ولكن معالجته تفشل فى إقامة جسور بين الذاتى والعام، والثقافى والوجدانى.

قصص الحياة، والشهادة والميراث

فى رد فعل على مجادلة أتوود، تقدم روزان كينيدى (٢٠٠١) إستراتيجيات بديلة لتفسير التواريخ الشفاهية: "ليس ببساطة باعتبارها دليلا، وهو ما يضع المؤرخ فى دور الخبير، ولا كأدب، حيث إن ذلك يجعلها هامشية بالنسبة لأغراض التاريخ من البرهنة على ما حدث فى الماضى، ولكن كمساهمات فى الكتابة التاريخية بالأصالة عن أنفسهم". (2001: 117). ونحن نتأمل بإيجاز تبنيها لمفاهيم التحليل النفسى بالطريقة التى وظفها بها المؤرخ دومينيك لاكابرا للتحقيق فى قضايا الذاكرة، والصدمة، والتأثير فيما يتعلق بالهولوكوست. ويؤكد لاكابرا "إن فهم التاريخ من زاوية الوضعية الجديدة كتحليل متحفظ وجاد للأمر الواقع و... ارتياب فى أن الذاكرة بطبيعتها الأساسية ضعيفة التمييز وأقرب إلى الأسطورة... هذا الفهم يضع التاريخ فى ميدان تنويرى خالص قد يحرف الانتباه عن الحاجة المستمرة... لفحص تورط الباحث فى القضايا التى يبحثها" (مقتبس فى Kennedy, 2001: 122).

تؤكد كينيدى أن الشهادات، مثل شهادات الأجيال المسروقة، لا تُقرأ على نحو مفيد بطريقة "التناظر الجدلى" كمصدر لواقع تاريخى. "لا ينبغى تقييم الشهادات وفقا لحاجة البرهان أو الحقيقة". وتقترح بدلا من ذلك أنها "ينبغى قراءتها وتحليلها من أجل ما تقدمه من رؤية كاشفة للكيفية التى يفسر بها الناس الذين عاشوا الأحداث الماضية تلك الأحداث وتأثيراتها". وفضلا عن ذلك، فإن قيمة الشهادة بالنسبة للمؤرخين هى بالضبط أنها "كائنة ومجسدة". وقد يولِّد التعامل مع

الشهادات الشفاهية للتجارب الصادمة تحديات خاصة لأنها "محملة بالرثاء" وتثير ردود أفعال عاطفية قوية (p. 124). وبدلا من قمع مثل تلك الاستجابات المؤثرة، يؤكد لاكابرا أن المؤرخ يصبح نوعا من "الشاهد الثانوى" على "ماض لم يمض بعد" (p. 125). ومن خلال عملية تُشبَّه بعملية التحول النفسى التحليلى، يميل المؤرخ إلى "أن يصبح متورطا عاطفيا مع الشاهد وشهادته مع الميل لإبداء استجابة فعالة لهما" (p. 125). وتؤكد كينيدى فى مناقشتها أن المؤرخ، عندما يبدى استجابة مؤثرة على "تاريخ لا يزال يحدث"، فإنه يساهم فى نوع مختلف من المعرفة عن الماضى، نوع يشمل ذاتية المؤرخ وكذلك دور الذات فى التاريخ.

تاريخ الحياة بوصفه قصصا للمستقبل

كنا نناقش مقاربتين لتفسير قصص حياة "الجيل المسروق"- إحداهما تؤكد الإنتاج المجتمعى للذاكرة والتراكم السردى، والأخرى هى دور قصة الحياة كشهادة ودور الباحث كشاهد على تلك الشهادة. وكلتاهما تصور، وإن كان على نحو مختلف، بعض الطرق التى يدور فيها التاريخ الشفاهى حول الماضى والحاضر، وأيضا يثير التفكير فى المستقبل. ويكتب روجر سايمون حول الروايات الشفاهية المحملة بتوصية حول الأحداث المؤلمة، مؤكدا أنه:

> **مثل الدور الذى تقوم به الذاكرة التاريخية، حركة الوصية مفتونة دائما بالتزامات متوقعة بالفعل الانتقالى للتوصية- فعل الكتابة، التحدث، التخيل- لكى يحمل ميراثا تعليميا لأولئك الذين سوف "يأتون بعدنا". ويتوقف الأمر على كيف يتصور المرء هذا**

الميراث ووفق أية قواعد يكون المرء مستعدا للارتباط به، هذا هو التحديد الحاسم لجوهر الصلات بين الذاكرة التاريخية والحياة المدنية (5 :2005).

إن الإدلاء والاعتراف بالشهادة يمثل نوعا من الارتداد إلى الماضي في الحاضر، وتسجيلا من أجل المستقبل. وهكذا تمر التوصية عبر علاقات زمنية مختلفة، فتسجل ماض يعيش في الحاضر، كما تكشف عن إمكانية لنوع مختلف من المستقبل يمكن فيه تخيل العلاقات الاجتماعية والحياة المدنية من نواح أخرى. والتذكر يفعل ما هو أكثر من استدعاء الماضي إلى الحاضر: إن له نظرة مستقبلية متأصلة:

> نقطة الجدل... هى توقع مستقبل يمكن أن يصبح متخيلا وملموسا إلا أنه يظل غير محدد، اعتمادا على جوهر الوقت الذى يمكن أن تتحول فيه الوصية إلى ميراث. هذا الوقت الخاص بالوصول إلى ميراث له تأثيرات مهمة على مستقبل الحياة الاجتماعية. فهو محمل بإمكانية تعليم تحويلى مختلف تماما عن الوظائف الاجتماعية السائدة للذاكرة التاريخية، وتوقع تصرفات لازمة لبقاء المجتمعات الديموقراطية. وهكذا، فإن ما أهتم به هنا لا ينصب على الذاكرة كمكون للروح الشعبية المؤسسة للهوية الجماعية، بل كحالة للتعليم الضرورى لبقاء مشهد الديموقراطية. (Simon, 2005: 5)

ونذكر هنا موضوعين ينشأن من مجادلة سايمون، ويمكن أن نتبناهما بطرق مختلفة فى هذا الكتاب. أولا، تُفهم التوصية كشكل من الميراث يجرى توصيله إلى أجيال المستقبل. هذا يوحى بمسار بين-جيلى ضمنى فى قصص الحياة، حتى فى تلك التى ليست شهادة على أحداث مؤلمة وصادمة. فتمرير الذكريات شكل من الميراث بين الأجيال، وتوقع رواياتها المستقبلية وتذكرها من المحتمل أيضا أن يكون إطارا لكيفية بناء قصة الحياة. ثانيا، فكرة أن الذاكرة متصلة بحس إمكانية مستقبلية تضيف إلى اهتمامنا بالتغير الاجتماعى، وبمناهج تبحث التغير وتحدثه فى ذات الوقت. وفى الفصل الأول، ذكرنا احتجاج وندى براون بأن القدرة على خلق هويات سياسية يتوقف على القدرة على تخيل مستقبل، الأمر الذى بدوره "يتطلب شعورا بالحركة التاريخية" (Brown, 2001: 9). وعندما نضع تاريخ الحياة فى ضوء الطرق التى نناقشها هنا، سنرى أنه يمكِّن المرء من امتلاك حس بالحركة التاريخية وبحركة الذكريات عبر الزمن.

ومع دراسة الحالة الثانية لنا، يتغير تركيزنا من عمليات الذاكرة والترجمة الذاتية، لنفكر فى إطار تسلسل الأفكار الأصلى أو "تاريخ الحاضر". أولا نشرح ماذا يميز مقاربة "تاريخ الحاضر"؛ وثانيا، نناقش كيف أن هذه المقاربة تقدم طريقة لتأريخ ظاهرة تاريخ الحياة؛ ثم نتأمل بإيجاز مثالا لدراسة تاريخ حياة نسوية تتبنى مقاربة تسلسلية.

علم الأنساب وتاريخ الحياة

علم الأنساب عند فوكو يسعى لوضع الحاضر فى إطار إشكالى، فيفحص الاحتمالات المتشعبة، والأحداث التى من الصعب التنبؤ بها، وشروط الإمكانية التى

تنتج الحاضر وتجعله ممكنا. وكما هو الحال مع علم الاجتماع الانعكاسي (Bourdieu andWacquant, 1992; Kenway and McLeod, 2004)، فإن الهدف هو جعل الحاضر غريبا، والكشف عن "إبداعية عالمنا" (عادة في وقت حديث للغاية) (Burchell, 1993: 279). ويتطلب هذا استجوابا تاريخيا للموضع الذى يتكلم ويبحث منه المرء، مؤيدا بالنظرة التى تقول إن "أفضل أداة لفحص وتفكيك النظم القائمة هى التاريخ" (O'Farrell, 2005: 54). فتفسير علم الأنساب يتقدم وفقا لتحليل المحلى والمميز، وحسب تعبير فوكو، فإن منهج البحث "رمادى، شديد التدقيق وموثق بصبر" (1984: 76-7). ويمكن تمييز علم النسب التاريخى بتعارضه مع الأبحاث الغائية التى تهدف للوصول إلى الأصول التاريخية والروايات العظمى التى تنتج حكايات خطية للتاريخ كقصص للتقدم العنيد. وعلى العكس، فإن علم النسب التاريخى يعين حدود تأثيرات الانقطاعات، والحوادث، والنقائض فى الماضى والحاضر، وعلاقة السلطة/ المعرفة التى تنتج وتنظم الأنظمة السائدة للحقيقة و"أنظمة العقل" (and Heyning, 2004 Popkewitz, 1998; see also Baker).

ويتباين تحليل فوكو للعلاقة بين الماضى والحاضر مع الأفكار اليومية الخاصة بأن الماضى يعيش فى الحاضر. فعلم الأنساب، كمنهج للبحث، "لا يزعم الرجوع فى الزمن لاستعادة استمرارية لم تنقطع كانت هى العامل وراء تبدد الأشياء المنسية... فليس واجب هذا العلم إظهار أن الماضى موجود فعليا فى الحاضر، وأنه يستمر سرا فى دفع الحياة فى الحاضر، حيث فرض شكلا مسبق التحديد على كل تقلباته وتعاقباته". وعلى العكس، فإن علم الأنساب لا بد أن يتعرف على "الحوادث، الانحرافات الدقيقة– أو على العكس، التقلبات الكاملة– الأخطاء، والتقييمات المعيبة، والحسابات الخاطئة التى ولَّدت تلك الأشياء التى تستمر فى الوجود ولها قيمة بالنسبة لنا" (Foucault, 1984: 81). وفى هذه النظرة، "لا يعتبر

التاريخ مجرى يصل الماضى والمستقبل بقدر ما هو حقل من التـراكم الفوضـوى والدينامى الملىء بالثوران، والقوى، والنشوءات، والتشكيلات الجزئيـة" (Brown, 2001: 116). ويرى براون أن فوكو وهو يدفع الثغرات لتظهر فـى المقدمـة، جـاء تاريخه "مكانيا – منتزعا مفهوميا من الترتيب الزمنى" (2001: 116-17). وبنـاء علـى ذلك، إن لم يكن للتاريخ مسار يتجلى من خلاله، فإنه "لا يصف المستقبل" (p. 117).

يتسم مشروع خلق تاريخ للحاضر بحالة من الشك العميق حـول روايـات التغيير – خاصة عندما تؤخذ هذه الروايات باعتبارها على صلة بالتقدم– ورغبة فى كشف الخطابات كوسيط تأتى من خلاله المطالبات بالحقيقة. قـصص الحاضـر لا تقدم أية ادعاءات حول من نحن ومن أين جئنا؛ وإنما هى تبـدأ بالتـساؤل كيـف تشكلت الموضوعات فى أزمنة وأماكن معينة، فى تقـاطع تكنولوجيـات الهيمنـة وتكنولوجيات الذات (Baker and Heyning, 2004; O'Farrell, 2005). وهكـذا، مثلا، فإن الذات الحديثة لا ينظر إليها باعتبارها نتيجة لعملية تاريخية للحضارة أو التحرر، ولكن باعتبارها منظمة من قبل ممارسات الطائفة والانعكاس الذاتى، فردا مستقلا منعكسا على ذاته، تشكل فى عصر الفردية الليبراليـة الجديـدة وصـعود المعارف النفسية (Rose, 1999). ومن هذا المنظور، فإن مقابلة تاريخ الحياة نفسها تعتبر تكنولوجيا مثالية للذات وتجلّيا لثقافة الذات. وبالإضافة إلى ذلك، تقترح كيلى (2002) أن "إجراء البحث وأن يكون المرء موضعا له يقدمان... موقعـا لتفعيـل صيغ للذات" يصبح البحث فيها "تكنولوجيا حديثة تنتج أشخاصا يمكـن أن يكونـوا 'معروفين' من خلال دينامية تقدم فيها واقعة البحث حيزا تحويليا من الإنجاز لخلق الذات" (Kehily, 2002: 13). وبحث تاريخ الحياة، بسبب ما ينطوى عليه من حافز لحكاية القصص عن الذات، يضخّم من البعد الأدائى لمقابلات البحث.

ومن هذه الوجهة النظرية، يمكن وضع الاهتمام المنهجي الحاضر في قصص الحياة كفصل في تاريخ الذاتية. فهو يمثل تركيزا مكثفا على حيوات الأفراد، ويقدم إستراتيجيات لفحص وتشكيل الذات الانعكاسية. وبالنسبة للباحثين، يمكن أن يكون التركيز التحليلي عملية خاصة بالتغير الاجتماعي والتاريخي والسيري، لكن الوحدة الأولية للتحليل هي الرواية الشفاهية الفردية، وما تكثفه أو تصوره أو تحوله من الثقافة الأوسع. إذن، من ناحية، فإن وجهة النظر الفوكولدية حول ظاهرة تاريخ الحياة تعزز شكله ودوره كآلية للذات. إلا أنها، من الناحية الأخرى، يمكن تعبئتها كمنهج لتأطير تحليل روايات تاريخ الحياة كجزء من "تاريخ الحاضر". ولكي نستكشف هذه المفارقة، ترينا دراسة الحالة التالية كيف تتبنى سو ميدلتون وجهة نظر علم الأنساب في دراسة تاريخ الحياة لمعلمات نيوزيلاندا وتطويع الجسد والنوع في التعليم في القرن العشرين.

تعليم السير الذاتية: جعل الحاضر غريبا

كان مشروع ميدلتون (1998) معنيا باستكشاف الأفكار التي كان يُستمد منها التعليم في نيوزيلندا في الفترة من سنوات العقد ١٩٢٠ وحتى سنوات ١٩٩٠. وشمل البحث تحليلا سياسيا ووثائقيا، وعرضا نظريا ومقابلات تاريخ الحياة مع أجيال مختلفة من المعلمين يتذكرون تجاربهم كمعلمين وكطلبة في المدرسة. كانت أسئلتها الإرشادية هي: "كيف عايش المعلمون والطلبة في المدارس النظريات التعليمية والاجتماعية الأوسع لصانعي السياسة الحاليين؟ وبالعكس من ذلك، كيف تتشكل القرارات السياسية بناء على أفكار المعلمين والطلبة، ومقاومتهم، وسلوكياتهم اليومية؟ كيف "كُتب" التاريخ على أجساد المعلمين والطلبة؟ وكيف تؤثر

التطبيقات الانضباطية اليومية للمدرسة على اكتساب أجسامنا صفاتها الجنسية؟" (pp. 3-4). وتصف ميدلتون دراستها بأنها تاريخ للحاضر، وأنها: "بحث تاريخى عن انضباط الصفات الجنسية فى الحاضر" (p. 1). وتؤكد- وفقا لفوكو- أننا "لا بد أن نعرف الأحوال التاريخية التى حفزت تكوين مفاهيمنا. إننا بحاجة إلى وعى تاريخى بظروفنا الحاضرة" (Foucault, 1982: 209, in Middleton, 1998: 1). وهى توظف علم الأنساب كإستراتيجية لتفكيك ألفتنا لعقلانية الحاضر (and Baker Heyning, 2004: 28-33)، واهتداء بفوكو، تحتج بأن البحث لا ينبغى أن يتوقف حول أسئلة كبيرة من نوع "ما هى السلطة؟" أو "من أين يأتى النفوذ؟"، ولكن ينبغى أن يركز بدلا من ذلك على الأسئلة الصغيرة، "ماذا يحدث؟". وهذا يتطلب انتباها قويا للتصرف المجسد والتفاصيل اليومية الصغيرة والأحداث الحياتية التى تبدو عادية. وهى ترى أن روايات سيرة الحياة توفر طريقة لإضفاء "صوت وصورة" على التجريدات الاجتماعية والتواريخ التى تأتى من أعلى. "عندما توضع قصص الناس الحقيقيين داخل النظريات التعليمية والاجتماعية التى ندرسها فى المقررات الجامعية، تقدم بديلا لما تقدمه الكتب المقررة من تلك النظريات كنماذج أو خرائط سطحية" (p. 24).

ويصوَّر المعلمون كمشاركين نشطين فى هذا التاريخ، ليس كمتلقين لأفكار مفروضة ولكن كمصادر خلاقة وأهل للثقة لترجمة، وإنتاج، وتفعيل الأفكار التعليمية. وهكذا أمدتنا قصص الحياة بوسائل لتقدير وجهات نظر المعلمين، ولرواية قصة مختلفة عن الترتيب التاريخى المتلقى وفهم التاريخ التعليمى القادم "من أعلى لأسفل". ورغم أن ميدلتون تبدأ من موقف نظرى مختلف، فإن التوجه المنهجى لها يرجع صدى المنطقيين من المؤرخين الشفاهيين المبكرين الذين سعوا لتقييم آراء الناس "فى موقعها الفعلى"، ولرواية قصص معارضة للتاريخ السياسى والاجتماعى.

وبيانات تاريخ الحياة الذى عملت عليه ميدلتون تشمل عددا كبيرا من المقابلات مع نساء من معلمات المدارس الثانوية اللائى يتذكرن الوقت الذى قضينه كمعلمات أو طالبات على مدى الفترة منذ سنوات العقد ١٩٢٠ حتى أواسط سنوات ١٩٩٠ (٧٥ مقابلة أجريت فى الفترة من ١٩٨٤-١٩٩٥). وبمساعدة حزمة من برامج البيانات الكفء، تمكنت من صنع لقطات نصية سريعة لشرائح من الزمن. ويؤلف كتابها:

> **تجميعا لقصاصات نصية من أربع شرائح زمنية، ويقدم مدخلا إلى الأنظمة التتابعية والتزامنية للحقيقة فيما يتعلق بالتعليم والصفة الجنسية/ الجسم، وكما تصف مقابلاتى الهماكهن فى تطبيقات الانضباط اليومى للمدارس الثانوية التى كن فيها طالبات وتلك التى أصبحن فيها معلمات. (pp. 2-3)**

وتبدأ ميدلتون بتحليل لـ"أنظمة الحقيقة" الحالية فيما يتعلق بتعليم السلوك الجنسى، منظمة وفقا لثلاثة موضوعات: "سياسات الملابس والمظهر، وقضايا توزيع مساحات المدرسة للبنات والأولاد، والتكنولوجيات المعاصرة لإدارة سلوكيات الطلبة" (p. 9). وفى المقابلات، وجدت ميدلتون، على سبيل المثال، أمثلة كثيرة من الإشراف والتنظيم- يقوم بها الطلبة، والمعلمون، والآباء- بالنسبة للتباين الجنسى، بما يشمل تشويه سُمعة النسويات، تقسيم النساء ثنائيا كنساء صالحات أو عاهرات وكذلك أمثلة لمعلمات يقاومن المعايير المتعارف عليها للذكورة والأنوثة (pp. 21-4). ثم تتأمل الأنظمة والممارسات منذ سنوات ١٩٢٠ حتى أواسط سنوات ١٩٨٠، والتى تمثل المدى الزمنى الذى تجرى فيه ذكريات المشاركات كمعلمات أو تلميذات على السواء. وهى لا تقدم تحليلا مكثفا لعمليات السيرة الذاتية والذاكرة،

أو قصصا معينة، ولكنها تعتمد بكثافة عليها لبناء الأفكار والنماذج لتمدها بتـاريخ ثقافي. وبهذا فإن قصص الحياة تُحلل باعتبارها موضوعات ثقافية ومصادر لإعادة التفكير في الحاضر، وليست قراءة فى معانى ديناميات الذاتية الجماعية أو ظـلال الذاكرة، والأسطورة، والتشريد، كما سبق أن تناولنا ذلك بالمناقشة.

والتاريخ التقليدى للتعليم النيوزيلندى يرسم خريطة لأربع مراحـل منفـصلة من السياسات أثناء القرن العشرين، لكن ميدلتون وجدت أن هذا التسجيل التاريخى لم يكن منسجما مع تقسيم الدورات أو الموضوعات التى ظهرت فى مقابلاتهـا (p. 26). وعلى سبيل المثال، الفترة من ١٩٤٥ إلـى أواخـر سـنوات العقـد ١٩٦٠ توصف على نحو نمطى فى "القصة السياسية" بأنها زمن توسع الفرصة الاجتماعية للمساواة الديمقراطية (p. 26). لكن، فى المقابلات، كانت الموضوعات البارزة هى التوتر بين الكلام عن المساواة فى الفرص والفرق الصارخ بين الجنسين، والواضح فى تمايز المنهج الدراسى وفقا للنوع، مثل إجبار الفتيـات علـى دراسـة العلـوم المنزلية؛ وتأثير الأفكار التقدمية فى التعليم والحركات فى مناهج الدراسة المدرسية لتشمل "الحقائق البيولوجية للحياة"؛ و"الهلع الأخلاقى" حول جنسية الشباب؛ وتسييس الأزياء الرسمية للمدرسة والمظهر الجسدى.

وكان التحدى المنهجى المهم هو إن كان ينبغى تحليل البيانات وفقا للترتيـب الزمنى أو الموضوعى، ويوفر الحل الذى استخدمته ميدلتون لذلك منظورا مختلفـا عبر الأجيال حول تغيير الممارسات التعليمية: "كل قطاع مستعرض، أو شـريحة، من الزمن المرتب تاريخيا تظهر من وجهة النظر التى وجدتها فى ذاكـرة أجيـال متعددة- منهم أطفال، وبالغون، وراشدن فى ذلك الوقت" (p. 27). وليس هذا رواية خطية "لما حدث" من تغير تعليمى، ولكنها رواية تتغير عبـر الـزمن، والجيـل،

والموضوعات المتولدة فى المقابلات للقبض على الموجـات المختلفـة والأنظمـة المتعددة من الحقيقة، لتعطيل الحس العام للحاضر وإعادة طرح الماضى.

هذا النموذج يكشف قدرة الروايـات المرتبـة زمنيـا للتغيـر الاجتمـاعى والشخصى، وإمكانية استخدام الروايات الشفاهية وروايات تاريخ الحيـاة بطرائـق توقع الفوضى فى هذا الشكل. وبترتيب المادة على أساس الموضـوع بـدلا مـن الترتيب الزمنى، ووضع اللحظات الزمنية المختلفة متجاورة بدلا من روايتها، يؤكد عمل ميدلتون أهمية الإطار النظرى، وإستراتيجيات التحليل وصيغ التمثيل للتوصل إلى كيفية فهم الطاقات الكامنة لهذا النوع من البيانات.

استنتاج

التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة يجعلان التركيز الصريح للسيرة الذاتية مفيدا لمهمة بحث التغير الاجتماعى. فهما يقدمان طرقا لتوثيـق وفهـم كيفيـة التغيـر والظروف الاجتماعية كتجربة على مستوى الفرد، وكيف يمكن للتعبير عن قصص الحياة والذكريات أن يؤثر –فى حد ذاته– على التغيـر الشخـصى والاجتمـاعى. ويمكن قراءة روايات وذكريات المشاركين باعتبارها مسافرة عبر الزمن، مبنية فى الحاضر، وتستحضر الماضى، وتحوله، وغالبا تُروى بنظرة نحو المستقبل، نحـو ميراث جيلى وحس بإمكانات أخرى. وقد عرضنا، من وجهات نظر مختلفة، قيمـة فحص أبعاد الذاتية الجماعية لمقابلات قصص الحياة، وعدم قراءة الرواية على أنها مجرد مرآة للماضى، أو الحاضر. وتكشف مناقشتنا للـذاكرة، وألاعيـب التـذكر والنسيان، التفاعل المتبادل بين العمليات السيكولوجية والثقافية، على سبيل المثـال، فى الإنتاج الاجتماعى للذكريات أو الاعتراف السياسى بالشهادة.

وفى هذا الفصل وضعنا خريطة لبعض تاريخ وسياق ظهور المناهج الشفاهية وقصص الحياة، من ناحية لفهم الشكل الذى تأخذه تلك المناهج اليوم، والمجادلات المنهجية والتطورات التى شكلت هذا الحقل من الدراسة. وقد كانت أيضا جزءا من مجادلة أكبر حول الحاجة لتحديد موقع اللحظة– الزمان والمكان– الخاصة بمناهج البحث الاجتماعى والصيغ المختلفة، الفكرية والاجتماعية– السياسية، التى أمدتها بالحيوية. ودراستا الحالة الاثنتان والمناقشة حول الذاكرة تنبع من مواقف فلسفية وسياسية مختلفة، يقدم كل منها مصادر مفاهيمية مختلفة إلا أنها أيضا تظهر بعض نقاط التقارب. وتتصل مناقشة الإنتاج الاجتماعى للذاكرة بفكرة "التراكم السردى"، وهذا بدوره يرجع صدى فكرة فوكو حول أنظمة الحقيقة. وتحليل دينامية الذاتية الجماعية للمقابلات تدل على قراءات ذات خلفية سيكولوجية تحليلية للشهادة؛ ويتردد صدى الأجندة التحررية والسياسية للتاريخ الشفاهى المبكر فى المغزى الثقافى والشخصى للتاريخ الشفاهى للأهالى الأصليين.

ومناهج التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة لا يقتصر بحثهما على فرع معرفى أو تقليد بحثى وحيد، رغم أنهما كانا يوضعان مع نظريات وسياسات معينة فى أوقات مختلفة. إن نهضة التاريخ الشفاهى فى سنوات العقدين ١٩٧٠ و١٩٨٠ تتصل بنهضة التاريخ الاجتماعى والتاريخ النسوى، لكن هذه المناهج أيضا جزء من الدراسات الثقافية ودراسات الذاكرة المشتركة بين فروع معرفية متعددة؛ ومناهج قصص الحياة قد تتحالف مع التعليم التحليلى النفسى، أو الاجتماعى النفسى، لكنها أيضا تلقى اهتماما شديدا فى الدراسات الرمزية التفاعلية (Plummer, 2001) وكذا فى "تاريخ الحاضر" الفوكولدى. هذه الاتجاهات المتنوعة التى تتبنى التاريخ الشفاهى وقصص الحياة تتحد فى توجهها المنهجى إلى العمل مع

سرد السيرة الذاتية، ولرؤية هذه باعتبارها متضمنة فى، وتلقــى الــضوء علــى، عمليات اجتماعية–ثقافية وتاريخية أوسع.

وبالنسبة للباحثين الاجتماعيين، يمكن أن يكون من الصعب العمــل خـــارج المنطق التمثيلى والزمنى لـــ الماضـــى– الحاضــر– المــستقبل (**Harootunian, 2007**). ومن بنية سرد السير الذاتية إلى الحكمة الشعبية المتلقاة والتواريخ القومية، يبدو هذا الترتيب الزمنى والتاريخى بديهيا وأساســيا. إلا أن المنـــاهج التاريخيـــة والسيرية التى ناقشناها فى هذا الفصل تشير إلى بعض الطرق التى يمكن بها تغيير هذا الترتيب الخطى، ويظهر كيف أن التركيز المؤكــد علـــى الماضـــى لا يمنـــع الحاضر والمستقبل من أن يكون موجودا داخله. وفى الفصول التالية نتوســـع فـــى هذه الموضوعات من خلال مناقشة الأبعاد الزمنية للمناهج البحثية المختلفة.

نقاط تلخيصية

- التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة مقاربتان مشتركتان بين علوم مختلفة تعتبر السرد الشخصى والذكريات مسارا لاستكشاف العمليات الاجتماعية والتاريخية.
- المقابلات هى المنهج الأساسى لاستنباط السرد، لكنها يمكن أن ترفد بأشياء أخرى، مثل النصوص أو الصور– "وثائق الحياة".
- رغم أن الماضى يجرى توكيده، فإن فهم العلاقة بين الماضى والحاضر أحد ملامح العمل مع التاريخ الشفاهى، حتى أن الحاضر يتخذ أفضلية لفهم الماضى.

- هناك أنواع مختلفة من العمل مع التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة، ومنها التواريخ المحافظة والاسترجاعية، وأنواع أخرى ذات أجندة سياسية تحررية معلنة، حيث يكون الماضى مفضلا لصياغة قصص، وتقاليد، وإمكانات جديدة.
- أدى نقد التجريبية الخاصة بالتاريخ الشفاهى المبكر إلى مزيد من التركيز على الذاكرة- على الإنتاج الاجتماعى للذاكرة وللذكريات الفردية.
- المقابلة موقع للبوح وإنتاج السرد، والعلاقة الذاتية الجماعية بين من يجرى المقابلة ومن تُجرى معه المقابلة جزء لا يتجزء من هذه العملية.
- قصص الحياة سجل للمستقبل، ميراث يمكن تمريره إلى أجيال المستقبل. وكشكل من أشكال الشهادة، فإن قصص الحياة يمكن أن تقدم عودة إلى الماضى، وتحدث التغيير فى الحاضر، وتعبر عن إحساس بأكثر من مستقبل آخر ممكن.
- السرد الشخصى وقصص الحياة تنسجم مع ثقافة معاصرة عن النفس، وفيها تجد الرواية عن النفس، حفزا وتقديرا. ولكن هذا السرد أيضا لديه القدرة الكامنة لتعطيل الألفة مع الحاضر وتقديم وجهات نظر لنقد البداهات الثقافية.
- هذه المناهج السيرية التزمها باحثون يعملون فى علوم فكرية متنوعة، وأفرع معرفية وحركات سياسية مختلفة. إنها مناهج توثق، وفى ذات الوقت تنطوى على إمكانية إحداث التغير الاجتماعى والشخصى.

مصادر للاستزادة

Samuel, R. and Thompson, P. (eds) (1990) The Myths We Live By. London: Routl edge.

وضع هذا الكتاب يده على حالة من التغير في التاريخ الشفاهي، وعرض ارتباطا بتعقيدات الذاكرة، والأسطورة، والذاتية الجماعية في رواية قصص الحياة.

Rintoul, S. (1993) The Wailing: A National Black Oral History. Port Melbourne: William Heinemann.

مجموعة من مقابلات التاريخ الشفاهي لما لا يزيد عن ٧٠ من الأهالي الأصليين لأستراليا، أجراه رينتول **Rintoul** في أواخر أعوام ١٩٨٠.

Chamberlayne, P., Bornat, J. and Wengraf,T. (eds) (2000) The Turn to Biographical Methods: Comparative Issues and Examples. London: Routledge.

مع مقدمة لتاريخ مناهج السيرة الذاتية، يحتوى هذا الكتاب على فصول حول أمثلة من مناهج تاريخ الحياة والسيرة الذاتية، ويعتمد على، ويندمج مع، وجهات النظر السيكولوجية والتاريخية-الاجتماعية.

Cosslett,T., Lury, C. and Summerfield, P. (eds) (2000) Feminism and Autobiography: Texts, Theories, Methods. London: Routledge.

هذا الكتاب يناقش السيرة الذاتية النسوية وبحث السيرة الذاتية، بما يشمل التاريخ الشفاهي وتاريخ الحياة والسيرة الذاتية التاريخية.

Plummer, K. (2001) Documents of Life 2: An Invitation to Critical Humanism. London: Sage.

هذه طبعة معدلة تعديلا جوهريا لكتاب بلامر المهم الصادر في ١٩٨٣. والكتاب يرسم الخطوط العامة للمقاربات المختلفة لبحث السيرة الذاتية ويناقش عملية البحث، بما يشمل العمل مع المقابلات، وإدارة البيانات والكتابة.

Perks, R. and Thomson, A. (eds) (2006) The Oral History Reader (2nd edn). Abingdon: Routledge.

كتاب للقراءات الكلاسيكية والحديثة فى التاريخ الشفاهى، مع مقدمة شاملة– يمد بنظرة عامة مفيدة ومقدمة للحقل العلمى.

Hamilton, P. and Shopes, L. (eds) (2008) Oral Histories and Public Memories. Philadelphia, PA: Temple University Press.

هذه المجموعة المحررة تشمل نظرة عامة مفيدة للعلاقة بين التاريخ الشفاهى، والمنح التعليمية للذاكرة، والتاريخ العام؛ ويشمل الكتاب أمثلة لدراسات بحثية ومشروعات للتاريخ الشفاهى من أجزاء كثيرة من العالم تلقى الضوء على هذه العلاقات.

الهوامش

١) وصف التاريخ بأنه محاط "بشريط أسود" كان له أثر شعبى مباشر فى أستراليا بسبب انتشار عادة بين لاعبى كرة القدم الأستراليين بوضع شريط أسود أثناء المباريات تكريما للراحلين من اللاعبين أو الأشخاص المتصلين بناديهم.

٢) فى يونيو ٢٠٠٦، قامت الحكومة الفيدرالية الأسترالية برعاية مؤتمر قومى للخبراء (المؤرخين، السياسيين، المعلمين، قادة المجتمع ورجال الأعمال) لبحث تعليم التاريخ الأسترالى فى المدارس.

٣) بالعمل من داخل مواقع دراسية مختلفة، شارك دانييل برتو وبول ثومبسون الالتزام بقيم تاريخ الحياة لفهم الديناميات الاجتماعية والتاريخية، الأمر الذى أدى للتعاون فى مشروعات مهمة متعددة، منها دراسة عبر الأجيال للعائلات والحراك الاجتماعى، الأمر الذى سنتناوله بالمناقشة فى الفصل السادس.

٤) يمكن أن نجد مختارات من هذه القصص على موقع لجنة حقوق الإنسان وتكافؤ الفرص على الإنترنت:

www.humanrights.gov.au/socialjustice/bth_report/about/personalstories (.html). انظر أيضا المشروع التاريخى، تقرير "إعادتهم إلى البيت" فى المكتبة القومية لأستراليا: **Bringing Them Home Oral History Project at the National Library of Australia: www.nla.gov.au/oh/bth/**

تنـويـه

باسيرينى (٢٠٠٢)، اقتباس ص ٩٥: هذه الورقة مقتبسة بإذن كــريم مــن لويزا باسيرينى.

الجزء الثانى

أن نكون معا

٤

البحث الطولى الكيفى

> فائدتان تعوضاننا عـــن التقـــدم فى الـــسن تـــستحقان تسجيلهما بينما تؤكد الحالة نفسها. الأولى هى اكتساب وجهة نظر نتيجة حيازة القدرة على تنميق الروايـــات الـــتى كانـــت لسنوات تتفتح إلى جانب روايات المرء ذاته، تـــشذيبات قـــد يظهر أنها تمد قصة معينة بخاتمة، رغم أن الختام لا يكون يقينيـــا أبدا، فهناك دائما بُعد جديد من الممكن إضـــافته. والفائـــدة الأخرى تصديق على إدراك أكثر عمقا لأصالة الميثولوجيـــا... والشعر، والرواية. (Anthony Powell, 1997: 560)

نادرا ما استطاعت عملية تمثيل الحياة الإنسانية والاجتماعية تحمـــل تـــرف العمل بنفس سرعة الزمن كما "يُعاش". لقد كتبت سلسلة روايـــات أنتـــونى بـــاول بعنوان "A Dance to the Music of Time" ("رقصة على أنغام الـــزمن") علـــى مدى مهنى طويل، وتروى قصة جيل من وجهة نظر مؤلف متزايد التأمل والتقـــدم فى السن. ومثل عمل بروست الذى ألهمه(*)، أصبحت تلك الروايات مصدرا لفهـــم تعقيد الزمن كتجربة ذاتية ومعاشة. وهناك تمثيل أيقونى آخر لـــــ "الوقـــت كمـــا

(*) مارسيل بروست: المقصود هنا العمل الصرحى الكبير لبروست "بحثا عن الزمن الضائع"، وهو رواية أقرب إلى السيرة الذاتية من سبعة أجزاء. [المترجمة].

يُعاش"، وهو المسلسل التليفزيوني "7 Up"، لمايكل آبتد، والذى يتابع عرضا لأربعة عشر شابا بريطانيا منذ عمر السابعة حتى أواسط العمر، يجرى مقابلات معهم كل سبع سنوات. وهذه السلسلة لا يزال لها تأثير هائل على الجمهور عبر العالم، مثيرة التأمل حول عمليات التقدم فى السن ومرور الزمن. وقد أصبحت الإذاعة المتعاقبة أحداثا جمعية، حيث يقابل الملايين بالنيابة عنهم قوى القدر، والفرصة، والظروف التى هى قوام كل السير الذاتية. والسلسلة التى بدأت كتجربة اجتماعية لاختبار قوة الطبقة الاجتماعية كعامل حاسم فى فرص الحياة، أصبحت مشروعا وجوديا وسيكولوجيا على نحو متزايد، حيث أخلاقيات هوس المراقبة والتمثيل مركزية بقدر نظريات الإنتاج الاجتماعى التى ألهمته. وقد انسحب المشاركون، ثم عادوا وتحدثوا إلى المخرج، الذى تحرك بدوره من موقعه خلف الكاميرا ليصبح الشخصية المرئية والمسئولة داخل دراما الحياة الواقعية.

وفى الزمن المعاصر، أصبح تليفزيون الواقع هو النوع الإبداعى الذى يقدم من خلاله هذا الإحساس بالحياة كما تُعاش (durée أو "الدوام") ممثلا بوضوح شديد- برامج مثل Big Brother، وأمثاله التى لا تحصى- تعطى المتفرجين إحساسا بأنهم يشاهدون أحداثا تتجلى فى "الوقت الحقيقى". وعندما كتب مارك كوزينز عن معرض رئيسى حول فن الأفلام الوثائقية التى عرضت فى معرض تيت ليفربول Liverpool Tate Gallery عام ٢٠٠٦، اقترح أن هذه النظرة "الطائرة فوق الجدار"(*)، والتى قدمتها الأفلام الوثائقية فى سنوات العقد ١٩٦٠، مثل فيلم 'The Family'(العائلة)، أتاحت موقعا فنيا جديدا لتصوير الواقع سينمائيا،

(*) تعبير يقصد به النظرة الحرة القادرة على الملاحظة دون أن يلحظ أحد وجودها. [المترجمة].

حيث يمكنك "أن تترك العالم الواقعي يديرك، إلا أنك تديره أيضا، وتخرجه، وتشكله برقة، أو تكتبه تقريبا، أو حتى تعيد تمثيله" (Cousins, 2006: 46). إنه التوسط غير المريح لتلك الحدود هو ما أصبح بؤرة النوع الفنى "تليفزيون الواقع"، حيث تقدم إذاعة "حية" لمدة ٢٤ ساعة "الانطباع" بأننا نرى الحياة كما تُعاش في نفس الوقت الذى تدور فيه المجادلات حول المونتاج، والتمثيل، ويكشف الإخراج والمعالجة بنية "الواقع" الذى نسعى لأن نكون شهودا عليه. ويرى كوزينز أن الفيلم الوثائقى شكل فنى، "لإدارة الواقع أو إخراجه" إلا أنه "يستجيب للأحداث فى العالم الواقعى"، بتوظيف "بالتة جمالية- اجتماعية" (Cousins, 2006: 46).

البحث فى "الزمن الواقعى"- الدراسات الطولية

والبحث الاجتماعى الذى يتبع الإيقاعات الزمنية للحياة المعاشة نادر أيضا. وتميل الدراسات إما للاعتماد على حكايات استعادية للماضى (مثلا، قصص الحياة)، أو أنها تسعى لالتقاط الاتجاهات والميول عن طريق تكرار مسح سابق مع جماعات مختلفة من الناس. وليس من المعتاد غالبا أن يتابع البحث نفس الأفراد أو الجماعات على مدى فترات زمنية ممتدة. والموجود من تلك الأبحاث يقع فى ثلاث مناطق رئيسية (رغم ذلك، وللاطلاع على مناقشة أكثر اكتمالا، انظر Elliot et al., 2007). النوع الأول، مجموعة من الأعمال ضمن الأنثروبولوجيا اختصت بدراسة مجتمع واحد صغير على مسار عمل مهنى كامل (فى بعض الحالات مثل تلك الدراسات أصبحت بين الأجيال عندما يحاول الأنثروبولوجيون "تمرير العباءة" إلى الزملاء الأصغر وطلبة البحث العلمى). والمؤلفات المنهجية المهمة ذات الصلة بـ"العمل الميدانى طويل المدى" تستكشف مجموعة من القضايا العملية، والأخلاقية والمعرفية (Foster et al., 1979; Kemper and Peterson Royce, 2002). والنوع

الثانى، الدراسات الطولية (وأكثر هذه الدراسات شهرة والمعروفة جيدا، دراسات كمية) تختص بجداول لأفراد جرى بحثهم على فترات منتظمة[١]. وبنفس الطريقة التى استخدمها مسلسل 7 Up بالعودة إلى شخصياته على مر الزمن، فإن هذه الدراسات الطولية تختص بسلسلة من الـ"المسوح"، حيث تُجمع البيانات من الجدول. ومجموعات البيانات الناتجة لها من الوزن، والتعقيد، والتواصلية ما يعنى أن مشروع التحليل لا ينضب، وأن أرشفة ومشاركة مثل تلك المجموعات من البيانات مع جماعة من المحللين الثانويين عنصر مركزى لتحقيق ما تنطوى عليه مثل تلك الأبحاث من إمكانات، وما بذل فيها من جهد ومال. وبينما تكون مثل تلك الدراسات مكثفة المصادر، فإنها تقدم منظورا فريدا للتغير الاجتماعى يدل على وجود الفرصة لتفكيك التأثيرات الجيلية من موقع الفرد خلال مسار حياته.

والنوع الثالث من هذه الأعمال هو مجال اخترنا التركيز عليه فى هذا الفصل: الدراسات الطولية الكيفية، والتى "تسير جنبا إلى جانب " الأفراد أو الجماعات على مر الزمن بطريقة تميز الحاضر الذى يلتقون فيه (Corsaro and Molinari, 2000; Leisering and Walker, 1998). وهى مقاربة تقع فى مكان ما بين مقاربة مسلسل 7 Up الوثائقية التأملية، والمشروعات الأكاديمية واسعة المجال للدراسات الإثنوجرافية والجماعية طويلة المدى. قدم برين نيل وجنيفر فلاورديو (٢٠٠٣) تعبيرا سينمائيا مجازيا للتمييز بين قيمة المقاربات الكمية والكيفية للبحث الطولى، والذى من خلاله يتم تصوير السابق على أنه ينتج سلسلة من الصور الساكنة، لحظات تجمدت فى الزمن، تقدم مشهدا "من منظور عين الطائر" للحياة الاجتماعية البانورامية فى مجال النظر، لكنها تفتقد أى تفاصيل". وفى تطوير للتعبير المجازى، يؤكدان أنه رغم أن البيانات الكمية الطولية لها القدرة على تصوير "رواية عظمى... فإنها فيلم تكون فيه تعقيدات الحبكة واللف والدوران

المتدفق لخطوط القصة الفردية، خفية عن الأنظار" (Neale and Flowerdew, 2003: 192). وفى المقابل، فإن المقاربة الكيفية للبحث الطولى قادرة على تقديم لقطة "مقربة" للحياة الواقعية، مع تركيز على الحبكة، وخط القصة، ونقاط التحول، واللحظات الفاصلة.

فهل تتفادى دراسات المقابلة المتكررة مشكلة تقديم سلسلة من اللقطات السريعة (رغم أنها ذات شخصية كيفية)؟ هذا السؤال يمثل تحديا وضعته المتخصصة فى علم الاجتماع ليز ستانلى (2007). فاعتمادا على تقليد راسخ لدراسات السير الذاتية، تشير ستانلى إلى التسلسلية المتأصلة للرسائل والمراسلات، التى هى بالتعريف مرتبة بحيث يأتى الشىء بعد الآخر. ومصادر البيانات تلك تزود استكشاف العمليات الزمنية والمؤسسية بطريقة تساعدنا على فهم الحيز الواقع بين الفردى والاجتماعى، بين ما يختص بالسيرة وما يختص بالتاريخ. واستخدام تقنيات توليد البيانات التى تتسم بالاستمرار (على سبيل المثال، اليوميات المكتوبة والمرئية، والملاحظات الإثنوجرافية) وكذلك جمع وثائق الحياة الموجودة من المشاركين على أساس متنام، كل ذلك جزء مهم من جيل جديد من المقاربات المنهجية المختلطة للبحث الكيفى الطولى (Timescapes, 2007).

والدراسات الطولية الكيفية ليست دائما مقصودة. فقد وجد الباحثون واسعو الحيلة طرائق للعودة إلى موضوعات البحث و/ أو مواقعه على مر الزمن، ومثل تلك المشروعات يمكن أن تعكس حياة كاملة من الدراسة والبحث. إن دوام مثل تلك الدراسات يكشف بغاية الوضوح العلاقة بين حيوات الأفراد والعمليات الاجتماعية والتاريخية الأوسع. وكلما كانت الدراسة أطول كانت الرؤية أعظم، وكلما قدمت نماذج مدهشة تشمل وقع الليبرالية الجديدة على تشكيل الهويات الخاصة بالنوع (Walkerdine et al., 2001)، ووقع الإصلاح التعليمى على هويات التعليم

المدرسى (Pollard and Filer, 1996, 1999). ومثل هذا البحث يميل للتعرف على علاقة ذات اتجاهين بين الباحث وموضوع البحث، ويناضل مع مباهج ومخاطر وجهة نظر متغيرة باستمرار يمكن منها رواية القصة (Andrews, 2007). وبملاحظة شخصيات البحث ودعوتهم للتأمل فى الماضى ولتقديم أنفسهم إلى المستقبل، يمكن لهذه الدراسات أن تقبض على شيء من العملية التى من خلالها تصنع الذات ويعاد صنعها بمرور الزمن، الأمر الذى أطلق عليه ماكلويد "الطبع أثناء التكوين" (McLeod, 2003) ويصفه ستانلى بأنه "الصيرورة المستمرة" (Stanley, 2007). وقد كان التمسك بهذا المنهج لبحث التغير الاجتماعى والشخصى النقطة المركزية فى تعاوننا البحثى ونشأة هذا الكتاب. ونبدأ هذا الفصل برواية قصة كيف اكتشفنا البحث الطولى الكيفى، محاولين أن نعثر على المنهج داخل سياق ثقافى وتاريخى وبيوجرافى. وبتوفير روايات مفصلة خاصة بدراستينا نحن أنفسنا، نأمل أن نقبض على الطريقة التى يمكن بها لهذا النوع من البحث أن ينتج رؤى خاصة فى معانى التغير الشخصى والاجتماعى، ورفع مجموعته الخاصة من التحديات المعرفية والأخلاقية والعملية.

لماذا الآن؟ بزوغ جديد لمناهج البحث

تتزايد فى وقتنا الحالى شعبية البحث الطولى الكيفى كمنهج بحث اجتماعى، نتيجة تصادف عدد من الاتجاهات. فداخل حقل الدراسات الطولية هناك وعى متزايد بالحاجة لإمداد الاستبيانات بالمزيد من المناهج المفيدة. وداخل مجتمع البحث الكيفى هناك اهتمام متزايد بالعمليات الديناميكية والإمكانيات التى تعد بها مناهج البحث الطولى. وقد ظهرت مناهج إعادة المقابلة من دراسات التقييم الممولة

حكوميا كمقاربة مرنة وسريعة الاستجابة لفهم التدخلات ذات المدى الأطول والآثار غير المقصودة (Corden and Millar, 2007; Molloy et al., 2002). وفى دوائـر السياسات الاجتماعية، ينتظر من البحث الطـولى الكيفـى أن يقـدم رؤى ثاقبـة للعمليات الاجتماعية والسيكولوجية تدعم السلوكيات التى يتزايد اهتمام الحكومـات الغربية بتعزيزها: المسئولية الاجتماعية، المخاطرة، المرونة وسهولة التكيف، إلخ، وعمليات أخرى "طوال الحياة" مثل التعليم، والعمـل، والترفيـه (Halpern et al., 2004; Jones, 2005).

ومع ذلك، هناك بعد شخصى للأنماط الجديدة فى التفكيـر الـسوسيولوجى. فرغم أن الباحثين بشكل عام يعملون بشكل مستقل وفـى تكامـل، فـإن الطبيعـة الجمعية والمجتمعية للمؤسسة الأكاديمية تعنى أننا يمكن أن نصل إلى نفس المكـان فى نفس اللحظة، لأسبابنا الخاصة. وقد أصبحنا نحن الاثنتين منهمكتين فى أبحـاث كانت كيفية وطولية على السواء نتيجة لإحباطنا من اللقاءات الفردية فقط، ورغبتنا فى تجاوز "الروايات" التى أنتجها الأفراد لاكتشاف ماذا يحدث لهم على مر الزمن. وبدون أن نعرف، صمم كل منا على حدة دراستين متشابهتين، فى نفس اللحظة من الزمن، ولكن على جانبين متضادين من العالم. كانت جولى وزميلتها لـن ييـتس Lyn Yates مهتمتين بعملية التعليم المدرسى، وقامتا بعمل دراسة سوف تمكنهمـا من رؤية ما حدث لـ٢٦ تلميذة فى أربع مدارس عليا متباينـة أثنـاء دراسـتهن الثانوية (McLeod and Yates, 2006). وكانت ريتشيل وزميلتها جانيـت هولانـد تشتركان فى اهتمامات متشابهة وصممتا دراسة تابعتا فيها مائة من الشباب يعيشون فى خمسة مواقع متباينة فى المملكة المتحدة، واستمرت متابعتهم لفترة وصلت إلـى عشر سنوات (Henderson et al, 2007).

فى البداية تصور كل من الفريقين البحثيين أنهما يتبعان نوعا جديدا من المنهجية والتصميم البحثى يضع تحديات أمام عاداتهن وافتراضاتهن كباحثات اجتماعيات. وقبل ذلك كانت خبرتنا محدودة بالعملية المستمرة لجمع البيانات والتحليل، والمطلوبة لنسق دراساتنا القائم على المقابلات المتكررة. وكنا نشترك فى الرغبة لأن نجد آخرين مرتبطين بعمل مماثل، وعلى مدى الأعوام القليلة التالية بدأنا نقابل أناسا أكثر يقابلون تحديات مماثلة. وفى عام ٢٠٠٢ كنا فى مجموعة أقامت حلقة دراسية عالمية فى لندن، دعونا إليها باحثين مرتبطين بالبحث الطولى الكيفى من أنواع مختلفة. وشمل هذا أناسا يعملون فى أبحاث التعليم، والجنس، والمخدرات، وفى دراسات العائلة ودراسات الشباب. وفى العدد الخاص من الجريدة الذى نتج عن هذا الحدث، صورت هيئة التحرير باختصار الجو الفكرى الذى جعل المناهج الطولية الكيفية تتسم بجاذبية متزايدة.

> تكمن أصول هذا العدد الخاص فى تركيبة من الإثارة والقلق؛ الإثارة لأننا نعمل بمنهجية واعدة جديدة، والقلق من أن ذلك يحدث دون وجود مؤلفات مناسبة نستمد منها، وتناقش القرارات المعرفية أو العملية التى نتخذها. ولأسباب متنوعة، دخل البحث الطولى الكيفى ذخائرنا من تصميمات الدراسة. كان الممولون وصانعو السياسات يزدادون اهتماما بفهم متكامل للطريقة التى تلتقى بها عوامل متشعبة لتتحكم فى السلوك. وكان هناك اهتمام متزايد بالتفتح الزمنى للسلوك والأفكار مثل "المهنة" فى مناطق مثل استخدام المخدرات وعمل الجنس، مع الإحساس بأن مجموعة من البيانات الواعدة يمكن أن تكون أكثر كشفا من الروايات الاستعادية. وكانت هناك

> تطورات نظرية دفعت إلى تجديد الحماس للجدل حول الوساطة البنائية مع افتراضات حول "مشروع الذات الانعكاسي" فى عصر يحتج البعض بأنه عصر الفردية وهدم التقليدية".
> **(Thomson et ak, 2003: 185)**

وكان هناك آخرون أيضا يعملون على مشروعات مماثلة. وفيما بعد فى نفس ذلك العام نشرت مجموعة من باحثى سياسة المملكة المتحدة عرضا لمؤلفات المناهج الطولية الكيفية ذات العلاقة بدراسات التقويم (**Molloy et al., 2002**). وفى عام ٢٠٠٣، قام جونى سالدانا، وهو أكاديمى من أصل أمريكى يقوم بدراسات عن المسرح، بنشر دليل مفصل للبحث الطولى الكيفى (**Saldana, 2003**). ومنذ نشر البحثين، تسارع نمو الإثارة حول المنهج. وفى عام ٢٠٠٤، كلف مجلس الأبحاث الأكاديمية (مجلس البحث الاقتصادى والاجتماعى **Economic and Social Research Council [ESRC]**) فى المملكة المتحدة جانيت هولاند وزميلاتها بالقيام بعرض للمؤلفات كجزء من دراسة جدوى لاستثمار رئيسى فى البحث الطولى الكيفى، وكان أمامهن اكتشاف أنه بعيدا عن كونه منهجا جديدا أو تصميما بحثيا "جديدا"، فإن ما كان "جديدا" فى البحث الطولى الكيفى هو الاعتراف بأن هذا المنهج ينطوى على إمكانية إنتاج أنواع المعرفة التى يمكن أن تعالج بعض القضايا الملتهبة فى يومنا هذا: أسئلة عن العملية وليس عن المحصلة النهائية.

تعريف البحث الطولى الكيفى (QLR)

كشف هذا العرض للمؤلفات عن كمية كبيرة من الدراسات التى وظفت مناهج كيفية لاستكشاف الظواهر عبر الزمن (**Holland et ak, 2006**). وقد ركز العرض فى الأساس على نوع معين من البحث الطولى الكيفى، يتميز بالتخطيط

المسبق، والتطلع إلى المستقبل، وبأنه كيفى، وطولى، ووحدة التحليل عادة، وإن لم يكن دائما، هى الفرد. هذا النوع من التصميم الطولى الكيفى مفيد على نحو خاص عند محاولة فهم التفاعل بين الحركة الزمنية والجغرافية وبين عوامل الوساطة (الوكالة) والعوامل البنائية. وعلى سبيل المثال، دراسة الانتقالات؛ كيف تتشكل "المجازات"؛ كيف تحدث التغيرات والتكيفات؛ تأثير الأحداث المهمة والظروف المتغيرة؛ تحول سياسات معينة، عمليات التنمية، والعمليات التزايدية، والتراكمية؛ وإحراز قدرة واقعية على السببية. وتم تعريف المجالات التى يمكن لمثل هذه الأنواع من الرؤى أن تطبق فيها بأنها: دراسة العائلة ومسار الحياة؛ بناء الهوية، عمليات مثل التقدم فى العمر، والعجز، والإدمان، والحراك الاجتماعى؛ مهن المجموعات المهمة، التغير والاتجاهات المؤسسية والمجتمعية بما يشمل تغيير القيم والمواقف والسلوكيات. وقد ظهرت بعض الخصائص الجوهرية للبحث الطولى الكيفى فى المؤلفات المنشورة:

- النموذج المثالى للبحث الطولى الكيفى مفتوح النهاية ومتعمد منذ البداية (فالاستمرار فى البحث، على سبيل المثال، أساسى).
- وهو يتعلق بعدد الموجات وليس بفترة من الزمن وبعملية بحث ديناميكية، مثلا، يقل الفصل بين تصميم البحث وعملية البحث.
- أحد ملامح هذا النوع من البحث الطولى الكيفى هو أن عملية البحث متورخة، وتأتى ضمن إطار ما يتم تسجيله وتحليله.
- ويميل البحث الطولى الكيفى أيضا لأن يكون متصلا بالمنح الدراسية الجمعية أو الشخصية. وفى حالات كثيرة يدار عن طريق المشروعات الثقافية والعلاقات المستمرة بين الباحث والمبحوث، وغالبا ما اضطر الباحثون للنضال من أجل أن يحصلوا معا على منح قصيرة الأمد. فالقوة

الدافعة نحو استمرار تمويل و/ أو تصميم دراسات مستقبلية من منح يصعب الحصول عليها يأتى معه بمجموعة مختلفة من السياسات والمطالب. (Holland et al., 2006).

وكسبيل لتصوير الطرق المختلفة التى يمكن بها تحقيق هذه الخصائص، نتناول الآن دراستين من الأبحاث الطولية الكيفية كنا منهمكتين فيهما لفترة طويلة من حياتنا البحثية. وكلتا الدراستين تتناول أسئلة حول "صيرورة" الشباب، انتقالهم من الطفولة إلى النضج، وحركتهم خلال سنوات المراهقة. وبينما تدور الدراستان فى إطارين من الاهتمامات النظرية والثقافية المختلفة، فإنهما رغم ذلك تبزغان من مجموعة من الاهتمامات بفهم الشباب فى عصر من التغير الاجتماعى وأثناء مرحلة دينامية من السيرة الذاتية، وكلتا الدراستين تعتمد بوضوح على تنظيرات الهوية.

مشروع ١٢-١٨، صناعة حياة عصرية

كان مشروع ١٢-١٨ دراسة للذاتية، والدراسة المدرسية والتغير الاجتماعى، بتمويل من مجلس البحث الأسترالى، واضطلعت به جولى ماكليود ولين ييتس. وعلى مدى فترة سبع سنوات (١٩٩٣-٢٠٠٠) أجرت الباحثتان مقابلات وتسجيلات فيديو لستة وعشرين من الشباب الأسترالى (١٤ فتاة و١٢ فتى) وهم يكبرون من الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة من أعمارهم. جاء الشباب من خلفيات متنوعة، وكانوا فى أربعة أنواع مختلفة من المدارس. وقد أجريت اللقاءات مرتين كل عام على مدى سنوات المدرسة العليا، ومرتين فى السنة التالية. وحسب تعبير الباحثتين:

استمعنا إلى هؤلاء الطلبة يتحدثون عن إحساسهم بالذات، وقيمهم، ومواقفهم من المستقبل، وتجاربهم المدرسية. وتلقى قصصهم الفردية الضوء على التأثير المتفاوت والمختلف للتغير الاجتماعى المعاصر وتغير النظرة الاجتماعية للنوع، والنفوذ العميق لمجتمع المدرسة والثقافة على تشكيل الذاتية. .(McLeod and Yates, 2006: 2)

وفى بؤرة تصميم البحث الخاص بالدراسة كان ثمة تركيز على ثقافة المدرسة، وتم بناء العينة المكونة من ٢٦ فتاة وفتى بحرص لتشمل الشباب من خلفية طبقية متماثلة يذهبون إلى مدارس مختلفة، وكذلك هؤلاء الذين من خلفية طبقية مختلفة فى نفس المدرسة- مع تجنب الدمج بين "الطابع الاجتماعى والثقافى" للمدرسة والعائلة، والذى يميز كثيرا من الأبحاث التعليمية" **(Yates, 2003)**. وهكذا، رغم أن الدراسة تابعت أفرادا عبر الزمن، فإنها أيضا دراسة مقارنة للثقافة المؤسسية والطريقة التى تقوم بها المؤسسات بتشكيل الذاتية. والمدارس التى أمدتنا بسياق البحث كانت كما يلى:

فى المدينة:

- سيتى أكاديمى: مدرسة للنخبة... تمثل أولئك القادمين من خلفيات ثرية" (ص٢١).
- ساب أوربان هاى: "مدرسة 'فنية' غير رسمية" فى "حى للطبقة الوسطى" (ص٢٢).

وفى مدينة إقليمية:

- ريجونال هاى: مدرسة تجتذب الآباء "الذين يريدون إرسال أبنائهم إلى

مدرسة 'جيدة'، ولكنهم لا يقدرون على تمويل تكلفة المدارس الخاصة" (ص١٩).

- ريجونال تك: تقع على أطراف منطقة تطوير الإسكان العام، وتجتذب أيضا عددا من الطلبة من بعض المدن الريفية الأصغر، الفقيرة إلى حد ما" (ص٢٠).

وضع إطار للدراسة

تعتبر ماكليود وييتس دراستهما واقعة فى لحظة حاسمة فى تاريخ سياسة العدالة داخل التعليم الأسترالى. وبالنسبة للمظالم الاجتماعية، ابتعدت سياسة التعليم عن "برنامج المدارس المحرومة من الموارد" لأعوام العقد ١٩٧٠ الذى كان يوجه الموارد إلى المدارس فى المناطق الأفقر، نحو تركيز على "تعليم مدرسى أكثر كفاءة" فى سنوات العقد ١٩٩٠، وبرنامج "مدارس المستقبل" الذى كان يكافئ اقتصاديا "المدارس التى يُرى أنها فائزة" **(McLeod and Yates, 2006: 30)**. وكانت الأحاديث حول عدم المساواة بين الجنسين أيضا فى حالة تقدم، مع محاولات النسويات فى سنوات العقد ١٩٧٠ تعريف النوع داخل المناهج الدراسية، مما أدى إلى سيادة اتجاه إصلاحى مختص بالنوع فى أعوام ١٩٩٠، وإلى اهتمام متزايد بتراجع إنجازات الصبيان. وثار فضول ماكليود وييتس لفهم كيف تجلت تلك التغيرات فى السياسة والخطاب فى أنواع مختلفة من المؤسسات التعليمية، ولكن أيضا فى أنواع الذاتية للشباب الذين يربون فى تلك الظروف. فكيف على وجه التحديد تجتمع ثقافات الطبقة والنوع والثقافات المؤسسية فى تلك اللحظة التاريخية؟ من هم الفائزون ومن الخاسرون فى هذا "الزمن المعاصر"؟

وتأثر تبنى منهجية كيفية وطولية للدراسة فى الجانـــب الأكبــر بالأجنـــدات النظرية التى كانت ماكليود وييتس مرتبطتين بها فى مستهل البحـــث فـــى أوائـــل سنوات ١٩٩٠. وفى هذا الوقت، كانتا تشعران بالإحباط من المقاربات التى كانـــت تعزز الدور الذى يلعبه الخطاب فى بناء الموضوع، وخلق "صورة خطية وسطحية إلى حد ما لحياة الفرد، صورة يظهر الفرد فيها كرمز للخطاب، كشخصية ذات بعد واحد تكتب عليه الرسائل الاجتماعية" (31 :2006). كانت الباحثتان جزءا من حركة من الأكاديميات النسويات اللائى أردن استكشاف الأبعاد العاطفية والنفسية لكيـــف تتحول أنواع الخطاب إلـــى ذاتيـــة (Bjerrum Nielsen, 1996; Hollway, 1994; Walkerdine et al., 2001). وكانتا أيضا مهتمتين بإلقاء مرساة الخطابات التنموية على المراهقين والمراهقات داخل ظروف سياسية واجتماعية معينة. ولكـــى يـــتم توليد إحساس بالعمق البيوجرافى، والعملية التنمويـــة والخـــصوصية الاجتماعيـــة والتاريخية، تحولتا ناحية تصميم بحثى يقوم على لقاءات متعددة على مر الـــزمن. وحسب تعبيرهما، منهج "طولى وتكرارى، لمواجهة خطية سطحية، ولكن فى نفس الوقت فى إطار سوسيولوجى، للحفاظ على الاختلاف والخصوصية التاريخية فـــى المقدمة" (31 :2006).

كانت دراسة ١٢-١٨ مصممة بعناية لتتمكن الباحثتان من الانهمـــاك فـــى أسئلة عن نوع المدرسة، والسياسة التعليمية، والفروق الاجتماعية، وكذلك لتـــوفير صور بيوجرافية تبين كيف يتشكل الأفراد ويتحولون بمـــرور الـــزمن. وتـــشرح ماكليود وييتس أنهما حاولتا وضع صـــيغتين للـــصفة الزمنيـــة داخـــل الدراســـة: الخصوصية التاريخية- ما تطلقان عليه "الـــزمن المعاصـــر"، والمـــشهد الزمنـــى للمراهقة أو سنوات المدرسة العليا- ما تطلقان عليه "مرحلة الحيـــاة البيوجرافيـــة" (39 :2006). ومن خلال تصميم كيفى طـــولى ســـعتا لتجـــاوز هـــاتين الحـــالتين

الزمنيتين: بإظهار الطرق التى يتجلى بها التاريخ فى الحيوات، وكـذا إظهـار أن مقاربة سيكولوجية النمو المجردة المعيارية "الأعمار والمراحل" تصبح محل شـك عندما نعرف أن لا شىء حتمى فى الأزمنة والأمكنة الواقعية.

تصميم بحثى مكثف

مشروع ١٢-١٨ مثال على تصميم بحثى "مكثف"، حالات قليلة نسبيا عبـر موجات كثيرة. كتبت لين ييتس حول كيف أن دراستهما كانت صغيرة (تقوم علـى ٢٦ حالة فقط) ولكنها فى ذات الوقت كبيرة (٣٥٠ مقابلة على مدى ثمانى سنوات) ونتائج ذلك بالنسبة للمنهجية والمغزى الجوهرى (Yates, 2003). وكان القرار بقيام الباحثتين الأساسيتين بإجراء كل المقابلات وكذلك العمل التحليلى أمـر لـه شـأنه أيضا- من أجل جودة البحث ومن أجل السرعة ودوام المشروع. وكثافة هذا النوع من البحث تعنى أن الزمن البيوجرافى للباحثتين (والذى يلعب دوره فى أى شـكل من أشكال الإنتاج المعرفى) يصبح واضحا، وهما تعترفان فى مقدمة كتابهما:

> أثناء السنوات الثمانى للمقـابلات رأينـا المـشاركين يتغيرون وينمون، وفكرنا دائما فى أطفالنا نحن والعالم والأحوال التى يواجهونها. كان مشروعنا يهتم بالتَّمَـدْرُس(*) والهويـة، وبالرؤى الاستعادية والمستقبلية لذلك. إن إجراء هذا البحـث قد أثار عواطف وذكريات لدينا حول نمونا نحـن، وتعليمنـا

(*) التمدرس schooling: مصطلح يقصد به التعليم القائم على "التردد على المؤسسة التعليمية، وتلقى العملية التعليمية من خلاله". [المراجع].

> المدرسي، والدعم الذى لقيناه من المعلمين (فى المدارس العليا الريفية)، ومن عائلتينا، وخاصة من آبائنا. (McLeod and Yates, 2006: xi)

سجلت المقابلات نفسها على شرائط فيديو، مما أتاح للباحثتين تصوير تغير الأجسام والتصرفات لدى شخصيات البحث، وكذلك ديناميات العلاقات الشخصية لوقائع المقابلة. وفى كل مقابلة كان يطلب من المشاركين أن يصفوا أنفسهم، وأن يتخيلوا أيضا أنفسهم فى المستقبل، أو يتذكروا أنفسهم عندما كانوا أصغر. واستخدمت الباحثتان نطاقا من الأسئلة الأخرى لحث السرد عن الحالة الآنية للشباب، وسؤالهم أن يتأملوا المدرسة والعائلة والأصدقاء. بينما حافظتا على أن يكون الطلب الأول هو وصف للذات كجزء قياسي فى كل مقابلة، وجربت الباحثتان أيضا: وضع مآزق أخلاقية، وسؤال الطلبة أن يقوموا بتسجيل صورة شخصية لأنفسهم على شريط صوتى، وأن يحضروا صورة فوتوغرافية يرون أنها مهمة بالنسبة لهم لمناقشتها أثناء المقابلة. وفى السنة الأخيرة، صنعت الباحثتان أشرطة فيديو مؤلفة مما سبق لكل من الشباب، اعتمادا على مقتطفات من كل مقابلاتهم، ليروه مقدما قبل المقابلة الأخيرة للبحث. وتعليقا على الإطار الزمنى للدراسة، بما يشمل تكرار المقابلات واستخدام الوسائل البصرية، علقت ماكليود وييتس بقولهما:

> بعض التغيرات يمكن أن تقع على مدى فترة قصيرة من الزمن، خاصة أثناء "سنوات المراهقة"، عندما يمكن للأشياء أن تتغير بسرعة، وفترة سبع إلى ثمانى سنوات ليست أساسية لإدراك ذلك. ويمكن للمقابلات التى أجريت على مدى فترة أقصر، وفى

تعاقب سريع، أن تقبض على عناصر للتغير، ومن المحتمل أيضا أن تقدمْ إحساسا أكثر حضورا "أثناء الحدوث" بـالتغير والتطـور. ولكن، الإطار الزمنى الذى تبنيناه أتاح للمـشاركين أن يخـبروا بعض المسافة العاطفية بينهم وبين الأحداث السابقة والذكريات، وبأن يكون لديهم إحساس بأنفسهم فى نظرة طويلـة المـدى. إن طول الدراسة الثانوية فى أستراليا– ست سنوات– حـدد أيـضا الإطار الزمنى للدراسة، مع ختام المقابلات فى العام التالى لإنهـاء المدرسة مباشرة (2006: 42).

وفى التطبيقات الكيفية للبحث الطولى هناك تشديد هائل على أهمية الأسـئلة القياسية التى يمكن تكرارها فى كل موجة من موجات العمل الميدانى، مما يـسمح بالمقارنة بين المتمـاثلات عبـر الـزمن (Elliott et al., 2007; Leiserhng and Walker, 1998). وقد تعقد هذا نتيجة تغير السياق البحثى، حيث تظهر اهتمامـات جديدة تتطلب وضع أسئلة جديدة، وأيضا نتيجة الطريقة التى تتطـور بهـا اللغـة، فنفس السؤال يتغير معناه بخبث عبر الزمن. وبذلت ماكليود وييـتس مجهوداتهمـا لتحصلا على عنصر من القياسية فى تصميم بحثهما، مع موضوعات ثابتة– النفس، المدرسة، المستقبل– فى كل جولة من المقابلات. ومن الأهمية بمكان أن نذكر أنـه كان هناك تواصل مستمر بين الباحثة والمبحوث فى كل مقابلـة، يـدعم التطـور المتزايد للملاحظات والتفسيرات. وثانيا، أصرت الباحثتان على تكرار طلبهما لكـل مبحوث فى المقابلة بأن يقدم وصفا لذاته وعرضا لنفسه فى المستقبل فى كل مقابلة، مهما كان ذلك مثارا لعدم الارتياح لكليهما. ومن خلال هذا المنهج تراكمت لـديهما كمية من الاستجابات التى أمكن فى النهاية قراءتها مقابل بعضها الـبعض، وبنـاء

صورة "عن الاتجاهات والمعتقدات عبر أزمنة، وأعمار، وحالات مزاجية مختلفة" (2006: 43).

إيقاعات تحليلية

كان تحليل هذه المجموعة من البيانات أيضا تطوريا، وواجهت ماكليود وبيتس التحدى الذى تحدث عنه الآخرون الذين استخدموا المنهج الطولى الكيفى بمحاولة جمع وتحليل البيانات متزامنين (انظر أيضا Thomson and Holland, 2003). كانت مشكلة ختام التحليل- متى يكون الوقت المناسب للكتابة؟- ملمحا مميزا للدراسات الطولية الكيفية. فحيث يجرى العمل الميدانى على مدى سنوات، من المهم إيجاد طرق للتحليل وكتابة التقارير حول البيانات على أساس مستمر. ولكن فعل ذلك دائما يرفع إمكانية عودة ما جرى اكتشافه إلى حالة ارتباك مع أحداث مستقبلية. وصفت ماكليود هذا الجانب لمنهج البحث الطولى الكيفى بأنه منتج لـ"المنظورية"، وإدراك لعرضية زماننا وموقعنا الاجتماعى كمحللين (Andrews, 2007; McLeod, 2003). وبمرور الوقت وجمع المزيد من البيانات، دائما نقف فى مكان جديد حيث نستطيع القبض على "منظور" جديد. وهذا المنظور لا يتعلق فقط بتتابع البيانات الذى ندركه، ولكن أيضا بالمصادر الفكرية الجديدة التى نستعين بها فى عملية التحليل. والتعرف على "المنظورية" داخل عملية البحث الطولى الكيفى لا يحذرنا فقط من المبالغة فى قراءة البيانات، أو المبالغة فى أهمية مفرداتها، ولكنه يمكن أيضا أن يحررنا فى علاقتنا مع الأجندات الفكرية والسياسية التى نوجه أنفسنا إليها- معترفين بأنها أيضا شكلت داخل عملية تاريخية أوسع. وهذا التعرف على الذاتية المتغيرة للباحث مثله فى ذلك مثل المبحوث تميز بنقلة فى المصطلحات التى تنسب إليها الانعكاسية بشكل عام (Adkins, 2002b; Moore,

2005). وهذا يردد أيضا ملاحظات أنتونى باول المقتبسة فى بداية هذا الفصل، أنه بالنسبة للملاحظ المتقدم فى السن لحياة الآخرين، "الختام لا يكون يقينيا أبدا، فهناك دائما بُعد جديد من الممكن إضافته".

إن تجربة القيام بدراسة كيفية طولية، ومعايشتها، ينتج عنها وعى عميق باستحالة الفصل بين الباحث والمبحوث، والخطو خارج التدفق الزمنى الذى يشمل مشروع البحث بكامله- من علاقات السلطة التى تشكل أجندات السياسة وقرارات التمويل، وتدفق وانحسار موضة النظرية الاجتماعية، من خلال السير الذاتية للباحثين ومبحوثيهم وحتى تتابع العمل الذى يشمل عملية البحث. يتقدم المنهج عن طريق القبض على شظايا "الحاضر"- وفى هذه الحالة على شكل مقابلات مسجلة بالفيديو. هذه الشظايا بعد ذلك تجمع معا من خلال سياقات جديدة، وتصاغ تفسيرات وروايات. وهذه الروايات هى نفسها محددة الأزمنة والأمكنة، ومن الممكن أن تُعاد زيارتها مع نظرة إلى الخلف. وتتطلب طبيعة عمليات البحث الطولى الكيفى أن نفهم الجهد المبذول كجهد ذى موقع اجتماعى وزمانى، وكجهد متنقل، وهذا له نتائج لادعاءاتنا فيما يختص بنوع المعرفة الذى ننتجه. وهذا النوع من الرؤية يمكن أن يكون مثمرا للغاية؛ وكما تعلق ماكليود وييتس: "رفض إمكانية الحقيقة الكاملة لا يلغى المعنى، ولا يزيل إمكانية تعلم شىء جديد، واكتساب رؤية بينما ننتبه لبنية وحدود واقعة البحث" (2006: 83).

قصة بريت Brett

نحن نضرب هذا المثل لختام يصور كيف أن المنهجيات الطولية الكيفية يمكن أن تقبض على التغيرات، والاستمراريات، و"الموتيفات"، و"التكرارات"، و"الإعادات"، التى هى جزء لا يتجزأ من عملية الصيرورة. وهنا تقدم ماكليود

ويبتس قصة بريت، الذى ظل وصفه لنفسه متسقا، ولكن "رنينه مختلف فى الظروف المتغيرة" (81 :2006).

عندما كان برت فى الصف السادس (نهاية المرحلة الابتدائية)، نظر إلينا مباشرة، وابتسم، وأخبرنا أنه يرى فى نفسه صديقا جيدا، ولدا طيبا ومبهجا. وظلت هذه ذكرى حية بالنسبة لنا، ذكرى مثيرة للمشاعر إلى حد ما عند استعادتها. كان له وجه جميل، ويتسم ببعض الجدية، وكان منفعلا لأنه ذاهب إلى المدرسة الثانوية، وهى مدرسة كان لها سمعة سيئة فى المدينة وكانت معروفة عند الطلبة الآخرين بأنها "تكنولوجيا قلابة"، و"مدرسة قذرة"، حيث يوجد الكثير من المشاجرات. وفى وسط سنواته فى المدرسة الثانوية، يقول لنا مرة أخرى إنه يتمنى لو يعرف أصدقاؤه "أننى سوف أفعل أى شىء من أجلهم". وفى سنته النهائية، كان قد فقد صبره على المدرسة ويتطلع لعالم الكبار فى العمل، حيث يمكنه أن يكون مع زملاء ويعامله الآخرون كشخص راشد. وفى كل مرحلة من تلك المراحل، كان من المهم لبريت أن يكون قريبا من أصدقائه، وكان ذلك مركزيا فى رؤيته لنفسه. ولكن "أن يكون لدى المرء زملاء" يأخذ معانى مختلفة كلما كبر بريت، وهو يصبح بوضوح أكثر مرارة مع باقى العالم حوله. وبينما ينتقل فى سنوات المدرسة العليا، لم يعد يفصح بوضوح عن التزامه تجاه أصدقائه كتعبير رقيق عن الاهتمام بهم، الأمر الذى كنا نجده مؤثرا

للغاية. وسرعان ما أصبح جزءا من شكوى من المظــالم الــتى يفصح عنها فيما يختص بالمدرسة والمعلمين غير المهتمين، وحول الزملاء المتنمرين واستعداده للعــراك. وأصــبحت علاقاتــه بالأصدقاء ملجأ وليست انعكاســا مكثفــا لكيــف يتــصل بالآخرين، كما بدا فى المقابلة السابقة. ويترك بريت المدرســة دون أن يكمل تأهيله للسنة الثانية عشرة، بأمل الحصول على عمل فى صناعات البناء: ومن المحتمل أن فرصــه محــدودة فى الحصول على عمل طوال الوقت فى المستقبل. عمل الأشياء مع الزملاء، والرغبة فى أن يُرى كصديق وفى، تصبح مهمة علــى نحو الخصوص؛ حيث تدل على مدخل للرشد مقابــل العــالم الطفولى الخاص بالمدرسة وتقديم بؤرة للنشاط مقابــل، فى ذات الوقت، روتين المدرسة الكئيب، التى يتم تصنيفه فيهــا كولــد سيئ، أو تلميذ بليد، وشخص لا يعتمد عليه، والمستقبل المحتمل للبطالة. (McLeod and Yates, 2006: 81)

إن مشروع ١٢-١٨ مثال جيد على الخصائص الأساسية للبحــث الطــولى الكيفى. والمطالبة بــ"الاستمرار فى البحث" مــسألة مركزيــة لأهــداف البحــث لاستكشاف عملية الصيرورة وتشكيل الذوات التعليمية. ويقدم التــصميم المقــارن إطار عمل مفاهيمى من خلاله يمكن "فهم" تلك السير. ويحــافظ البــاحثون علــى ارتباطهم على امتداد التعليم المدرسى الثانوى للشباب، من خلال ١٤ موجــة مــن جمع البيانات على مسار سبع سنوات. وعملية البحث الدينامى واضحة جــدا. ولا تدرك كل من ماكليود وييتس فقط أن المنهج الذى تتبعانه يلعب دورا فى الظــاهرة

التى تدرسانها، ولكنهما أيضا واعيتان بوضع نفسيهما وإطارهما النظرى المتغير داخل إشكالية ما يحتاج للتفسير. والشخصية الذاتية لمشروع البحث جلية، ليس فقط من خلال شعور المؤلفتين بالمسئولية التى تجعلهما تقومان بكل هذا العمل الميدانى والتحليل بنفسيهما- وبامتداد المشروع طويلا بما يتجاوز الفترة الممولة من النشاط- ولكن أيضا فى الطرق التى تظهران بها أن البحث وأسئلته عن اختيار المدرسة والحراك الاجتماعى جزء من سيرتهما الخاصة وسير أطفالهما.

اكتشاف الرشد: صناعة المشهد الطويل والمشاركة فيه

جرت دراسة اكتشاف الرشد بين عامى ١٩٩٦ و٢٠٠٦. وكانت أحدث مراحلها مختصة بمشروع تحويل رقمى (ديجيتال) وعمل أرشيف جزئى على شبكة الإنترنت (online). ولم تبدأ كدراسة طولية، ولكنها أصبحت كذلك بمرور الوقت، حيث تلقت تمويلا فى أربع مراحل منفصلة من مجلس المملكة المتحدة للبحث الاقتصادى والاجتماعى. وكانت الدراسة الأصلية قد بدأت بتحقيق متعدد المناهج عن المشهد الأخلاقى لدى الأطفال. وقد أجرى هذا البحث فى المدارس الثانوية الواقعة فى خمسة مواقع مختلفة فى المملكة المتحدة، واستخدم استبيانات (١٨٠٠)، ومجموعات مركزية (٦٢) ومقابلات (٥٧). والمملكة المتحدة ذات مجتمع متنوع ولا يتسم بالمساواة، وتلك المواقع اختيرت لتصوير عدد من الحالات الاقتصادية، والاجتماعية والثقافية والبيئية التى ينمو فيها الشباب فى المملكة المتحدة. والمواقع كما يلى:

- منطقة ريفية منعزلة فى شرق إنجلترا.
- منطقة مدينية داخلية: محرومة اقتصاديا، ومتنوعة عرقيا، وقريبة من

مركز مدينة كبيرة جنوب إنجلترا.

- ضاحية كثيرة الأشجار: منطقة موسرة، تقع فـــى نطـــاق مدينـــة جنـــوب إنجلترا.
- مقاطعة محرومة: مهمشة اقتصاديا، متجانسة عرقيا (أغلبية بيضاء سائدة)، تقع على أطراف مدينة كبيرة فى شمال إنجلترا.
- مدينة فى شمال أيرلندا.

هذه المواقع الخمسة أصبحت عندئذ عنصرا مستديما لما تحول إلى دراســة لمدة ١٠ سنوات، تابعت الباحثتان فيها حياة حوالى ١٠٠ مـــن الـــصغار. وجُنــد المشاركون المتطوعون من طبقات مختلطة القدرة فى تسع مـــدارس ثانويـــة فـــى مواقع الدراسة الأصلية. وفى بداية الدراسة (عام ١٩٩٦) كـــان هـــؤلاء الـــصغار تتراوح أعمارهم بين ١١ و١٧ سنة، وفى نهاية جمع البيانات كانت أعمارهم بـــين ٢١ و٢٧ سنة. وكان المنهج الرئيسى لجمع البيانات هو المقابلة الفردية. وبالنـــسبة لمعظم المشاركين أجريت ست مقابلات على الأقل طوال هـــذه الفتـــرة. واشـــترك كثيرون أيضا فى جماعات مناقشة، وقاموا بكتابـــة "كتـــب الـــذاكرة" (نـــوع مـــن المذكرات التأملية)، التى أعطت فريق البحث طريقة للحصول على تمثيلات للذات بمرور الوقت خارج سياق المقابلات (**Thomson and Holland, 2005**). وتـــشمل مجموعة البيانات النهائية حوالى ٥٠٠ مقابلة فردية، ٦٨ جماعة مناقشة، وبيانـــات أخرى متنوعة.

كان مشروع اكتشاف الرشد أكبر فى المجال والمنظور، ولكن أقل تكثيفا فى العمل الميدانى من مشروع ١٢-١٨. ولكل هذه الأسباب كان يتطلب فريقا بحثيـــا أكبر. وكان الباحثون فى مركز الفريق (ريتشيل طومسون، جانيت هولانـــد، شـــينا ماكجرليس، سو شارب، وشيلا هندرسون) متصلين ومترابطين بانسجام تام طـــوال

السنوات العشر للبحث. وفى مرحلة مبكرة وضع الفريق أهمية الاستمرارية فى علاقات البحث، وقام ثلاثة أعضاء فقط بإجراء معظم المقابلات، وكان كل منهم مسئولا عن مواقعه البحثية ويحافظ على علاقات البحث الخاصة به مع الأفراد المشاركين فى البحث (Henderson et al., 2004). ورغم أن العمل الميدانى كان "غير مركزى" فعليا، فإن إدارة الدراسة وتنظيم البيانات كانت مركزية بدرجة كبيرة، لضمان اتساق أنساق الكتابة، والترميز والتحليل. وأصبحت طرق إدارة البيانات هذه ذات أهمية عندما اكتشف الفريق إمكانية تحويل مجموعة البيانات إلى أرشيف.

ورغم أن دراسة اكتشاف الرشد بدأت كمشروع بحثى فى المدرسة، فلم تكن بؤرته هى الثقافة المدرسية بقدر ما كانت حول كيف تؤثر مجموعة من العوامل فى تشكيل الفرص والموارد (عوامل الطبقة، والنوع، والعرق، وموارد العائلة) والتى هى نفسها تُسوى عن طريق المحلية. وعلى مسار الدراسة بُنى فهم مفصل لـ"اقتصادات" كل من المحليات: ليس مجرد ما يختص بسوق العمل أو تكاليف السكن، ولكن أيضا فيما يتعلق بما "يهم" وما "له قيمة" بالمفاهيم المحلية (Henderson et al., 2007; Thomson, 2000). وركز البحث على الطرق التى يمكن بها لثقافة المدرسة وقيم العائلة، وثقافة الشباب، مجتمعة مع الموارد المادية والمهارات الشخصية أن تشكل مراحل انتقالية مختلفة تماما إلى مرحلة الرشد. وقد مكن المجال الكبير نوعا للدراسة الباحثين من التفكير فى كل من الطرق التى تتشكل بها المراحل الانتقالية داخل الأماكن، وكيف تتجاوز أنماط واستجابات معينة مثل تلك التفاصيل الخصوصية. إن الدراسات الطولية الكيفية لديها المقدرة على خلق فهم كلى شامل (أو غير مركزى) للسبب الذى يجعل الناس يتصرفون بالطريقة التى يتصرفون بها (Neale, et al., 2003). انطلقت دراسة اكتشاف الرشد لتحل محل التطبيقات التى تقوم قضيتها على دراسة حياة الصغار من بين دراسات

الشباب (حيث يتجه الانتباه تقليديا إلى تقسيم حياة الناس إلى مشكلات سياسية مختلفة: "المخدرات"، "البطالة"، "الفشل المدرسى"، "المخاطرة"، إلخ) مع منظور بيوجرافى كلى (Henderson et al., 2007).

مقاربة بيوجرافية

وكان الفريق البحثى مهتما أيضا باستخدام المناهج الطولية الكيفية للانهماك فى حوار نقدى مع أحدث النظريات المعاصرة فيما يختص بتخطى التقليدية والفردية، الأمر الذى يدل على مغزى التغيرات الديموجرافية فى حياة العائلة، وإعادة التفاوض حول الأدوار العائلية، والواجبات، والتوقعات. وداخل دراسات الشباب، كان هذا يختص بتخيل عملية أن تصير راشدا كعملية مفتوحة، غير محددة، وبدون مخطط عمل بين الأجيال. كانت نقطة انطلاق البحث هى فكرة أنطونى جيدنز الخاصة بـ"مشروع انعكاسى للذات... حيث تتشكل هوية الذات بترتيب انعكاسى للحكايات الذاتية" (1991: 244). وتخيل الباحثون منهجا يمكن أن يمكنهم من وضع أيديهم على مشروعات فردية للذات وهم ينشأون ويتغيرون عبر الزمن، ولاستكشاف كيف أن السياقات المختلفة التى ينمو الأفراد فيها تشكل هذه الحكايات المتغيرة. وبهذا المعنى، كان الباحثون مهتمون بصيغتين متشابكتين للتغير: الأولى، مجموعة من التغيرات الكبيرة أو التاريخية التى توفر الظروف المناسبة لظهور جيل جديد، تختلف تجاربه كثيرا عن تجارب آبائهم وأجدادهم. والثانية، العملية التى يصوغ الفرد من خلالها قصة لحياته، وهوية ذاتية، وقصة حول من هو، ومن أين جاء، وإلى أين يتجه. وفى الارتباط بالنظرية الحديثة الأخيرة كان الباحثون أيضا مدركين للأصوات النقدية الكثيرة التى كانت تعارض عمل منظرين مثل جيدنز وبك، بما يشمل أولئك الذين يقترحون أن مثل تلك

النظريات تحثنا ببساطة للتركيز على حكايات الوكالة الشخــصية وإلــى تجاهــل العمليات والممارسات الأكثر تعقيدا والتى يتحقق التمييز والتفاوت الاجتماعى مــن خلالها (**Adkins 2002a; Heaphy, 2007; Skeggs, 2004**). وطوال العمــل فــى البحث، وظف الفريق المشروع الانعكاسى للذات كوعاء يمكن من خلالــه عمــل توثيق تجريبى لكيف يخلق الأفراد هويات لأنفسهم وللآخــرين. وهــذه الحكايــات التجريبية تقدم نقطة انطلاق للتفكير فى أنواع الدعاوى التــى يقــدمها المنظــرون المعاصرون بالنسبة للعلاقة بين التغير الاجتماعى والشخصى.

وكانت المقابلات واسعة المجال، ووجهت الأسئلة إلى الشباب حــول كــل مجالات حياتهم: التعليم، والعمل، والعائلة، والحب، والصحة، واللهو، والرفاهيــة. وفى كل مقابلة، كان الباحثون يستأنفون اللحاق بالأحداث منــذ المقابلــة الأخيــرة وينظرون إلى المستقبل والشباب يخططون ما يتوقعون أن يأتى بعد ذلــك. وفــى مقابلتين، سئل الشباب أن يكملوا خطوط حياة يتنبؤون فيها بشكل حياتهم فى مــدى ثلاث سنوات، وعند بلوغهم سن ٢٥ و٣٥، مما مكن الباحثين من مقارنة التغيرات، والاستمراريات، والتناقضات فى خطط حياتهم (**Thomson et al., 2002**). واحتفظ الباحثون بملاحظات ميدانية منظمة بعد كل واقعة، تسجل كلا من التفاصيل حــول التفاعل، واستجاباتهم العاطفية الشخصية، ولكن أيضا تكثف محتوى المقابلة نفسها. وبمرور الوقت، تطور هذا إلى زيادة لتسجيلات "صورة الحالة" التى تلخص إدراك الباحثين لحيوات المشاركين فى كل موجة من موجات العمل الميدانى، مما يجعــل من الممكن متابعة التغيرات فى الفرد عبر الزمن من خلال آفاق زمنية متعاقبــة. وتلك الملخصات كانت وسيلة أساسية لجعل مجموعة البيانات متاحة لإدارتها وهى تتطور، مما مكن الباحثين من جعل التفسيرات المؤقتة واضحة.

اتجاهات تحليلية

تمثل إدارة وتنظيم البيانات تحديا دائما فى الدراسات الطولية. والطرائق التقليدية لتخزين وتحليل البيانات الكيفية تفضل المقارنة بين حالات فى لحظات محددة من الزمن. وهكذا فنحن نميل للنظر عبر حالات تنظم البيانات حول موضوعات مشتركة، إما يدويا أو باستخدام برامج التحليل الكيفى الكمبيوترية. وهذه هى بالضبط الطريقة التى بدأ بها فريق اكتشاف الرشد عملية تحليل مجموعة بياناتهم، بتنظيم كل المقابلات داخل موجة واحدة باستخدام إطار تنظيمى مشترك. ولكن المجهود المبذول لجمع البيانات الجديدة وتنظيمها فى ذات الوقت يصبح إشكالية متزايدة، وقد يكون من الصعب الاستمرار فى التحليل قبل العمل الميدانى. وبتزايد موجات العمل الميدانى، هناك حاجة متنامية لإيجاد أساليب تميز التحليل الطولى، ومتابعة الأفراد أو جماعات الأفراد بمرور الوقت.

أدى بحث اكتشاف الرشد لإعطاء دفعة لأفكار ثاقبة حول تحديات إدارة وتحليل البيانات الطولية الكيفية، بما يشمل العبء المزدوج لتحليل البيانات فى اتجاهين: عرضيا (تزامنيا) وطوليا (تتابعيا) **(Thomson and Holland, 2003)**. ومن المحتمل أن يكون التحليل المستعرض بالغ الكثافة عند بداية الدراسة عندما يكون هو الطريقة الوحيدة التى يمكن بها فحص البيانات ويتيح عمل تخطيط للبيانات على اتساعها. ويصبح التحليل الطولى متزايد الجاذبية عندما تتضح مجموعة البيانات ويصبح من الممكن الاعتماد على تدفق كبير للبيانات. ويستمر الدمج بين التحليل المستعرض والطولى فى أن يكون أكبر تحديات تصميم البحث الكيفى، خاصة مع الدراسات واسعة المجال. ويجرب الباحثون طرق عرض، والتعبير عن، الأبعاد المختلفة للحالة، الموضوعات (كما تتمثل فى إطار منظم)

والصفة الزمنية. وعلى سبيل المثال، وصفت جين لويس كيف هيأت هى وزميلاتها إطار عمل تحليلى ليشمل موجات متعددة من البيانات (Lewis, 2007).

كانت دراسة اكتشاف الرشد عملا واسع المجال، يشمل ١٥٠٠ ساعة من المقابلة المسجلة. والآن وقد انتهت عملية جمع البيانات، يبدأ الفريق فى مهمة إرجاع الأجزاء الطولية إلى الكل المستعرض. وتعمل الباحثات الآن بكثافة على النسخ، ويعددن تخيل البيانات فى أرشيفات فردية يمكنهن الرجوع إليها، ومن الممكن صياغة تواريخ حالة منها (R.Thomson, 2007). وأرشيف البيانات للفرد الواحد يبدو كما يلى. وهذا النموذج مأخوذ من الأرشيف الديجيتال فى موقع: www.lsbu.ac.uk/inventingadulthoods.

لندن – جامعة ساوث بانك

اكتشاف الرشد				
	كيث			
اضغط على أحد الموضوعات لقراءة مقتطف من المقابلة				
الرئيسية	كوزموبوليتان	الإنجازات	الأساسيات	
الزمن البيوجرافى	عامل الشبكة	أخلاق العمل	الجنس:	ذكر
كيث	فنون إبداعية	وعى طبقى	الموقع:	ريفى
ميسى	العائلة المباشرة	أول حب	سن المقابلة:	١٥-٢٠

باتريك		الطبقة:	وسطى
أمير		العرق:	أبيض قوقازى
خطاب سو جلين سنثيا سام نيفيل	فى سياق مدرسة محكمة النظام، ومجتمع ريفى يتجه بنظره إلى الداخل، تبنى كيث هوية كوزموبوليتانية، عالمية، وتفكيرا مستقلا منذ الصغر، وجرب مجالات لأساليب الحياة والثقافات أكبر كثيرا من زملائه من خلال السفر. ولأنه كان ينفق الكثير، فقد حافظ على توازن بين عدد من العوالم الاجتماعية وما يتصل بها من هويات. وبإحساس قوى بالاكتفاء الذاتى، اعتمد كيث على كل المصادر- شبكات تضمن له عمالة مدفوعة الأجر فى الفنون الإبداعية عند مغادرة الجامعة. فى الجامعة نما لديه شعور أكثر قوة بالطبقة، فلاحظ كيف أن أغلبية زملائه الطلبة أكثر ثراء وأكثر ترددا فى البحث عن عمل. كانت عائلته مصدرا رئيسيا، عاطفيا وثقافيا، وبدرجة أقل ماديا. وكانت عنايته بأمه (التى عانت من مرض طويل) مع أبيه وأخته مما جعله يشعر بالمسئولية والنضج المبكر، وجعله يجد من الصعب مغادرة البيت للحياة مع فتاته. وزاد من تعقيد خطته للمستقبل مقابلته لـ"فتاة العمر" فى السابعة عشرة من عمره، لكنه اتبع أسلوب "دع الأمور تجرى كما يعن لها" نتيجة وعيه بالطبيعة المتقلقلة للحياة منذ سن صغيرة، وقد مكنه هذا من التكيف حسب الظروف.		

<table dir="rtl">
<tr><td>إغفال الاسم فى البيانات</td><td></td><td colspan="3">المقابلات</td></tr>
<tr><td rowspan="8">تعرضت بيانات مقابلة كيث لعملية إغفال للاسم. وبيان حالته سوف يكون مغفل الاسم فيما يلى. ولا يزال ينبغى تحويل بقية بياناته إلى ملف ديجيتال وإغفال الاسم منها وتخزينها منفصلة مع البيانات الخاصة بالآخرين: خط العمر، وكراسات الذاكرة، والاستبيانات، وجماعات المناقشة.</td><td></td><td colspan="3">التسجيل: شريط فيديو، ملف إم بى ثرى</td></tr>
<tr><td></td><td>التاريخ</td><td>العمر</td><td>الباحث</td></tr>
<tr><td></td><td>١٩٩٨/٦/٢٢</td><td>١٥</td><td>ش</td></tr>
<tr><td></td><td>١٩٩٩/٧/١٦</td><td>١٦</td><td>ش</td></tr>
<tr><td></td><td>٢٠٠٠/٣/٢٩</td><td>١٦</td><td>ش</td></tr>
<tr><td></td><td>٢٠٠١/٤/٢٦</td><td>١٨</td><td>ش</td></tr>
<tr><td></td><td>٢٠٠٢/١١/١٩</td><td>١٩</td><td>ش</td></tr>
<tr><td></td><td>٢٠٠٤/٤/٧</td><td>٢٠</td><td>ش</td></tr>
<tr><td colspan="5">لمزيد من المعلومات حول عملية إغفال الاسم، انقر <u>هنا</u></td></tr>
<tr><td colspan="5">بيانات أخرى</td></tr>
<tr><td colspan="2">بيان الحالة</td><td colspan="3">استبيان ١: نسخة ورقية</td></tr>
<tr><td colspan="2">جماعة المناقشة: ١٩٩٧/١١/٢٨ التسجيل شريط صوتى</td><td colspan="3"></td></tr>
<tr><td colspan="2">جماعة المناقشة الناشئة: ٢٠٠٠/١٢/٨ التسجيل شريط صوتى</td><td colspan="3"></td></tr>
</table>

الأبعاد الأخلاقية للبحث الطولى الكيفى

فى كلتا الدراستين اللتين وصفناهما هنا، اهتم الباحثون بالعلاقة البحثية. وفى أعلى المستويات الواقعية، فإن الدراسات الطولية معرضة بشدة لانسحاب المشاركين (ندم). لهذا فإن الحفاظ على الاتصال والعلاقة بالمشاركين جزء أساسى من عملية البحث، وهى مستهلكة للوقت فى حد ذاتها. وقد وظفت الدراسات مجموعة من الأدوات للمساعدة فى هذه العملية، بما يشمل إرسال بطاقات الأعياد وأعياد الميلاد، والرسائل الإخبارية، والتقارير وإنشاء مواقع الإنترنت التفاعلية للمشاركين. ومن المشكلات الأخلاقية المرتبطة بالبحث الطولى الكيفى المفاوضات المستمرة للموافقة. فبينما قد يوافق بعض المشاركين على كل مقابلة، فمن غير المحتمل أنه سيكون لديهم حس بالقوة التراكمية لمجموعة البيانات، وما يمكن أن تكشف عنه فيما يخصهم.

وفى كل من الدراسة ١٢-١٨، ودراسة اكتشاف الرشد، عادت البيانات إلى المشاركين. وفى دراسة ١٢-١٨، ساعد الفيديو بعد المونتاج الباحثين على مشاركة المشاركين فى منظورهم للفرد، كما أمد المشاركين بفرصة إبداء رد فعلهم على ذلك. وفى مشروع اكتشاف الرشد، قدم الباحثون للمشاركين جميعا نسخا من شرائط التسجيل الخاصة بهم فى المقابلة الثالثة. وأخذ البعض، وليس الكل، ما قدم لهم، ولم يدل الكل بما يفيد أنهم استمعوا إليها. وفيما بعد، قدم الباحثون لكل الشباب المشتركين فى الدراسة نسخة من الكتاب النهائى، بالإضافة إلى التفاوض مع الأفراد حول المزيد من القصص الأكثر تفصيلا وكشفا للحالة. وفى مشاركة العروض مع الأفراد موضوع البحث نفتح أنفسنا أمام الاختلاف حول التفسير والعرض. ومن الممكن أن نجد مصدرا مفيدا لتطوير العلاقات التبادلية فى

الانعكاسات المنهجية للعاملين الميدانيين الأنثروبولوجيين الذين يعملون على فترات طويلة، والذين يضعون مفهوم الباحث باعتباره يقع فى مكان ما فى الصلة من المراقب إلى المشارك الفعلى إلى المدافع المؤيد (Peterson Royce and Kemper, 2002). ويرى بيترسون رويس وكمبر أن القضايا الأخلاقية فى البحث طويل المدى هى "مثل تحديات الحياة العائلية. كلما كانت العلاقة والمعرفة المتبادلة أكثر حميمية، كان احتمال الخلاف أكبر. وفى نفس الوقت، تتيح مثل هذه الحميمية مزيدا من الفرص ومسارات أكثر لحل الخلافات" (2002: xx).

ومجموعة البيانات الطولية الكيفية أكثر من مجموع أجزائها. فالتناقضات بين الروايات بمرور الزمن، والتكرارات، وفترات الصمت والموتيفات المتكررة، كل ذلك يقدم رؤى تتجاوز ما يمكن إنجازه فى بحث كيفى واحد. "فالعمق" السيرى الذى سعت إليه ماكليود وييتس بكل تأكيد متفرع من المنهج. ولهذا فإن الاهتمام بالعلاقة البحثية مسئولية جادة، لا تخص فقط العناية بالثقة، ولكن اعترافا بإمكانية انتهاك الخصوصية (R.Thomson, 2007). ومن المحتم أن البحث الذى يختص بتكرار إجراء مقابلات متعمقة سوف يكون له بعض التأثير على المشاركين. وفى معظم الحالات ومعظم الأوقات تكون هذه التأثيرات محايدة أو حتى إيجابية، ولكن سوف تكون هناك أيضا أوقات وحالات حيث الانهماك فى هذا النوع من الدراسة صعب وغير مريح. (وللاطلاع على قصة تحذيرية ومناقشة أمينة ومثيرة عن الأخلاقيات فى البحث الطولى الكيفى، انظر Woolcott, 2002). والاستعداد لإدخال المشاركين ومشاركة نتائج البحث ليس حلا بسيطا لهذه الحالة المعقدة. فقد يكره الناس الطريقة التى يجرى تمثيلهم بها، أو ربما يشعرون بأنهم مكشوفون من خلال التمثيل. ومن الممكن وضع ذلك فى إطار لغة المناهج النفسية- الاجتماعية باعتباره عدم استعداد "الشخص المدافع عنه" لرؤية نفسه داخل رواية بحثية

(Hollway and Jefferson, 2000)، ولكن، من الممكن بنفس السهولة وضعه فـــى إطار من ناحية "الباحثين المدافع عـــنهم" (Lucey et al., 2003) الـــذين اســـتثمروا مجهوداتهم فى تفسيرات معينة وقراءات للبيانات. وقد شعرت إحدى الشخـــصيات المبحوثة من خلال أحد أبحاث اكتشاف الرشد بأنها صورت فى الكتـــاب بطريقـــة جعلتها "تبدو غبية"- رغم أن هذا لم يكن قـــصد البـــاحثين ولا تقيـــيمهم للحالـــة. والاقتباس التالى من شابة اشتركت فى دراسة اكتشاف الرشد، والتى قرأت قـــصة حالة ممتدة بناء على المقابلات التى أجريت معها، والقصة توحى ببعض التعقيدات لكلا الطرفين على السواء.

- كانت قراءته تستحق نوعا من الانكماش خوفا. ولكن فـــى نفـــس الوقـــت أعرف كل شيء قلته لك، وكأنك تعيدين تمريره الآن. إنك لم تلتقطى أشياء من لا شيء، وبالتالى فلم أشعر بصدمة حيال أى شيء.
- ق. هل تشعرين بأنه رواية دقيقة؟
- نعم. هناك بعض الأشياء أقول لنفسى "آه، كنت أعرف هذا بالفعـــل". ثـــم هناك أشياء أخرى.. "أوه، حقا؟ لا بد أن أفكر فى هذا". لكن، نعم.
- ق. إذن فما هى الأشياء التى أثارت دهشتك؟
- لقد دهشت من الكل، [تضحك] من أننى ينبغى أن "أحاول وأتجاوز الأنماط التقليدية للأنوثة". لم أكن أعرف أننى أفعل ذلك! لكن، عنـــدما أفكـــر فـــى الأمر، نعم، لقد فعلت ذلك. ولكنى ما كانت لألاحظ ذلك بنفسى... إنك لـــم تبتدعى أى شيء يصدمنى. لقد قلت لك شيئا، وأنت فكرت فيه، ثم أعـــدت قوله لى بطريقتك.
- ق. إنه شيء غير عادى حقا، أن يتلقى أى شخص مشترك فى بحث ذلـــك مرة أخرى.

- نعم. أظن أنه كان من الأسهل كثيرا بالنسبة لى أن لا أحصل على ذلـك. أترين؟ لو فعلت هذا أبدا مرة أخرى، فلا تكلفى نفسك هـذا المجهـود. لا أظن أن أى شخص بحاجة له... [ضحك].
- ق. هل تظنين أنه كان من الأفضل ألا تأخذيه؟
- سوف أكون أكثر احتراسا فى حديثى معك. لأننى لا أعرف أبدا ماذا سوف يكون رأيك فى الآن.

وهناك تقليد مستقر لأرشفة وعمل تحليل ثانوى لمجموعات البيانات الطولية الكيفية، ينعكس فى التفرقة الفعالة بين عمليات جمع البيانـات وتحليـل البيانـات، وتطوير مجتمعات المستخدمين الثانويين الذين ينمون حول كل مجموعـة بيانـات. وأرشفة البيانات الكيفية عملية تطويرية، وهناك عدد من المراكـز المتميـزة مـن ضمنها مركز مـوراى **Murray Centre** فـى جامعـة هارفـارد (**James and Sorensen, 2000**)، والمركز التعاونى الخاص ١٨٦ "مجازات ومخاطر المكانة فى مسار الحياة" **Special Collaborative Centre 186 'Status Passages and Risks in the Life Course'** فى جامعـة بـريمن، ألمانيـا (**Kluge and Opitz, 2000**) كواليداتا **Qualidata** فى جامعة إسكس بالمملكة المتحـددة (**Corti, 2000; Corti and Thompson, 2003**) (انظر الفصل ٧). والمفارقة أن الدراسات الطولية الكيفية قد تكون مناسبة على نحو خاص لكل من الأرشفة والتحليل الثانوى (بسبب مجالها وما تحتويه من كوامن لم تتحقق) وفى ذات الوقت هى غير مناسـبة علـى نحـو خاص (بسبب مشكلة التفويض أو المشاركة فـى واجـب الاهتمـام بالمـشاركين والموكول إلى الباحثين الأصليين). وأحد العوائق الأساسية للتحليل الثانوى للبيانات الكيفية كان صعوبة تسجيل/ إعادة تصوير سياق البحث الأصلى (بما يشمل الذاتيـة أو الباحث الأصـلى) (**Hammersley, 1997; Heaton, 2004; Mauthner et al., 1998**). وهذه الأسئلة كانت موضوع مناقشة مستمرة، مع ما كان فى وقـت مـن

الأوقات جدلا مستقطبا نسبيا نحو الاهتمام بكيف تمكننا الأرشفة من وضع الأسـئلة الخاصة بالصفة الزمنية والسياق فى البؤرة بطرائق جديدة مثمرة (Bornat, 2005: Gillies and Edwards, 2005: Moore, 2005). والدراسات مـن مثـل مـشروع اكتشاف الرشد تجد طرائق لتوثيق ومشاركة حكايات مفصلة لذلك السياق البحثـى، وتميز بين الزمن البيوجرافى الذى تصوره البيانات، وزمن البحث الخاص بالمنهج والزمن التاريخى الذى يشمل المشروع كله (Henderson et al., 2006).

والدراسات الطولية الكيفية لا تثير بالضرورة مـشكلات أخلاقيـة جديـدة، ولكنها تبالغ فى الموجود منها بالفعل. إن عمل أرشيفات للمقابلة والمواد الأخـرى لأحد الأفرد على مدى فترة تمتد لسنوات لا يمثل فقط مصدرا ثريا للبيانات، ولكـن أيضا مصدر كاشف على نحو فريد (Bishop. 2005). وفى العلوم الاجتماعية كان من التطبيقات المسلم بها تقديم وعد لمن تجرى المقابلة معهم بالسرية وعـدم ذكـر الاسم. ولكن ذلك ليس تصرفا مقبولا داخل مجتمع التـاريخ الـشفاهى؛ لأن مـن تخصهم تلك الروايات جزء من السجل التـاريخى (Bornat; 2003, 2005; Parry and Mauthner, 2004). إن عمل أرشيفات للبيانات تعتمد علـى كـلا التقليـدين وتفترض تعاونا بين مجموعة مستخدمين من الباحثين من تخصصات مختلفة (بـل وتعاونا عاما) لا بد أن يوازن بين المتطلبات التنافسية والمعايير القياسية.

استنتاج

فى هذا الفصل حاولنا وضع الحماس الحالى للبحث الطـولى الكيفـى فـى السياق- حيث يتشكل وفقا للاتجاهات الثقافية، والنظرية، والتقنية. وقد اقترحنـا أن الدراسات الكيفية التى تتابع أفرادا عبر الزمن لها طبيعة خاصة تقوض الفروق بين الحياة الموثقة للشخصيات موضع البحث وذاتية الباحـث. فبينمـا يـسير الباحـث

والمبحوث متجاورين، فإنهما يصلان إلى الاشتراك فى مشهد زمنى مشترك، ويرتبطان بقضايا التزامن والتوقيتات المتباينة (Adam, 2004). ويتخذ المشروع جوانب جمالية، وأخلاقية، واجتماعية، وهى تتصاعد عند نقطة التحليل الختامى وعندما نشترك فى التمثيلات الناتجة، وبذلك نثبت كلا من الباحث والمبحوث فى موضعه. ورغم أن "الجمهور" جزء لا يتجزأ من المشروع الروائى أو صانع الفيلم الوثائقى، فإن العالم الاجتماعى يتخيل فى العادة جمهورا محددا ومتخصصا بدرجة كبيرة لعمله. لكن مع التطورات فى تكنولوجيا المعلومات وتنامى المطالبات بنشر النتائج وأرشفة ومشاركة البيانات، فإن هؤلاء الذين يقومون بهذه الأنواع من الدراسات يرتبطون بعلاقات متزايدة الانفتاح والتكرار مع موضوعات البحث والجمهور. إن البحث الطولى الكيفى يمكننا من وضع أيدينا على عمليات شخصية مستقرة اجتماعيا، والقبض على العمق السيكولوجى والحدة العاطفية. ولا مفر من أن يكون تأطير تلك العمليات وتقديمها يجرى بطريقة متحيزة، وطارئة، ومنفتحة للتفسير.

لقد شاركنا معكم تجربتنا فى العمل فى البحث الطولى الكيفى، وعرضنا كيف ولماذا وصلنا إلى تصميمنا البحثى، وماذا فعلنا بذلك. وفى تقديم ومشاركة بياناتنا الطولية الكيفية، فقد رحبنا بموقف معرفى يتطلب المطالبة بمعرفة صريحة بلا تحفظ. وقد تحقق هذا بمجموعة من الطرائق: توثيق مفصل لسياق البحث (Henderson et al, 2006)، وكشف الشخصية الظاهرة للتحليل (Thomson, forthcoming 2009)، وجدولة تأثير قراءاتنا على "اكتشافاتنا" (McLeod, 2003). وكان الدرس المستفاد للبحث عبر الزمن بهذه الطريقة هو كيف تتجاوز البيانات دائما أى إطار عمل نظرى نستخدمه فيه، مما شجعنا للتعامل مع النظريات كأدوات ضرورية ولكن كليلة فى المجهود المستحيل لتمثيل تعقيدات الحياة المعاشة.

نقاط تلخيصية

- استخدمت مناهج البحث الطولى الكيفى فى حقول وأنساق معرفية كثيرة، لكنها مناسبة من الناحية المثالية لتوثيق المعانى المرتبطة بالظاهرة العملية والانتقالات.
- البحث الطولى الكيفى مستقر جيدا فى عدد من الفروع العلمية، إلا أنه حاليا يجتذب اهتمام الباحثين والممولين بسبب قدرته على المعالجة بما يتناغم مع اهتمام متنام بالتدفق والدينامية التى يمكن أن نجدها فى النظرية الاجتماعية، والسياسة الاجتماعية والثقافة الشعبية.
- من الخصائص المميزة للبحث الطولى الكيفى أن الباحث وعملية البحث يشكلان جزءا من البيانات.
- والدراسات الطولية الكيفية لها المقدرة على تمكيننا من فهم التفاعل بين الزمن التاريخى، والسيرى، والبحثى.
- إن تنسيق المقابلة المعادة الذى هو من الأساسيات فى البحث الطولى الكيفى يساهم فى موضوع البحث الذى يتسم بالتعقيد السيكولوجى، والتجسيد، والحركة، والذى يتشكل فى علاقة بالآخرين وداخل سياق اجتماعى متغير.
- وبوضع مقارنة داخل الدراسة من الممكن أن نرى ما وراء الفرد كوحدة للتحليل، نحو فهم لكيف تفقد المجتمعات والمؤسسات قوتها بمرور الوقت وفى علاقة كل منها بالأخرى.
- والشخصية ذات النهاية المفتوحة للبحث الطولى الكيفى ترتبط بعدم وجود ختام تحليلى. إن نقطة التميز المتغيرة التى يمكن منها فهم البيانات تبعث

شكلا من "المنظورية" يعترف باحتمالية التفسير وخصوصية البيانات والتحليل بالنسبة للحالة التى ولدت فيها.

- التعقيد الأخلاقى للبحث الطولى الكيفى يصبح مبالغا فيه بمرور الوقت، خاصة فيما يتعلق بقضايا التمثيل، والموافقة، والخصوصية.

مصادر للاستزادة

Pollard, A. and Filer, A. (1999) The Social World of Pupil Career: Strategic Biographies through Primary School. London: Continuum.

إحدى سلاسل الكتب التى تقدم أخبار المكتشفات الخاصة ببرنامج الهوية والتعلم الذى تابع المسار التعليمى لسبعة عشر طفلا بين سن الرابعة والسادسة عشرة، باستخدام مناهج إثنوجرافية. ويقدم رؤى ثاقبة لتعقيد العمليات التى يحدث التعليم من خلالها، ويوفر وثيقة فريدة حول تأثير الإصلاح التعليمى على مدى فترة ١٢ عاما.

Walkerdine, V., Lucey, H. and Melody, J. (2001) Growing Up Girl: Psychosocial Explorations of Gender and Class. London: Palgrave: Macmillan.

هذا الكتاب يقدم تقارير حول ما يزيد على ٢٠ عاما من البحث مع مجموعة من النساء الشابات اللائى شاركن فى سلسلة من الدراسات. واعتمادا على إطار عملى اجتماعى سيكولوجى، تستكشف المؤلفات مفاهيمهن المتغيرة عن المرأة الشابة المرتبطة بمشروع للحراك الاجتماعى ضمن فترة من التغير الاجتماعى السريع.

Kemper, EC and Peterson Royce, A. (eds) (2002) Chronicling Cultures: Long-Term Field Research in Anthropology. Walnut Creek, CAAltaMira Press.

اعتمادا على الممارسة المستقرة للعمل الميداني طويل الأمد في الأنثروبولوجى، يقدم هذا الكتاب رؤية منهجية (خاصة فيما يتعلق بأخلاقيات وعلاقات البحث) بالإضافة إلى أمثلة من الدراسات التى تبحث الحياة المهنية أو التى تصل أجيالا من الباحثين.

Saldana, j. (2003) Longitudinal Qualitative Research: Analyzing Change through Time. Walnut Creek, CA: AltaMira Press.

دليل شامل لكل جوانب تصميم وتحليل البحث الطولى الكيفى، قائم على بحث المؤلف نفسه فى الدراسات المسرحية.

وهناك عددان خاصان من الصحف يركزان على البحث الطولى الكيفى:

The International Journal of Social Research Methodology 6 (3)

ويشمل هذا سلسلة من الأوراق تستكشف البحث الطولى الكيفى، وملاحظات بحثية تفصل آراء ودروس وهيئة تحريرية تضع الخطوط العامة للحقل الناشى.

Social Policy and Society 6 (4)

هذا "القسم" الخاص يشمل عدة أوراق تستكشف قيمة البحث الطولى الكيفى للبحث السياسة الاجتماعية، وهناك ببلوجرافيا حول الأرشفة وهيئة تحرير

والمواقع على الإنترنت:

www.lsbu.ac.uk/inventingadulthoods

موقع يقدم نظرة عامة لدراسة اكتشاف الرشد، بما يشمل الدخول لأرشيف ديجيتال لنموذج حالة .

www.tiniescapes.leeds.ac.uk

موقع على الإنترنت لدراسة كبرى جديدة طولية كيفية، يجمـــع بـــين ســـبع تحقيقات تجريبية لمراحل مختلفة فى مسار الحياة. والموقع سوف يقدم أيضا بوابـــة للوصول إلى الأرشيف "الحى" لمرور الزمن الفعلى.

الهامش

١) على سبيل المثال، جماعات الميلاد البريطانية التى تبعت جداول تمثيلية قومية لحوالى ١٣,٠٠٠ من الأفراد الذين ولدوا فى أسبوع واحد عام ١٩٤٦ (الدراسة القومية لتطور الطفل **The National Child Development Study**)، ١٩٥٨، ١٩٧٠ **(Ferri et al., 2003)** ومنذ سنوات قلائل، جماعة ألفية تتابع الأطفال الذين ولدوا فى المملكة المتحدة عام ٢٠٠٠. وفى أستراليا، تشمل الدراسات الطولية المؤثرة المسح الطولى للشباب الأسترالى **(Lamb and McKenzie, 2000)**، والدراسة الطولية للأنماط الحياتية **(Dwyer and Wyn, 2001)**.

٥

الإثنوجرافيا

> التحليل الثقافى غير مكتمل من الناحية الفعلية. والأسوأ من هذا، أنه كلما ازداد تعمقا، قل اكتماله... إن الالتزام بمفهوم رمزى عن الثقافة وبمقاربة تأويلية لدراستها هو التزام بنظرة ذات توكيد إثنوجرافى، "باعتبارها قابلة للاعتراض عليها فى الأساس"، كما يقول دبليو بى. جالى فى عبارته التى ازدادت شهرة فى وقتنا هذا (Clifford Geertz, 1973: 29).

> وضع الزمنى فى إشكالية: انفصال عن مجاز التاريخ فى الإثنوجرافية. وليس الانفصال عن الوعى التاريخى، أو الإحساس الطاغى بالماضى فى أى موقع أو مجموعة من المواقع تسبرها الإثنوجرافية، بل هو انفصال عن الحتمية التاريخية كسياق أساسى لأى حاضر إثنوجرافى... الماضى الذى هو فى أى موقع ناشئ عن الذاكرة، الوسيط الجوهرى للتاريخ الإثنوجرافى. (George Marcus, 1992: 316، فى الأصل توكيد).

يسعى التحقيق الإثنوجرافى إلى توثيق وفهم العوالم اليومية للجماعات الاجتماعية والمجتمعات. وهو يهدف إلى إلقاء الضوء على تفصيل وأهمية العمليات الاجتماعية، والشعائر، والتفاعلات وهى تحدث وتتفتح فى الزمن المعاش للحاضر

(Atkinson et al., 2002; Eisenhart, 2001). وله "ملامح منفصلة تـدور حـول أفكار الناس باعتبارهم **صانعى المعانى**، وحول التوكيد على فهم كيف **يفسر** النـاس عوالمهم، والحاجة لفهم عوالم الثقافة الخاصة التى يعيش فيها الناس والتى يقومون بصنعها والاستفادة منها على السواء" (Goldbart and Hustler, 2005: 16). وفى تفصيل الحياة الثقافية، ينظر الإثنوجرافيون لرؤية معنى الكل الثقافى. ولكن، كمـا يعلق جيرتز (1973) أعلاه، إن التحليل الثقافى الحتمى "ناقص جوهريـا"، و"قابـل للاعتراض عليه أساسـا". إن علـم دراسـة أصـول الأعـراق والثقافـات، أو الإثنوجرافيا، يدور تقليديا داخل مساحات محددة معينة، مثل القرية أو المدرسـة أو مكان العمل، فى مواقع ربما تكون مألوفة أو غير مألوفة للباحث. وعنـدما يقـوم الإثنوجرافى بـ"عمل ميدانى"، يوظف مجموعة من المناهج لبناء روايات وصفية، تشمل ملاحظات المشاركين، والمقابلات، وتحليل الوثائق والأشياء المادية. والبحث النموذجى يصمم بنهاية مفتوحة نسبيا؛ وبينما يبـدأ الإثنـوجرافى عـادة بـبعض "المشكلات الدالـة"، فـإن توجهـه استكـشافى" (Hammersley and Atkinson, 2007:3, 20-4).

وتصور الإثنوجرافيا بدقة العمليات والأحداث الثقافية أثنـاء حـدوثها، مـع تفضيل وصف "هنا والآن"، الخاص بالحاضر؛ ولكن هذا الفصل يركز علـى مـا يقدمه التحقيق الإثنوجرافى لبحث التغير. وربما يكبح توجه الإثنوجرافيا إلى "هنـا والآن" التفكير فى التغير على مدى فترات ممتدة من الـزمن، حيـث إن التركيـز موجه على نحو نموذجى وأكثر دقة إلى التطبيقات وصناعة المعنى علـى فتـرات زمنية أقصر، وفى أماكن معينة. والبحث الطولى الكيفى مؤثر لتوثيق التغير عبـر الزمن، ولعمل رسم بيانى للتغيرات فى أفواج- سواء جماعات أو أفراد- وله أجندة زمنية واضحة ثابتة داخل منهجيته. وفى المقابل، فإن المناهج الإثنوجرافيـة يبـدو

أنها مناسبة على وجه الخصوص لمراقبة روتين الأشياء وملاحظة ما يحدث في هذا الروتين من انقطاعات، ولوضع اليد على التغير وهو ينشأ ويتطور. ونظرته المتفحصة الشاملة تتيح الانتباه إلى غير المتوقع، إلى التفاعلات على المستويات الصغيرة والديناميات التى يمكن فيها الشعور بالتغيرات الاجتماعية والتعبير عنها، وإلى التعايش المتزامن للزمن البيوجرافى للباحث والمبحوث. وكما يظهر من اقتباسنا الافتتاحى من ماركوس، فإن التحقيق الإثنوجرافى جزء لا يتجزأ من فهم علاقة الماضى بالحاضر، وبكيف يستمد الحاضر الإثنوجرافى من ذكريات الماضى.

يدور كثير من الجدل فى الفترة الأخيرة حول أن الإبداع النظرى والمنهجى داخل الإثنوجرافيا يفضل الكتابة والعلاقات المكانية، وفى هذا الفصل سوف نهتم بما يقدمه هذا العمل لإعادة التفكير فى العلاقات بين الزمان والمكان ولبحث التغير. ونحن نؤكد أن التطبيقات الإثنوجرافية تتيح رؤية مميزة لعمليات التغير لأنها تعزز تحليل الظاهرة عن قرب على مدى زمنى، وفى فترة منفصلة من الزمن، حتى لو كانت زمنية هذا المجهود غير موضحة. وبعد مراجعة موجزة للمناقشات المنهجية المهمة فى الإثنوجرافيا، نفحص دراستين- الأولى أجريت فى أواخر أعوام ١٩٦٠، والثانية فى أعوام العقد ١٩٩٠. وكلتا الحالتين تتناولان علاقات الجنسين والتغير الجيلى، وكلتاهما تستمدان من النسوية؛ والحالتان معا تقبضان على بعض اللحظات والتغيرات الكاشفة فى النظرية النسوية وفى التحقيق الإثنوجرافى.

رحلات المداخل المعرفية (العلمية)

يتشابك تاريخ الإثنوجرافيا مع تاريخ عدد من الفروع المعرفية، وخاصة الأنثروبولوجيا، ولكن أيضا السوسيولوجيا المدينية- مدرسة شيكاغو، ودراسات

المجتمع، والدراسات الثقافية الفرعية (Gelder, 2007) – وأشكال المعرفة الشعبية، مثل كتابة الرحلات (Hammersley, 1998). وفى أواخر القــرن التاســع عــشر، اعتبر الأنثروبولوجيون أن الإثنوجرافيا سجل للحياة الخاصة "بالآخرين المتــصفين بالغرابة" (وعلى سبيل المثال، والمشهور، مالينوفسكى وبحثه فــى ١٩١٥-١٩١٨ حول أهالى جزر تروبرياند فى غينيا الجديدة)، الذين لا يوجد بحث مكتبى تقليــدى عنهم. وكانت المناهج المختصة بملاحظة الحياة كما تحــدث هــى أســاس توليــد المعرفة حول الثقافات الأخرى (انظر Burke, 1992). وبحلول النصف الثانى مــن القرن العشرين، أصبحت النظرة إلى تلك الدراسات تــرى أنهــا كانــت مــسخرة لمشروعات الهيمنة الكولونيالية، وإجراء مسوح للآخرين ووضعهم فى كتالوجات. ولكن الاهتمام بالدراسات الإثنوجرافية استمر يزدهر، وقد اهتم به علماء الاجتماع والمختصون بالدراسات الثقافية لدراســة أوجــه مجتمعــاتهم أنفــسهم، ورحــب الأنثروبولوجيون وغيرهم لإعادة النظر إلى "المجتمعات الغربية"، لدراسة مــا بــدا عاديا– لجعل "المألوف غريبا والعادى دخيلا" (Clifford and Marcus, 1986: 2). ويصف كليفورد هذا بنهضة "الإثنوجرافيين الأهليين"– "أهل البلاد يدرسون ثقافاتهم الخاصة" (1986: 9). ودراسة الحالة الأولى لنا مثال لباحثة أنثروبولوجيــة (ديانــا ليونارد) تبحث الزواج والغزل فى مجتمع محلى فى ويلز؛ ودراسة الحالة الثانيــة مثال لإثنوجرافيا داخل مدرسة قامت بها باحثة (مارى جين كيلى)، وهى جــزء لا يتجزأ من الدراسات الثقافية والتقاليد النسوية.

فى وقت ما كانت صورة الإثنوجرافى مستمدة بدرجة كبيــرة مــن فكــرة الأنثروبولوجى الجرىء، عقل جاد وباحث ملىء بالفضول للمعرفة، فى يده كتــاب بالٍ متآكل ملىء بالملاحظات الميدانية، يكتب بعجلة تحت كل الظــروف الــصعبة والمعطلة. هذه الصورة ربما بالغ فيها العامل الميدانى المحدث، وليس بالــضرورة

من يعمل فى مواقع أو قرى غريبة، والذى يتلاعب بالأجهزة الديجيتال لاستخراج صور متعددة الطبقات، بصرية، نصية، وسمعية، مركبة من الملاحظات الميدانية التى قدمت انعكاسيا وحتى بعصبية كتمثيل متحيز وغير مكتمل لحدث ما، والذى فُهم فى حد ذاته باعتباره أنه حتما قد شكله حضور العامل الميدانى. وقد كان للتحولات النصية والثقافية فى العلوم الاجتماعية والإنسانيات تأثير قوى أيضا على العمل الإثنوجرافى، ولكن قبل أن نتحول لهذا، دعونا نتأمل ما المقصود بـ"الموقف الإثنوجرافى".

الموقف الإثنوجرافى

عادة "تبدأ الإثنوجرافيا بوصف الخلفية المحيطة بالمشهد، والأشياء، والسلوك، وتصنيفات الأفراد والجماعات، وتنتهى بتحليل للعلاقات البنائية بين عناصر المجموعة" (Harper, 1992: 149). وكما سبق أن ذكرنا، لا تقتصر المناهج الإثنوجرافية على ممارسة العمل الميدانى بعيدا عن "الوطن"، ومرحب بها فى عدد كبير من الفروع المعرفية– فما الذى يوحد بين هذه الانعطافات المنفصلة والمختلفة؟ فى مهنة البحث المعاصر يرى أورتنر أن "الموقف الإثنوجرافى" هو: "بنفس القدر موقف تميز ثقافى (وأخلاقى)– حالة بنائية وتأويلية– بقدر ما هو عملية مجسدة فى الوقت والمكان" (Ortner, 2006: 42; see also Willis, 2000: viii-xx). هذا الموقف يمكن أن يكون مادة تستقى منها التفسيرات النصية، عنصرا من دراسة حالة، إستراتيجية لتناص مقابلات البحث، أو تبناها المؤرخون لإعادة بناء شعور بالزمان والمكان اللذين لا يمكن وضع ملاحظات مباشرة عنهما بالمعنى المتعارف عليه. وهناك، فضلا عن هذا، خيوط مختلفة داخل التوصيف الواسع للبحث

الإثنوجرافى، مثل الإثنوجرافيا المؤسسية (Smith, 2005)، وإثنوجرافيا الأداء (Alexander, 2005)، والإثنوجرافية النسوية، أو النقدية، أو التاريخية أو ما بعد الكولونيالية (Comaroff and Comaroff, 1992; Skeggs, 1997; Willis, 2000).

كان أورتنر يرى أن الجانب المميز والموحد للموقف الإثنوجرافى هو أنه يختص "أولا وآخرا بالتزام بما أطلق عليه جيرتز 'السماكة'، لإنتاج الفهم من خلال الثراء، والنسيج، والتفصيل" (43 :2006)، والذى غالبا ما يقود إلى توثيق مستهلك. وعقب ذلك، أصبحت السماكة "مرادفة لنظرية تفوق الكلى على الجزئى، فكرة أن الشيء محل الدراسة كان 'ثقافة متكاملة على أعلى مستوى' وكان من الممكن وصف النظام بكامله أو على الأقل الإدراك التام بالمبادئ التى هى ركيزة له" (Ortner, 2006: 43). وهناك نقد مقنع لنظرية تفوق الكلى على الجزئى هو فشلها فى الاعتراف بالفجوات، والتشظيات، والتناقضات داخل الثقافات، وعجرفتها وتكبرها فى تخيل أن "الآخر" يمكن معرفته بعمق وشمول عن طريق الباحث (Crang and Cook, 2007: 7-13). والآمال المبكرة للإثنوجرافيا التى تؤمن بنظرية تفوق الكلى قد تراجعت الآن أمام التأملات حول التحيز الحتمى لأى رواية وتحليل بوعى ذاتى لدور الإثنوجرافى فى تشكيل ما هو ظاهر ومرئى. وحتى مع ذلك، يقترح أورتنر أن الالتزام بـ"وصف سميك" يظل "فى مركز الموقف الإثنوجرافى" (Ortner, 2006: 43).

توترات مستمرة

تشمل الإثنوجرافيا مجموعة من التطبيقات البحثية، ولكنها فى الحد الأدنى "كانت تعنى دائما محاولة فهم عالم حياة أخرى باستخدام الذات- أكثر ما يمكن منها

بقدر الإمكان- كأداة للمعرفة" (Ortner, 2006: 42). هذه الفكـرة مـشتركة بـين التناولات الكيفية، ولكنها تأخذ شكلا أقوى فى البحـث الإثنـوجرافى مـن خـلال ممارسة العمل الميدانى، حيث انغماس "الذات كلها ماديا وبكل طريقة أخـرى" (p. 42) تدخل فى عوالم حياة أخرى. وكان ثمة توتر دائم داخل الإثنوجرافيا هو كيـف يتحرك الباحثون فى علاقاتهم مع الميدان، والموقف الملتبس للمراقـب المـشارك، وهو وصف يلخص التوتر بـين المـسافة والانغمـاس، والموضـوعية والذاتيـة (Coffey, 1999; Crang and Cook, 2007; Tamboukou and Ball, 2003). وتصف الأنثروبولوجية روث بيهار هذا بأنه "مفارقة عميقة" فى المهمـة الثقافيـة، تتطلب من المرء أن "يحصل على 'الرأى الخاص بالأهالى المحليـين'... دون أن يصبح فعلا 'محليا'" (Behar, 1996: 5).

وكما مع التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة، ومعظم أشكال البحث الكيفى، هناك تحد مستمر هو الإبحار فى العلاقة بين الخاص وكيان جمعى أكبر (سـواء كـان القومية، أو الطبقة، أو النوع، أو الهوية، أو ثقافة فرعية). هذا المأزق ملـح فـى العمل الإثنوجرافى؛ لأن الكثير من مطالبه بالمغزى المنهجى والمعرفى يستند على قدرتها على شرح واستخلاص المحلى الذى، بدوره، يلقى الضوء على قـضية أو علاقة أو ثقافة أكبر أو أوسع. وبهذا يظهر الخاص كجزء من كل أكبر، والذى تلقى الملاحظات الإثنوجرافية عن قرب الضوء عليه. وعلى سبيل المثال، مقال كليفورد جيرتز (١٩٧٣) الذى يكثر اقتباسه، والذى يتناول مـصارعة الديكـة الباليينيزيـة، يصور قوة "الوصف السميك" لتفسير معنى أحداث معينة. ولكن، تحليلـه الرمـزى لهذا الفاصل الخاص قوبل بانتقاد من رأوا ذلك أساسا إشكاليا لتوليـد روايـة عـن "الثقافة البالينيزية" (أى بالينيز؟ وثقافة من؟)، أو بالقدرة على شرح كيـف تتـصل

نصوص ثقافة معينة ببعضها البعض، أو إظهار مدى الانفصال، في التحليل المتعمق يمكن أن يكون مؤلفا ليساهم في "الكل" الثقافي (Biersak, 1989).

الزمن في الحقل البحثي (الميداني)

تتطلب الدراسة الإثنوجرافية التزاما كبيرا من الباحث، فهي تتطلب في العادة وقتا مكثفا وممتدا في موقع البحث (Hammersley and Atkinson, 2007). وأحد المنافع الرئيسية للارتباط العميق وطويل المدى هو أنه يساعد الباحث على التمييز بين العادي والاستثنائي (Nayak and Kehily, 2008). وقد أجريت بعض الدراسات الإثنوجرافية على مدى سنوات كثيرة، وبعض الباحثين الآخرين قد يعودون بانتظام إلى مواقع دراساتهم الحقلية، وتكون لهم علاقة طويلة المدى بالمجتمع وبالإخباريين الذين استقوا منهم مصادرهم (Kemper and Peterson 2002 ,Royce)؛ إلا أن بعض النصوص الإثنوجرافية الأخرى قد "تكتب" بعد سنوات من اكتمال العمل الميداني (Hey, 1997). وهناك دراسات أخرى أيضا قد تكون في الأساس "فور" المراقبة- مكثفة، ولكن بالمقارنة قصيرة المدى. وهذا النوع من البحث الإثنوجرافي يبدو أنه يزداد انتشارا، ويفاقم منه تسارع الحياة الأكاديمية. وفي العلوم الاجتماعية (وليس بالضرورة في الأنثروبولوجيا)، هناك احتمالات أكبر حاليا لأن يسمع المرء عن أناس يوظفون المناهج الإثنوجرافية دون القيام بدراسات إثنوجرافية على نطاق مكتمل، تتطلب ارتباطا طويل المدى ومراقبة مشاركة. ومن الممكن أن يكون ذلك نتيجة المنح والصعوبات في تأمين الدعم لمثل هذا البحث، خاصة أثناء فترة من تكثيف العمل الأكاديمي. ومن المحتمل أيضا أن يكون ذلك على علاقة بريبة فكرية مما تتكون منه الإثنوجرافيا كمنهج بحثي

ومجموعة من ادعاءات المعرفة، كما سوف نفصل لاحقا. ومع ذلك، هناك حالة مضادة، تتمثل فى مناداة لو Law (2004) بـ"مناهج بطيئة"، الأمر الذى يمكن أن يفتح الطريق لإعادة التفكير فى زمن العمل الميدانى، ونوع المعرفة التى يمكن استخراجها عن طريق الارتباط بالميدان على مدى بطىء، طويل.

إن الطبيعة الممتدة للعمل الإثنوجرافى، وأنواع العلاقات والانعكاسات الناتجة عن ذلك، نموذجيا شكلت أساس ما يميز المنهج الإثنوجرافى. ويمكن القيام بالدراسات الإثنوجرافية على مدى فترات زمنية متفاوتة، وأن يكون على اهتمامات مختلفة بالنسبة لمرور الوقت وكيف يؤثر على مواقع البحث ومصادر المعلومات. ومن الممكن عدم اعتبار الوقت ذا علاقة مباشرة بالأسئلة المطروحة فى الأبحاث الأنثروبولوجية؛ فقد يكون مركزيا للتصميم، كما فى العمل الميدانى طويل المدى أو فى حالة العودة إلى ميدان الدراسة؛ وقد يصبح من المهم أن يكون استعاديا، كما فى دراسات المتابعة الإثنوجرافية، والتى سوف نناقشها فى الفصل السابع؛ وقد يبرز فى مقارنات ضمنية مع الأجيال الأسبق، كما يستوحى من كل من دراسات الحالة الخاصة بنا؛ أو من الممكن أن يكون مجرد نتيجة لطول الوقت الخاص بالبحث والكتابة، كما هو مؤكد فى دراسة الحالة الأولى. هذه التفاوضات الخاصة بالزمن وتصميم البحث رغم تنوعها واختلافها إلا أنها تشترك فى اهتمام منهجى بالبحث و"ثقافة الكتابة".

الزمن، والصيغة الزمنية، والحاضر الإثنوجرافى

مع الالتزام بالانغماس فى الميدان ومنهج استقرائى، ينتج البحث الإثنوجرافى فى العادة كمية هائلة من البيانات التى تتطلب وقتا كبيرا لتحليلها

(Hammersley and Atkinson, 2007). والملاحظات الميدانية مهمة للغاية لفهم الأحداث والملاحظات وهى تحدث، ولكنها أيضا بحاجة للعودة إليها، غالبا بعد مرور بعض الوقت، أن تفحص مثلها مثل أى منتج بحثى تعتمد عليه الكتابة الإثنوجرافية النهائية. ويمثل هذا تحديات خاصة للإثنوجرافى الذى يعمل من بعض النواحى ضد مرور الوقت، محاولا باستمرار أن يقبض على، ويكتب عن، حاضر سريع الهروب. وهكذا فالكتابة الإثنوجرافية تتطلب نوعا من براعة اليد، خدعة محاولة تمثيل تفتح الأحداث عندما يكون هناك بعض التلكؤ فى الوقت– فالكتابة حتما تمثيل لحاضر قد مضى بالفعل.

فكرة "الحاضر الإثنوجرافى" جزئيا مسألة صيغة زمنية نحويا– استخدام الصيغة الدالة على الزمن الحاضر البسيط أو المستمر التى تستحضر فعلا أو حقيقة أو حدثا مستمر الحدوث، والتى كانت صيغة مميزة للكتابة الإثنوجرافية. ومن الناحية المنهجية، يشير الحاضر الإثنوجرافى إلى "عمليات استخلاص تحليلات وتعميمات من البحث الإثنوجرافى، وكأنها تمثل وصفا لازمنيا للناس محل الدراسة" (Davies, 2008: 193). ولكن، كما تلاحظ تشارلوت أول ديفيز، هذه النظرة "ضمنيا، تنكر الطبيعة التاريخية لهؤلاء الناس":

> البيانات التى تقوم عليها مثل هذه التحليلات يتم الحصول عليها فى واقعة تحدث تاريخيا بين الإثنوجرافى وبعض الأفراد من بين الناس الذين تصفهم. ولكن، بينما يمضى الإثنوجرافى فى طريقه، زمنيا، ومكانيا، وتنمويا، فإن الناس الذين درسهم يُقدمون وكأنهم متجمدون فى حالة لامتغيرة ولازمنية افتراضيا، وكأن

وصف الإثنوجرافى يقدم كل ما يهم، أو ممكن معرفته عن ماضيهم ومستقبلهم. (Davies, 2008: 193)

والشكل الأسلوبى للحاضر الإثنوجرافى يعكس العلاقة المعقدة بين العمل الميدانى الأنثروبولوجى والهيمنة الكولونيالية، والرغبة فى "القبض على" ما اعتُبر ثقافات تتخطى الزمن وفى سبيلها للاختفاء. وليس من المدهش أن فكرة "الحاضر الإثنوجرافى" كانت موضوعا للانتقاد من جهات كثيرة، وكما تقول ديفيز، أصبحت أكثر أهمية بسبب "الانتقادات التى تولدها" وليس بسبب "تطبيقها الفعلى" (p. 193). وتتعرض هذه الفكرة للانتقاد؛ لأنها تنقل إحساسا بثقافة وممارسات متجمدة فى الزمن لرفضها "إدخال جداول زمنية ذات كفاءة أو حتى تعريف نفسها كبنية معيارية" (Britzman, 2000: 34). وهناك روايات أكثر دينامية للزمنية فى البحث الإثنوجرافى، مثل "أصبح الإثنوجرافيون أكثر اهتماما بالنشوء، والممارسة، والأداء". وهذا أدى إلى "إعادة التاريخ والتتابع التاريخى إلى الإثنوجرافيا، ويزيد من صورة الثقافة كشىء ينشأ فى الإنتاج المحلى للخطاب والممارسة، بينما يقلل من صورتها كهيكل علوى معلق فوق الناس" (Brown, 2003: 72).

التاريخ والإثنوجرافيا

الحق أن علاقة التاريخ بالإثنوجرافيا، وعلاقة الماضى بالحاضر الإثنوجرافى، هى علاقة محيِّرة إلى حد ما (وتدعو للمناقشة مطولا)، تردد صدى مأزق برزت فى مناقشتنا لعلاقة الماضى بالحاضر فى التاريخ الشفاهى. وكما نرى فى الفقرة الافتتاحية لهذا الفصل والمقتبسة من جورج ماركوس، والتى تلمح إلى أن الحتمية التاريخية لم تعد كافية لشرح الحاضر. وأحد التحديات أمام الإثنوجرافيا

تحويل العلاقات الزمنية المضمرة داخل الإثنوجرافيا إلى إشكالية، "الانفصال عن مجاز التاريخ" وفكرة أن الحاضر هو تحقيق للماضى، ومنتج فى الماضى. وإرباك هذه الرواية الخطية للعلاقات الزمنية يتطلب إعادة التفكير فى "الحاضر الإثنوجرافى". وقد يعنى هذا أن نتخيل حاضرا مختلفا تماما، حاضرا تعرض لكثير من التجاهل فى "الأنثروبولوجيا الوظيفية الكلاسيكية.... وهذا حاضر لا يحدده السرد التاريخى أيضا، ولكن الذاكرة، رواياته ومتابعاته الخاصة المميزة (Marcus, 1992: 317). وتقدم ديفيز لقطة مختلفة ولكنها مع ذلك ترجع إلى مغزى الذاكرة. فهى تقترح أن "المؤرخين أقرب لمعاملة الماضى باعتباره أصبح وراءنا وأنه منتج للحاضر، [بينما] الأنثروبولوجيون كثيرا ما يعترضون على كلتا النظرتين":

> **أولا، تبنى كثيرون ما كان يسمى مقاربة تذكارية للماضى، والتى تعزز أنه "تذكر [الماضى] يظل كثيرا معنا: فى أجسامنا، فى تصرفاتنا وفى وعينا، وفى مهارتنا على الإدراك والفعل"... وفى النقطة الثانية، يمكن أن نرى التذكر الرسمى للأحداث التى قد مضت، كعملية لجعلها قابلة للتفسير فى ضوء الحاضر، فالماضى عمليا نتاج الحاضر (حيث تغير بمعرفة ما حدث منذئذ) وليس العكس. (Davies, 2008: 196)**

وهناك نظرة أبعد وهى رؤية الإثنوجرافيا باعتبارها "التاريخ الجارى"، والذى يتطلب فهما موسعا للحاضر الإثنوجرافى، فهما يضع بوعى الإثنوجرافيا "بالنسبة للماضى" و"يضع كلا من الأشخاص موضوع البحث والإثنوجرافى فى موقعهم من الزمان والمكان". هذه النظرة أيضا ينبغى أن "تكون متنبهة إلى المستقبل المحتمل الذى يجرى إنتاجه" وهذا بدوره يعمل ضد "الاتجاه البنيوى

لتجاهل التغاير والتغير" (Davies, 2008: 197). (وهناك أيضا تقليد قوى لـــ"التاريخ الإثنوجرافى"، ولكن ليس من الممكن التحدث عنه بالتفصيل هنا، وتكفـــى الإشـــارة إلى نفوذ الثقافة والإثنوجرافيا الرمزية على البحـــث التـــاريخى؛ Comaroff and Comaroff, 1992; Hunt, 1989).

وبالنسبة للآخرين، ومن ضمنهم أولئك الذين يعملون حسب التقاليد البنيويـــة، تعمل الإثنوجرافيا على كشف اعتباطية وتاريخية الحاضر. وعلى ســبيل المثـــال، بيير بورديو فى كتابه Masculine Domination (الهيمنة الذكورية، ٢٠٠١) يعود إلى دراسته الإثنوجرافية السابقة عن مجتمع القبائل فى الجزائر، مع تحليـــل بنيـــة العلاقات بين الجنسين والإنتاج وإعادة الإنتاج التاريخيين لما يبدو ظاهريـــا مبـــدأ وممارسة طبيعية للهيمنة الذكورية. ويؤكد بورديو أن هذا المبدأ يتخذ وضعا عامـــا يجعله يظهر أبديا أو طبيعيا، بينما هو فى الواقع تعسف ثقافى ينبغى تأريخ وضعه وتأثيراته، ومن الممكن أن يجرى ذلك جزئيا بإعلان الأساليب التى تجعلـــه يبـــدو طبيعيا. وفوق ذلك، فإن الخلق المستمر لهالة الأبدية ذاتها تضمن جزئيـــا مـــساءلة تاريخية واجتماعية. وفى ضوء هذه النظرة، فإن دور الباحث الإثنـــوجرافى هـــو إظهار كيف يصبح التاريخ طبيعة، وكيف تعمل المـــسألة العمليـــة والأيديولوجيـــة "للتجريد من الصفة التاريخية" (Bourdieu, 2001: viii, 102-3).

ولتلخيص ما سبق، ظهر المنهج الإثنوجرافى فى لحظة تاريخيـــة معينـــة، وسهل طريقة لفهم الثقافات، والمجتمعات، والممارسات التى عززت الحالية. وبعـــد ذلك، انتقلت الإثنوجرافيا فى الزمان والمكان لتصبح جزءا من عدد مـــن التقاليـــد الأكاديمية. وبينما السجل الزمنى الذى تعززه الإثنوجرافية هـــو الحاضـــر، فإنـــه يستحضر أيضا الماضى والمستقبل. وهذه الجوانب ليـــست بالـــضرورة اســـتجابة للوضوح أو الانتظام. لكن العمل من خلال كيف يقوم البحث فى الزمن الحاضـــر

(الزمان والمكان)، بافتراض، أو مساءلة، أو إعادة صياغة الماضى، وكيف يتوقع مستقبلا، هو جزء من العمل الإثنوجرافى ويشكل- على نحو مباشر أو غير مباشر- الاختيارات والتأويلات المنهجية. وكما فى المنهجيات الأخرى التى ناقشناها فى هذا الكتاب، يكشف تاريخ الإثنوجرافيا شيئا عن كيف جرى توظيفها كتطبيق بحثى وعملية كتابة فى الحاضر.

الزمن المحلى

إن التحدى الذى يمثله التوصل إلى اتفاق حول العلاقة بين الخاص و"الكل" الأكبر يفقد قوته على نحو متزايد عبر إشكالية المحلى/ العالمى المرتبطة بالعولمة **(Nayak and Kehily, 2008)**. وأدى هذا إلى ظهور قلق حول "لاحدودية" المحلى والعلاقات المشوشة والمعاد تصويرها بين الحيز العالمى، والقومى، والمحلى **(Appadurai, 2001; Burawoy, 2000; Dale, 2006)**. وتحت هذه الظروف، ما هو دور الإثنوجرافيا؟ إن "مهمة الإثنوجرافيا الآن تصبح حل لغز محير: ما هى طبيعة المحلية كتجربة معاشة فى عالم معولم مجرد من الإقليمية" **(Appadurai, 1996: 52, cited in Kenway et al, 2006: 44-5)**.

تظهر مثل هذه المناقشات فى سياق نقد بعد- كولونيالى لميراث الإثنوجرافيا الخاص ببناء وهيكلة الآخر، ولكنها بنفس القدر تنطبق على أى هيكلة لما يسمى ثقافة محلية **(Crang and Cook, 2007: 12)**. لقد كانت الكولونيالية وما يرتبط بها من رغبات لدراسة المحلى الذى بسببيله للاختفاء جزءا من ميلاد الإثنوجرافيا، لكن وضع خريطة للعلاقات العالمية أصبح جزءا من مشروعها الحاضر والمستقبلى. والانتقادات الموجهة إلى الكلية، والعلاقة المحلية/ العالمية هى جزء من سلسلة من

المجادلات الحيوية على مدار العقود القليلة الماضية، وتـأتى مـن أفـرع علميـة ووجهات نظر فكرية متنوعة، فيما يتعلـق بـالأغراض المنهجيـة، والمعرفيـة، والسياسية- الأخلاقية للإثنوجرافيـا (Atkinson et al., 2002; Britzman, 2000; Clifford, 2003; Eisenhart, 2001; Tamboukou and Ball, 2003). وهنـاك كتاب قام بتحريره كليفورد وماركوس Clifford and Marcus (١٩٨٦)، بعنـوان Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography (كتابة الثقافة: الجوانب الشاعرية والسياسية للإثنوجرافيا)، والذى يعتبر مجموعـة مهمـة مـن المقالات التى تعبر عن حالة التغير، وكثير من التحديات التى يتحدث عنها لا تزال بارزة إلى اليوم. وقبل أن نتناول دراسات الحالة، نناقش باختصار اثنتين من تلـك التحديات وثيقة الصلة باهتماماتنا.

أزمة تمثيل (منتجة)

الكتابة مركزية فى البحث الإثنوجرافى؛ فالإثنوجرافيا "تعنى حرفيا الكتابـة عن الناس" (Goldbart and Hustler, 2005: 16). والكتابة الإثنوجرافيـة تـشمل كتابة الملاحظات الميدانية، وهى تطبيق خاص نوعا للتوثيق والتأمل، والذى يحـدد مهنة الإثنوجرافى، وترجمة هذه الملاحظات إلى تعليق أو بيان عن البحث، والـذى بدوره ينشر فى مقالات وكتب متاحـة للقـراءة (Hammersley and Atkinson, 2007). وحتى عندما تُدعم الكتابة الإثنوجرافية بوسائط بصرية وسمعية وديجيتـال (Crang and Cook, 2007)، تظل هناك تساؤلات حول ما تمثله.

إن "أزمة التمثيل" اختصار لأزمة الإيمان (الإخلاص) بإمكانية التقاط ونقـل حقيقة موضوع الفحص الإثنوجرافى كاملة: "التمثيل لا يستطيع تقديم ما يعد به، أى

تقديم مدخل مباشر دون أى وساطة إلى الحقيقة" (Britzman, 2000: 35). والتمثيل يُرى كفعل تأويلى، لا مجرد انعكاس لـ حقيقة تجريبية "موجودة هناك بانتظار التوثيق"، ولكن فعل منتج للخيال والاختراع. فالفوضى، والتحيز، والمشروطية، تحل محل الأنظمة المرتبة للمعنى، والحقائق الملموسة والوقائع المحرَّرة (Law, 2004). وهناك أيضا عنصر للريبة، حيث ينظر إلى الكتابة والأشكال الأخرى للتمثيل باعتبارها خطيرة ومغوية على السواء- خطيرة بسبب ما يتم حتما إقصاؤه، ومغوية لأن التمثيلات يمكن أن تخدع القراء بأنها الحقيقة. ومثل هذه النواحى المثيرة للقلق تمتد إلى أسئلة أخلاقية حول كيف يمكن تمثيل "أصوات" وقصص المشاركين فى البحث؛ وإلى أى مدى يمكن للرواية الإثنوجرافية أن تُسكت، وتشوش على الأصوت، أو تتيح لها المجال، أو تعوق أو تساعد قدرة وفعالية المشاركين (Britzman, 2000)؟

يصف كليفورد الحالة الجارية بين الإثنوجرافيين بأنها تفترض "أن الشاعرية والسياسية لا ينفصمان، وأن العلم هو فى العملية التاريخية والعملية اللغوية، وليس فوقهما" (Clifford, 1986: 2). إن الانعطافة النصية فى الإثنوجرافيا، بتركيزها على صناعة النص (كل من الملاحظات الميدانية والتقرير البحثى) والبلاغة، "تساعد على إلقاء الضوء على الطبيعة المبنية والزائفة للتفسيرات الثقافية. فهى تقلل بوضوح من أنماط التأليف الشفافة، وتجذب الانتباه إلى المحنة التاريخية للإثنوجرافيا، وحقيقة أنها دائما تقع فى الاختراع، وليس تمثيل الثقافات" (p. 2). ويحتج كليفورد بأن النصوص الإثنوجرافية شكل من الكتابة الأدبية من حيث إنها توظف عمليات أدبية مثل "الاستعارة، والتصوير، والسرد" (p. 4). وبنفس الطريقة يصف بول ويليس "التخيل الإثنوجرافى" بأنه متناغم مع ظلال اللغة التصويرية المجازية وتغيراتها المحلية (Willis, 2000: 11).

والاستعارات الأدبية أيضا لها دور فى الادعاء بأن "الكتابات الإثنوجرافية يمكن أن تُسمى قصصا بالمعنى الدقيق للكلمة"، ولا يحمل هذا تضمينا بالزيف، ولكن اعترافا بـ"تحيز الحقائق الثقافية والتاريخية"، وبمعنى "شيء مصنوع أو مُعدَّل"، بمعنى صناعة، وتلفيق (أفعال مخترعة) (Clifford, 1986: 6). فالكتابة الإثنوجرافية تحاول أن تروى قصة عن عوالم أخرى، بهدف، يختلف من عمل لآخر، جعلها مفهومة، أو جعلها غريبة، أو تسعى للفهم من خلال عدسات جديدة. وبالنسبة لكل من الباحث والمبحوث، "كل الحقائق المركبة أصبحت ممكنة بسبب أكاذيب قوية عن الإقصاء واللغة الطنانة. وحتى أفضل النصوص الإثنوجرافية- قصص حقيقية جادة- هى تنظيم واقتصاد للحقيقة. تعمل السلطة والتاريخ من خلالها، بطرائق لا يستطيع مؤلفوها التحكم فيها بشكل كامل" (Clifford, 1986:7).

إن النظر إلى الكتابة بهذه الطرائق يقوض فكرة أن الإثنوجرافى شخص يستطيع أن يلتقط ثقافة ما بدقة ويقوم بتسجيلها بصدق. كما أنه يؤدى إلى مزيد من الحاضر الإثنوجرافى المضطرب وغير المستقر، ذلك أن توكيد الأبعاد التلفيقية والتخيلية للكتابة الإثنوجرافية يجعلها تعمل ضد رؤية الثقافة باعتبارها ثابتة فى الزمن أو لازمنية، بانتظار توثيقها.

تحولات الترجمة الذاتية

ماذا قال الإثنوجرافى ما بعد الحداثى للإخبارى؟

"يكفى هذا عنك، والآن ماذا عنى؟"

تقليديا، من المعترف به أن الخبرات الشخصية للإثنوجرافى، خاصة تلك الخاصة بالمساهمة والتقمص العاطفى، مركزية فى عملية البحث، لكنها مقيدة بشدة بالمعايير الموضوعية للمراقبة والمسافة 'الموضوعية'" (Clifford, 1986: 13). إن. فكرة "العمل الميدانى"، وهو نشاط مركزى للإثنوجرافيين، تتصل تاريخيا بـ"فكرة أن الثقافة، كالزراعة، عملية رعاية وتعهُّد، وتطبيق عملى بالذهاب إلى 'الميدان' باعتباره المكان الذى يجد فيه المرء الثقافة" (Rabinow, 2003: 84). وثمة حاجة لمصطلحات أخرى للوقوف على التطبيقات المتغيرة للإثنوجرافيا، إلا أن المتاح منها قليل. وهناك توصيف بديل ممكن، "مراقبة المشارك"، هو "لفظة متناقضة ظاهريا عن قصد" (p. 84)، ويؤكد رابينو أنها أيضا "أدت الدور المطلوب منها فى زمنها، وقامت بواجبها التاريخى فى الأنثروبولوجيا". وفضلا عن ذلك، فمن الممكن أن تكون مضللة "حيث يدل قطب المراقبة ضمنا على مسافة أبعد من الملائم، وكذلك موقع مكانى خارجى؛ بينما يدل قطب المشاركة ضمنا، وعلى نحو مضلل، بأن المرء ينهمك فى بعض المحاكاة للممارسات المحلية" (p. 84).

فى الوقت الحالى، ينظر إلى اتخاذ العامل الميدانى موقفا منفصلا، مبتعدا باعتباره غير مطلوب ولا هو ممكن إلى حد بعيد. وينظر إلى وجود الباحث المتجسد، فى الحد الأدنى، باعتباره مؤثرا فى مسرح البحث وما يراه الباحث؛ وفى صياغة أقوى، هذا الموقف ينصب على السياق البيوجرافى والثقافى لنظرة الإثنوجرافى، ولردود أفعاله الخاصة ومشاعره، كمجاز مهم- فالواقعة الإثنوجرافية تصبح رحلة لاكتشاف الذات بقدر ما هى رحلة لاكتشاف "الآخر".

إن التحول الانعكاسى فى المناهج الكيفية يتجلى فى الإثنوجرافيا فى حافزين يبدوان متناقضين ظاهريا- ارتياب فى نفوذ الإثنوجرافى وقلق من وضع الإثنوجرافى لترجمته الذاتية داخل البحث. ويعرِّف بريتزمان الارتياب فى ثلاثة

أنواع من النفوذ الإثنوجرافي: "نفوذ التجريب؛ ونفوذ اللغة؛ ونفوذ القراءة أو الفهم" (Britzman, 2000: 28). فمن ناحية، أدى هذا إلى شكل "أكثر تجريبية" وانعكاسا من التنظير الإثنوجرافي، ومن الناحية الأخرى، عزز وعيا مكثفا بالذات وبالنظرة الاستبطانية من جانب الباحث.

الإثنوجرافيا الذاتية، التي تكون فيها النظرة الإثنوجرافية مقلوبة للداخل على "الشخصي وعلاقته بالثقافة" (Ellis, 2004: 37)، هي أحد تجليات الدافع السيرى (البيوجرافى) في الإثنوجرافيا، والذي يسعى أيضا لربط الزمن البيوجرافى لكل من الباحث والمبحوث (Okley and Callaway, 1992). "الإثنوجرافيا الذاتية هي في وقت معا منهج ونص من التطبيق العملي المتنوع المشترك بين فروع المعرفة المختلفة... ووضع للكيان المدرج اجتماعيا-سياسيا كموقع مركزى لصنع المعنى" (Spry, 2001: 710). ونتيجة لذلك، تعتبر بعض الإثنوجرافيات الذاتية نوعا من الأداء، يمثله الباحث، الذي يُفهم أنه "الرابطة المعرفية والأنطولوجية التي تتحول بناء عليها عملية البحث" (Spry, 2001: 711).

مراقبون حساسون:

والانتباه إلى الرابطة العاطفية والعلاقة الحميمة التي قد تنشأ (أو يبدو أنها تنشأ) بين الإثنوجرافي والمشارك هي أيضا جزء من التحول الذي يكتسب صبغة شخصية (Coffey, 1999). وفكرة روث بيهار (١٩٩٦) الخاصة بأن الأنثروبولوجي "مراقب حساس" هي رد فعل مؤثر لذلك. ففي محاولة فهم التقاطعات الفوضوية لحياتها المهنية والشخصية، قررت بيهار: "أن أجعل عواطفي جزءا من بحثي الإثنوجرافي"، تعبيرا عن "رغبة في طمر مذكرات حياتي داخل

قصص حياة الآخرين التى كان مطلوبا منى أن أكتبها كأنثروبولوجيـــة" (ص١٩). وهى تقوم بتورخة الاتجاه السيرى داخل الأنثروبولوجى، فتذكر تقليـــد الروايـــات الشخصية داخل الميدان، وتأثيرات قصص الحياة، والسياسيين والكُتّـــاب المهتمـــين بالاتجاه النسوى وبالأقليات. ورغم شكوك الكتابة السيرية، تصر بيهـــار علـــى أن الحساسية "موجودة ولن تختفى" (Behar, 1996: 32).

الباحث والمبحوث دائما مستقران فى الزمن والمكان، وتحليل ذلك يمكن أن ينتج عنه زمنية دينامية لأى دراسة. لكن القضية المعقدة هى إلى أى درجة يـــصبح موقع وذاتية الباحث هما نقطة المرجعية البارزة. إن الـــصوت الـــسيرى الـــواعى بالذات يمكن أن يتحول إلى سلعة، والتفكير الصيغى والمكبـــوح حـــول العمليـــات الاجتماعية التى هى وراء رد الفعـــل النرجـــسى لهـــا (Fine and Weis, 1998; McLeod andYates, 2006). وفى نفس الوقت، فإن التحول إلى السيرة الذاتية مهم فى تاريخ المناهج الإثنوجرافية، وفى أحسن الأحوال، يقدم مصادر منهجيـــة تتـــيح تحليل التغير الاجتماعى والبيوجرافى وإلقاء الضوء على نقطة التقاطع بينهما.

اختيار دراسات الحالة

فى دراستى الحالة التاليتين نجد أن الباحث قد وصل إلـــى الكتابـــة، ولكـــن بأسلوبين مختلفين تماما. الأولى، دراسة للزواج والغزل أجرتهـــا ديانـــا ليونـــارد، وتتبنى إطارا أنثروبولوجيا بدرجة أكبر. والثانية، دراسة لعلاقات الجنسين والتعليم المدرسى قامت بها مارى جين كيلى، وتستلهم على نحو أكبر الدراسات الثقافيـــة. ويرجع سبب اختيار دراسة الحالة الأولى، والمنشورة عام ١٩٨٠، جزئيـــا لأنهـــا على رأس تغيرات مهمة اجتماعية ونظرية ومنهجية، أما الدراسة الثانية والأحدث،

فهى تبين آثار الابتداعات المنهجية التى تناولناها بالنقاش. وكلتا الدراستين متـــأثرة بالاتجاه النسوى، وكلتاهما تستكشفان أسئلة عن التغير الاجتماعى والعلاقات بـــين الجنسين، ولكن بلغتين مختلفتين من الناحية المفاهيمية والمنهجية.

كان الاستقرار على اختيار دراستى الحالة لهـــذا الفـــصل صـــعبا، وجـــاء الاختيار النهائى ليمثل لحظتين فى الإثنوجرافيا "النسوية" حول الحيـــاة الحميميـــة، وتعكس كل منهما الزمن الذى أجريت فيه. فالدراسة الأولى تقـــدم مجادلـــة نقديـــة لتقسيم العمل على أساس النوع داخل الزواج والحياة الأسرية؛ ومن هذه الناحية هى أيضا مثال لنوع نزع الصفة الطبيعية عما يبدو فى ظاهره طبيعيا، الأمر الذى دافع عنه بورديو. وفى حالة ليونارد، جاء التعبير عن ذلـــك علـــى الخلفيـــة النظريـــة للوظيفية الأنثروبولوجية، وفى تعارض معها- وهو إطار عمل يحمل فى حد ذاتـــه الكثير من آثار الحاضر الأنثروبولوجى/ النظرى (أى أنه يظهر كيف يعمل "النظام" أو الحاضر، ولكن دون انتقاد له). ودراسة الحالة الثانية تظهر فى لحظة "ما بعـــد نسوية"، يجرى فيها مجادلة صناعة النوع، مع الاعتراف بهشاشة ومرونـــة تلـــك العملية، إلى جوار الوكالة الشخصية والإحساس بالإمكانية. ومن المثير للاهتمام أن كلتا الدراستين تركز على "الأداء"، فليونارد تتبنى أفكارا متأثرة بالأنثروبولوجيا عن الطقوس ومحاولة الكشف عن موقعها تاريخيا وثقافيا، وتتحقق كيلى مـــن إمكانيـــة الانتقال النظرى بالنسبة لأداء النوع والذى ساعد العمل النسوى مثل عمل ليونارد. وفى المجموع، تقدم لنا هاتان الدراستان البريطانيتان نظرة مدهشة للتغيـــرات فـــى علاقات الجنسين فى النصف الثانى من القرن العشرين، من الموجة الثانيـــة إلـــى نسوية سلطة الفتاة، ونظرة للمسارات فى البحث الحديث الإثنوجرافى والنسوى.

الزواج: ساوث ويلز فى سنوات العقد ١٩٦٠

دراسة الحالة الأولى تقع ضمن علوم دراسات المجتمع، وتناقش دراسة إثنوجرافية أجرتها ديانا ليونارد فى أواخر سنوات العقد ١٩٦٠ عن الممارسات والمواقف الخاصة بالغزل والزواج فى سوانزى، وهى مدينة إقليمية فى ويلز- **Sex and Generation: A Study of Courtship and Weddings** (الجنس والجيل: دراسة للغزل والزواج، ١٩٨٠). وعلى خلفية من التاريخ الاجتماعى للمنطقة والمجتمع، وُثقت عادات الغزل والزواج بتفاصيل وصفية غنية، وفُحصت أهميتها فى ضوء النظريات النسوية والمادية الناشئة حول أيديولوجيات العائلة والنوع.

ووضع الموضوع نفسه، وكثير من نغمة أسلوب الكتابة، فى إطار تحقيق أنثروبولوجى للطقوس اليومية، والمجتمع المدنى والحياة العائلية. وجاءت رؤية هذه الطقوس على أنها مهمة على نحو متأصل لفهم كيف يعمل المجتمع، لكى "بالنظر إلى طقوس مجتمع معين- مثلا إلى تصرفاته الرسمية المعبرة والرمزية- يمكن أن نصل إلى رؤية عميقة لقيمه ومؤسساته. فالطقوس "تقول أشياء من الصعب التفكير فيها **(Beattie 1966)**"، **(Leonard, 1980: 2)**. والوصف الإثنوجرافى لطقس مثل الزواج، يميل بوضوح إلى شكله الرمزى، ووظائفه ومعناه فى الحاضر. ولكن، إذا أردنا أن نشرح "استمرارية عادة معينة- مثل ارتداء العروس لثوب أبيض فى حفل الزفاف- فإن الأنثروبولوجيين قد يؤكدون أننا لا بد أن نقدم تفسيرا تاريخيا لتطورها ونرى ما تعنيه بالنسبة لممارستها فى يومنا هذا" **(Leonard, 1980: 2)**. وهذا الوصف يلتقط صورة التوتر المتأصل فى "الحاضر الإثنوجرافى"، حيث الحاضر يشكل مفارقة اللازمنية مع أنه جزء لا يتجزأ من تاريخ يعطى الممارسات الثقافية مغزاها. والتفسير التاريخى لممارسات اليوم الحاضر يتحالف مع فهم بأن تلك الطقوس ليست طقوسا متحجرة، غير متغيرة، تتكرر عبر الأجيال، ولا هى "تمثيليات بلا معنى تستمر بقوة العادة" (ص٢).

> تتكرر [الطقوس] لإعادة تكرار رسالتها، والشعائر متصلة بشعائر المرور من مكانة اجتماعية إلى أخرى تتكرر لكل فرد فى المجتمع. وكل تكرار يسمح بالتزود بتطورات جديدة وتفسيرات جديدة، أو يقوى من الضغط من أجل الإصلاح إن كان التغيير يتطلب تشريعا قانونيا. وقد يعدِّل المشاركون أو يهيمنون أو يغيرون بعض الأجزاء للتعبير عن تغيرات كبيرة أو صغيرة فى الرسالة التى يريدون إعطاءها؛ أو قد يحاول المرتبطون بالأمر تقديم عادات جديدة لأسباب خارجية (مثلا، الذين يعملون بالمهن الخاصة بحفلات الزواج يحاولون الإبداع لبيع منتجات جديدة). ولهذا فإن التغيير لا يحدث فقط فى الشعائر، إنه مستوطن. (Leonard, 1980: 2)

وهكذا يسير بحث الشعائر إلى جانب فهم الإبداع الثقافى. فالشعائر ليست تقاليد متجمدة فى الزمن، والتحقيق الإثنوجرافى يتطلب مقاربة تتناغم مع العلاقة بين ما له معنى فى الحاضر، وما حدث فى الماضى.

أجرت ليونارد لقاءات مع العرائس أو مع الأزواج، فى معظم الأحوال قبل الزواج وبعده، وبالنسبة لأزواج كثيرين، أجرت مقابلات أيضا مع عائلاتهم المباشرة. وشملت عينة البحث لديها ٣٤ زوجا يخططون زواجا فى الكنيسة (أغلبهم من الأنجليكان) و ٢٠ زوجا يتزوجون فى مكتب تسجيل (Leonard, 1980: 29-31; 274 - 86). جرت المقابلات فى بيوتهم، وطلبت ليونارد منهم أن يتحدثوا عن "الغزل"، الذى قاد إلى الزواج، وعن الزواج نفسه والفترة المبكرة من الحياة الزوجية، وكذلك عن تقديم الهدايا، والاستعدادات لحفل الزواج، وإعداد بيت

الزوجية الجديد، والتعامل مع أهل الطرف الآخر، ومن يوضع اسـمه فـي قائمـة المدعوين، وماذا تعنى فترة "الخطوبة"، وما إلى ذلك. وجمعـت المقـابلات مـع ملاحظات المشاركين، وحضور حفلات الـزواج، و"ليـالى النـساء"، وحفـلات الاستقبال، وأجرت مقابلات فى بيوت العائلات. وحيث إنها انتقلـت حـديثا إلـى سوانزى كزوجة جديدة وأم لطفل صغير، استطاعت أيضا أن تستمد من ذلك المزيد من الملاحظات والتفاعلات المفيدة.

كان الدافع إلى اهتمام ليونارد بدراسة الزواج هـو "اهتمـام أنثروبولـوجى بوصف وتقييم مدى وأهمية ما كنت أعرف أنه دائرة مراسم مهمة داخل مجتمعـى" (1980: 2). وقد أفادت أيضا من اهتمامها بفهم "طبيعة العلاقات بين الجنسين وبين الأجيال"، وأتاحت لها دراسة الزواج فرصا خاصة لهذا. وقـد رأت أيـضا أنهـا كامرأة شابة، متزوجة حديثا هى نفسها، فمن الأرجح أن يكون النـاس مـستعدين للحديث عن الزواج أكثر مما لو سألتهم الكلام عن أمور أخرى فى الحياة العائليـة. وبالإضافة إلى ذلك، أمدها بحث الزواج بالكثير من المناسـبات لتـشارك فيهـا، وتراقب وتناقش الأحداث العائلية. وقد خططت حينئذ "أن تستخدم دراسة الـشعائر على نحو مباشر وغير مباشر على السواء كوسيلة لـ"فتح نافذة علـى العمليـات الاجتماعية المدنية المبهمة" (p. 3).

زمن الباحث

أجرى البحث فى أواخر أعوام ١٩٦٠، وكتبت الدراسة أثناء العقـد ١٩٧٠ ونشرت ككتاب عام ١٩٨٠. هذه العملية الطويلة تصور الطبقات الزمنية المعقـدة فى البحث الإثنوجرافى. ورغم أنه منهج يبدو ظاهريا أنه يفضل الحاضـر، فـإن مطالب العمل الميدانى للتوصل إلى ألفة مكثفة وشاملة مع الموقع ومع الإخبـاريين

يعنى أن جمع وتسجيل المادة مستهلك للوقت، وغالبا يحدث علـــى مـــدى ســـنوات كثيرة، حتى عندما تكون البؤرة الطولية جزءا غير مقصود فى التصميم الأصـــلى للبحث. وفى هذه الحالة، كان العمل الميدانى بداية من خريف ١٩٦٨ حتى خريـــف ١٩٦٩، مع بداية خطط الدراسة وتجنيد الناس اعتبارا من ١٩٦٧. وتصف ليونارد العملية المنهجية لكتابة الملاحظات الميدانية، سواء مباشرة بعد المقابلة أو المراقبـــة أو أثناءها. وتكشف الوثائق المفصلة لإجراءات بحثها ما يستهلكه العمل الميـــدانى الإثنوجرافى من وقت مكثف وجوانب عملية.

والظروف الشخصية للباحث أيضا لها وقعها على الطبيعة الممتدة للبحـــث. وبالنسبة لليونارد، نشأت الفترات الزمنية التى فصلت بين العمل الميدانى، والكتابة، والنشر، جزئيا عن ظروف عائلتها هى نفسها، حيث كانت تربـــى ثلاثـــة أطفـــال صغار، وتعمل على الحصول على عمل أكاديمى، وتتحرك بعيدا عن سوانزى، كل ذلك فوق الوقت اللازم لعمل وتحليل الكميات الهائلـــة مـــن المـــادة والملاحظـــات المتولدة من مثل هذه الدراسة. وفى شرح عملية التعطيل، تتذكر ليونـــارد: "لأننـــى كنت أفتقد لإطار عمل نظرى كاف، وجزئيا لأنه كان من الضرورى بالنسبة لى أن أتحرك خارج الميدان لكى أضع مسافة بُعد بينى وبين المادة؛ لكن سبب ذلك أيـــضا أننى كان ينبغى أن أبتعد عما يرتبط عرفيا بكونى زوجة وأما فى ثقافتنا لكى يكون لدى وقت ودافع لأن أكمل عملى" (ص٣٨).

وقد أدخلت ليونارد فى النص وجودها الكائن كباحثة، فوصـــفت كيـــف أن هويتها- كأم شابة، تعيش فى سوانزى، ولكن ليس كإحدى شخصيات البحث تماما- شكل الموضوعات التى استطاعت تناولها وخلق إمكانات للـــدخول إلـــى مـــصادر المعلومات. وقد دونت ملاحظاتها حول نضالها لعمل الإطار العملى لتحليل المادة، وكذا نضالها العملى الشخصى لاستكمال الكتابة. ومقارنـــة بكثيـــر مـــن تـــأملات

الباحثين التى تملأ الكتابة البحثية اليوم، قد تبدو تأملات ليونارد متواضعة وحـذرة على نحو يثير الانتباه، ولكنها موجهة عن قصد إلى هدف منهجى أو تأويلى.

وعلى سبيل المثال، بعد وصف التأخير فى كتابتها، تقول ليونارد إن مـرور الزمن بعد العمل الميدانى وحتى الكتابة والنشر ليس دائما مسألة سلبية أو قيد على أهمية الآراء. وبينما اعترفت ببعض التغييرات الصغيرة، تعلق على وقـت كتابـة الكتاب بأن المادة لم تكن قد فات أوانها وأنه بشكل عام لم يتغير إلا القليل؛ "وفضلا عن ذلك... ما أقوله عن سوانزى لا يزال ينطبق على مناطق كثيرة مـن الـبلاد وعبر الطبقتين الوسطى والعاملة. والحكمة المستفادة من أن البحث خرج إلى حـد ما جغرافيا وزمنيا عن الميدان يوحى بعمومية استنتاجاتى، وليس خصوصيتها" (p. 39). وفوق ذلك، أتاح لها البعد عن الميدان أن تعيد تأطير تحليلهـا، وهـى نقلـة تعكس بدورها تأثير النسوية وشيئًا من المناخ الأوسع الثقافى والـسياسى المتغيـر والذى كانت ليونارد منغمسة فيه، والذى ساهم فيه عملها. وعندما بـدأت البحـث، كانت ليونارد مهتمة "بإظهار ما كانت الطقوس محل البحث تدل عليه بالنسبة للبنى والقيم الضمنية". ولكن مع خبرة العمل الميدانى، والابتعاد عنه، وصلت إلى "تحليل المادة وفقا للعلاقة بين الجنسين والعلاقات التكاملية فى سياق اجتماعى- تـاريخى معين" (p. 286).

تحدى تأويلات النوع الاجتماعى (الجندر) والعلاقات العائلية

طوال البحث، تعلق ليونارد على موقفها النظرى المتطور ورفضها لما كان حينئذ تفسيرات وظيفية سائدة للعائلة. وأصبحت ترى العلاقـة الزوجيـة كعلاقـة اقتصادية، والحياة العائلية لا تتكون من مجرد علاقات عاطفية بين الأقارب، وإنما

علاقات مادية بين الزوج والزوجة، والآباء والأبناء (انظر الفصلين ٥، ٦، والاستنتاج). كانت الانتقادات المادية والنسوية لأيديولوجية الحياة العائلية تكسب أرضا، وتحليل ليونارد جزء من هذه الحركة. أكدت أن الزواج "شكل خاص من علاقة العمل بين الرجال والنساء، فيها تتعهد النساء بالعمالة، والجنس، والقدرة الإنجابية مدى الحياة (مع حقوق محدودة للاستقالة من هذا العمل)، وتتلقى مقابل ذلك "الحماية"، والصيانة وحقوق خاصة بالنسبة للأولاد" (p. 5). وتحتج ليونارد بأن معظم الدراسات السوسيولوجية للعائلة والزواج- سواء كانت وظيفية أو مختصة بالظاهرة- قد حصرت نفسها على العلاقات العاطفية ومعناها بالنسبة للزوجين. ولكن هذا "يتجاهل تماما العمل الذى يقوم به الجنسان- الأساليب المختلفة التى يكسبان العيش بها- وما ينتج عن ذلك من تباين، وتنافر حقا، لأحوال حياتهما" (p. 261).

وفى مناقشة كيف بدأ الزوجان حياتهما الزوجية، ترسم ليونارد كيف أن تلك التنافرات بين الجنسين تتعلق بالعلاقات التكاملية. فقد ظهر تقسيم واضح للعمل المنزلى داخل العائلات وبين الأزواج المتزوجين حديثا، مع جعل النساء من كل من الأبوين وجيل الأطفال مسئولات عن "الحفاظ على روابط القرابة" (p. 251).

> الأم/ الزوجة لا تتحمل فقط وطأة معظم العمل وتكاليف الأطفال وهم صغار وعندما يصبحون شبابا يعيشون فى البيت، لكنها هى بشكل رئيسى التى تستمر فى العمل المجانى للزوجين الجديدين، أو للحفاظ على الصلة عبر الرسائل أو الزيارات عندما ينتقلان للحياة فى مكان أبعد. وتتراكم عوائد ذلك- وضعية أن تكون والدة (وجدة) ناجحة، ومتعة صحبة الأطفال (والأحفاد)، مع تأمين الرعاية فى مرحلة الكهولة-

> **تراكم لكل من الزوج والزوجة الكهلين على السواء، رغم أنه ربما تكون العوائد أكثر بالنسبة للزوجة. (ومن المؤكد أن ذلك أكثر أهمية لها، حيث إن مصادرها الأخرى من الاعتبار أو الصحية أقل، والأرجح أنها سوف تعيش أطول). (Leonard, 1980: 251).**

والتغييرات فى أوضاع النساء معترف بها، مثل التحسينات فى وضعية النساء المتزوجات، ولكن هذا "ليس معناه أن هناك مساواة بين الجنسين الآن" (p. 267). وتستخلص ليونارد: "إن جوهر علاقة العمل فى الزواج لم يتغير، والطقوس المتصلة بالغزل والزواج تؤكد هذا" (p. 268).

وهى تصرح بهدف بحثها وهو أن تجلب إلى المقدمة خصوصية الزمان والمكان اللذين يقع فيهما بحثها. وتؤكد أن كثيرا من دراسات الحياة العائلية يميل إلى اختصار العائلة من خلفيتها الاجتماعية وإلى معاملتها كوحدة تحليل محتواة، بينما يقل الالتفات إلى العلاقات الاجتماعية التى تحيطها أو العلاقات بين الجنسين التى تدعم أساس النظام العائلى. وفى المقابل، ترسم ليونارد السياق الاجتماعى التاريخى الخاص للإخباريين الذين استقت منهم معلوماتها، رغبة فى "استكشاف نقدى للعلاقة بين 'مؤسسة' العائلة... والمجتمع المحلى والمجتمع الأوسع" (p. 273). والفصول الافتتاحية للكتاب تقدم أوصافا مفصلة للشخصية الاجتماعية-الاقتصادية والديموجرافية لسوانزى، وتاريخها العمالى والثقافى، والعادات الدينية والحس القوى بهوية المجتمع. وهكذا فإن ما يقوله لها الإخباريون، وكيفية قراءتنا عنهم، يمر عبر فلتر قصة أطول حول مقاطعة ويلز (وليس إنجلترا) وعن القيم، والتوقعات الاجتماعية والشعور بالانتماء.

تغيير الأطر النظرية

تنتقد ليونارد وترفض بصراحة ووضوح الوظيفية الأنثروبولوجية، وتقدم جدلا مقنعا للعناية بخصوصية الزمان والمكان. هذا الجدل يتحالف على نطاق واسع مع إطار عمل بنيوى، وتحليل نسوى مادى للعلاقات بين الجنسين والعلاقات العائلية، والتى تفرض السلطة الأبوية كنظام متماسك نسبيا (وإن كان فى الأساس غير عقلانى) للمؤسسة الاجتماعية، الأمر الذى يعزز تكرار الفروق واللامساواة بين الجنسين. ويمثل هذا لحظة مهمة فى تاريخ النظرية النسوية، وفى المأزق المستمر لكيفية بحث الإثنوجرافيا فى العلاقة بين "الكل" المحلى والثقافى. ويقف التحليل بين التقاليد الوظيفية التى يرفضها، والنظريات النسوية التى تتمسك بالبنيوية وتحديات تحديد موقع صراعات النوع الخاصة، واللامساواة فى علاقتها بالنسبة لأنماط أوسع، بينما لا يخضع لأى من الحتمية البنيوية أو الاختيار الفردى.

وتأويل ليونارد لبحثها يظهر بعض المأزق المنهجية التى كانت مركزية فى الإثنوجرافيا لبعض الوقت. والنداءات الحالية من أجل "إثنوجرافيا كوكبية" أو من أجل مناهج بحثية تستجيب لإعادة تعريف العلاقات بين المحلى والعالمى تؤكد ما هو الجديد والمتميز فيما يختص بالحاضر، لكنها يمكن أن تميل إلى إضفاء مظهر مخادع على تاريخ تلك المأزق فى الكتابة الإثنوجرافية. والواقع أنه، بالعودة إلى دراسة ليونارد بعد مرور ٣٠ عاما منذ اكتملت، تفاجئنا الموضوعات المتعددة والتحديات المنهجية- رغم أنها معبر عنها بلغة نظرية مختلفة- المتصلة على نحو نموذجى بالكتابات الإثنوجرافية الأكثر حداثة. من المهم أن نتعرف على تاريخ مثل تلك الصراعات إن كان لنا أن نتجنب نوعا من فقدان الذاكرة البحثى، أو التذكر الانتقائى. ونحن لا نقول إنه "لا جديد تحت الشمس"؛ ولكننا نجادل من أجل قيمة

العودة إلى الدراسات الأقدم لكى نفهم ونتعلم من كيف أن التوترات العنيفة كانت قد استكشفت ووضعت تعريفاتها من قبل.

هذا البحث الإثنوجرافى استكشف طقوس الزواج والغزل فى سوانزى فى أواخر سنوات العقد ١٩٦٠، رأت المؤلفة فيه المراسم الشعائرية كأحداث ثقافية متكررة وفى ذات الوقت تحمل إبداعات. ومن خلال التوثيق المفصل للحياة اليومية كشفت كيف أن الطقوس تقوم بدور ولها مغزاها بالنسبة للعائلات والمجتمعات وأنها، كما تجادل ليونارد على نحو مقنع، من أجل علاقات وبنى اجتماعية أكثر اتساعا. وكوصف للتغير الاجتماعى، يكشف تحليل ليونارد لعملها الميدانى المنطقة المتغيرة نظريا وسياسيا على يد النظرية النسوية، وإعادة النظر للعلاقات بين الجنسين وبين الأجيال، الأمر الذى ساعدت عليه. وهى تصف حالة "ناضجة للتغير". ودراسة الحالة التالية تكمل الموضوع المركزى الذى يدور حول فهم العلاقات بين الجنسين، بداية من زمن تاريخى وإطار نظرى مختلف و"ما بعد نسوى"، والذى حدثت فيه بعض التغيرات التى توقعتها ليونارد، وليس بالضرورة بالمحصلة المرغوبة. إنها دراسة أكثر اهتماما بالذاتية- ذاتية الباحث والمشاركين المبحوثين- والتى تصبح إطارا لأسئلة البحث المنهجى والمفاهيمى.

الهوية الجنسية للنوع وثقافات التمدرس:

الأراضى الوسطى الإنجليزية فى سنوات ١٩٩٠

يستكشف كتاب **Sexuality, Gender and Schooling** (الجنس، النوع، والتعليم المدرسى) (**Kehily, 2002**) مفاوضات الشباب الصغار (السن ١١-١٦) حول هوية النوع والجنس من خلال التركيز على تعاملات مجموعة من

المتناظرين والثقافات المدرسية العامة والرسمية. وخبرة مارى جين كيلى كمعلمة سابقة للغة الإنجليزية والتعليم الاجتماعى فى مدرسة ثانوية قد دفعتها لأن تستكشف المدارس كمواقع لاكتشاف الهوية، والجنس، والنوع. أرادت كيلى أيضا أن تفهم كيف أثرت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المهمة فى أواخر القرن العشرين على مجال أوسع حياة النساء والرجال الصغار فى المدرسة، وتسأل: "ما هى تأثيرات صيغ من الذكورة والأنوثة؟ هل هناك نظام جنسى- نوعى ناشئ جديد؟ (P. 5). هذه الأسئلة استكشفت من منظور الصغار أنفسهم، والذين ينظر إليهم كمنتجين نشطاء- وليس مجرد متلقين يتم التأثير عليهم- لممارسات ومعان ثقافية. والدراسة يعززها أيضا الاعتراف بأن "المغزى الثقافى للمدرسة كحيز محلى... موجودة فى تفاعل معقد مع عمليات عالمية على مجال أوسع. تتصل بالهجرة، والاقتصاد والثقافة" (P. 4).

وتقع الدراسة فى مجتمع مدرستين فى الأراضى الإنجليزية الوسطى، وتبدأ فى أوائل أعوام العقد ١٩٩٠، بفترة من العمل الميدانى فى المدرستين عام ١٩٩١، وفترة أخرى فى عام ١٩٩٥، و١٩٩٦. وكلتا المدرستين كانت ذات تعليم مشترك وتخدم "مجتمعا محليا أغلبه من الطبقة العاملة". وإحدى المدرستين، أوكوود، لم يكن لها مذهب دينى وتضم طلبة من أعراق مختلفة، وكثير من الطلبة من أصول آسيوية وإفريقية- كاريبية. وبالمقابل، كانت مدرسة كلارك تابعة لكنيسة إنجلترا وأغلب الطلبة من البيض (P. 3). (قامت كيلى فى مدرسة كلارك بعلاقة بحثية قوية بشكل خاص مع مجموعات من البنات من ١٥ إلى ١٦ من العمر، ولكى تحصل على المزيد من آراء الأولاد "استكملت العمل الميدانى بمناقشات جماعة مدرسية فى مدرسة ثانوية للبنين فقط بمدينة كبيرة جنوب شرق إنجلترا" (P. 3).

كان موقع العمل الميداني في الأراضي الوسطى مهما لفهم وقع التغييرات الكوكبية على المجتمعات المحلية ولرؤية كيف أن ذلك كان حينئذ يشكل جزءا من خلفية مفاوضات الهوية الجنسية للنوع خاصة في المجتمعات المدرسية. وكما تعلق كيلي، فإن المنطقة الوسطى "شهدت تراجعا كبيرا في التصنيع" إلى جانب ظهور "اقتصاد عالمي" تنافسي؛ وفي فترة ما بعد الحرب، كانت هناك أيضا هجرة كبيرة واستقرار لجماعات من بلدان "الكومونولث الجديد"، وكذلك من باكستان وأيرلندا (P. 4). "وعلى المستوى المحلي، كان نسيج المنطقة الوسطى نفسه يبدو معبرا عن تراث صناعي لم يعد من الممكن تحقيقه، ويعمل كرمز لحالة الاغتراب في المرحلة ما بعد الصناعية" (ص٤).

ورغم أنه كان ثمة مراحل مختلفة من العمل الميداني، فقد كان البحث مخططا له أن يركز بدرجة أقوى على الكشف عن الحاضر ولم يكن، كما كانت بعض الدراسات التي نناقشها في الفصل الرابع، مصمما كدراسة طولية لفحص التغير بين أو على مدى المرحلتين البحثيتين. ورغم ذلك، فقد كانت أسئلة التغير والاستمرارية محورية. غير أن موقع التغيير لم يكن هو الموجات المختلفة للبحث، وإنما كان مفهوما أنه يتجلى في الاستجابات إلى تغير اجتماعي- اقتصادي وثقافي أوسع، وكذا في حس أكثر انتشارا بالتغير الجيلي، باختلاف الصغار، ونقاط اندماجهم، مع المعايير الاجتماعية السائدة، بما يشمل التوقعات الثقافية للجيل المتجسد في عائلاتهم ومعلميهم. وبينما لاحظت كيلي بعض التغييرات، كان هناك أيضا بعض النقاط المهمة للاستمرارية. فقد وجدت أنه: "من نواح كثيرة، تظهر الهويات الجنسية للنوع عند الشباب من الرجال والنساء في المنطقة تقليدية بقوة ومنغرزة بعمق في الأشكال الأقدم من الممارسات الاجتماعية والثقافية" (P. 5).

دراسات السيرة الذاتية، والنسوية، والدراسات الثقافية

هناك فصول فى الكتاب تتناول موضوعات إنتــاج التبــاين الجنـسى فــى المدارس، ودروس تعليم الجنس، ومجلات المراهقة، وصفات الرجولــة، والعمــل العاطفى والفصلى لمعلمى مادة الجنس. وفى بحث هــذه الموضــوعات، جمعــت الدراسة مناهج بحثية مختلفة، بما يشمل ملاحظات المشاركين- من الفصول، ومن التعاملات غير الرسمية، ومن الحديث خارج الفصول- والكتابة والتأمل المــستمر فى الملاحظات الميدانية، ومقابلات قصص الحيــاة مــع المعلمــين، والمقــابلات الجماعية والفردية أو الزوجية مع الطلبة، وتحليل الخطــاب الخــاص بالمقــابلات والنصوص، وتحليل وثائق الثقافة الشعبية، مثل مجلات مرحلة المراهقة، وتطبيقات عمل الذاكرة.

تقدم كيلى الدراسة بذكريات من خبراتها المبكرة كمعلمة، والتى وظفت عن قصد وعلى نحو مثير لإظهار الصلات النفسية والعاطفية والــسياسية بــين أســئلة البحث، والخبرة الذاتية، والاستثمار الشخصى (pp. 10—32). وتتأمــل كيلــى، إن هذه الإستراتيجية "مدينة للتحليلات النسوية المعاصرة التى تحتفل بأنمــاط الــسيرة الذاتية فى البحث الاجتماعى وتؤكد أهمية الانعكاس الــذاتى فــى إجــراء العمــل الميدانى والتحليل" (P. 10).

وينبثق الإطار المنهجى والمفاهيمى من تقاليد الدراسات الثقافية الإنجليزيــة المرتبطة بعمل مركز برمنجهام للدراســات الثقافيــة المعاصــرة (**Birmingham Centre for Contemporary Cultural Studies [BCCCS]**)، ورغم أنهــا تتبــع المقاربات النقدية إلى حد ما، فإنها متأثرة بدرجة أكبر فى تشكيلها بالنظرية النسوية والتحليلية النفسية، وبدراسات الثقافات الشعبية والمدرسية. وتحــدد كيلــى ثلاثــة

مداخل منهجية يدين لها بحثها: الإثنوجرافيا، والنظرية النسوية، والسيرة الذاتية. وهذه المجموعة معا نفهم منها جوهريا: "اهتماما دائما بقضايا الانعكاسية والخبرة التى تقيِّم الشخصيات موضوع البحث باعتبارهم منتجين للمعرفة" (P. 6). وتصميم الدراسة والتحليل يجسدان الفوائد التى يمكن أن تتدفق من الاتجاه السيرى فى بحث الإثنوجرافيا (وغيرها من الأبحاث الكيفية). وهى تصور أيضا بعض الرؤى المنهجية المثمرة التى تنتج عن التحالف بين النظرية النسوية، باهتمامها بما هو "شخصى"، والنظرية الثقافية فى تفصيلها لمغزى الذاتية فى فهم العمليات الاجتماعية.

وهناك تأثيرات قوية أخرى على الدراسة جاءت من عمل فاليرى ووكردين، الذى استمد بحثه عن الطبقة، والنوع، والهوية أيضا من التأثير المجتمع للتحليل النفسى، والنسوية، والنظرية ما بعد البنيوية، وتحليل ميشيل فوكو عن تسلسل تاريخ الأفكار للشخصية الجنسية، وقوة السيرة، وتنظيم الجماهير. ومن المثير للاهتمام أن كيلى تتأمل فى قدرة هذه التأثيرات من ناحية صداها السياسى والعاطفى، فهى على سبيل المثال، توظِّف لغة التحليل النفسى لشرح انجذابها لعمل ووكرداين "رأيت أن مجمل أعمال ووكرداين تستمد الكتابة والتفكير من السياسة، الأمر الذى كان مثمرا فى تحليله ومبدعا فى منهجه: وبهذا أمدنى بالإلهام والرغبة" (P. 46). وكان محور هذا الإغراء "الأسلوب الانعكاسى الطاغى لدى ووكرداين، والذى وظف على نحو مبدع فى النسج بين التأملات فى السيرة الذاتية والبحث الاجتماعى" (P. 46). وهو أسلوب من الكتابة الإثنوجرافية تبنته كيلى أيضا بفاعلية فى هذا الكتاب. أما تأثير الأفكار الفوكولدية فهو ثابت فى تحليلها لـ"الإستراتيجيات الاستطرادية" الخاصة بالجنسية والهوية، و"الطرائق التى تنتج بها التشكيلات الاستطرادية هويات جنسية داخل المجتمع المدرسى"، وخاصة كتابة الشخصيات الجنسية كـ"شخصيات متباينة الجنس معياريا" (P. 53).

ولا تهدف الدراسة- بالحفاظ على الاستمرار فى هذا الاتجاه- إلـــى توليـد إطار عمل نظامى لتصنيف العلاقات بين الجنسين، ولا هى تقدم نظريـــة كبــرى لتفسير الاستمرار التاريخى وعبر الثقافى لمبادئ معينة عن قوة النـــوع وهيمنتـــه. تسعى كيلى لإلقاء الضوء على لحظات وسياقات مـــن الممكـــن فـــى تـــصويرها للممارسات اليومية- أن تشير أو تدل على كيف تكتـــسب العمليـــات الاجتماعيـــة والرمزية معنى، وكيف جرت المفاوضة عليها، أو ربما جرى تحويلهـــا أو أعيـــد خلق سياقها أو حتى دعمها. وهناك تركيز مقصود على ذاتية المشاركين، كفاعلين ذوى شخصيات معقدة التركيب، لهم رغبات متناقضة واستثمارات عاطفية قويـــة، والذين يحققون تغييرات فى ديناميات النوع فى ممارســـاتهم الاجتماعيـــة اليوميـــة وعلاقاتهم الشخصية المتبادلة.

ولحث تلك التفاوضات على الظهور، تستعير كيلى منـــاهج مـــأخوذة مـــن الدراسات الأدبية والنصية وتقوم بتكييفها لتعريف و"قراءة" "لحظات" معينـــة تلقـــى الضوء على عمليات أكبر وأوسع. فهى لم تحاول عمدا "إعادة خلق التأثير الجـــاهز لعلاقات الميدان وإنتاجها فى سرد خطى يوحى بحالـــة: 'بالـــضبط كـــأننى كنـــت هناك'". وبدلا من ذلك، تتبع فكرة ليز ستـــانلى عن "لحظـــات الحقيقـــة والكتابـــة" (P. 7). وقد بحثت كيلى عن "لحظات فى التسجيلات تمد بتعليق على العلاقة بـــين مجال الشخصية الجنسية ومجال المدرسة"، ناظرة لهم كـــ"مجموعات استطرادية"، لحظات تكثفت فيها الأفكار والعلاقات بطرائق خاصة" (P. 7). وهذه المجموعـــات أصبحت بؤرة التحليل، وعوملت كـــ"نصوص أدبيـــة"؛ واعتمـــادا علـــى خلفيتهـــا الخاصة فى الدراسات الأدبية، قامت كيلى بتفسيرها "بانتباه بـــالغ إلـــى الملامـــح

والأدوات اللغوية، كلمات وعبارات معينة، ومن حين لآخر، غيابها أيضا" (P. 7). ويساعد تشابك خبرات السيرة الذاتية للباحث على وضع الاختيارات المنهجية وما يترتب عليها من أنماط تحليلية.

ويتجنب بحث كيلى ما تسعى إليه الكلية الإثنوجرافية والمحاولات المتصلة بها لترتيب وتصنيف ثقافة فى زمن، ويستكشف ظهور وأداء الأشكال والهويات الثقافية الدينامية من خلال التحليل العميق أو "الوصف المكثف" لكل من اللحظات والتعاملات المهمة. وقد وصفت براون (2003) (كما جاء أعلاه) مثل هذا التوجه بأنه يسمح بعودة التاريخ إلى الإثنوجرافيا، حيث إنه يعمل ضد النبض المتحجر للحاضر الإثنوجرافى بالتركيز على العمليات الثقافية مثل الإبداع والتكرار والمقاطعة. وهناك مجادلة موازية فى دراسة كيلى هى "أهمية النشاط وفاعلية ثقافات الطلبة فى تنظيم وأداء متطلبات التباين الجنسى. فمن خلال التعاملات فى المدرسة، ينهمك الشباب من الجنسين فى أشكال مفصلة من التعليم الاجتماعى، حيث يتعلمون عن الجنس ويعيشون نوعهم الجنسى" (206).

التبادل الرسمى وغير الرسمى

ودعنا الآن نتحول إلى مثال من أحد سيناريوهات بحث كيلى لنرى كيف "تقوم بتشغيل" هذه المبادئ المنهجية والمفاهيمية. ونناقش هنا مثالا مستمدا من مناقشة لكيف تنتج المدارس شخصية متغايرة الجنس معياريا تقوم على ملاحظات التعليم الرسمى وغير الرسمى فى حصص "التعليم الاجتماعى والشخصى" لأحد الفصول. تركز كيلى على كيف يستقبل الطلبة المنهج الرسمى لمادة "التعليم الاجتماعى والشخصى" و"المعانى الاجتماعية التى ينسبها الطلبة للأحداث،

والطرائق التى تتباين بها وتتداخل تلك المعانى مع التعليم الجنسى فى ظروف رسمية مثل حصص "التعليم الاجتماعى والشخصى" (P. 65). إن التبادلات والعلاقات غير الرسمية بين المراهقين "تشكل جزءا من اقتصاد جنسى حيث إن بعض الملامح مثل الجاذبية الطبيعية، والمرغوبية والمكانة يجرى التعامل عليها وتبادلها فى طقوس المواعدة والمخالفة... وبعض الجماعات من نفس الجنس تلعب دورا مهما فى التوسط لأفكار وتعاملات تتشكل منها تلك العمليات" (P. 66).

وتصف كيلى بالتفصيل التعامل المتبادل داخل جماعة من فتيات السنة العاشرة، أثناء إجابتهن على استبيان حول الأشكال المختلفة لمنع الحمل؛ وهى تجلس على نفس المنضدة التى تجلس إليها الفتيات، قادرة على الاستماع وملاحظة المستويات والأنواع المختلفة من الاتصال. وقد أنجز العمل الفصلى الرسمى للإجابة عن الاستبيان بطريقة "كيفما اتفق"، بينما كان الموضوع المسيطر بشكل أكبر والخاص بعلاقة "نعومى" بـ"ناثان" يحتل المركز؛ فقبيل الاستبيان مباشرة، كان ناثان يسأل نعومى سلسلة من الأسئلة، شفاهيا وعبر رسائل قصيرة، حول "الخروج". وتحولت المناقشة غير الرسمية بين زميلاتها من نفس الجنس إلى كيف تتعامل نعومى مع ناثان، ونصيحة حول ما ينبغى أن تفعله. تصف كيلى وتكشف معنى الأجندتين المختلفتين اللتين تدوران فى الفصل- الاستبيان الخاص بوسائل منع الحمل، والحوار بين وحول ناثان ونعومى (ص٦٧). وهنا نرى كيف أن النظرة الضمنية والتفسيرية للمناهج الإثنوجرافية تمكِّن من فهم كلا الحادثين، والتفاعل بينهما. هذه القدرة على القبض على عملية الوجود المشترك من الملامح المميزة لملاحظة المشاركة.

يصور التعامل الطرق التى يجرى بها نشر، والاتفاق على، تناولين متعارضين للسلطة/ المعرفة داخل نفس الحيز التعليمى.

فالمهمة الرسمية للفصل الدراسى ترى التعليم الجنسى نوعا من المعرفة التقنية، تعليم وجمع تفاصيل البيولوجيا والصحة الجنسية، بينما تضغط تفاعلات التلميذ أهمية الدور التجريبى والمساعد لمجموعة الزميلات فى النواحى المهمة من التعلم. ويدل "الحوار" بين نعومى وناثان على أنه، بالنسبة لهما، محاولة الاتفاق على المسألة الجنسية يتسم بشخصية قوية خاصة بالنوع. وطلب الخروج مع شخص ما والموافقة على الخروج مع شخص ما يستتبع الارتباط بالتصنيف الجنسى المعيارى الذى يرتبط بدوره بفعل الهوية وحتمية التصرف. ... وفى هذا التعامل المتبادل، يبدو أن ناثان يقوم بتفعيل دور الفتى الذى يريد فتاة، بينما تدخل استجابة نعومى فى أداء الدور المقابل، الفتاة التى يطاردها فتى. ... هناك حس قوى بأن "موضوع" نعومى وناثان ملكية عامة. وهذا الإحساس بالملكية الجمعية والتفاوض فى علاقة الذكر- الأنثى يتباين مع شكل الجنس فى حصص "التعليم الشخصى والاجتماعى" كـ"شأن خاص"، يخص اثنين من الناس فى مسائل تختص بالاختيار الشخصى، والعلاقات الحميمة، والمعرفة الطبية. وتشير أنشطة مجموعة الزميلات إلى أن العلاقات الجنسية توفر مجالا للتفاوض وتنظيم السلوك المناسب الخاص بالنوع فى المدرسة. (P. 69)

هذا التحليل للتعامل المتبادل بين جماعة من نفس الجنس أثناء حصة تبدو فى ظاهرها عادية وهادئة يلتقط الطرق الدقيقة التى تتم بها التفاعلات الخاصة

بالنوع بفعالية بين الشباب الصغار فى سياق المعايير الشخصية والاجتماعية المؤثرة الخاصة بالنوع (وإن لم تكن محددة بصرامة بها). وطوال بحثها (وفى احتجاج ضمنى ضد نظريات الإنتاج الاجتماعى)، ترى كيلى التلاميذ "شخصيات فاعلة ينتجون هوياتهم الخاصة بالنوع الجنسى من خلال إستراتيجيات استطرادية معينة... وتعمل وساطة التلميذ فى مجال الشخصية الجنسية كنقطة مضادة لخطاب التعليم الجنسى فى المنهج الرسمى والتعليم فى الفصل المدرسى" (p. 202). ومن الناحية المنهجية، ترينا هذه القراءة قيمة الانتباه العميق لوجهات النظر اليومية والعادية للمشاركين مع البقاء فى ديالوج انعكاسى مع الأطر الأوسع الاجتماعية الثقافية والمناقشات المفاهيمية والسياسية.

إن قضايا التغير والاستمرارية فى علاقتها بهوية النوع الجنسى هى موضوعات بارزة، وفى الاستنتاج الختامى تعلق كيلى بأن دراستها تقدم "نقاطا كثيرة للاستمرارية مع الدراسات الإثنوجرافية السابقة التى ركزت على الشخصية الجنسية، والنوع، والتعليم المدرسى" (p. 206). وتشمل هذه الدراسات "وجودا متفشيًا لكراهية المثلية" و"تطبيع التغاير الجنسى" داخل المواقع المدرسية (p. 206). وبينما قد توحى التمثيلات العامة بأن ثمة تغيرات مهمة فى تلك الساحات، فإن الشباب الصغار فى دراستها "يظلون مشغولين بالجوانب الأقل راديكالية، وغالبا أكثر رجعية للشخصية الجنسية والنوع، ويستخدمونهما لأسلبة الصيغ الخاصة بهم من التعلم الاجتماعى الذى يمكن أن يكون تنظيميا، ويتسم بالوساطة الشخصية فى نفس الوقت" (p. 206). وتؤكد كيلى أن سبب هذا الفصل بين الأمرين يكمن فى ثقافات الجماعة الطلابية المتماثلة الجنس، حيث "تكتسب موضوعات النوع والشخصية الجنسية منطقا وقوة دافعة مفهومة بالنسبة للشباب الصغار المعنيين" (p. 207). وهذه الثقافات مواضع بعيدة عن تنظيمات المدارس والعائلات، وتتيح

مساحة للشباب الصغار للتعبير عن "الاستقلالية والوساطة". وبالإضافة إلى ذلك، فإن التفاوضات الجمعية والتعلم الاجتماعي للمجموعة يقف فى تباين مع "إضفاء الصفة الفردية على تطبيقات التعليم المعاصر" (ص٢٠٧).

استنتاج

فى هذا الفصل تفحصنا المجادلات النظرية والمنهجية الأخيرة داخل الإثنوجرافيا، وخاصة التحولات البيوجرافية والانعكاسية، والأسئلة الخاصة بالتمثيل والكتابة. كما عرضنا، عبر اثنتين من دراسات الحالة، كيف أن المواقف النظرية المختلفة تمد وتشكل المعانى المأخوذة من الملاحظات الإثنوجرافية، وفى المقابل، كيف أن التقاليد النظرية المختلفة تقدم طرائق لتعيين موقع البحث الإثنوجرافى تاريخيا. إن نوع الإثنوجرافيا التى بحثت، وطراز الأسئلة التى وضعت، والأطر التفسيرية التى جرى تبنيها، كل هذا يلقى الضوء على الموضوع الجوهرى، وكذا على تاريخ المناهج الإثنوجرافية، وعلى النظرية الاجتماعية والثقافية، وعلى- فى دراستى الحالة المبحوثتين لدينا هنا- المسارات والتوترات فى النظرية النسوية الحديثة.

إن ما يجعل الإثنوجرافيا مقاربة جذابة لكثير من الباحثين هو قدرتها على توليد تفسيرات مقنعة للحياة الثقافية. فمن خلال الملاحظات المتعمقة والمفصلة المستمدة من الانغماس العميق والممتد فى الميدان، يستطيع الباحث- الذى يعمل تقليديا كملاحظ مشارك- أن يولد رؤى متبصرة لكيف "تعمل" الثقافات أو المجتمعات وكيف يستمد "الفاعلون الاجتماعيون" المعنى من ممارساتهم. فالباحث يحتل نفس الزمان والمكان الذى يحتله الإخبارى، كما فى الدراسات الطولية، ومن ثم يتطابق زمن البحث وزمن السيرة الذاتية. وفى حالة بعض الإثنوجرافيات، كما

فى دراسة الحالة الأولى، يصبح مرور الوقت ملمحا من ملامح تفسير وكتابة الدراسة بطريقة لم تكن مقصودة فى البداية. وهناك مملح مشترك لكل الدراسات الإثنوجرافية، وهو علاقة معقدة للبحث فى الزمن الحاضر، عندما يكون الباحث فى الوضع الحرج لمحاولة الكتابة عن حاضر أو خلفية لم تعد موجودة، أو فى عملية تعنت التغيير. إن فكرة الحاضر الإثنوجرافى تحمل تناقضها الداخلى، حيث يكون الحاضر ديناميا والثقافات تراوغ التحديد، رغم الادعاءات التى تصور الأمر خلاف ذلك.

والأسئلة التى تختص بالمكان والمحلية مهمة للتطبيق الإثنوجرافى: أين موضع الدراسة؟ هل هى غريبة أم مألوفة؟ كيف سوف يجرى شرحها؟ ما هى "محدودية" موقع الميدان؟ إلا أننا أكدنا أن الأسئلة الخاصة بالزمن بنفس القدر من الأهمية، إن لم تكن دائما فى المقدمة. وهذا يشمل تجربة الانغماس طويل المدى فى الميدان، ومرور الزمن من البحث إلى الكتابة، والعودة إلى مواقع الميدان وكذلك العلاقة بين الحاضر والماضى والذاكرة كما يجرى استهلاكها وفهمها فى موقع البحث- من جانب المشاركين والباحث على السواء. وفى وصف دراستها، أكدت ديانا ليونارد أن التغير متوطن فى الطقوس. وتلقى المقاربة الأنثروجرافية الضوء على المعانى التى يحملها طقس ما، ولكن، اعتمادا على الإطار الزمنى، قد لا نرى دائما كيف تغيرت أو إن كانت فى حالة تغير. وقد نعلم ذلك استعاديا فقط. وترينا المتابعة والعودة إلى الزيارة- الأمر الذى نناقشه فى الفصل السابع- كيف أن العودة إلى الدراسات الإثنوجرافية تتيح إمكانيات مثيرة لبحث التغير الاجتماعى والجيلى، وتمدنا بشعور ممتد بكيف أن البحث فى الزمن الحاضر يمكن أيضا أن يسمح بالمقارنة على المدى البعيد.

نقاط تلخيصية

- تهدف الإثنوجرافيا إلى توثيق وفهم الأحداث والتفاعلات فى وقت حدوثها من منظور المشاركين. وفى تفصيل الحياة الثقافية، تهدف إلى رؤية معنى الكل الثقافى.

- تعود أصول الإثنوجرافيا إلى الأنثروبولوجيا، ولكن مناهجها وتوجهاتها تتبناها الآن مجموعة متنوعة من الفروع العلمية التى تسعى بعمق لفهم الظاهرة الثقافية.

- تطورت المناهج الإثنوجرافية فى سياق الكولونيالية والرغبة فى تصوير الثقافات التى بسبيلها إلى الاختفاء، وفى الانتقال من البحث المكتبى إلى البحث القائم على العمل الميدانى.

- المنهج المتعارف عليه للتحقيق هو ملاحظة المشارك التى يغمر فيها الإثنوجرافى نفسه فى الميدان لفترة ممتدة من الزمن. وتساعد مدة استمرار العمل الميدانى الإثنوجرافى على التمييز بين الروتينى والاستثنائى من الممارسات والمعتقدات.

- مصطلح إثنوجرافيا **Ethnography**، مشتق من اللغة اليونانية، ويعنى "كتابة الثقافة"، وشكل ونوعية كتابة الإثنوجرافى، فى الملاحظات الميدانية والأعمال المنشورة، جزء أساسى من المجهود الإثنوجرافى.

- المناهج الإثنوجرافية تناسب التفاعلات البحثية والطقوس فى الحاضر، كما تناسب مراقبة التغير أثناء حدوثه. هذه العمليات تقع دائما فى أزمنة وأماكن وتواريخ معينة، وتوثيق الحاضر يحدث أثناء تدفق الزمن.

- "الحاضر الإثنوجرافى" هو حاضر نحوى (مضارع) ومعرفـــى فـــى ذات الوقت، يختص بالحالية، ولكن أيـــضا يـــستثير إحـــساسا مزيفـــا بالكليـــة واللازمنية الثقافية.
- "الحاضر الإثنوجرافى" أيضا يعطى فكرة خاطئة عن طريقة اتصال الرؤية الإثنوجرافية بالتاريخ والذاكرة وعن كيف يفهـــم النـــاس الماضـــى فـــى الحاضر، والعكس بالعكس.
- يعكس الاهتمام بالتمثيل والانعكاسية الطبيعة المتحيزة والمـــستقرة للبحـــث الإثنوجرافى، ودور الباحث المتناقض ظاهريا كمراقب مشارك.
- بسبب التفصيل الذى تقدمه مناهج الإثنوجرافيا، تصبح كتابات الإثنوجرافيا تواريخ قيمة للحياة الاجتماعية، تتيح المقارنة عبر الأجيال والزمن، وتمنح قدرة على رؤية ما تغير أو ما ظل مألوفا.

مصادر للاستزادة

Geertz, C. (1973) The Interpretation of Cultures; Selected Essays. New York: Basic Books.

مجموعة مهمة من المقالات التى انتقدت المعتقدات التقليدية للأنثروبولوجيـــا الوظيفية، ووضعت الخطوط العامة لتحليل سيميوطيقى للثقافـــة ومـــنهج الوصـــف السميك.

Clifford, J. and Marcus, G. (eds) (1986) Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography. Berkeley: University of California Press.

أصبح هذا الكتاب من الكتب "الكلاسيكية" فى هذا المجـــال، حيــث يــصور التحول الاستطرادى وما بعد الحداثي ووقعه على الدراســات الإثنوجرافيــة عبــر مجموعة متنوعة من الدراسات والأفرع المعرفية.

Skeggs, B. (1997) Formations of Gender and Class: Becoming Respectable. London: Sage.

دراسة إثنوجرافية لنساء الطبقة العاملة فى شمال إنجلترا، وتفاوضاتهن حول الطبقة والنوع، وتفسير ذلك من خلال النظرية النسوية ونظرية التوالد الثقافى.

Atkinson, P., Coffey, A., Delamont, S., Lofland, J. and Lofland, L. (eds) (2002) Handbook of Ethnography. Thousand Oaks, CA: Sage.

مجموعة من المقالات المهمــة والمفيــدة تجمــع أمثلــة مــن الدراســات الإثنوجرافية فى خلفيات مختلفة وكذلك من أطر فكرية مختلفة.

Back, L. (2007) The Art of Listening. Oxford: Berg.

حيث إن المؤلف أنثروبولوجى، تستعرض هذه الدراسة مجموعة المنـــاهج، بما يشمل المناهج البصرية، وتقدم حالة قوية من الانتباه بشدة إلى العلاقة الأخلاقية الموجودة داخل الإثنوجرافيا.

Davies, C.A. (2008) Reflexive Ethnography:A Guide to Researching Selves and Others (2nd edn). London: Routledge.

تجمع تحليلات تأثير الانعكاسية على المنهجية الإثنوجرافية مع أمثلــة مــن التطبيقات البحثية والرؤى من مجموعة متنوعة مــن المنــاهج المختلفــة، مــثلا: المقابلة، والبحث البصرى، والبحث باستخدام الإنترنت، وتاريخ الحياة، والمسوح.

الجزء الثالث

المـــيـــراث

٦

الجيـل

> كان هناك شيء آخر أدهشني فيما يتعلق بـ"أمفرافيل" Umfraville، خاصية لاحظتها فى أناس آخرين فى مثل عمره. بدا أنه لا يزال شابا، شخصا كأى شخص؛ ولكن، فى ذات الوقت، كان مظهره وأسلوبه يعلنان أنه قد عاش على الأقل بضع سنوات منْ حياته الراشدة قبل اندلاع الحرب فى عام ١٩١٤. كنت أفكر فى أولئك الذين كانوا يعرفون عهد طفولتى بأنهم "الأكبر سنًا. ثمّ وَجدت أن هناك أناسا مثل أمفرافيل، يبدو أنهم- بطريقة ما- يجتازون الفجوة. فقد شاركوا كلا العصرين، وعلى وجه الخصوص فى صياغة نغمة سنوات ما بعد الحرب؛ أكثر كثيرا فى الحقيقة من الناس الأصغر سنا. ومعظمهم، مثل أمفرافيل، كانوا فى حالة من الكآبة؛ ربما من ضغط الحياة فى وقت واحد فى فترتين تاريخيتين مختلفتين. كانت تلك مقولته بالتأكيد. (Anthony Powell, 2000: 665).

> أمي العزيزة، عندما يولد طفلى، ربما تسامحيننى، ونتقارب مرة أخرى. أم أن هذا تفكير غير واقعي؟ بينى وبينك، أنا خائفة للغاية. لقد اختلطت آلامك أثناء الوضع بآلامى تلك الآن. (Edna O'Brien, 2006: 134).

هذان المقتطفان، الأول مأخوذ من رواية أنطونى بويل البطولية لحياة دائرة اجتماعية على خلفية القرن العشرين، والثانى من تأملات إدنا أوبراين حول علاقة

الأم/ الابنة، يزودنا كلاهما بمذاق كيف نعيش تجربة الجيل فى حياتنا اليومية. تعليقات بويل حول موقع جيلى شائع، يمكن أن يقدم احتمالا للتطابق بين أعضاء جماعة من فئة سنية معينة، ولكن أيضا يقدم الخصائص المميزة التى يمكن رسمها بين تجاربهم الخاصة وتجارب الآخرين. والانتساب الجيلى أيضا حالة ثقافية وطبقية بقدر ما هو حالة فئة عمرية. وربما يتطابق الأفراد مع القيم، والمذاقات والمنتجات الثقافية لأولئك الأكبر منهم سنا، أومن هم فى نفس أعمارهم، أو الأصغر منهم. فالجيل هو- على حد سواء- حقيقة موضوعية وتعبير ثقافى عن الطريقة التى ينتقل بها النفوذ والقوة بمرور الزمن. وتختص تعليقات أوبريان بالجيل كما يجرى التعبير عنه فى علاقات النسب. هنا ندرك حتمية الميراث، عن وعى أو عن لاوعى على حد سواء، ونلمح دينامية مثل هذه العلاقات حيث يدفع وصول جيل جديد إلى إعادة تشكيل محددات الهوية- الأفكار الرئيسية التى كانت مثمرة فى الاستكشافات النسوية لمحاولة الاتفاق على الرغبة، والتوقعات والإنجاز بين النساء من أعمار مختلفة **(Lawler, 2000; Reay, 2005; Steedman, 1986)**.

فى الفصل الرابع استكشفنا الطريقة التى يمكن فيها للمناهج الطولية الكيفية أن تجعلنا قادرين على تتبع جماعة من الأفراد يتقاسمون مع الوقت موقعا جيليا- واضعين أيدينا على الطرق التى يمر فيها أبناء الجيل الواحد بنفس الأحداث التاريخية من مواقع اجتماعية منفصلة. وفى هذا الفصل سوف ننظر إلى الأجيال كعصبة وكعشيرة على حد سواء **(Pilcher, 1995)**. نبدأ بتوظيف جيل كعدسة تحليلية لفهم عمليات التغير الاجتماعى. ثم نقوم بدراسة الجيل منهجيا، مع التركيز على البحث عبر الأجيال كأسلوب للنظر عن قرب إلى أشكال العلاقة، والاتصال والانتقال الموجودة بين الأجيال. وهدفنا فى فعل ذلك تطوير وعى التفاعل بين بُعدىّ الجيل، أفقيا بيننا وبين المعاصرين لنا، ورأسيا بيننا وبين سلسلة الانتماء 'المستمرة' بين الأجيال **(Hagestad, 1985)**.

تشكيل مفاهيم الجيل

فى فترات حدوث تغيُّر ذى مغزى (اقتصادى، وتكنولوجى، وسياسى) من المحتمل أن تأتى قضايا الجيل فى المقدمة. ويذهب أحد المعلقين بعيدا إلى حد افتراض أن "تعاقب الأجيال يحل على نحو متزايد محل الصراع الطبقى كمحرك أول للتاريخ. والتحديد الزمنى للهيكل الاجتماعى بهذه الطريقة قد ينعكس فى شعور عام جديد بالاختلافات الجيلية" (Geisen, 2004: 37). واعتمادا على بحث موريس هالبواتشز، يؤكد جيسن أن الأجيال مبنية على آفاق زمنية مختلفة، وأن "وحدة الجيل وذاكرته الجمعية مبنية على تجربة مشتركة جوهريا تخفض من قيمة تجربة الجيل السابق" (Geisen, 2004: 33). ومن المؤكد أن كثيرا من الروايات المعاصرة للجيل تؤكد تهميشهم الاقتصادى نسبيا مقابل "أبناء الازدهار" الذين جاءوا قبلهم ويستمرون فى امتلاك فرص الهيمنة والنفوذ الاقتصادى، والاجتماعى والثقافى. وتتفاوت الشخصية المحددة للتوتر الجيلى وفقا للبلد والثقافة، وسوف تستمر فى تكرار تمييز مجموعة اقتصادية- اجتماعية خاصة. وعلى سبيل المثال، يصف الأسترالى ريان هيث، الذى وُلد عام ١٩٨٠، جيل المعلومات iGeneration الذى هو منه بأنه "وفير الدخل وفقير المزايا، مغمور فى ثقافة الديون" (Heath, 2006: xvi). وفى الاقتصادات الأقل وفرة نرى التقسيمات الجيلية أيضا، ولكن ربما تشكلها قوى مختلفة عن مثيلتها فى اقتصادات الوفرة، مثل السياسات والاقتصاديات فى مرحلة ما بعد الكولونيالية (Harootunian, 2007).

وقد يتفاوت التعبير عن التوترات الجيلية أيضا، اعتمادا على الساحة التى تدور فيها. يشرح مارتن كولى أن "شروط الاستمرارية أو التعارض بين الأجيال- وهذا من أجل الإنتاج الاجتماعى أو التغير- يتفاوت وفقا للميدان الذى تحدث فيه العملية الجيلية؛ تعيين الحدود والصراع بين الأجيال يمكن أن يتغير من مجال إلى آخر. والصراعات فى أحد المجالات يمكن أن تتغير بشكل مفاجئ بسبب تحولات

فى مجال آخر، لكن الصراعات يمكن أن يكثّف بعضها البعض" (1996:18). وفى اتجاه مماثل، يشير عالم الاجتماع بيير بورديو إلى أهمية التعليم فى العمليــة التــى تصبح من خلالها فكرة "الجيل" ذات مغزى؛ "فــى حــالات كثيــرة، نــرى فيهــا الصراعات كصراعات بين أجيال، بينما تكون فى الواقع صراعات بين أشــخاص أو مجموعات عمرية لها علاقات مختلفة بالنظام التعليمى... ومجرد حقيقــة أنهــم صادفوا حالات مختلفة من النظام التعليمى يعنى أنهم دائمــا ســوف ينــالون مــن كفاءتهم أقل مما ناله الجيل السابق" (Bourdieu, 1993: 100-1). ووفــق أســلوب بوردو المفاهيمى، تكون البنية العقلية الخاصة بنا من الصفات المميزة للجيــل، إلا أنها مرتبطة بعمليات بين- جيلية تنتقل من خلالها المزايا الثقافية والمادية، ويجرى تأمينها.

علم اجتماع "الأجيال"

بشكل عام، يعتبر مقال كارل مانهايم حول الأجيال 'الوصــف الاجتمــاعى الكلاسيكى'، الذى لم تستنفد إمكاناتــه بعــد حتــى الآن (Kohli, 1996). نــشرت الترجمة الإنجليزية لهذا المقال عام ١٩٥٢، وكان مانهايم يعيش حينها فــى لنــدن، حيث هرب من برلين قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. كانت التجربــة محاولــة لفهم السياسات الجيلية التى أدت إلى سقوط الإمبراطورية النمــساوية- المجريــة، وأتاحت الفرصة أمام الحزب النازى لاكتساح السلطة فى عام ١٩٣٣. يبدأ مانهــايم مقاله بعرض مشكلة الأجيال من زاوية البحث عن طريقة وسط بــين المقاربــات الوضعية التى تسعى لمجرد توثيق الأجيال بتعبيرات وصفية (بتوظيف مفهوم خطى وخارجى للزمن) والمقاربات الرومانسية التى استخدمت فهما ذاتيا للزمن، يمكــن تجربته نوعيا، ساعية لالتقاط روح العصر بالنسبة لجيل معــين- تكــرار ألمــانى للفرق بين مصطلحى "المدة" الموضوعى و"الدوام" الذاتى اللذين صاغهما برجسون.

كان هدف مانهايم أن يربط بين أفضل ما فى التقليدين: بالاعتراف بالخبرة الذاتية للجيل، وأيضا بفرض نظام تجريبى على الكيفية التى تشكلت بها أصوات خاصة بالجيل، وجرى التعبير عنها واكتسبت صعودا بين الجيل. كان ناقدا للطريقة التعميمية المفرطة للرومانتيكية التى من خلال مفاهيم روح العصر والظواهر السيكولوجية المتكاملة نسبت الوساطة والغرض إلى التاريخ نفسه. أما مانهايم، فكان يرى الأشياء أكثر تعقيدا. ومع الاستعانة بصور مجازية موسيقية، اقترح أن الطابع الأخلاقى والثقافى لعصر ما ليس صوتا منفردا، ولكن على العكس، يمكن أن نفهمه كمجموعة مؤتلفة من الأصوات أو "تآلف تحويلى" (1952: 284). هذا التآلف يتكون من أصوات منفصلة تعبر عن الوحدات الموجودة داخل الجيل. وكما هو الحال مع اللحن المتسق الأصوات، الميلوديا، فإن اجتماع هذه الأصوات يتغير على نحو غامض بمرور الزمن.

واعتمادا على التقليد الوضعى، يبدأ مانهايم بفكرة أن الجيل يتشكل ببساطة وعلى نحو تصويرى "بواسطة تماثل موقع عدد من الأفراد داخل كُلّ اجتماعى" (1952: 290). على هذا النحو، يكون الانتقال من جيل إلى جيل عملية مستمرة (p. 293، مع ظهور مشاركين جدد، وانسحاب متواصل لمشاركين سابقين (p. 294). كرس مانهايم بعض الانتباه إلى الآليات الاجتماعية والعائلية التى تضمن استمرارية الثقافة فى سياق مثل هذا التدفق والتجدد الأساسى. وكعالم فى الاجتماع المعرفى، كان مانهايم مهتما بكيفية تحقق استمرارية الثقافة، وميز بين آليات الوعى التى من خلالها تكتسب خبرة الماضى وتتحول إلى "نماذج" والعمليات الأقل وعيا التى تنتقل المعرفة من خلالها فى شكل نماذج "مكثفة" أو "ضمنية" فحسب، أو "افتراضية" (p. 296). فأعضاء أى جيل واحد لا يمكنهم إلا الاشتراك فى اختيار محدود مؤقت للتدفق التاريخى. واعتمادا على سرعة وكثافة التغير التاريخى، قد يكون من الضرورى أن يتغير الشكل الذى يحدث الانتقال من خلاله. وقد تتميز فترات التغير الاجتماعى البطيء بنوع من "الولاء"، الذى ينظر به الشباب إلى الأكبر سنا، وربما

يتبنون بناء عليه أزياءهم وقيمهم. وخلال فترات التغير الاجتماعى السريع يكـون الكبير أكثر تقبلا للصغير، أحيانا بدرجة أكبر حتى أن الجيل الوسيط بينهما يـشعر بأنه "معطل". ويرى مانهايم أن الأجيال فى حالة تفاعل مستمر، يركـزون علـى التفاوض بشأن الحاضر. ولكى نحقق ما يطلق عليه مانهايم "سلسلة أجيال مستمرة"، فإن أنواع الاتصالات التى تحدث بين الأجيال لا تسير فى اتجاه واحد، من الأكبـر إلى الأصغر سنا. ويشير مانهايم إلى "ضرورة الانتقال المستمر للتغير الثقافى" (p. 299)، ملاحظا أن:

> ومجاراة الشباب للعصر... تتوقف على كونهم أقرب إلى مشكلات الزمن الحاضر... وفى حقيقة أنهم علـى إدراك تـام بعملية عدم الاستقرار ولكل منهم موقفه منها. كل هذا بينمـا الجيل الأكبر سنا يتشبث بإعادة التوجيه التى كانت مـسرحا لشبابهم... فالمعلم لا يقوم فقط بتعليم تلاميذه، ولكن التلاميذ يعلمون المعلم أيضا. (p. 301).

يعطى مانهايم ثقلا خاصا لتأثير السنوات المشكلة للطفولة والشباب من أجل تأسيس هويات جيلية مشتركة. إلا أنه أيضا متحمس لمشاهدة "تحديد طبقات الخبرة" الموجودة داخل جيل من الأجيال. وعلى الرغم من أن أعضاء جماعة تاريخية قـد يعيشون تجربة نفس الأحداث، فإن تلك التجارب لن تؤثر فيهم بنفس الطريقة، وهنا تضع نظرية مانهايم حيزا للتنوع والوسـاطة علـى الجـزء الخـاص بـالأفراد والجماعات.

> قد يقال: إن الشباب الذى يخوض تجربة نفس المشكلات التاريخية الملموسة جزء من نفس الجيل الحـالى. بينمـا تلـك الجماعات داخل نفس الجيل الحالى، التى تنشئ نفـس مـواد الخبرة المشتركة بطرائق مختلفة، يشكلون وحدات جيل منفصل. (p. 304).

يمكن أن تكون وحدات جيل محددة الهوية على نحو نوعى، باستخدام لغة العرف الرومانتيكى، بواسطة بنيتها المشتركة من الظواهر السيكولوجية المتكاملة أو "تآلف استجاباتهم" (p.306) . وحسب تعبير مانهايم، لكى يكونوا مؤهلين كجيل فى حد ذاته (فى الواقع)، لا بد أن تتقاسم الجماعة فى 'مصير أو قدر مشترك' (p 303) والبنية المشتركة لوحدة الجيل لا بد أن تجد "تعبيرا مقنعا فى التصور التاريخى السائد" (p. 307). وليست هناك حتمية فيما يتعلق بتشكيل جيل مثل الحقيقة الواقعة. ويرى مانهايم أن التغير عندما يكون سريعا جدا أو بطيئا جدا، قد تصبح معه الأجيال خاملة، يتجهون ببساطة نحو هؤلاء الذين جاءوا من قبلهم أو من بعدهم. وبالأحرى، التعبير الجيلى هو حصيلة علاقة معقدة وعارضة بين التوقيت، والظروف والموارد. وحسب تعبير مانهايم: "يبقى موقع الجيل دائما احتمالية للبحث عن التحقق- لكن وسيطا مثل هذا التحقق ليس الطابع الثقافى المتكامل للعصر، ولكنه، على العكس، واحد أو آخر من النزعات الملموسة السائدة فى وقت معين" (p. 319).

وهناك مثال يبين مدى تبنى طريقة مانهايم لفهم الموضوع فى السنوات الأخيرة، قدمته دراسة لجيل سنوات العقد ١٩٦٠، وأجراها جون إدموندز وبريان تيرنر، واللذان اعتمدا على فكرته حول "الوحدات الجيلية" لتعريف الطريق الذى اتخذته طليعة سياسية وثقافية معينة للهيمنة على عصر ما. جمع إدموند وتيرنر (٢٠٠٢) تفسير مانهايم لكيف يصبح الجيل محققا أو "فاعلا" (نشطا)، مع تفسير بوردو لكيفية نجاح مجموعات اجتماعية معينة فى تحويل مواردها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية إلى رأس مال رمزى، أى تحقيق نفوذ يتجاوز الموقع الاجتماعى الذى نشأت فيه أصلا. ويركزان فى بحثهما على حالات معينة أمكنها ذلك: المحنة المشتركة للحرب العالمية الثانية، وفيتنام، والمعلمون، والأماكن

المقدسة، والتوافق مع التغير السكانى (ازدهار المواليد **the Baby Boom**)(*). وبالتالى فإن "طبع" هذا "الجيل الإستراتيجى" يستمر لكى تعترف به وتتلاءم معه أجيال "سلبية" لاحقة- والذين، على سبيل المثال، ربما لايزالون يستمعون إلى البيتلز [فرقة غنائية ظهرت فى الستينيات]. ويقترح إدموندز وتيرنر (**Edmunds and Turner, 2002**) أن "التلكؤ الثقافى" الذى يظهر بوضوح فى الهيمنة المستمرة لثقافة جيل ازدهار المواليد هو انعكاس لسلطتهم الإستراتيجية بالمقارنة مع جماعات أخرى، مشيرا إلى حدوث تذبذب بين أجيال نشطة وبليدة بمرور الوقت. وبما يتفق مع تقدير مانهايم للتباين بين أصحاب الموقع الجيلى المشترك، والشخصية الملتبسة لتعبيرهم، يشير المؤلفان إلى العملية البطيئة رغم ديناميتها التى تستهلك خلالها الاحتماليات التاريخية فى محادثات بين الأجيال على مدى فترات زمنية طويلة.

كانت مقاربة مانهايم لفهم العمليات بين الأجيال متأثرة بالتحليل السيكولوجى، فى الأهمية التى يعزوها إلى تشكيل مزاج جيلى عام فى مرحلة الطفولة والشباب، وأيضا فى العمليات غير الواعية التى تجرى حتى النهاية بين الأجيال (**Kohli, 1996**). ويكمن التعبير النفسى والثقافى عن الديناميات بين الأجيال أيضا فى قلب العمل الذى نشأ عن مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة (**Birmingham CCCS**)، وعلى وجه الخصوص الأفكار المرتبطة بكتاب **Resistance Through Rituals** [المقاومة من خلال الشعائر] (**Hall and Jefferson, 1976**). فى هذا الكتاب، يقترح فيل كوهين أنه يمكن فهم ثقافة بديلة معينة للشباب كـ"حل سحرى" يسعى إلى عمل حوار مع (أو إلى أن يحل رمزيا) التناقضات فى الثقافة الأبوية. أجرى كوهين بحثه مع شباب الطبقة العاملة الذى ينمو فى مناطق المجتمعات التى جُددت بالطرف الشرقى من لندن فى أعوام ١٩٧٠. وقد مزق التخطيط الحضرى

(*) جيل ازدهار المواليد أو جيل الازدهار: **the Baby Boom**: بعد الحرب العالمية الثانية حدثت طفرة فى عدد المواليد استمرت فى الفترة من ١٩٤٦ حتى ١٩٦٤، وأطلق هذا المصطلح على مواليد تلك الفترة. [المترجمة].

بشكل مؤثر استمرارية المواجهة الواقعة بين الثقافة وانتقال تقاليد الطبقة العاملة التقليدية. وهو يؤكد أن تشكيل الثقافات الفرعية لشباب الرأس المحلوق كان الشباب يسعون للندب على فقدان الجماعة ولإعادة خلقها رمزيا من خلال أنماط الزى، والموقف والسلوك. وفى مقدمة الكتاب، يقترح جون كلارك وستيوارت هال أسلوبا للتفكير فى الثقافة كتشكيل تاريخى يتضمن تعايش الأشكال الثقافية، الأمر الذى عبرا عنه "بالربط المزدوج"، الذى يتعايش فيه الماضى والحاضر فى حوار ديناميكى ومعبر. واعتمادا على عمل جرامسكى وليس مانهايم، يقترح كلارك وهال أن شخصية العمليات الحادثة بين الأجيال والوعى الجيلى يختلف وفقا للطبقة الاجتماعية، فالطبقات المتوسطة تساعد على نهضة ثقافات مضادة والطبقات العاملة تساعد على نهضة ثقافات فرعية، تعكس تهميشها. ويقدم جون سافدج مثالا حيا لهذه الطريقة المتأثرة بالناحية السيكولوجية لفهم المشاركات المستقرة المتورطة فى التعبير الثقافى عندما يفكر مليا فى ما تشربه فى مرحلة المراهقة فى ضوء خبرة أبويه:

> **لكل جيل مهمته الخاصة. ولا معنى لمحاولة إلغاء خبرة جيل آخر، كما أن ذلك قد يكون محفوفا بالمخاطر. ومع معايشتى تجربة عواصف وضغوط مرحلة المراهقة فى سنوات العقدين ١٩٦٠ و١٩٧٠، توصلت إلى التحقق من أن جزءا من مهمة مجموعتى كان للمساعدة فى التعامل مع آثار الحرب بالنسبة لآبائنا. الرعب العالق لتلك الفترة، بالإضافة إلى قضية الوجودية الضخمة التى أوجدها حقيقة القنبلة الهيدروجينية، كان ذلك الدافع إلى التجليات المتطرفة لثقافة الشباب التى غمرت نفسى فيها كلية (Savage, 2008: xvii).**

تلك الأمثلة من علم اجتماع الأجيال جميعها مهمومة بالتقاط وفهم كيف تضمن الجماعيات التغيرات والاستمراريات الاجتماعية، والشكل الناتج من تعبيرها الثقافى والسياسى. فالتركيز التحليلى مسلط على العلاقات الأفقية (أو المتزامنة)

والتي يقيمها الأفراد مع آخرين على أساس المرحلة العمرية فى عملية بناء صوت جيلي والتعبير عنه. والأمثلة المستكشفة هنا تتضمن مجموعة الأنداد ونخبة ثقافية وسياسية (Edmunds and Turner). ولكن كما يوحى الاقتباس من جون سافيدج، فإنه من الممكن أيضا أن نستكشف الأجيال رأسيا (من الناحية التاريخية)، كسلاسل من الأفراد والمعنى الذى ينطلق فى الزمن التاريخى. وأحد المجالات التى تطورت فيها هذه الطريقة لفهم الموضوع هى سيكولوجية العائلة وبحث تاريخ الحياة.

بحث تاريخ الحياة

كانت إحدى مهامنا فى كتابة هذا الكتاب تجميع أمثلة من البحث والتطور المفهومى والتى قد تكون، أو لا تكون، على حوار كل مع الآخر. وعلى الرغم من أننا وضعنا أجزاء الكتاب وفقا لسجلات زمنية مختلفة، فمن الثابت أن هناك صلات عديدة بين الأقسام، ليس أقلها من خلال عمل الباحثين الذين انتهجوا مقاربات منهجية مختلفة متعددة لفهم عمليات الاستمرارية والتغير عبر الزمن وعلى امتداده. فى الفصل الثالث صادفنا عمل المؤرخ الشفاهى البريطانى بول طومبسون الذى كانت تأملاته حول وظيفة الذاكرة فى التأريخ الشفهى (Thompson, 1988) مؤثرة ومنتجة (انظر مجموعة الذاكرة الشعبية، [Popular Memory Group], 1982). ومن خلال التعاون مع زملاء عديدين، وعلى الأخص عالم الاجتماع الفرنسى دانييل برتو انهمك طومبسون فى إنتاج عدد من المجموعات المحررة التى تجمع معا أمثلة من العمل التجريبى، والتى تبنى بشكل تقدمى إطار عمل مفهومى لفهم تأثير العمليات بين الأجيال داخل العائلات (Bertaux and Thompson, 1993/2005, 1 997/2003; Samuel and Thompson, 1990). واعتمد برتو وطومبسون على بحثهما الأنجلو/ فرنسى التعاونى حول العائلات، وكذلك على دراسات لعمليات ما بين الأجيال التى أجريت مع زملاء فى فرنسا وروسيا

والمملكة المتحدة. وفى سلسلة من المقدمات والمقالات المنهجية، وضع برتو وطومبسون وإيزابيل برتو- ويام أجندة مفهومية للدراسات بين الأجيال التى نلخصها هنا.

اعتمد المؤلفان على مجموعة من المصادر النظرية لبناء إطارهم العملى. يذكر تومبسون كيف تأثر عمله بشكل خاص بمنظور العلاج النفسى والذى جاء فى صيغة تناول الأنظمة العائلية لدى جون بينج هال (١٩٩٥). وهذا الإطار التحليلى يضع مفهوم العائلة فى صيغة علاقة عقدية مستمرة عبر الزمن، حيث يمكن نقل الديناميات العاطفية التى لم يفصل فيها بعد من خلال "العملة الرمزية" لقصص العائلة، والتى تتكرر فيها الموتيفات، والأنماط، والصعوبات، و"نفس العبارات تتردد ونجد لها صدى عبر الأجيال" (**Thompson, 1993/2005: 30**). ويعتمد برتو بدرجة أكبر على أعمال بيير بورديو ومفهوم "الطبع والبنية الذهنية" الذى يلتقط "تكثيف التجارب" التى تحدث داخل العائلات عبر الأجيال. وتأثرا بملاحظات بورديو، التى تقول إن تحويل رأس المال يشمل إعداد أو إنتاج المستقبل له (**1997/2003: 19**)، يؤكد برتو وطومبسون دينامية، و"انفتاح" الانتقال، حيث "لا يصبح العرض انتقالا إلا عندما يتم استقباله"، وحيث "الصيغة التى يجرى تمريرها يمكن تحويلها أثناء الانتقال" (**Bertaux-Wiame, 1993/2005: 47**). وقد يختار الأفراد قبول ميراثهم عبر الأجيال أو رفضه على السواء (**Thompson, 1993/2005: 15**)، وقد تكون العائلات أكثر أو أقل نجاحا فى "إعادة" الأطفال إلى تقاليد العائلة (**Bertaux-Wiame, 1993/2005**).

وأكثر ما يميز هذا التناول هو قدرته على التقاط العمليات المتزامنة والمتكافلة للإنتاج والإبداع الاجتماعى، والتى تربط العمليات الحميمة للحياة العائلية بالمشهد الاجتماعى والاقتصادى الذى تقع داخله. الاستمرارية والتغير ليسا فى موقعين متعارضين ببساطة. بل هما يظهران ذلك لكى يتمكنا من الحفاظ على بعض الاستمرارية عبر الأجيال، فالإبداع ضرورى دائما- وباستخدام تعبير بين-

جيلى، لا بد أن تجرى لكى تظل فى مكانك. وفى تصور العائلات كأنظمة مفتوحة منهمكة فى تداول "الهدايا" الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية، يجذبان الانتباه إلى كيف تصبح العائلات وسيطا مركزيا من خلاله يحدث التمرس بالزمن، وإلى حد ما، تجاوز الفناء. وبالإشارة إلى عمل بيير لوجريند، يعلقان:

> **إن استنتاجه الختامى "إن موضوع الانتقال، هو أن تنقل" قد يبدو فى الوهلة الأولى مجرد لغو، لكن من المهم حقا فى معظم عمليات النقل بين الأجيال أن مغزى المحتوى الخاص للمنقول، بالنسبة للمشاركين، أقل كثيرا من حقيقة أن النقل إلى الأطفال فى حد ذاته يشكل علاقة تتجاوز حدود الفناء البشرى (Bertaux and Thompson, 1993/2005: 7).**

ويشترك برتو وطومبسون فى التزام منهجى باستخدام قصص الحياة كمادة خام للتاريخ الاجتماعى. وأيضا، يمكن لقصص الحياة هذه أن تفيد فى التحليل الشخصى للذات، وكأمثلة للأدب الشفاهى (**Thompson, 1993/2005: 36**)، إلا أن فائدتها ليست كبيرة بالنسبة لشكل ذلك السرد أو إنتاجه الثقافى. وعلى العكس، فهى تتبنى تناولا واقعيا يلتزم- من خلال تلك الروايات- بقراءة ما وراءها من تاريخ اجتماعى. يعلن برتو وبرتو-ويامى هذا الأسلوب فى دفاعهما عن القيمة التفسيرية لقصص الحالات التى نتجت عن بحثهما. فهما يصفان تاريخ حالة لعائلة من المزارعين الفرنسيين على مدى خمسة أجيال، مع وضع تصور لقصص الحياة فى مقابل تحولات الاقتصاد الزراعى أثناء تلك الفترة. وفى وصف ما حدث مقابل مدى تنوع "المصائر الممكنة" التى تنفتح فى نقاط مختلفة من الزمن، يشيران إلى ما يحدث داخل العائلات من تكثيف معقد للخبرات، وكيف أن "الاحتمالات غير المنجزة جزء مؤثر من الواقع" (**1997/2003: 82**). وتاريخ الحالة يمدنا برؤية لما يسمونه "جدلية الخارجى/ الداخلى" و"الموضوعى/ الذاتى" (**p. 82**). ومع اعتبار العائلة كلها وحدة تحليل، من الممكن أن نرى الاعتماد المتبادل بين المصائر، حيث

تتناقص فرص الاختيار أمام أحد السلائل (مثلا، عندما "يقع" وريثا) بينما تتزايد فرص الاختيار بالنسبة للآخرين. وحيثما تشكل العلوم الاجتماعية تعميمات بشكل تقليدى من خلال عملية التجريد، فإنهما يؤكدان أن المصائر تتشكل -إلى حد كبير- من خلال التفاعل المعقد بين العوامل السيكولوجية والاجتماعية على مر الزمن. وفى تفصيل المحافظة، فإن دراسة تاريخ الحالة تجعل الأشياء مرئية بوضوح فى التحليل- فى حالة الحراك الاجتماعى، الذى "تقرر فيه الموارد وليس القيود السلوك على نحو أكبر" (p. 87). ويقترح برتو وبرتو-ويامى فهما منتجا للتغير الاجتماعى حيث تكون الوساطة، والتوقيت، وأشباح المصائر الممكنة كلها سارية المفعول:

> **الفكرة... أن مسار حياة يمكن تحديده- أو بالأحرى، تكييفه- بسهولة أكثر كثيرا بالإمداد بالموارد وليس بوضع قيود تعطى سياقا جديدا تماما لمفهوم العزم والتصميم: سياق يشمل كلا من البعد الاجتماعى البنائى والتطبيق العملى. (Bertaux and Bertaux-Wiame, 1997/ 2003: 95).**

هذه الحيوات الشبحية، والمصائر التى كان يمكن أن تكون، لم تستطع شق الطريق، وهى ليست ببساطة موضوع مؤرخ الحياة، ولكنها تشكل جزءا من الطريقة التى يروى بها الأفراد حياتهم. يستعير المؤرخ الشفاهى الإيطالى أليساندرو بورتيلى مصطلح "يوكرونيا uchronia" [الزمن الموازى(*)] من الدراسات الأدبية لتمييز رواية أحداث افتراضية اكتشفها فى قصص حياة بعض أعضاء الحزب الشيوعى الإيطالى- أشياء "كان يمكن" أن تحدث. واقترح أن رواية مثل تلك القصص تكشف عن فهم الأفراد للعلاقة بين إمكانية فرص الاختيار لديهم والقوى الأكبر التى تشكل حياتهم. وحسب تعبير بورتيلى، فإن اليوكرونيا "تحفظ الوعى المفرط بالظلم فى العالم القائم، ولكنها تمد بوسائل لترويض النفس والمصالحة. ورغم أنها تغذى لهب السخط بكشف التناقض بين الواقع والرغبة،

(*) انظر هامش أسفل الصفحة فى الفصل الأول. [المترجمة].

فإنها تساعد على حماية هذا التناقض من الانفجار فـي صـراع مفتـوح" (:1990 157). هذا النوع من العمل على قصص الحياة يوحى بإمكانية العمل مـع الـسرد لتصوير العمليات السيكودينامية المعقدة التى تكـون وسـيطا لتوصـيل المعنـى والمحصلات الملموسة عبر الزمن.

العمل والرعاية عبر القرن العشرين

وهناك دراسة تأثرت برواية قصص الحياة وأعمال مانهايم، وهى بحث فـى العمل والرعاية فى عائلات من أربعة أجيال، قامت به جوليا برانين، وبيتر موس، وآن مونى. وفى هذا المشروع تعرفـت بـرانين وزملاؤهـا علـى ١٢ عائلـة "عمودية"(*)، يعيش فى كل منها أربعة أجيال. وجرت مقابلة مع ثمانية أفراد علـى الأكثر من كل عائلة. وباستثناء واحد، كان أعضاء العائلة يشملون فقط أولئك الذين تربطهم علاقة بالأشخاص الذين أنجبوا منهم أطفالا. وكان المدخل إلى العائلة مـن خلال جيل "الأجداد" الأوسط، واختيروا على أساس عينة مقصودة لتمثيل مجموعـة منوعة من أحوال العمل المختلفة فى هذا الجيل. وكان ثمة هـدف واضـح لهـذه الدراسة، وهو استكشاف تفاعل السيرة الذاتية والتاريخ فى تراث سى. رايت ميلـز C. Wright Mills(**)، وتصوير التقاليد الواقعية والتأويلية على السواء. وكما فـى

(*) العائلة العمودية 'bean pole family': عائلة تغير شكلها، إذ أصبحت عمودية بدلا من أن تكون هرمية الشكل، حيث إن الأجيال الأكبر سنا أطول عمرا، والأجيال الأصغر أقل عددا، فأصبحت الأعداد الموجودة من كل جيل متقاربة بدلا من أن تكون الأجيال الأحدث أكثر عددا. [المترجمة].

(**) تشارلز رايت ميلز Charles Wright Mills (١٩١٦-١٩٦٢): عالم اجتماع أمريكى، مشهور بكتابه المنشور عام ١٩٥٩ بعنوان The Sociological Imagination والذى وضع فيه تخطيطا لشكل العلاقة الصحيحة بين السيرة الذاتية والتاريخ، والنظرية والمنهج فى دراسة علم الاجتماع. [المترجمة].

معظم الأبحاث الكيفية تعتمد هذه الدراسة على العمق وليس الاتساع فى المساهمة التى تقدمها للمعرفة. وكما فى الأبحاث الطولية الكيفية التى ناقشناها فى الفصل الرابع، تتسم الدراسة بالجمع بين صغر الحجم (١٢ دراسة حالة)، وكبره (٧١ مقابلة)، مع اختيار إستراتيجى لحالات تقدم "أساسا قويا يمكن به توليد وفحص أسئلة نظرية" (Brannen et al., 2004: 5).

تصميم جيلى

يحدد الباحثون أجيالهم تاريخيا، اعتمادا على المشهد الكلى للتاريخ البريطانى فى القرن العشرين، والذى يصنف الأجيال حسب علاقتها بالأحداث السياسية (Hobsbawm, 1994)، وأطوار تطور احتياطات وخطاب الرفاهية (Rose, 1999). وهكذا يقدم لنا ثلاثة أجيال من الراشدين، يجرى تعريفهم حسب موقع كل منهم مقابل كل من الآخرين من منظور جيل "المدخل" الأوسط:

- الأجداد الكبار: ولدوا بين ١٩١١ و ١٩٢١، عايشوا ما يطلق عليه إريك هوبسبوم "عصر النكبة"، الذى شمل حربين عالميتين والكساد الاقتصادى– وهو زمن اتسم بالتمزق و"ظهور الدولة الاجتماعية" (Rose, 1999).
- الأجداد، ولدوا بين ١٩٤٠ و١٩٤٨، جيل ما بعد الحرب الذى عاش "عصرا ذهبيا من النمو والتحول" (Hobsbawm, 1994) وتمتعوا بـ"الازدهار الكامل للدولة الاجتماعية" (Rose, 1999).
- الآباء، ولدوا بين ١٩٦٥ و١٩٧٥، وعاشوا "التحلل والأزمة" التى حدثت بسبب السياسات والتاتشرية، وشهدوا تأثير الليبرالية الاقتصادية والسياسية (Hobsbawm, 1994).

كانت تقنية البحث الأساسية الموظفة فى الدراسة هى المقابلة. وسعيا وراء طريقة لاستكشاف العلاقات المتداخلة بين الزمن التاريخى والزمن البيوجرافى، تبنى فريق البحث طريقة السرد البيوجرافى التأويلى للمقابلة والتحليل (**Wengraf, 2001**) الذى يقدم تقنيات لتمييز ورواية "القصة المروية" (السيرة) من "الحياة المعاشة" (سياق الترتيب الزمنى والتاريخى) (انظر الفصل الثالث لمزيد من المناقشة). وكان أسلوب المقابلة الذى استخدمه فريق البحث مفصلا حسب هذا المنهج (رغم أنه لم يتضمن تكرار المقابلات الذى شجعه المؤيدون). وجرت المقابلة فى ثلاثة أقسام: دعوة تمهيدية لتقديم قصة حياة دون مقاطعة يتخللها موضوعات من العمل الاهتمام؛ ويعقب ذلك دعوة من الباحث لتفصيل موضوعات قدمت فى ذلك السرد التمهيدى (وجرى تناول ذلك بالترتيب الذى كشف عنه)؛ وقسم ثالث مبنى جزئيا يختص بالأسئلة وكتابات مختصرة. واستغرقت المقابلات حوالى ثلاث ساعات. كانت فكرة السرد الأول الذى لا يقاطع هى أنه سوف يمد بإحساس "بصورة متكاملة" لحياة الفرد، وفى متابعة ترتيب روايته فى القسم الثانى من جدول المقابلة، وبنية هذه "الصورة المتكاملة" يمكن حفظها وتفصيلها.

مقارنة تحليلية ذات طبقات

سعت مناهج التحليل أيضا لتمييز "الحقائق" البيوجرافية والتاريخية من التجربة والتفسير الذاتيين، فيما يختص بالصورة التجريدية للجداول الزمنية التاريخية وقصص الحياة الفردية لكل فرد. يصف الباحثون ثلاثة مراحل أو مستويات منفصلة فى تناولهم للتحليل.

- المرحلة الأولى اختصت بتحليل الأفراد. وقد تطلب هذا كتابة ملاحظات ميدانية بعد المقابلات، وكذلك ملخصات مطولة وتحليلات مبدئية لحالات الأفراد بمجرد أن تصبح وسائل تسجيل المقابلات

الكاملة متاحة. وهذه التحليلات المبدئية قد تربط أسئلة البحث المهمة بجوانب النص.

- المرحلة الثانية اختصت بتحليل عائلات كاملة، مع التركيز خاصة على تتبع الاستمراريات والتغيرات عبر الأجيال.
- والمستوى الثالث من التحليل اختص بالنظر عبر العائلات الاثنتى عشرة والمقارنة بينها. وهذا يتطلب القراءة عبر الأجيال، وكذا تطوير نماذج شخصية لأنماط من الديناميات العائلية. وهذا المستوى من التحليل شكل الأساس لفصول الكتاب الناتجة عن الدراسة.

ويشرح المؤلفون أنه ليس من الممكن مجرد قراءة التاريخ من هذا النوع من البيانات، عند تقديمها فى حالها هذا فى "هنا والآن". وكما مع أى رواية لقصة حياة، يجرى إنتاج السرد فى الحاضر:

> **يولد المنهج روايات استعادية للقرارات، والأفعال، والأحداث، عادة فى أجزاء متباعدة من مسار الحياة، وفى سياق حالات معينة، وعلاقات وأحكام أخلاقية خاصة بتلك الأزمنة. وتقييم تلك القرارات ربما لا يستحضر فقط التردد، ولكنه يجرى مع الإشارة إلى أطر الزمن الحاضر، حتى رغم أن مقدمى المعلومة قد يسعون إلى تذكر الماضى وكيف كانوا يفكرون ويشعرون حينئذ. ومن المستحيل، فى الواقع العملى، بالنسبة لمن يروى أن يقف خارج الحاضر عندما يفكر فى الماضى.**
> .(Brannen et al., 2004: 84)

ولأنهم عاشوا خلال فترات تتسم بتغير اجتماعى كبير، فإن أعضاء الأجيال الأقدم خاصة كانوا مدركين لأكثر من إطار عمل تطورى ممكن لقضايا مثل أفضل وسيلة بالنسبة لأحد الوالدين لعمل توازن بين العمل والرعاية كما تابعها الباحثون.

وبدلا من تعريف الأجيال المختلفة بمجموعات مختلفة من القيم، تعتمد برانين وزملاؤها على إطار عمل مفاهيمى يعزز إلى أى مدى ينبغى على العائلات أن "تتفاوض" فى مسئوليات العائلة (Finch and Mason, 1993). والطريقة التى يفعلون بها هذا متجذرة دائما فى ظروف ملموسة، وسوف تتنوع وفقا للزمان والمكان. وبهذا الوصف، لا تميل العلاقات العائلية ما بين الأجيال إلى تمييزها عن طريق الحكم عليها، وإنما عن طريق الازدواجية:

> التوترات بين هذه المعتقدات، والأحكام، والأفعال... تختص بمواقع متميزة بعناية، كل موقع جرت المفاوضة فيه حسب علاقته بوقت ومكان معينين، وجماعة مرجعية. ربما لا تزال نساء الأجيال الأكبر سنا يعتنقن معتقدات معينة أو قواعد قياسية كانت معيارية عندما كن هن أنفسهن أمهات لأطفال صغار (وأكثر هذه المعتقدات انتشارا أن الأمهات ينبغى ألا يعملن)؛ ولكن هذه القواعد لا تطغى بالضرورة على تقييماتهن المعاصرة لكيف ينبغى لبناتهن وحفيداتهن أن يعشن حياتهن فى سياق الحاضر أو قراراتهن الحالية حول نوع الدعم الذى ينبغى تقديمه لهن. (Brannen et al., 2004: 82).

الأبوة كميراث دينامى

لا تكفى المساحة هنا لمناقشة أكثر من مثال واحد من نوع الرؤى والتحليل التى أثارتها هذه الدراسة، ولكننا نود تشجيع القراء على متابعة مطبوعات الدراسة.

فى تحليلهم للأبوة، ترينا برانين وزملاؤها كيف اجتمعت العناصر المختلفة لتناولهم، مما مكنهم من التعليق على كيف تغيرت الأبوة عبر الأجيال، وكذلك التعليق على عمليات "النقل" بين الأجيال. وهم يبدءون باستكشاف الجدول الزمنى

للأبوة فى أجيال مختلفة، معتمدين فى الأساس على تحليلهم لـ"الحياة كما تعاش". ورغم أن هناك اتجاها خطيا عاما نحو الوالدية الحديثة والعائلات الأصغر، فإن برانين وزملاءها يؤكدون أن مجموعة بياناتهم توحى بصورة من التغير غير المنتظم. لقد لقى الانتقال إلى الرشد لجيل الأجداد الكبار مقاطعات بسبب الحرب والترحيل الاقتصادى. وبالنسبة للرجال كان هذا يعنى دائما تأخيرا فى الاستقلال الاقتصادى وأبوة متأخرة نسبيا. وفى المقابل، يميل الجيل التالى (الذين تربوا فى سنوات ما بعد الحرب) إلى التعرض لنقلات سريعة ومكثفة، وسنوات قليلة جدا تفصل بين الدخول إلى مجال العمل، والزواج، والأبوة. أما الجيل الأصغر من الآباء فقد بلغوا رشدهم أثناء فترة من عدم الأمان الاقتصادى. وعلى عكس الأجيال السابقة، فإن رجال جيل "الآباء" غالبا يتعايشون مع شركاء قبل الزواج و/أو الوالدية. وبالنسبة لهذا الجيل أيضا كان تأمين سكن قبل الإنجاب مسألة أولوية، مما يعكس تغيرات مهمة فى الاقتصاد نتيجة إعادة بناء الاقتصاد. وبناء عليه، فإن رجال هذا الجيل يميلون لأن يصبحوا آباء فى وقت متأخر عن الأجيال السابقة فى عائلتهم، وقد خبروا ظروفا مختلفة كثيرا عن تلك التى عاشها آباؤهم على وجه الخصوص.

والطبقة التالية من التحليل تركز أكثر على الطريقة التى يتحدث بها رجال الأجيال المختلفة عن الأبوة، وخاصة أنواع الخطاب المختلفة التى يعتمدون عليها. ويتخذ الباحثون نقطة انطلاق لهم البيانات الطولية الاتجاهية التى توحى بنزعة متزايدة لمواقف المساواة بالنسبة لتقسيم العمل الخاص بالنوع. ورغم أنهم يجدون أنواعا جيلية منفصلة من الخطاب حول ما هو "الأب المثالى" تظهر عندما يتحدث الأفراد عن تجاربهم الخاصة للأبوة، وتصبح الأوضاع أكثر ازدواجية عند الحديث عن الأجيال الأخرى، مع معرفة الأفراد بأهمية التغييرات التى حدثت. ولا يتوقف الرجال عن أن يكونوا آباء عندما يصبح أطفالهم راشدين، والطريقة التى يتحدث بها الرجال الأكبر سنا توحى بأنهم ربما كانوا مرتبطين بقيم مختلفة فى ممارستهم لدور الأجداد ولدور الآباء لأبناء راشدين أكثر مما توحى به رواياتهم عن الأبوة

فى الماضى. وهناك علاقة معقدة بين الطريقة التى يتحدث بها الأفـــراد والمـــشهد التاريخى الذى يفترض أن هذا الحديث كان يجرى فى سياقه. وعلى سبيل المثـــال، قد لا يذكر الأفراد ما هى "الحقائق" المهمة (مثلا، الأب بشكل عملى الـــذى تمثـــل صيغة الأبوة لديه رحلة للاستكشاف الشخصى، لا يذكر أنها كانت ممكنـــة بـــسبب دعم ممتد من الدولة)، مما يلقى الضوء على حاجة الباحث للمعرفة الجيدة بالـــسياق التاريخى والسياسى المعنى لكل جيل. وتلك الروايات التى يرويها الأفراد قد تعكس هى نفسها الصياغة التاريخية التى هم جزء منها- مثلا، اتجاه جيل الآبـــاء لتقـــسيم العمل داخل العائلة نتيجة لـــ"اختيارات" النساء.

وفى مقارنة العائلات، يطور الباحثون نماذج شخـــصية للأبـــوة يرســـمون معالمها مقابل المحاور ذات الصلة.

مكتسب الدخل (المعيل) الرئيسى/ الوحيد	
انهماك ضعيف في دور الأبوة	انهماك قوى في دور الأبوة
أ. آباء يركزون على العمل (رجال مهنة وآباء الإمداد بالمعيشة) اثنان من الأجداد الكبار ستة أجداد أربعة آباء	ب. رجال العائلة، والآباء المهتمون بالأطفال اثنان من الأجداد الكبار أربعة أجداد ثلاثة آباء
ت. ج. آباء مشاركون عمليا أربعة آباء	ث. د. آباء غير موظفين باستثمار ضعيف فى الأبوة لا توجد حالة
لا مكتسب للدخل (رئيسى أو وحيد)	

(Brannen et al., 2004: 128)

فى الفئتين أ، ب من الممكن أن نرى الاستمرارية عبر الزمن، حيث رجال ثلاثة أجيال يكررون نمط الفعل كمكتسب دخل رئيسى (معيل)، ويهتمون بأطفالهم بدرجات مختلفة. وتوحى الفئتان الأخيرتان بتداخل ممارسات الأبوة، على سبيل المثال الفئة ج، والتى فى هذه الدراسة على الأقل، كانت ثابتة فقط فى أحدث جيل، وتعتمد على نمط معين من الرفاهية و/أو ارتباط المرأة بوظيفة. ويقترح الباحثون أن السبب فى أن الدراسة ليس بها أمثلة من الفئة د، لم يكن أن هذا النوع من الآباء غير موجود فى الجيل الحالى، ولكنهم كانوا خارج إستراتيجية الأسر العينة فى هذه الدراسة.

وتجعل دراسات حالة ما بين الأجيال من الممكن رؤية التفاعل بين البعدين التاريخى والبيوجرافى اللذين سبق وصفهما، فتكشف عن "كيف" يحدث التغير والاستمرارية داخل عائلات واقعية. وفى دراسة حالة ممتدة واحدة يناقش الباحثون ثلاثة أجيال من عائلة برنتيس التى تنتمى إلى الطبقة العاملة، وظهور نوع جديد من الأبوة فى أحدث الأجيال، أبوة مشاركة بشكل عملى طوال الوقت، حيث تصبح العناية بالأطفال عملا مشتركا، ويستنتجون:

> **هناك تشابهات قوية فى المكانة المهنية وفرص الحياة للأجيال الثلاثة من رجال برنتيس. وفى نفس الوقت، حدثت تغييرات هيكلية قوية، وخاصة تراجع التوظيف المتسم بقلة المهارة، والذى أضعف أخلاقيات العمل لدى الجيل الحالى من الآباء. كما حدثت تغيرات هيكلية ومعيارية فى حياة العائلة أدت إلى إضعاف فكرة الأبوة كمؤسسة قائمة على كسب عيش العائلة. وفى هذا السياق، استخدام أندرو [أصغر الآباء] التراجع فى الموارد التقليدية المتاحة للرجال من طبقته الاجتماعية كفرصة للاستفادة من الموارد الثقافية الجديدة التى**

> تضفى شرعية على انهماك الرجال بفاعلية وعلى حد سواء مع أطفالهم. حيث جعل أندرو الأبوة فى السنوات الأولى من حياة أطفاله مهنة ذات مغزى وفائدة فى غياب وظيفة مدفوعة الأجر. وفضلا عن هذا، فى المستقبل، ينوى هو وزوجته المـــشاركة فى كسب العيش. (Brannen et al., 2004: 145).

هذه المناقشة الموجزة لمشروع "العمل والرعاية" توحى بقيمة هذا النوع من تصميم البحث بين الأجيال للتوصل إلى فهم كيف توفـــق عائلـــة مـــشهد التغيـــر الاجتماعى ذاتيا. وتحرص برانين (2005) على توضيح أن هذا النوع من المنهجية يمد بمنظور توفيقى حول الماضى وعمليات التغير والاستمرارية. ومن المهـــم أن يكون الباحثون على وعى بالمسكوت عنه فى روايات المستجيبين، وعلـــى وجـــه أخص، كيف يرون الموارد كأمر مسلم به (انظر الفصل الثالث لمزيد من المناقشة عن تحديات استخدام السرد الشخصى كمصادر تاريخية). وهى تنبهنا أيـــضا إلـــى وجود حساسية تجاه تغيير الخطاب إلى الذات الفاعلـــة، والخـــصوصية التاريخيـــة لأفكار "الواجب" و"الرعاية". المستجيبون أنفسهم من المحتمل أن ينتقلوا بين أطـــر عمل استطرادية، اعتمادا على ما إذا كانوا يصفون تجاربهم الخاصة فى الماضـــى أو يعلقون على تجارب الآخرين مع الاختيارات فى الحاضر. ومن غير الممكن أن نتتبع ببساطة التغييرات فى "الرعاية" عبر الزمن عندما يكون معنى "الرعاية" نفسه يعتمد على سياق تاريخى (Brannen and Nilsen, 2006).

ثلاثة أجيال من الفتيات النرويجيات

المثال الثانى من البحث بين الأجيال يأتى من النـــرويج وعمـــل هاريـــت بجيروم نيلسن Harriet ومونيكـــا ردبيـــرج (Bjerrum Nielsen, 1904- 2000:

2003). فى هذا المشروع أجريت مقابلات مع ٢٢ سلسلة بين أجيال من النساء فى ١٩٩٠-١٩٩١، وتناولت حياتهن كأطفال وكبنات شابات. وضمت أربع عشرة من تلك السلاسل ثلاثة أجيال (الجدات، والأمهات، والبنات)، والثمانى الباقيات ضمت كل منها الجيلين الأصغر.

- الجيل الأكبر (ولدن بين ١٩١٠ و١٩٢٧) قضين سنوات مراهقتهن أثناء العقد ١٩٢٥-١٩٣٥.
- جيل الأمهات (أغلبهن ولدن بين ١٩٤٠-١٩٤٨) قضين سنوات مراهقتهن فى العقد ١٩٥٥-١٩٦٥.
- البنات ولدن فى ١٩٧١-١٩٧٢، وعشن مراهقتهن بين ١٩٨٥-١٩٩٥، وهى الفترة التى جرى أثناءها العمل الميدانى.

وجاء الدخول إلى السلاسل من خلال جيل البنات، وقد طلبت متطوعات من مدرستين ثانويتين فى أوسلو- واحدة منهما "ذات سمعة أكاديمية جيدة جدا"، حيث "التلاميذ ينتمون إلى عائلات من الطبقة المتوسطة التى نال فيها الآباء تعليما عاليا" (Bjerrum Nielsen, 2003: 25)، والمدرسة الأخرى "مدرسة إقليمية عادية وتلاميذها ينتمون إلى الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، والطبقة العاملة، والعائلات التى تعمل بأعمال مستقلة صغيرة" (2003:25). وتطلبت الدراسة أيضا بحثا إثنوجرافيا فى هاتين المدرستين، وتشكل سلاسل الأجيال الأنثوية جزءا من عينة أوسع من مقابلات تاريخ الحياة والتى جمعت كجزء من الدراسة.

استنطاق نظريات التغير الاجتماعى

رغم أن بحث بجيروم نيلسن وردبيرج له جذور مفاهيمية مختلفة عن ذلك الذى قامت به برانين وزملاؤها، إلا أن هذا البحث أيضا توليدى نظريا، ويقدم اختبارا للنظرية القائمة. والدراسة مصممة كوسيلة صريحة للارتباط تجريبيا

بالنظريات الحديثة الأخيرة المؤثرة لـــ أولريتش بيك **Ulrich Beck** وزملائه، والتي تشير إلى عملية إضفاء الصفة الفردية، وتحرير تقدمي للوساطة من البنية، وتحول عن الخلافات المعزوة لها (مثل النوع والطبقة الاجتماعية) و"السير الذاتية الطبيعية" التي تتشكل تقليديا، باتجاه "سير ذاتية خاصة بالاختيـــار"، حيـــث الأفــراد تتزايـــد مسئوليتهم عن التحكم في مصائرهم.

كانت بجيروم نيلسن وردبيرج مهتمتان باستكشاف موضوعين: الأول، كيف كان لعملية إضفاء الصفة الفردية أثر على حياة النساء وعلاقتهن ببعضهن، وثانيا، لإظهار أهمية المجال السيكولوجي والوجداني، ليس كمجرد انعكاس للتغيرات فـــي العمليات المادية والاجتماعية، ولكن كقوة ووسيط للتغير في حد ذاته. وقد صممت الدراسة بهدف "اختبار" ادعاء نظرى عن التغير، وكذلك كوسيلة لاستخلاص رؤى مفهومية وتجريبية يمكن أن تثرى مثل تلك المقاربات النظرية. وفي بحث تسلـــسل ثلاثة أجيال من النساء، سعت المؤلفتان إلى توثيق وربط ثلاثة جوانب: التـــضمين التاريخي، والأعراف الثقافية، والجوانب الذاتية.

وتوظف الباحثتان تناولا له جانبه السيكولوجي لكي تستطيعا القـــبض علـــى التفاعل بين تلك الأبعاد. وعلى سبيل المثال، تميزان بين هوية النوع (النوع الـــذى يميزنى- أنا امرأة ولهذا فأنا أتصرف بهذه الطريقة المعينة)، ذاتية النـــوع (النـــوع الذى يميزنى- أنا شخصى بوصفى امرأة، ولهذا فأنـــا أتـــصرف بهـــذه الطريقـــة المعينة، التي وضعت قواعدها في الطفولة، وأثرت بشكل لاواعـــي فـــي الذاتيـــة النوعية لأبائهن) والإمكانات الثقافية والاجتماعية التي يوفرها المجتمع في أي وقت **(Bjerrum Nielsen and Rudberg, 1994: 92)**. وتشرحان أنه عند سن المراهقة، هناك دائما افتقاد لـــ"المعاصرة"، أو "التكيف" بين تلك الأبعـــاد. وشخـــصية هـــذا التصوير خاصة بكل جيل. وعلى سبيل المثال، الفتيات اللائى تربين فـــي ســـنوات العقدين ١٩٦٠ و١٩٧٠ عشن تناقضا بين هوية نوع معصرنة، و"ذاتية نواع قديمة

الطراز (تطور الاستقلالية من خلال العلاقات مع الرجال)" (109 :1994). أما أمهاتهن، اللاتى كن فتيات فى سنوات العقدين ١٩٤٠ و ١٩٥٠، فقد كان التناقض بين هوية نوع عصرية وإمكانات ثقافية مقيدة. وبالنسبة للفتيات فى سنوات العقدين ١٩٨٠ و ١٩٩٠، كان التناقض بين ذاتية خاصة بالنوع واحتمالات ثقافية واجتماعية. وهكذا فإن الفتاة العصرية ربما لا "تعترف بأن نوعها قيد- فهى تريد كل شىء، وتعتقد أنها تستطيع أن تفعل أى شىء. ولكن هل هذا ممكن؟" (111 :1994).

تبين بجيروم نيلسن وردبيرج أن "الشخصيات" الفردية هى نتاج تأثيرات وتناقضات كثيرة ومتنوعة، وهما بذلك ترددان تصوير مانهايم لشخصية الجيل بأنها تتشكل بناء على تنوع جماعة السن. وتصفان مشروعهما بأنه يسعى لجمع الرؤى السيكولوجية، والتحليلية السيكولوجية، والسوسيولوجية لإيجاد "بيوجرافيا نفسية"، مع الاستشهاد بتأثير مشروع مدرسة فرانكفورت لتصوير "الشخصيات الاجتماعية".

وفى محاولة فهم مواد المقابلة المتولدة عن سلسلة الأجيال الثلاثة لبحثهما، تنزع المؤلفتان للبدء بالتاريخى، باستخدام تحليل "الجيل" كوسيلة لالتقاط شىء من خصوصية أبنائه. وتشرحان أن أساليب الخطاب لدى الجدات تميل لأن تكون شديدة الواقعية، تصويرية، وصفية للأفعال والحقائق بدلا من التفسيرات. وهذا السرد مشرب بتقاليد التواضع والتركيز على الأحوال المادية للحياة. لا تميل الجدات لوضع أنفسهن كأفراد، ولكن كجزء من فريق العائلة، وقد قيل تعليق نموذجى لذلك "لم تكن لدينا مشاكل كثيرة جدا فى تلك الأيام". وفى المقابل، أسلوب خطاب جيل الأمهات ذو شخصية سيكولوجية بدرجة أكبر كثيرا. وحكاياتهن تقييمية وتفسيرية، ودوافعهن إشكالية وتلقى باللوم كثيرا على الآباء. أما الخطاب الذى يميز جيل البنات فيه الكثير من التشابهات مع خطاب الأمهات، حيث إنه يميل إلى السيكولوجية بدرجة كبيرة أيضا. ولكن حيث تكون حكايات الأمهات لائمة، تميل حكايات البنات إلى السخرية والأقوال الأدائية. وهن يصفن البنات بأنهن مثل

"الكوميديانات الانفراديين" الذين يؤدون ويقتبسون حكايات الآخرين. وشُبهت أساليب السرد الجيلى بالأصوات المميزة لأفرع معرفية أكاديمية مختلفة، فكلام الجدات يشبه السوسيولوجيين الذين يؤكدون القيود البنائية، وكلام الأمهات مثل السيكولوجيين الذين يؤكدون الخبرة الذاتية والدافع الذاتى، أما البنات فيتحدثن بأسلوب لعوب وساخر يشبه أسلوب الدراسات الثقافية (Bjerrum Nielsen and Rudberg, 2000).

وتحرص بجيروم نيلسن وردبيرج أيضا على تجنب قراءة حرفية للتاريخ من تلك الحكايات. فهما تعرفان أن استخدام اللقاءات كمنهج لاستخلاص البيانات يعنى أنهما من ناحية تبحثان "الآنية" (كل المقابلات "بقايا من سنوات ١٩٩١"). إلا أن أساليب الخطاب المختلفة جدا التى تستخدمها الأجيال المختلفة عند الحديث عن الطفولة يجعل من الممكن رؤيتها "كجيوب صغيرة للتاريخ، محفوظة فى الفرد" (Bjerrum Nielsen, 2003: 18). ورغم أن الباحثتين سألتا كل المبحوثات عن طفولتهن، فإنهما تعترفان بأنه فى مقارنة هذه الحكايات فإنهما لا تقارنان شبيها بشبيه. فهؤلاء النسوة لسن فقط فى مراحل مختلفة من حياتهن، ولكنهن أيضا ينظرن إلى طفولتهن من خلال عدسات مختلفة. فالجدات تأتى ذكرياتهن من خلال وساطة قصة ثقافية قوية، قصة تؤكد تحسنا تقدميا فى مستويات المعيشة وتحرير الروح المعنوية. وبالنسبة لجيل الأمهات، فإن ذكريات الطفولة تأتى من خلال وساطة قصة جيلية عن التنوير والمساواة بين الجنسين. ويراقب الجيل الحالى كيف يتكرر انزلاق النساء بين حكايات الذات والتعميمات الأوسع عن النساء مثلهن أنفسهن، الأمر الذى قد يكون- باستخدام مصطلحات مانهايم- علامة على التحقق الفعلى لهذا الجيل.

تركيب صورة "ربة البيت"

وهناك مثال رائع للطريقة التى يمكن بها للهوية الجيلية أن تشكل الـذاكرة، يأتى فى مناقشة لكيف يقوم الجيل الأوسط بتركيب صورة "ربـة البيـت". عنـدما قارنت الباحثتان حكايات الجدات والأمهات وجدتا أن الجيل الأوسـط يميـل إلـى وصف أمهاتهن بأنهن كن "ربات بيوت" أثناء طفولتهن. وهذا هو الحـال رغـم أن العديد من أولئك الأميات قدمن معلومات عن أنفسهن كعاملات، غالبا فى العائلـة و/أو عملا زراعيا. وتقترح بجيروم نيلسن أن صورة ربة البيت تقوم بدور رمـز يضع خطا فاصلا للنساء اللائى نمون فى سنوات العقدين ١٩٥٠ و١٩٦٠- رمـز لـ"الآخر" من النساء المتحررات. وهناك ما يدل على أن هذا خطاب مشترك بـين الأجيال، الأمهات فيه ينسبن المرارة والإحباط للجدات، والجدات يعبرن عن الأسف لأنفسهن. ومما يسترعى الاهتمام أن الأسف الذى تعبر عنه الجدات ليس للحرمـان من العمل، ولكن لأنهن حرمن من السفر والتعليم. وتصف بجيروم نيلـسن "ربـة البيت" بأنه "تصور ١٩٧٠ عن سنوات ١٩٥٠، مع المبالغة... لدعم تصور الـذات للبنات الراشدات" (23 :2003). وليس غياب العمل فى حد ذاته هو الذى يحدد ربـة البيت، ولكن غياب العمل مدفوع الأجر فى المجال العام. والعمل مدفوع الأجر هو الذى تدور حوله أيضا محاولات الجيل الأصغر لتمييز أنفـسهن عـن أمهـاتهن، مؤكدات عدم استعدادهن للالتزام تماما هكذا بالمهنة والعمل مدفوع الأجر.

وهكذا، رغم أن التغييرات التى تم تعريفها عن طريق تحليل الخطاب توحى بالتغيير عبر الزمن، هناك دليل أيضا على وجود حوار، ونقل، واستمرارية علـى طول قناة السلسلة الجيلية. فالتاريخ، والثقافة، والذاتية تعمل ضمن وخلال بعـضها البعض، وحسب تعبير بجيروم نيلسن "هنا لدينا حالة من هذه العلاقات المعقدة بـين تغيير بنائى فى حياة النساء وتغيير ثقافى لمعايير الأنوثة، ونمط معين لعلاقة أمى- أنا الداخلية" (24 :2003). وهذه عمليـة لا ينبغـى أن تختـصر إلـى المـستوى

الاقتصادى أو العاطفى؛ وعلى العكس، فهى مصادفة اكتشاف عملية يكون فيها "الاستعداد" للتغيير مسألة مشروطة، "فالثقافة تنبه سيكولوجية جديدة، والسيكولوجية الجديدة تنبه ثقافة جديدة" (24 :2003).

استنتاج

تقول الأنثروبولوجية البريطانية جينى هوكى- متأملة فى دراساتها الخاصة التجريبية لمسار الحياة: إن الناس يميلون لتعزيز الانقطاع بين الأجيال عند توكيد العلاقات مع مجموعتهم العمرية والتواصل بين الأجيال عندما يتحدثون عن العلاقات العائلية (Hockey, 2008). إن الاستمرارية والتغير منظوران وينتجان عن اتجاه نظرتنا وتطابقاتنا. والطرائق التى نصوغ بها التطابقات تتشكل بناء على الجيل.

فى هذا الفصل استكشفنا مفهوم "الجيل"، أخذا بعين الاعتبار الديناميات "بين" الأجيال و"داخلها". بدأ الفصل ببحث فرعين أكاديميين أثرا فى أجندة هذا البحث، وهما سوسيولوجيا الأجيال، وتاريخ الحياة. وداخل سوسيولوجيا الأجيال ركزنا على عمل كارل مانهايم الذى كان تمييزه بين جيل "فى حد ذاته" و"من أجل ذاته" فكرة ذات تأثير كبير. وقد أخذنا فى الاعتبار أيضا الطبيعة المزدوجة لرؤية مانهايم للجيل بأن له بعديه الموضوعى والذاتى معا، وكذلك بعديه الواعى واللاواعى. ومن مساهمات مانهايم الأخرى أيضا إدراك التعقيد المتعذر اختزاله للجيل، حيث إنه دائما دينامى ومتغاير الخواص. هذا التنوع الداخلى هو الذى ساهم فى الشخصية الخاصة التى تميز جيلا ما أو مناخ عصر من العصور.

كان مانهايم مهتما فى الأساس بالأجيال كجماعات تخلق روح العصر وفى ذات الوقت تعبر عن هذه الروح. وقد ساعدت مقاربات تاريخ الحياة على تطوير فهم كيف أن الأجيال داخل كل عائلة بمفردها تعمل كوحدة مصغرة من العلاقات

الاجتماعية الأوسع. وعند رؤية الأجيال من منظور عائلة ما، من الممكن أن نرى الأجيال كتدفق مستمر تتداخل وتتشابك فيه الموارد الموضوعية والذاتية. وهى مقاربة مثمرة، حيث لا يجرى التركيز فيها على القيود، وإنما على الوساطة الإنسانية، والموارد، والقدرة الكامنة، والاستعداد. ومن هذا المنظور يمكن فهم التغير والاستمرارية كشريكين ضروريين. الإبداع دائما جزء من تغيير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، إلا أن الاستمرارية هى الحاصل الحتمى للنقل بين الأجيال. ويمكن أن تكون طبيعة التواصل بين الأجيال مراوغة وغير مباشرة، تلاحقها أشباح إمكانات لم تتحقق.

من خلال مثالين تجريبيين استطعنا رؤية ما يمكن إحرازه بالبحث الذى يركز على العلاقات بين الأجيال. وقد كانت كلتا الدراستين مثمرة نظريا وكذا تقدم اختبارا للنظريات الخاصة بطبيعة التغير الاجتماعى والتاريخى. وكان المثالان أيضا بحاجة إلى التحليل، يتطلبان أن يجرى تحليل البيانات ومقارنتها بطرائق عديدة مختلفة لكى تكشف عن الأفراد، والعائلات، والأجيال. هاتان الدراستان تظهران بوضوح التفاعل بين الشخصى والاجتماعى والتاريخى بطريقة يُحتفظ فيها بتكامل كل من هذه الأبعاد. وحيث سوسيولوجية الأجيال تشكل مفهوم الأفراد كحاملين للعمليات التاريخية، فإن هذه الروايات بين الأجيال تميل لتصوير الأفراد والعائلات كصانعين للتاريخ، مدفوعين بديناميات بين-شخصية، ديناميات شكلتها، وإن لم تحددها وتقررها، قوى أكبر.

نقاط تلخيصية

- يمكن رؤية الأجيال كإيجابية وسلبية. ويتعلق هذا بالظروف التاريخية التى يتشكل فيها الجيل وكثافة التغييرات بين الأجيال.

- يمكن فهم الأجيال أفقيا (العلاقات داخل الجيل) ورأسيا (العلاقات بين الأجيال).
- الاستمرارية والتغير ليسا مصطلحين حصريين على نحو تبادلى، ولكن ينبغى فهم كل منهما بناء على الآخر ومن خلاله، ويمكن إدراكهما من خلال عمليات تكرارية.
- إن خصوصية وعمق نوع التوصيفات التى تميز البحث بين الأجيال، والتباين الإستراتيجى بين الحالات، يمكن أن يقدم أساسا للجيل واختبارا للنظرية.
- إن أنواع الخطاب التى يستخدمها الأفراد تبين آثارا من العصر التاريخى لأصولهم وكذا الأحوال المعاصرة لأدائهم وموقعهم الاجتماعى.
- البحث بين الأجيال يخلط تمايزات بين الماضى والحاضر والمستقبل، وبذلك يبيّن الأساليب التى يشمل الوجود بها دائما الماضى والمستقبل.

مصادر للاستزادة

Bertaux, D. and Thompson, P. (eds) (1993/2005) Between Generations: Family Models, Myths and Memories. London: Transaction Books.

مجموعة عالمية للبحث فى تاريخ الحياة تركز على النقل داخل العائلات.

Bertaux, D. and Thompson, P. (eds) (1997/2003) Pathways to Social Class:A Qualitative Approach to Social Mobility. Oxford: Clarendon Press.

مجموعة من الأوراق العالمية تعتمد على مناهج تاريخ الحيـــاة لاستكـــشاف العمليات بين الأجيال داخل العائلات.

Bjerrum Nielsen, H. and Rudberg, M. (1994) Psychological Gender and Modernity. Oslo: Scandinavian University Press.

الكتاب الأول من سلسلة من المطبوعات القائمة على دراسة للنوع في ثلاثة أجيال فى النرويج. ويشمل مناقشة نظرية مطولة.

Rosenthal, G. (1998) The Holocaust in Three Generations: Families of Victims and Perpetrators of the Nazi Regime. London: Cassells.

مثال قوى للتاريخ الاجتماعى يوظف نماذج تحليلية وسردية فى استكـــشاف العمليات العائلية بين الأجيال، ويوظف المجاورة كآليـــة لفهـــم تعقيـــد اللحظـــات التاريخية.

Brannen, J., Moss, P. and Mooney, A. (2004) Working and Caring over the Twentieth Century: Change and Continuity in Four-Generation Families. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

دراسة تجريبية لأربعة أجيال من العائلات فى المملكة المتحدة

٧
إعادة الزيارة

كُلِّية أى شىء.. لا يباح بها أبدا.

(هنرى جيمس Henry James، فى الأصل توكيد)

البحث الكيفى يتطلب توثيقا شاملا وانتباها دقيقا لكيف، وفى أيـة ظـروف، أنتجت بيانات البحث. وتدعو المناهج الانعكاسية، على وجه الخصوص، إلى تأمـل مستمر لعملية البحث نفسها. أيا كان المنهج، أو الإطار الزمنى أو الموضوع، فـإن البحث الكيفى يولِّد بناء عليه كمية ضخمة مـن المنتجـات البحثيـة- ملاحظـات ميدانية، ونسخًا كتابية، وتسجيلات بالصوت والـصورة، وصـورًا فوتوجرافيـة، وتذكارات، ومسودات، وأوراق عمل، وملخـصات للحالـة، ومـصادر توثيقيـة، وقراءات معاصرة، والمنشورات النهائية من أوراق وكتب وتقارير. وقيمة كل هذه الوثائق يحكم عليها بشكل عام بناء على ما تقدمه لتخطيط وتحليل وكتابة الدراسـة فى "زمن بحث" المشروع. ولكن، من زاوية أخرى، توفر فرصة ممتـازة لرؤيـة كيف يتطور التطبيق البحثى وعمل الباحثين. ويمكن لهذه الوثائق أن تمدنا بـصورة "وراء الستار" لكيف تتحقق مناهج البحث، فى الوقت المليء بالفوضى والشك الذى قد يسبق، بل وقد يصحب، الأوراق الحرفية المنشورة. واعتمادا على متـى وأيـن تجرى مراجعة منتجات البحث، يمكن وضعها فى إطار يوفر نظرة علـى مرحلـة تاريخية أخرى، والأسئلة والألغاز التى حركت عمل الباحثين حينئذ. ومن الممكـن أن تصبح أيضا مصدرا لأبحاث تالية، وأن يقوم آخرون بإعادة استخدامها، أو يقوم

بذلك الباحث الأصلى، وهو يعمل فى مكان ووقت آخرين، مما يضيف أسئلة جديدة إلى الدراسة الأصلية. وقد قال هنرى جيمس: "إن كُلِّية أى شىء لا يباح بها أبــدا" (Henry James, 1981: 18). إن ثراء وقيمة البحث الكيفى لا يستهلكان تمامـــا أو يحاط بهما كاملا فى قراءة واحدة أو رواية واحدة، ولا فى مرة واحدة.

فى هذا الفصل، نتأمل نوعين من أبحاث العودة إلـــى الزيـــارة- دراســـات المتابعة وأرشفة وإعادة تحليل الدراسات البحثية- ونتأمل الفوائد والمآزق النابعـــة منهما. تشمل دراسات المتابعة تلك الدراسات التى يستعرض فيها الباحث الأصـــلى دراسة سبق له أن أكملها من خلال تصور زمنـــى ومفهـــومى مختلـــف، أو يمـــد الدراسة الأصلية بموجة أخرى من البحث، أو يعود فيما بعد إلى موقع البحـــث أو يتابع المساهمين فى البحث- وسوف نناقش مثالا لهذا النوع الأخيـــر فـــى دراســـة الحالة الأولى. أما دراسات المتابعة فتشارك البحث الطولى فى بعـــض الـــصفات المميزة، حيث إنها تؤكد مقارنة بين أزمنة مختلفة، ولكنها قد لا تكون مرتبـــة فـــى الأصل لمتابعة التغيرات عبر الزمن. ولهذا فمن المحتمل أن تكون أهداف العـــودة إلى مجموعة البحث أقل والتغيرات الملاحظة بين مرحلتى البحث قد تحمل مفاجآت أكثر. والسبيل الآخر، أرشفة البيانات وإعادة استخدامها، تشمل إعادة تفسير دراسة على يد باحث/ ين (تحليل ثانوى) لم يشارك فى دراســـة البحـــث الأصـــلى، وقـــد يستخدم البيانات لأغراض مختلفة عن تلك التى هدفت إليهـــا الدراســـة الأصـــلية. والتحليل الثانوى "مشهور كمنهجية لعمل بحث باستخدام بيانات إحصائية موجـــودة مسبقا" (Heaton, 2004: 1). ومنذ أواسط سنوات ١٩٩٠، كان هناك اهتمام متزايد بإعادة استخدام بيانات الدراسات الكيفية، مصحوبة بمناقشات يتزايد استقطابها فيمـــا يتعلق بالتحديات الأخلاقية والمنهجية للتحليل الثانوى (Moore, 2007; Temple et al., 2006). ونحن نبحث هذه المناقشات بالإشارة إلى دراسة الحالـــة الثانيـــة لنـــا، تحليل ثانوى لبيانات المقابلة حول نظرة الناس إلى الطبقة الاجتماعية. ومع كل من

دراسات المتابعة والتحليل الثانوى، نجد أن كيفية إجراء أرشفة المواد من الدراسة الأصلية لها نتائج مهمة على المعنى الذى يمكن استخلاصه فيما بعد منها.

لماذا إعادة الزيارة أو أرشفة الدراسات الكيفية؟

هناك اهتمام يزدهر بالعودة إلى زيارة الدراسات البحثية بعد إجرائها لأول مرة ببعض الوقت، وهذا الاهتمام يدفع إليه أسئلة تاريخية ومقارنة على السواء. ما مدى الاختلاف الذى طرأ الآن على ما جرت دراسته حينئذ؟ كيف يمكن للعودة إلى دراسات سابقة أن يساعد فى فهم تميز الحاضر؟ أى أنماط من التغير التاريخى والاجتماعى سوف يُكشف عنها؟ هناك أيضا الاهتمامات المنهجية: كيف نقرأ ونعيد تفسير دراسات اكتملت فى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة، وحتى لأغراض مختلفة (Bornat, 2005; Thompson, 2000)؟ إن هدف إعادة زيارة دراسة أو متابعة مجموعة من المشاركين فى بحث قد يكون جزءا من تصميم الدراسة الأصلى، ويصوغ طريقة تخطيط مراحل البحث وكيفية وضع مفاهيم أسئلة البحث ومنهجه.

وسواء كانت إعادة زيارة الدراسات الكيفية مخططة مقدما أو تقررت بعد اكتمال الدراسة الأولى، فهى تقدم الكثير من المنافع للباحثين الذين يعملون فى الحاضر. فعند الأرشفة، تصبح مثل هذه الدراسات مصادر بالغة القيمة لإجراء تحقيق تجريبى وتاريخى عن التغير الاجتماعى. والأمر كذلك حتى لو لم تكن قضايا التغير فى مركز صريح للدراسة الأصلية. فالعودة إلى الدراسات بعد فترة من الوقت يجلب المقارنة إلى المقدمة. والمواد المؤرشفة من دراسة معينة- الملاحظات الميدانية، والمقابلات، والتحليلات، والأهداف، وهلم جرا- تمثل سجلا لهذا المشروع، وحتما، حتى لو كان على نحو ضمنى، تمثل سجلا بالسياق التاريخى والاجتماعى للدراسة الأولى. إن العودة إلى الدراسات السابقة يلقى ضوءا

مقارنا وتاريخيا على موضوعات معاصرة، وعلى نوع الأسئلة والاهتمامات التي تؤطر الدراسات (مثلا، Gillies, 2008). وبالإضافة إلى ذلك، فهي تقدم نظرات متبصرة إلى تطبيقات البحث المتغيرة والأجندات المعدلة في النظرية (,Savage 2005, 2007a; Thompson, 2000) وتساعد ببناء المزيد من الحكايات التأريخية لتطور واستخدام المناهج الكيفية.

والموضوعات التي نستكشفها في هذا الفصل تعيد الاتصال بمناقشاتنا السابقة عن الذاكرة والتاريخ. فتطبيقات الأرشفة تشترك في الإنتاج الاجتماعي للذاكرة الجمعية والفردية وتنظيم الماضي. ومن المحتم أن العودة إلى الدراسات تثير التأمل في عمليات ومعايير اختيار وعمل أرشيف والمناهج التي ولدت مواد البحث في الأساس. كما أنه يشجع على مراجعة نمط التفسيرات التي صنعت من الدراسة الأولى، وكيف أن كلا من مواد البحث وتفسيراتها مركبة كـ"دليل" أو "قصص" من زمن لولاها لكان ضائعا. وكما يقول مايك سافيدج (2005)، العودة إلى الدراسات المؤرشفة يدعو إلى التأمل في عملية البحث نفسها وفي كيف يوظِّف الباحثون المناهج ويبنون المعرفة.

وفي الحاضر، تجري أرشفة دراسة بحثية، كما تؤرشف المنتجات البحثية والوثائق بشكل عام، من منظور حفظ السجلات من أجل الاستخدام المستقبلي، ومع الوضع في الاعتبار أن الحاضر سوف يتحول إلى ماض. والأسئلة التي تختص بما الذي يحفظ أو يستبعد أو يعتبر ثانويا، وكيف تُنظم المواد، وتدون وتحول (من تسجيلات شفاهية إلى نص مكتوب)، وتخزن (على شكل ديجيتال أو "نسخة صلبة")، ونمط الأشياء التي أُرشفت (صوت، صورة، نص مكتوب) وشروط الاستخدام، كل هذه أشياء عملية على أحد المستويات. ولكنها أيضا تتصل بعمق بصناعة التاريخ والقصص التي سوف يصبح، في المستقبل، من الممكن روايتها

عن الحاضر. وكما يحذرنا بول ريكوير، مرددا تحذير بيير نورا "أرشف كما تشاء: مهما فعلت فهناك شيء سوف تسهو عنه" (169 :2004).

والأرشيفات أماكن ومؤسسات اجتماعية لتخزين وتنظيم المواد، وهذا يجعلها تحتفظ بدور قوى فى صناعة وتوصيل المعرفة التاريخية، وتأطير الكيفية التى يدخل بها الماضى فى الحاضر والعكس بالعكس (Ricoeur, 2004: 167-8). تدير الأرشيفات ما هو أكثر من السجلات للاستخدام المستقبلى؛ إنها تعمل على منع وكذلك إتاحة بعض القصص وليس الأخرى. والمؤرشفون يشعرون بالتوتر لرغبتهم فى أرشفة أكبر قدر ممكن، ومعرفة الفراغات والحذوف التى يتعذر اجتنابها. وقد يريد الباحثون بعض القصص أو المواد المحفوظة بدلا من غيرها، ومعالم تلك القرارات وما يرافقها من منع وتضمين قد لا يكون واضحا بشكل مباشر أو ربما يمحى من سجل الأرشفة. وبالإضافة إلى ذلك، تحمل الأرشيفات الآثار البيوجرافية للباحث الأصلى. وهذه الآثار قد تخفى، أو تبهت، أو تتضح، ويبدو ذلك واضحا فى نمط الأسئلة التى سئلت، واختيار المنهج، وأسلوب التحليل. لكن هناك أيضا مسألة الاستثمارات العاطفية للباحث الأصلى- ازدواجيتها، ومناطق ضعفها وشكوكها، والأسئلة حول كيف أو إن كان هذا يمكن القبض عليه فى مادة مؤرشفة. كيف يدمج المرء هذا الاتجاه الدال على الذاتية الجماعية للبحث فى إعادة تحليل دراسة، هو مأزق متنام لإعادة الاستخدام، كما هو بالنسبة للباحثين الذين أرشفت دراساتهم وأعيد تحليلها على أيدى آخرين: ما الذى سوف تكشفه الأرشفة وإعادة التحليل فيما يختص بالباحث الأصلى؟ سوف نعود إلى هذه القضايا فيما يلى.

دراسات المتابعة

تقدم دراسات المتابعة نظرة متبصرة مدهشة بشكل خاص في العمليات الاجتماعية عند نقاط مختلفة من الزمن. إن الفضول و"الاهتمام الإنساني" يقودان الرغبات في كشف ماذا حدث للناس منذ جرت دراستهم آخر مرة، أو الظروف الاجتماعية التي يعيشون فيها، أو الأسئلة الإطارية التي كانت مدادا للدراسة: ما الذي اختلف؟ وما الذي بقي على حاله؟ إن الأسئلة المقارنة تبني داخل الدراسات عبر- الأجيال التي تسمح للباحث برؤية التغير الجيلي وهو يحدث، وليس على نحو استعادي. ففي الدراسات الإثنوجرافية، وخاصة تلك التي أجريت وكتبت على مدى فترة زمنية ممتدة، كما رأينا في دراسة الحالة لطقوس الزواج، يمكن للأسئلة حول ما الذي تغير منذ أجري العمل الميداني أن تلح على أطراف التحليل. ولكن الإطار الزمني للبحث يجهز لمراقبة الزمن المعاش لواقعة البحث- الزمن الخاص بالإخباريين وبالباحث- والملاحظات الخاصة بالتغيرات منذ اكتمال البحث الإثنوجرافي عادة تتجاوز أو تضيف إلى العمل الميداني الأولي. ولكن الأبحاث الإثنوجرافية، لأنها تعطي ملاحظات تفصيلية لما يحدث في وقت ومكان معينين، تقوم مؤقتا بـ"تجميد" ذلك الحاضر، مما يقدم فرصا قيمة للغاية للعودة إلى الزيارة.

عندما تجري دراسات المتابعة على يد الباحث الأصلي، فإن الأسئلة حول سياق الدراسة الأصلية، والتي تحيط بالتحليل الثانوي وإعادة استخدام البيانات، تكون ذات ترتيب مختلف. والحق أن تفصيل السياقات المختلفة لموجات البحث المتعددة من المحتمل أن تكون جزءا من بؤرة الدراسة. وعلى سبيل المثال، كتاب هوارد ويليامسون "العودة لزيارة أولاد ميلتاون **"The Milltown Boys Revisited** **(2004)** هو دراسة متابعة لمجموعة من الأولاد يعيشون في ظروف مضطربة في منطقة سكنية لمدينة صناعية بريطانية، والذين أجرى المؤلف بحثه الإثنوجرافي

الأول معهم فى أواسط العقد ١٩٧٠. يعود وليامسون لزيارة هؤلاء الشباب بعد ٢٥ عاما، ويقوم بالمزيد من العمل الميدانى فى نفس المجتمع مع عدد كبير من الأولاد فى الدراسة الأصلية. ويضع وليامسون جداول بيانية بتفاصيل ثرية لظروف حياة الأولاد فى الفترات المختلفة، واصفا ذلك بأنه "دراسة تجريبية بلا حياء، تمرين صادق تماما فى 'النظرية الأساسية'" (p. 23). والفترة الزمنية بين فترتى العمل الميدانى، والتركيز المقصود على كيف تكشفت الأشياء على فترة ممتدة من الزمن، "تتحدى ضمنيا (رغم أنها من نواح أخرى، تؤكد أيضا) فرضية التهميش والإبعاد التى قدمها الباحثون الشباب، فهى بنفس القدر شهادة على سهولة تكيف الكثير من "الأولاد" (ضد التحيز) كما أنها دليل على أن الظروف غير المواتية للشباب تتحول، بلا رجعة، إلى تهميش اجتماعى واقتصادى" (p. 8، فى الأصل توكيد).

ودراسات المتابعة الأخرى لا تعود إلى دراسة سابقة بالضبط، ولكنها تعيد زيارة جماعة أو جيل كان المؤلف من بين أعضائه، كما فى حالة كتاب شيرى أورتنر: نيوجيرسى تحلم: المال، الثقافة والطبقة فى عام ٥٨ Sherry Ortner, (2003) **New Jersey Dreaming: Capital, Culture and the Class of '58**. وكانت أورتنر تشعر بفضول لرؤية ما حدث لزملاء وزميلات دراستها من الدفعة الدراسية لعام ١٩٥٨، فى مدرسة ويكواهيك العليا، بنيوجيرسى. وكأنثروبولوجية خبيرة، قررت أن توجه نظرتها الإثنوجرافية إلى مجتمعها وأبناء جيلها، لتتابع رحلات حياتهم، منذ المدرسة العليا حتى أواسط العمر. أرادت أن تفهم التغيرات الاجتماعية التى صاحبت حياة زميلاتها، والدلالات التاريخية والثقافية الأوسع لخبرات سيرتهم الذاتية، خاصة وضعيتهم الطبقية. قامت أورتنر بالمسح، ومقابلة زميلاتها، اللائى قمن بدور "الإمداد بالمعلومات من المذكرات فى مقابل عالم أكبر كن يجسدنه، ويمثلنه، أو فى بعض الأحيان يقاومنه" (Ortner, 2003: 8). وقد احتجت بأن الفصل الدراسى لعام ٥٨ كان يمثل مجموعة جيلية ناجحة بشكل غير

عادى ومتحركة لأعلى. ورغم أنها لم تسقط من حسابها تأثير الوساطة الفردية، تحلل حركة هذا الفصل باعتباره متصلا على نحو مباشر بوقع الحركات الكبرى فى المجتمع والهوية أثناء النصف الأخير من القرن العشرين، خاصة حركة الحقوق المدنية، والحملات ضد معاداة السامية، والنسوية.

دراسة الحالة الأولى لنا، كتاب لويس وايز لعام ٢٠٠٤ جمع شمل الطبقة Class Reunion، هو دراسة متابعة إثنوجرافية، موقعها فى الولايات المتحدة وتهتم بنفس القدر بالتغيرات فى الأوضاع الطبقية. هذه المناقشة أيضا مبنية على الموضوعات المنهجية التى أبرزت فى فصلنا السابق حول التحقيق الإثنوجرافى.

إعادة زيارة الطبقة العاملة البيضاء الأمريكية: ١٩٨٥ إلى ٢٠٠٠

فى عام ٢٠٠٠-٢٠٠١، عادت لويس وايز إلى مجموعة من الرجال والنساء البيض الذين يعيشون فى فريواى، وهى بلدة يتسارع فيها انخفاض التصنيع، فى شمال شرق الولايات المتحدة، وكانت قد سبق لها بحثها قبل ١٥ عاما فى ١٩٨٥، وحينئذ كان المشاركون فى سن المراهقة فى السنة الثالثة من المدرسة العليا. وكانت تلك الدراسة الأولى "تحقيقا إثنوجرافيا كاملا لمدرسة ثانوية للطبقة العاملة البيضاء" (2004: 1)، وفيها استكشفت وايز "تشكيل الهوية بين الطبقة العاملة البيضاء الأمريكية، الطلبة من الذكور والإناث، فيما يتعلق بالمدرسة، والاقتصاد، والأصول العائلية". ووجدت أن "النساء الصغيرات يظهرن ما أسميه 'وميض من النقد' فيما يختص بالأدوار التقليدية للنوع فى العائلة البيضاء من الطبقة العاملة، وأن الشباب من الرجال قد أصبحوا فى سن مواتية لـ وعى حقوقى جديد، إذا وضعنا فى الاعتبار علو نغمة العنصرية لديهم والموقف الذكورى المسيطر فى

اقتصاد لا يقدم لهم إلا القليل" (p. 3). ومن تلك الدراسة الأولى، حددت وايز مجموعة من الطلبة السابقين، والذين أصبحوا الآن راشدين فى الثلاثينيات من أعمارهم، معظمهم لا يزالون يعيشون فى أو على صلة بمجتمع فريواى، وأعادت إجراء المقابلات معهم حول حياتهم منذ ترك المدرسة، مع الاهتمام خاصة بالعمل، والحياة العائلية، والتطلعات والقيم. ويقدم الكتاب نظرة واقعية داخل العلاقات الطبقية المعاصرة، وكذا الإستراتيجيات المنهجية والمفاهيمية لبحث عملية التغير الاجتماعى المعقدة والمتناقضة (pp. 185-92).

ومن بين ٤١ من الطلبة والطالبات البيض الذين شاركوا فى دراسة ١٩٨٥، أعادت وايز مقابلة ٣١، وواصلت على نحو عرضى نسبيا مراقبة المشاركين – فى بيوتهم أو أماكن عملهم، أو البارات أو المقاهى المحلية حيث جرت المقابلات. وفى كل من دراسة ١٩٨٥ و٢٠٠٠، قابلت وايز عددا صغيرا من الملونين، ولكن هذه المقابلات ليست محل بؤرة الكتاب، رغم أن وجود "الآخرين" يتخلل المقابلات ونظرة المشاركين البيض من الذكور والإناث لأنفسهم. وكنوع من التذكير فى مقابلات ٢٠٠٠، أحضرت وايز نسخة من الكتاب السنوى فى المدرسة الثانوية للمشاركين ونسخة من مقابلتهم فى عام ١٩٨٥. وقد أجرت المقابلات كلها بنفسها "واستنتجت بسرعة أن جزءا من 'سحر' المقابلة يكمن فى حقيقة أننى قد عملت معهم قبل خمسة عشر عاما" (pp. 187-8).

وتقدم وايز تفاصيل دقيقة ودالة حول كيف انتقلت من جمع البيانات إلى التحليل. كانت اللقاءات مسجلة على شريط تسجيل، وتجمع ثم ترتب باستخدام برنامج سوفت وير كيفى. كانت قواعد ترتيب الفئات قد استقرت بعد قراءة وايز حوالى ربع المخطوطات عبر النوع، وأصبحت قواعد هذه الفئات "تصنيفات من خلالها يمكن تقدير البيانات وتحليلها" (p. 188). وأضيفت "قواعد فئات الترتيب

المتطورة تجريبيا إلى نظام قواعد نظرى" وضمنت موضوعات من مثـل "العائلـة أثناء النمو"، "علاقات عرقية"، "رغبة للمستقبل"، "الـزواج" (p. 188). وبعـد هـذه العملية المبدئية لتصنيف الفئات المختلفة، "أعيد تجميعها" فى حوار مـع مجموعـة الأعمال البحثية والنظرية الأخرى لإنتاج النص النهائى. وكما مـع شـرح ديانـا ليونارد Diana Leonard لمنهجها فى تجنيد ومقابلـة المـصادر فـى دراسـتها الإثنوجرافية (والتى نوقشت فى الفصل الخامس)، ترينا مثـل هـذه التوصـيفات الإجـرائية الخطـوات التى جـرى بها البحث، والانتباه إلى التفـاصيل المطلوبة لوضع التفسيرات.

يقدم الفصلان الأولان تحليلا وصفيا لنتائج الدراسة الأولية، اعتمـادا علـى المواد المأخوذة من عدد كبير من المشاركين. ويقوم هذا بدور الخلفية للمناقـشات التى تطورت عن دراسة المتابعة ووضع سياق الرؤى المقارنة. والفـصول التـى تعتمد على دراسة عام ٢٠٠٠ (الفصول ٣-٦) تستخدم تقنية مختلفـة، باسـتخدام "بيانات كثيفة" من "الأفراد الذين أرى أنهم رمز للاتجاهات المهمة". وتتخذ الفصول الأخيرة على نحو أكثر صراحة موقف "تنظيـر مكثـف" بالنـسبة لــ"البيـاض، والذكورة، والأنوثة، والاقتصاد الجديد" (p. 16).

كان المقصود بالدراسة أن تكون أكثر من مجـرد قـصة ٣١ فـردا: إنهـا "استكشاف، تجريبى وطولى، لإعادة صنع الطبقة العاملة البيضاء الأمريكيـة فـى الربع الأخير من القرن العشرين" (p. 2). وهناك خلاصة تضع إطارا للموضـوع وهى أن" الهويات تبنى عبر الزمن وفى علاقة بالهويات المبنية للآخـرين، مثلمـا تبنى جدليا فيما يتعلق بالاقتصاد والثقافة الأوسع" (p. 190). وضد الادعاءات التـى تقول إن الطبقة العاملة قد تراجعت كثيرا، تؤكد وايز أن الطبقة العاملة البيضاء قـد "أعادت التعبير عن نفسها كشريحة طبقية متميزة" على علاقة بـ"تغييرات هائلة فى

الاقتصاد الكوكبى" وفى تفاعل مع تركيبات النـوع، و"الآخـر" العرقى والثقـافى (p. 3). وتبنت وايز بؤرة مزدوجة، أولا بفحص التشكيلات فى فترتين مختلفتـين، وبالحركة إلى الخلف والأمام بين الاثنتين لبناء تحليل عن التغير قائم على المقارنة الإثنوجرافية؛ وثانيا، بتبنى نوع من "التغليف" المنهجى الذى يمكننى من التنقل بـين القوى الاجتماعية الأكبر والحياة 'على الأرض'" (p. 15).

تصف وايز منهجها بأنه "إثنوجرافى طولى" (p. 2)، وأنـه مقاربـة تتـابع "التفاعلات والعلاقات عبر الزمن، وتدفعنا لتغيير نظرتنا من قطع مرسـومة فـى نقطة واحدة من الزمن، إلى تلك المرسومة فى نقطة أخرى" (p. 190). وهو أيـضا منهج قد توطد بمرور الوقت، وتشكل استعاديا. وكما أن العنصر الطولى للدراسـة لم يكن مخططا فى وقت الدراسة الإثنوجرافية الأصلية، فقد تطورت نماذج منهجية جاهزة وعقلانية عقب ذلك لاستقبال الطريقة التى نشأت بها الدراسة. هـذا يعيـد تعيين أهمية الدراسة الإثنوجرافية الأولية. فهى تحوز صفة زمنية صـريحة تعيـد طرح نتائجها فى ضوء مختلف ومقارن حتما، يشير إلـى كيفيـة نـشأة المنـاهج استجابة للتطبيقات البحثية المنبثقة.

وتصف وايز مقاربتها أيضا بأنها نموذج لـ"دراسة تركيبيـة" (pp. 14-15; 189-90)، والتى تقول عنها وايز وميتشيل فاين **Michelle Fine**، التى تتعاون معها كثيرا، إنها "نظرية لمنهج فيه تحليل المؤسسات العامـة والخاصـة، والجماعـات، والحياة، تستقر مرتبطة بالهياكل الاجتماعية والاقتصادية المهمـة" (p. 14). وهـذا التوجه المنهجى- المتأثر باللغة المفهومية للفنون البصرية- يعتنى بكل من الحيـز "الإيجابى" (الإحالة الرئيسية) و"السلبى"، لتركيبة ما، وبالحدود القائمة بينهما. "مثـل الفنان، أستكشف بوضوح المساحات السلبية التى تقوم بدور جسر التوصيل داخـل التركيبة، وأسبر عن عمد العلاقات بين الحيزين 'السلبى' و'الإيجابى'، وأفهم فـى

كل الأوقات أن 'الإيجابى' لا وجود له إلا فى علاقة مع 'السلبى'" (p. 14). وترى وايز أن البحث الإثنوجرافى الطولى يفعّل هذه الطريقة بقوة معينة؛ لأنه يسمح للمرء بفحص نقطتين فى الزمن بالتفصيل، ومتابعة الصلات والانقطاعات عبر الزمن. وهو يتيح للمرء أن يرى كيف أن "التشكيلات الكوكبية والقومية والتفاعلات بين العلاقات تسرى خلال الحياة، والهويات، ومجتمعات الشباب والكبار، وفى النهاية ترد إلى الخلف التشكيلات الاجتماعية الأكبر التى كانت سببا فى قيامها أصلا" (pp. 189—90). الإثنوجرافية الطولية لها القدرة على إلقاء الضوء على التحولات والمآزق عبر الزمن فى الأفراد، وكذا فى الخلفيات المحلية/ الكوكبية التى يعيشون فيها (مثلا pp. 163—5).

العرق، والطبقة، والنوع الاجتماعى- التغيرات والاستمراريات

إن المفهوم العام للدراسة يحمل تراث التقاليد النسوية، والنقدية، والمضادة للعنصرية، مع عناصر من نشاط المشاركة والبحث الدفاعى (انظر على وجه الخصوص الفصل السابع وصفحات 184-179). وتتخذ الدراسة موقفا محايدا من مجادلات البنية/ الوساطة بكشف أنماط الاستغلال الدائمة بينما تبين كيف أن هذه الأنماط قد تتغير ويعاد تعريفها عبر الزمن وكيفية مساهمة الأفراد والجماعات فى طرق معقدة فى عملية إعادة الصنع هذه: "بينما الطبقة قد تتحمل نفس البصمة طويلة المدى، فليس من الضرورى أن تفعل ذلك بنفس الطريقة" (p. 8).

وسوف نتابع تغييرين مهمين حدثا بين الدراستين. **الأول**، فى دراسة عام ١٩٨٥، وجدت وايز أن "الهويات النمطية للإناث والذكور من الطبقة العاملة البيضاء كانت على طريق تصادم، فالأولاد يؤكدون بشدة علاقات الهيمنة الذكورية فى البيت، والبنات يعرضن تحديا لهذه العلاقات بطرق ذات دلالة" (p. 69). كانت

البنات يتخيلن حياة مستقبلية تتسم باستقلالية أكبر، مستقبل لا يحدد مباشرة بناء على الزواج. وفي دراسة عام ٢٠٠٠، ظلت النساء "في حالة من الحيوية تطلعا لإمكانية حياة مختلفة بدرجة كبيرة عن تلك التي عاشتها أمهاتهن وجداتهن" (p. 114)، وكثيرات من اللائي أجريت معهن المقابلة حققن بعض رموز الحرية التي كن يتمنينها في سنوات مراهقتهن– مزيد من الدراسة، مؤهل علمي، درجة من الاستقلال الاقتصادي. ولكن قصص الاستقلال والتغير تلك، صناعة النسوية والاقتصاد المعاد بناؤه، كانت موجودة جنبا إلى جنب مع بعض الأخطار ونقاط الضعف العنيدة. ففي حياتهن الخاصة نفس هؤلاء النساء "الناجحات" لم يستطعن النجاة من السلطة البطريركية والعنف الرمزي والجسدي، عادة من الزوج أو الخليل. واستمرت العلاقات بين النوعين تسير على الطرائق المألوفة المريعة. واستنتجت وايز أنه بالنسبة لهؤلاء النساء "لم تكن لحظة النقد المعاشة قادرة على تغيير كل ما يحدث في المجال الخاص تغييرا كاملا" (p. 134).

ثانيًا، في دراسة عام ١٩٨٥، بينما كان ذكور الطبقة العاملة البيضاء يبنون هوياتهم بإلحاح في علاقتها مع وضد "آخرين" مختلفين عرقيا، لم يكن ذلك إستراتيجية شائعة بين المناظرات من الإناث البيض. وفي دراسة عام ٢٠٠٠، كان ذكور الطبقة العاملة البيضاء لا يزالون "يعتمدون على هويتهم الجمعية في مرحلة الشباب لكي يستمروا في حراسة الحدود العرقية وتأكيد تفوقهم الخاص أمام كل هؤلاء الذين ليسوا من البيض" (p. 163). وفضلا عن ذلك، في "اقتصاد هش دائما" والذي يزداد تعرضهم فيه للبطالة والتهميش الاقتصادي، يفترض هؤلاء الرجال البيض "هيمنة رمزية" بتأكيد موقف قديم يتميز بـ"عنصرية وتراتبية للنوع"، موقف هو نفسه غير مستقر ومعرض للتحدي (p. 74). ولكن المثير للدهشة أن نساء الطبقة العاملة البيضاء في عام ٢٠٠٠ كن يعبرن عن دعاوى مشابهة بتفوق البيض والحاجة للحفاظ على الحدود بين الجماعات العنصرية. تفكر النساء:

لقد بدأ العرب يكثرون. ويبدو أنهم يستولون على الولايات المتحدة كلها. إنهم يسودون فى كل مكان... العرب الآن يعيشون فى هذا الجانب من المدينة. على الناصية، فى الشارع الآخر... إنهم فى كل مكان الآن... كما حدث أن استولوا على الجناح الأول [جزء من الضاحية]". (Sandy, p. 158).

وهناك كل السود والعرب. لقد خرج الأمر تماما عن التحكم... لماذا يحتشدون جميعا؟... هناك الكثير جدا، كما تعلمين، من العلاقات العرقية. إنها فوضى. والطلبة السود كلهم يقيمون علاقات مع بنات بيض. (Chris, p. 159).

كيف تساعدنا "الطولية الإثنوجرافية" على فهم هذه التغيرات فى تحديد الهوية والحدود العرقية؟ تؤكد وايز أن هذا يمكن تفسيره جزئيا بمسارات الحياة، التى تلتقطها دراستها المتابعة فى نقاط تغير رئيسية. فعند نقطة الوصول إلى سن الرشد وآمال امتلاك بيت وأطفال، تجمع نساء الطبقة العاملة البيضاء قواها مع زملائهن من الذكور البيض (p. 162). وهذا يزيد من تعميق عقلية "نحن وهم"، ويجسد ما لا يمكن إذابته من شخصية الطبقة، وعلاقات النوع والعرق، حتى بينما يعاد توضيحها فى ظروف تغير اجتماعية واقتصادية دراماتيكية. وهكذا، فإن وايز تؤكد أن الطبقة "تتجمع من جديد حول العرق، ... وجزاء أن يكون المرء أبيض، ... يمكّن هؤلاء الرجال والنساء من بناء والتمسك بشريحة طبقية جديدة بيضاء من الطبقة العاملة رغم احتمالية التأثيرات المقلقلة للاستقرار لإعادة توضيح أدوار النوع وعلاقاته داخل هذه الشريحة الطبقية، وكذا التحدى الأساسى لإعادة بناء الاقتصاد العالمى" (p. 164).

في مناقشتنا السابقة حول المناهج الإثنوجرافية، ذكرنا التحديات الخاصة بـ"الحاضر الإثنوجرافي". فالتوصيفات الكثيفة للحاضر يمكن أن تثير إحساسا بثقافة أو حدث متجمد في الزمن، التقطت صورته مرة لا غير، وظل أسيرا إلى الأبد في التمثيل الإثنوجرافي. وإعادة زيارة دراسة إثنوجرافية تثير قضية الزمن والصيغة الزمنية وتضعها في المقدمة. وفي إعادة الزيارة وإضافة موجة أخرى من البحث، حاولت وايز أن "أنهمك بنفسي وبالقارئ في حركة عبر الزمن"، وبفعل ذلك "أقوم بتفجير وفتح 'التجمد' المميز للأبحاث الإثنوجرافية التي أجريت في نقطة معينة من الزمن" (p. 190). ولكن، رغم انتقادات حدود "الحاضر الإثنوجرافي"، فإنه في دراسات المتابعة مثل دراسة وايز، نفس "الكثافة" الخاصة بالرواية الإثنوجرافية الأولية لحاضر معين (أصبح الآن ماضيا) تمد بأرضية العمل لبناء المقارنات. وفي هذه الحالة، كانت نقطة الانطلاق لبحث العلاقات الاجتماعية في حالة الانتقال، وقد أظهرت دراسة المتابعة قدرتها الكامنة على إلقاء الضوء على الحركة والتغيرات عبر الزمن.

ومن الممكن أن تكون هناك أنواع أخرى من "إعادة زيارة" البيانات، كما يحدث عندما لا يكون الباحث صاحب الدراسة الأصلية، أو ممن قاموا بها. وتعتمد نوعية وعمق إعادة الارتباط أيضا على مدى العمق الذي وثقت به الدراسة الأصلية، القرارات التي اتخذت حول ما ينبغي حفظه، وكيف جرت أرشفته. والمواد الأرشيفية للدراسات الكيفية تجعل من الممكن العودة إليها وإعادة تفسيرها على أيدي باحثين يعملون في أوقات وأماكن مختلفة.

أرشفة البحث الكيفي: الأخلاقيات، والتطبيقات، والإمكانات الجديدة

يأتى الاهتمام بالأرشفة وإعادة استخدام الدراسات الكيفية من الكيانات التمويلية، ووكالات البحث الدولية، والباحثين أنفسهم. ترغب المنظمات الممولة فى تعظيم استثمارها فى البحث، وضمان تداول النتائج ومواد البحث على نحو أكثر اتساعا. فى المملكة المتحدة، يطلب مجلس الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية (Economic and Social Research Council [ESRC]) الآن من المشروعات التى يمولها أن تجعل الدراسة البحثية متاحة للأرشفة، ولدعم ذلك يقوم بتمويل خدمة البيانات الاقتصادية والاجتماعية (Economic and Social Data Service (ESDS))، على موقع كوليداتا Qualidata (www.esds.ac.uk/qualidata/). ويفكر المؤرخ الاجتماعى بول ثومبسون، وهو يكتب فى عام ٢٠٠٠، أن باحثى البحث الكيفى كانوا مترددين على نحو نموذجى فى مشاركة الباحثين الآخرين فى بياناتهم، وأنه "بين السوسيولوجيين الكيفيين- على عكس المؤرخين الاجتماعيين- كان هناك القليل جدا من الالتفات إلى إعادة استخدام البيانات" (Thompson, 2000: 2). ومن المحتمل أن ذلك بسبب أن الباحثين الاجتماعيين يشعرون بأن المواد الخاصة بهم لن يكون لها معنى بالنسبة للناس الذين لم يكونوا مرتبطين بجمعها، وبنفس القدر، فقد يشعر الباحثون أنفسهم ببعض التردد فى إعادة تحليل دراسة قام بها شخص آخر. ولكن، هناك الآن كثير من الاهتمام بمتابعة وعرض الدراسات السابقة وفى أرشفة السجلات من أجل التحليل المستقبلى والثانوى. وهذا يفتح فرصا بحثية جديدة للدراسات المقارنة والتاريخية، ويضمن أن البيانات الكيفية الثرية لن تتعرض لقلة الاستخدام أو النسيان (Heaton, 2004; Thompson, 2000). وغالبا، يفكر الباحثون الكيفيون بسخرية فى مشكلة استخلاص المزيد من بيانات البحث،

أكثر مما يسمح لهم الوقت بتحليلها على نحو تصنيفى، وفى جزء جاد، من أن تكون لديهم صناديق وملفات من البيانات التى تحتاج المزيد من الانتباه أو يمكن أن تكون مصادر مفيدة لشخص آخر.

تشمل الدراسات الكيفية المؤرشفة كمية كبيرة من المواد: مخطوطات، وتسجيلات للمقابلات البحثية، مثل مقابلات التاريخ الشفاهى وتاريخ الحياة؛ ومقابلات حول موضوعات معينة على صلة بالعمل، أو الصحة، أو التعليم؛ وتسجيلات صوتية، وصورا، وتسجيلات ديجيتال. ومن الممكن أيضا أن تشمل المنتجات المتصلة بالمشروع مثل ملاحظات الباحث، والملاحظات الميدانية، ومذكرات موجزة خاصة بالمنهج، ومراسلات، ومواعيد المقابلات وتفسيرات منشورة أو غير منشورة (Fielding, 2004: 98-101). وتوسع قدرة استخدام الوسائل الديجيتال (الرقمية) من إمكانات الأرشفة، وتسهيل الحصول على المواد واستخدامها (Hodgson and Clark, 2007). وهناك مجال لعرض خلاق للبحث، بعيدا عن "ملف وراء الآخر" من المخطوطات نحو دمج خليط من المصادر التى يسهل فهرستها وبيان إشاراتها بما يشمل الفيديو، والصوت، والنصوص المكتوبة. وإعداد الدراسة لتقديمها على موقع من مواقع الشبكة يقدم لنا مرحلة جديدة فى المشروع، ويعزز مستوى ما بعد ذلك من التأمل فى المشروع نفسه، وحتى إدخال المشاركين من الإخباريين فى هذه العملية. وقد أوضحنا ذلك فى مناقشتنا السابقة (فى الفصل الرابع) حول الأرشفة الديجيتال (الرقمية) لمشروع اكتشاف الرشد الطولى الكيفى (Henderson et al., 2006).

ومهمة تقرير ما ينبغى أن يوضع فى الأرشيف من أى مشروع بحثى هى مهمة تنظيمية وتفسيرية كبيرة. إن ما يبدو مسألة طارئة بالنسبة للباحث الأول يمكن أن يكون مسألة أساسية فى نظر الباحثين التالين أو حتى فى نظر المشاركين

أنفسهم. وفى معظم الحالات، سوف تكون المادة قد مرت بمراحل عديدة من الاختيار، والنسخ، والتخزين، والانتخاب، وتحديد مدى أولويتها فى عملية "إجراء البحث"، وقبل أن تمر بالمزيد من التبويب لأرشفتها (Bishop, 2005; Fielding, 2004: 103-4). وفى كل مرحلة، هناك اختيارات تجرى حول أى الأمور ولماذا. وهناك العديد من الخطوط الهادية متاحة لمساعدة الباحثين على إعداد المادة للأرشفة (Qualidata: www.esds.ac.uk/qualidata/). ومع ذلك، فمثل تلك المسائل العملية والإجرائية ليس من السهل فصلها عن التحديات المنهجية، والأخلاقية، والمعرفية؛ والخطوط الهادية التكنيكية وحدها لا تتناولها على نحو كاف (Parry and Mauthner, 2004). حتى المهمة التى تبدو سهلة والخاصة بحذف الأسماء من الأصول ليست مباشرة، لأن حذف الأسماء لا يعنى أن الناس والأماكن لا يمكن التعرف عليها (Bishop, 2005; Parry and Mauthner, 2005). ونفس ثراء وخصوصية البحث الكيفى يخاطر بكشف المشاركين، حتى بعد حذف إشارات التعريف الواضحة. وهناك إستراتيجيات أخرى مثل التمييز، والإزالة أو تزييف بعض التفاصيل السياقية هى أيضا حلول خرقاء؛ لأن الكثير جدا من قيمة البيانات الكيفية، وقيمتها المحتملة لإعادة الاستخدام، تكمن فى تلك التفاصيل بالضبط. وبالإضافة إلى هذه المسائل، هناك الطبيعة المشوشة لموافقة المشارك، خاصة عندما تنتهى البيانات المؤرشفة إلى استخدامها لأغراض تختلف عن تلك المصرح بها فى المشروع الأصلى. ويتشكك بارى وموثنر (2004: 147) إن كان يمكن للمشاركين أن يفهموا بالكامل تأثير موافقتهم، بمجرد تسليم مجموعة البيانات التى كانوا جزءا منها إلى أرشيف ما.

وهناك معضلات أخرى تنشأ من الاتجاه السائد حاليا نحو الأرشفة الشاملة والمتطلعة إلى المستقبل. حسب العرف السائد، كانت المواد قد رتبت فى الأرشيف للاستعادة، موجهة بنظرة إلى الوراء، وفاعليات تقرر بعد فترة من الوقت أن مواد

أو مجموعات معينة تمثل "دراسات مهمة"، أو أنها أُرشفت كجزء من أوراق مهمة تخص فردا ما، عادة عندما يصبح عجوزا أو بعد الوفاة. وتحويل المشروعات الكيفية ما أن تكتمل إلى أرشيف- كما هو الحال فى المملكة المتحدة، حيث تتصل الأرشفة بالتمويل- يؤدى إلى بعض التشكك فيما إذا كانت كل المشروعات تستحق الحفظ. ويتصل الأمر بتكاليف كبيرة أيضا، حتى مع إتاحة التكنولوجيات الديجيتال. وبالنسبة للباحثين الكيفيين، فإن معرفتهم بأن المواد الخاصة بهم- ملاحظاتهم، مواعيدهم، مخطوطات مقابلاتهم- سوف تكون مؤرشفة، قد يؤدى إلى حثهم على نوع من الرقابة الذاتية، بل ومن الممكن أن تؤدى إلى إدخال نوع من التعديلات على المشروع البحثى، فى توقعهم لجمهور مستقبلى متخيل وغير معروف. وأخيرا، هناك أسئلة جادة لا بد من التفكير فيها حول إن كانت البيانات المؤرشفة سوف تستخدم حقا، أو إلى أى مدى، وإن كانت القرارات الخاصة بما يستحق الحفظ سوف أو ينبغى أن تحدث بعد، وليس قبل، القيام بعملية الأرشفة.

وهذه مسائل مهمة عمليا، وأخلاقيا، ومعرفيا، ولكن فى رأينا أن الفوائد التى سوف تجنى من الأرشفة والإمكانية التى تقدمها لإعادة التحليل تسوغ استمرار النضال معها. وعلى سبيل المثال، لقد أضافت الموافقة والملكية أبعادا عند الأرشفة، لكنها حاليا تناقش على مستويات كثيرة فى عملية البحث الكيفى. وبالإضافة إلى ذلك: من الممكن طبعا أن المواد الكيفية ليست كلها مناسبة بنفس القدر للأرشفة وإعادة التحليل. ويؤكد بول ثومبسون أن معظم "مجموعات البيانات الكيفية القيمة لإعادة التحليل المستقبلى، قد تكون ثلاثة أنواع: أولا، مقابلات اختيرت على أساس عينة مقنعة؛ ثانيا، مقابلات تتدفق بحرية، ولكنها تتبع شكل قصة الحياة، بدلا من التركيز الضيق على موضوعات الباحث المباشرة؛ وثالثا، عندما تكون إعادة الاتصال [مع المشاركين]، لم تعتبر ذات أهمية عملية" (Thompson, 2000: 41).

بناء المعنى عند العمل بالبحث الكيفى المؤرشف

هناك كمية هائلة من مجموعات البيانات الكمية القومية والعالمية المؤرشفة، ويمكن تعلم بعض الدروس من أنظمتها (Fielding, 2004; Heaton, 2004). إلا أنه ثمة قضايا مختلفة، منهجية وأخلاقية ومعرفية، تثور عندما نقارن الأرشفة الكيفية بالدراسات الكمية. فنقل تطبيقات الأرشفة من الأخيرة إلى الأولى قد لا يكون مفيدا (Bornat, 2005; Parry and Mauthner, 2004). وفى عمق هذا الموضوع، هناك العلاقة بين الباحث الأصلى والدراسة البحثية الأصلية، والسياق الخاص بالبيانات التى استخلصت نموذجيا فى المشروعات الكيفية. فالمعرفة السياقية فى تعريفها النموذجى: "لا يمكن أن تستمد إلا من الانهماك فى البحث فى وقت جمعه" و... "من هذا المنظور من المهم للغاية 'أن تكون هناك'، وعدم القدرة على الارتباط بالتفسير الانعكاسى حاجز أمام التحليل الثانوى" (Temple et al., 2006: para 44; see also Blaxter, 2007: para 1.3; Hammersley, 1997). و"السياق" يشمل المستويات المحلية، والقومية، والعالمية، والاهتمامات النظرية والفعلية التى كانت ملحة فى وقت إجراء البحث، ودينامية المقابلة البحثية.

يبنى البحث الكيفى على نحو مشترك إلى حد بعيد، فمعناه ينتج بالاشتراك بين الباحث والمشارك فى البحث (Denzin and Lincoln, 2005). والتفصيل الغنى للمادة يعتبر علامة على التحقيق الكيفى، ولا يمكن فصل البيانات عن السياق، وكأنها مجموعة موضوعية حرة الطفو من الحقائق ونتائج البحث. والحق أن اختيار المصطلحات فى هذه المناقشات له دلالاته المعبرة. ونفس اللفظ الوصفى "بيانات"، الذى ينزلق بسهولة من لغة العلوم الاجتماعية الكمية والموضوعية، ليس مفيدا على نحو خاص، وهناك من يجادل بأنه غير مثمر بالنسبة لفهم العمليات المعرفية والأخلاقية المرتبطة بالأمر عند العمل فى البحث الكيفى. فلفظ "بيانات"

يخلق إحساسا بأن البحث يتكون من عملية خطية دقيقة للأهداف، والمناهج، والنتائج، مع اعتبار الأخيرة هى "الحقائق والمحصلات" الموضوعية، البيانات التى يمكن وضعها بشكل كفء ومرتب فى أرشيفات، مستخلصة من السياق ومن آثار الإنتاج فى حينها (انظر أيضا، Bishop, 2007).

وهناك خطر من أن المصطلحات الخاصة بالمصادر "الأولية" و"الثانوية" يمكن أن تخلق معارضات زائفة تقلل من شأن الصلة بين المآزق والتحليل الثانوى- السياق، نسبة الأهمية، القابلية للمقارنة، إلخ- كما أنها تفسد ما يسمى بالدراسات الأولية أو الأصلية. ومع ترددات تاريخ المدرسة العليا، تُقحم المصادر الأولية على نحو ضمنى باعتبارها أكثر موضوعية وقابلية للثقة من المصادر الثانوية. ويؤكد مور أن استمرار هذه الفروق بين العلماء الاجتماعيين يتجاهل الطرق المتنوعة التى تُستخلص بها البيانات الكيفية ويعاد إعمالها: إن الفروق الزمنية بين القراءات الأولية- الأولى، الرئيسية- والثانوية- التى تأتى فيما بعد- ليست بالضرورة محددة بدقة (Moore, 2007: para 2.2). وكثيرا ما يجرى الرجوع إلى البيانات الكيفية طوال مسار أى مشروع. فتعاد قراءتها، ومراجعتها، ومناقشتها مع الفرق البحثية، وفى عروض مؤتمرية، ومع الزملاء الذين يعملون فى مشروعات ذات صلة، وفى تفاعلات مع المؤلفات البحثية، وحتى بعد سنوات يعود نفس الباحث أو الباحثين إلى استعراضها، ليس كدراسة جديدة، ولكن كجزء من ارتباط مستمر بالمشروع. ونشأة مثل هذا العمل التفسيرى يمثل مشكلة بالنسبة للحدود الدقيقة بين التحليل الأولى والثانوى. ويظهر هذا بشكل أوضح فى الدراسات الطولية، التى يتكرر فيها وضع البيانات باستمرار فى إطارات سياقية مختلفة، وحتى عن طريق أعضاء مختلفين من فريق البحث (Henderson et al., 2006; McLeod, 2003).

وفضلا عن ذلك، فإن لغة "إعادة- الاستخدام" لها مضامين مفيدة لاستخراج البيانات الخاملة وتقلل من الدور الإبداعي للباحث في إعادة التفسير وإعادة ربط المصادر. كما أنها تجنب التيارات المنهجية الرئيسية التي تنظر إلى البيانات الكيفية باعتبارها منتجا مشتركا، وليست لقية- وهي نظرة تنطبق على كل من التحليل الأولي والثانوي. فهناك، بالطبع، مخاطر من صقل ما كان غامضا في الدراسة الأولية، ومن عدم القدرة على إدراك المعاني الخفية أو مواطن ضعف الباحث. وفي إعادة التحليل، من الضروري أن نظل منفتحين على ما هي كينونة البحث أو ما يمكن أن تصبح عليه، ولكن أيضا أن ننتبه إلى نوع الادعاءات والتحليلات التي تقترحها أو تتيحها الأرشيفات في الواقع (Bornat, 2005). وبتعبير آخر، يحتاج المرء للتفاوض، كما مع البحث التاريخي، في العلاقة بين "الدليل"- المواد الأرشيفية المتاحة لبناء الحجة والتحليل- والعمل التفسيري الإبداعي لبناء المعنى والمغزى.

إعادة تعيين سياق الدراسات البحثية

بدلا من الجدل حول مزايا وصعوبات إعادة استخدام البيانات، يقترح آخرون النظر إلى المسألة ليس باعتبارها إعادة استخدام في حد ذاتها، وإنما كعملية ترتبط بإعادة تعيين السياق (Moore, 2007)، أو "انعكاسية سياقية" (Temple et al., 2006: para 5). وفي هذا الرأي، فإن "الطبيعة المتأصلة اجتماعيا للبيانات الثانوية" تتطلب "ليس فقط تحليل البيانات الأولية، ولكن أيضا تحليل السياق الذي أنتجت فيه (والذي يمكن معرفته من خلال عروض المنح، والمراسلات، ومواعيد المقابلات، والملاحظات الميدانية، والتقارير، وما إلى ذلك)". وهدف إعادة تعيين السياق ليس مجرد إعادة صنع سياق للدراسة "الأولية"، بقدر ما هو إعادة تأطير وتعيين سياق إنتاج البيانات الجديدة (Bishop, 2007: para 6.1).

ويرى مور أن فكرة أن البيانات موجودة مسبقا (أو أولية) تضفى إبهاما على كون إعادة البحث هى فى واقع الأمر مشروع بحثي جديد، وكذلك على "تعقيدات إعادة بناء البيانات من خلال مشروع بحثى جديد":

> **يمد المشروع البحثى الجديد بسياق جديد لخلق وإبراز "البيانات"، خاصة من خلال الإنتاج المعاصر للعلاقة بين الباحث والبيانات. وهكذا فإن التحليل الثانوى ليس مجرد تحليل لبيانات موجودة مسبقا؛ بل هو بالأحرى تحليل ثانوى يرتبط بعملية إعادة تعيين سياق البيانات، وإعادة بنائها. وما أن تتحول البيانات من خلال عملية إعادة تعيين السياق، فلا يتوقف الأمر على أننا الآن أصبح لدينا كيان جديد يمكن أن نطلق عليه "بيانات ثانوية"... بل إنه من خلال إعادة تعيين السياق تغير ترتيب البيانات، ومن ثم فإن التحليل الثانوى ربما أنتج- على نحو أكثر إفادة- تحليلا أوليا لترتيب مختلف للبيانات. (Moore, 2007: para 2.3).**

وكما ذكرنا أعلاه، إن البصمة الخاصة بهوية الباحث الأصلى تتخلل الأرشيف- فى الملاحظات، واختيار المواد وهكذا. وغالبا فإن المجموعات الأرشيفية منظمة حول أوراق للأفراد، مع مدخل للدراسات البحثية عبر تراجمهم الذاتية. والتحليل الثانوى يقلب هذا بشدة: السيرة الذاتية للباحث تُقرأ من المشروع المؤرشف. هويات البحث تصبح غير واضحة، ويصبح الباحث هو المبحوث، هو موضوع التحقيق. ويمكن أن ينشأ بعض الالتباس فيما يختص بما هى بؤرة إعادة التحليل: هل هى المشروع، أو الفترة الزمنية، أو الباحث. وفضلا عن ذلك، الباحث

الثانوى ليس مجرد شخص يغوص لاستخراج ما فى أعماق الأرشيف، ولكنه يضع تحت عدسة التحليل قصص الأرشيف البحثيـة، وتغطيتهـا الوجدانيـة، ونـواحى الضعف فيها، والإنتاج المشترك للمعنى وإعادة تعيين سياق الدراسة البحثية. ونذكر هنا مناقشتنا السابقة عن ملاحظات آنيت كيون (الفصل الثانى) بأن الذكريات ترتبط بـ"مراجعة ثانوية"، حيث تخلق قصصا استعادية لتناسـب الحاجـات الحاضـرة. ويمكن أن نطبق هذا بسهولة على ما يحدث على المستوى الكبير لصناعة القصص التاريخية، وعلى تفسير الأسباب التى تجعل بعض القصص لها قوتها فى مراحـل زمنية معينة. ولكن المراجعة الثانوية من المحتمل أيضا أن تـشكل كيـف يقـوم الباحثون الأفراد بالعودة لزيارة الدراسات البحثية، وإعـادة اسـتخدامها. والجـدل المنهجى حول إعادة التحليل بحاجة لأن يرتبط بأكثر من قضايا الموافقة، والسياق، والأخلاق؛ إنه بحاجة لمواجهة عناصر الذاتية الجماعية وانعكاسـاتها مـن خـلال الأرشيف وتحليله.

إن الأرشفة وإعادة الاستخدام تفتحان الطريق أمام الكثيـر مـن الإمكانـات للإبداع المنهجى (Savage, 2005). والحق أن الكثير من التعليق على البيانات يميل لأن يكون أكثر اهتماما بالانعكاسات المنهجية منه بتصوير تأثير البحث الثـانوى. (هناك استثناءات، بالطبع. انظر على سبيل المثال التقارير على الدراسات فى كـل مـن: **Bishop, 2007; Bornat, 2005 Goodwin and O'Connor, 2006**). ومـن العواقب المهمة لإعادة زيارة الدراسات البحثية أنها تسمح لنا برؤية كيف يتم عمل البحث فى الواقع، مقارنة بما نجده فى وصايا "الكتب المعتمدة". ويـرى سـافيدج (2005) أن العودة إلى أرشيفات "الدراسات الكلاسيكية" تتيح لنا على نحو أفضل أن "نفهم كيف يسير البحث فعليا. فاعتبارا للشخصية المعيارية لكثير مـن النـصوص المنهجية للعلوم الاجتماعية، حيث التركيز على كيف ينبغـى أن يقـوم البـاحثون بأبحاثهم، بدلا من كيف ساروا فعليا فى بحثهم، يوفر ذلك طريقة مهمة، قلـيلا مـا

تستخدم، لتطوير فهمنا المنهجى" (Savage, 2005: 120). وخلق إستراتيجيات منهجية جديدة فى حد ذاته نتيجة بالغة القيمة للتحليل الثانوى. فهو يعزز تاريخانية علم المنهج، ويبين أنها دينامية ومتطورة، وليست تقنيات وصيغًا سرمدية. ويتحدث ثومبسون بتفاؤل كبير عن إمكانية إعادة الاستخدام لخلق صلات بين الأنواع المختلفة من البيانات (الكمية، الكيفية، التاريخية)، معلنا أن هذا يمكن أن "يطلق قوى قادرة على تقوية هائلة للبحث الاجتماعى" (Thompson, 2000: 13).

المناهج التاريخية والبحث الكيفى

سوف نلقى الضوء على أربع قضايا فيما يتعلق بتطوير حوار مثمر بين التحقيق التاريخى والكيفى. القضية الأولى، إن فكرة "إعادة تحليل" المصادر نفسها أساسية للمنهج التاريخى، من نواح كثيرة. فكثير من التحقيق التاريخى يختص بأفعال إعادة تحليل وإعادة تفسير، وإعادة قراءة كل من المصادر الأولية والثانوية، وبحث الادعاءات الحقيقية لكل منها (Munslow, 1007). يحتاج المؤرخون إلى الأرشيفات، والمجموعات الأرشيفية تقود- إلى حد كبير- كل ما يمكن للمؤرخين قوله (Fielding, 2004: 104). ولا تستطيع السجلات الأرشيفية التقاط الجوهر الكامل للأحداث أو الحيوات، والتى تتجاوز ما يمكن توثيقه، والتاريخ أكثر مما هو محفوظ فى أرشيف (Ricoeur, 2004). ومع هذا، اعتبارا لأهمية الأرشفة بالنسبة للبحث التاريخى، قد يكون من المفيد أكثر بالنسبة للتحليل الثانوى وإعادة استخدام البيانات الكيفية التعلم من ارتباط المؤرخين بالأرشيفات أكثر مما يمكن تعلمه من اعتبار أرشفة البيانات الكمية هى نقطة المرجعية الدالة. تتيح البيانات الكمية المقارنة فى أوقات مختلفة من الزمن، الأمر المفيد للتوثيق وتقييم التغير الاجتماعى. ولكن، يمكن تعلم دروس مهمة وقيمة من التحقيق التاريخى لإثبات

سياق التغير وفهم تجربته. ويحتاج المؤرخون لاستخدام مصادر متعددة أرشيفية وغيرها من المصادر المتاحة لإعادة بناء وإعادة تخيل السياق والزمن الذى أنتجت فيه المادة- وهو جزء من التحديات الإبداعية والفكرية، لا ينظر إليها كمعوقات أو أسباب لعدم الاضطلاع بالعمل.

ثانيا: إن أرشفة سجلات التاريخ الشفاهى تشترك فى بعض الخصائص مع أرشفة البيانات الكيفية (Bornat, 2005; Thompson, 2000). فقضايا القبول، والملكية، والسياق، والغايات، وما إلى ذلك نقابلها فى كلا النوعين. وكلاهما ينتج المقابلات والمواد الملحقة بها من المنتجات البحثية- الصور، الصوت، ملاحظات الباحث- التى يمكن إعادة مراجعتها من أجل موضوعات وأغراض مختلفة فى أوقات مختلفة. ولكن هناك أيضا اختلافات بين الاثنين، ووصفهما بدقة يوضح الملامح الخاصة لإعادة التحليل الكيفى. فرغم أن المؤرخين الشفاهيين قد يكونون "الباحثين الكيفيين الوحيدين الذين يؤرشفون بياناتهم باعتبار أن ذلك هو الأمر الطبيعى"، فلديهم "موقف تجاه البيانات مختلف إلى حد ما عن موقف العالم الاجتماعى الكيفى"، ويؤدى ذلك إلى "استخدامات نظامية للبيانات" على نحو مختلف. "فبينما فى التاريخ الشفاهى يكون الغرض الرئيسى من جمع البيانات هو تأمين سجل تاريخى يمكن الرجوع إليه حاليا ومستقبلا، فإن بيانات العلوم الاجتماعية ينظر إليها بشكل أساسى كمصدر محتمل لتوليد فرضيات جديدة، ونتائج بحثية، ونظريات جديدة" (Parry and Mauthner, 2004: 148-9). ومهما كانت هذه الفروق صحيحة، فإننا نتبين حالة جديدة تسير بين باحثى العلوم الاجتماعية النوعية- ونجد دليلا عليها فى دراسة الحالة الثانية فيما يلى- بعيدا عن الاهتمامات المباشرة نحو تصور أن أعمالهم مصدر يحتمل أن تكون له علاقته بالبحث التاريخى فى المستقبل.

ثالثا: هذه المجادلات تشجع وعيا متوقدا بتاريخ التطور المنهجي في العلوم الاجتماعية، وتقدم مزيدا من تصوير أن مناهج بحث العمليات الاجتماعية هي نفسها تستجيب للتغير التاريخي. والسؤال عن لماذا أو هل هناك حاليا اهتمام بحثي وشعبي مكثف في العودة إلى زيارة الماضي، هذا السؤال قد يظل بلا إجابة. ولكن متابعة حركة التقدم والانحسار للمناهج البحثية المختلفة تمدنا بنظرة على الأجندات المتغيرة للباحثين الاجتماعيين والتاريخ الفكري للعلوم الاجتماعية. وفضلا عن ذلك، فإن أنواع التفسيرات التي قامت على المصادر قد تتغير أيضا بمرور الوقت. وحتى عندما تظل المصادر هي نفسها، فما يقال عنها في العرض وإعادة التحليل يعكس الزمن الذي يعمل فيه الباحث. وعلى سبيل المثال، إعادة تحليل جوانا بورنات (Joanna Bornat, 2005) لمخطوطات المقابلة الخاصة بباحثي علم الشيخوخة المتقاعدين، في البحث الذي أجري في أوائل أعوام العقد ١٩٩٠، تستخلص موضوعات تخص الاختلاف الثقافي وعنصرية الميدان الخاص بطب الشيخوخة (انظر أيضا Bornat and Wilson, 2008)، وهي موضوعات لها أهمية خاصة في العصر الحالي، ولكنها لم تكن واضحة كبؤرة بحثية في المقابلات الأصلية.

وأخيرا: إن تناول التحليل الثانوي بنظرة متأثرة بالتاريخ يلقي الضوء على كيف أن العودة إلى الارتباط بالبيانات الكيفية المؤرشفة تقدم طريقة لتفحص عمليات التغير الاجتماعي والتاريخي. وكذلك، العودة إلى دراسة ما وإعادة تحليلها يمكن أن يساعد في "ضمان عدم المبالغة في التوكيد على مدى التغير الاجتماعي، ويقدم تصحيحا للادعاءات بالتنظيرات الكبرى"؛ وهكذا فهو يقدم أيضا أساسا لتقييم الآراء المنتشرة، مثل فكرة أن "العائلة والمجتمع لم يعودا من الملامح المهمة للحياة الاجتماعية المعاصرة" (Charles et al., 2008: 131; see also Gillies, 2008). وبالإضافة إلى ذلك، يعلق ثومبسون (Thompson, 2000) قائلا: "حتى عندما تكون

نظرة تاريخية واضحة، فإن بيانات البحث الكيفى الأسبق لا تعتبر [تقليديا] مصدرا" (2000: 1). ودراسة الحالة الثانية لنا تقدم مثالا على هذا التناول، وتكمل موضوع الهويات الطبقية المتغيرة من وجهة نظر تاريخية ومقارنة.

إعادة استكشاف مفاهيم الطبقة الاجتماعية فى الزمان، وعبر الزمان

دراسة الحالة هذه تعتمد على عمل بحثى صغير نسبيا، مأخوذ من مشروع أكبر عن الإدراك المتغير للطبقة الاجتماعية فى بريطانيا فى القرن العشرين (Savage, 2007a, 2007b). يقدم مايك سافيدج، وهو اجتماعى بريطانى، فى تقرير تحليلا لموجتين من بيانات المقابلات، تفصل بينهما ٤٢ عاما، جمعها باحثون آخرون كجزء من دراسات **الملاحظة الجماهيرية البريطانية**. ومع أن ملاحظاته حول الآراء المتغيرة عن الطبقة لها أهميتها، فإن جانب الدراسة الجديد وذا المغزى هو إستراتيجيته البحثية لإعادة زيارة مجموعات البيانات كطريقة لاستكشاف التغيرات فى الهوية الطبقية الجمعية والفردية، والاتجاهات المصاحبة فى البحث والتنظير الاجتماعى. ويبين لنا هذا البحث المنافع التى يمكن أن تتدفق من إعادة التحليل، ومن جمع الإطارين المرجعيين الاجتماعى والتاريخى معا. ويلقى تحليل سافيدج أيضا الضوء على ثراء أرشيف "الملاحظة الجماهيرية"، وضمنيا، يقدم دعوى لتطوير الأرشيفات الحالية لمساعدة الباحثين من المؤرخين والاجتماعيين فى المستقبل.

دراسات الملاحظة الجماهيرية

أرشيف "الملاحظة الجماهيرية" عبارة عن مجموعة من المواد التى تسجل الحياة اليومية فى بريطانيا والوثائق ذات الصلة التى جمعتها حركة دراسات الملاحظة الجماهيرية. بدأت الحركة فى عام ١٩٣٧ بجماعة من ثلاثة شباب

كـ . ـوع لــ"عمل أنثروبولوجيا لأنفسنا"، واستمرت دراســات حركــة الملاحظــة الـ ، هيريـــــة الأولـــــى حتــــــى أوائــــــل أعـــــوام العقــــــد ١٩٥٠ (www.massobs.org.uk/index.l m). وأثناء تلك الفترة، جمعت المواد بطــرق متنوعة- عبر الرسائل فى جريدة نيو ستيتسمان، ومناقشات فى الصحف تــشجع الناس على التطوع بكتابة مذكرات يوميــة وكتابــة ردود علــى الاســتبيانات أو التوجيهات. وشاركت جماعات بأجر أو متطوعة أيضا لملاحظة وتسجيل أنــشطة الناس اليومية العامة.

.(www.massobs.org.uk/original_massobservation_project.htm)

وفى عام ١٩٧٠، نقلت أرشيفات دراسات الملاحظة الجماهيرية إلى جامعة ساسكس، وفى ١٩٨١ بدأت موجة جديدة من دراســات الملاحظــة الجماهيريــة، وتستمر هذه الموجة حتى وقتنا الحاضر. وكما مع الدراسة الأولى، يمكن للناس أن يمنحوا "قصص حياتهم" للأرشيف، أو يتطوعوا ليكونــوا "ملاحظــين" ويــستجيبوا لــ"التوجيهات" فى الموضوعات المعينة. وفى عرض لأسباب مشروع الملاحظــة الجمــاهيرية هنــاك الوعى بالذات بالنسبة لكــل من الحــاجة لحفظ الملاحظــات من أجل رفاهية ومغزى حياة أى فرد. كما يشرح موقع المــــلاحظة الجماهيريــة على الإنترنت:

> نحن نرسل لمجموعة من الكتــاب كراســتين صــغيرتين بالتوجيهات كل عام حول موضوعات الــرأى وموضــوعات شخصية؛ بدءا من الأفكار حول انفجارات لندن والتعليم، حتى الحيوانات المنزلية والعلاقات الشخصية. ويمكــن لمراســلينا أن يرسلوا لنا بالبريد الإلكترونى أو العادى، كتابة آليــة أو بخــط اليد، أو رسما، أو يرسلوا صورا فوتوغرافية، أو رسوما بيانيــة،

أو قصاقيص من الصحف، قصائد، قصصا، رسائل، وما إلى ذلك. لا نطالب بأن تكون الرسالة صحيحة لغويا أو هجائيا أو أسلوبيا. لكننا نؤكد ضرورة التعبير عن الذات، والصدق، والاستعداد لأن يكون المراسل معلقا اجتماعيا نشطا، ويروى قصة جيدة.

(www.massobs.org.uk/becoming_an_observer.htm)

تحمل وثائق الحياة اليومية الكثير من الدلالات المهمة، وإحياء أرشيف الملاحظة الجماهيرية يكشف شيئا عن المزاج الثقافى لتفحص الحياة اليومية ومجاهدة مقتضيات الحياة العادية. كما أنها تمثل حافزا لمقرطة البحث- فهو ليس مجرد حقل خاص بالعلماء الاجتماعيين الخبراء- ولضمان مشهد للحاضر المتغير دائما من أجل الأجيال المستقبلة. منذ سنوات العقد ١٩٧٠، اتخذ استخدام مواد الملاحظة الجماهيرية أربعة أشكال رئيسية: "كدليل فى البحث التاريخى، فى دراسة حركة الملاحظة الجماهيرية نفسها؛ فى بحث العلوم المنهجية؛ ولإضفاء شكل على تطوير المبادرات ذات الصلة" (Heaton, 2004:7).

مقارنة الطبقة – ١٩٤٨ و١٩٩٠

فحص مايك سافيدج استجابات ملاحظى الجماهير على "التوجيهات" الخاصة بآرائهم فى الطبقة الاجتماعية وهوياتهم الطبقية فى نقطتين زمنيتين مختلفتين- ١٩٤٨، ثم مرة أخرى فى ١٩٩٠. ويدعى سافيدج أن الملاحظين الجماهيريين "كتبوا عن التغيرات الطبقية بين هاتين الفترتين بطرائق بارعة وكاشفة" (2007a: 1.3). والمهم أنه بالتباين مع الأدلة المسحية الكمية التى تميل للإشارة إلى "ثبات نسبى فى

الهويات الطبقية"، وجد سافيدج أن البيانات الكيفية "ترى تغيرات أقل في 'التصنيفات' الطبقية التي يستخدمها الناس (وعلى الأخص الطبقة الوسطى والطبقة العمالية)، ولكن التغير أكثر في الصيغ التي تعبر بها الطبقة عن نفسها" (1.3). والحجة التي يقدمها سافيدج لإعادة زيارة الدراسات تكشف عن أنواع مختلفة متعددة من التحليل المقارن- بين الآراء في فترتين من الزمن، وبين نوعين من البيانات، وبين العمليات التاريخية والاجتماعية المعاصرة والهوية.

أحد ملامح مواد الملاحظة الجماهيرية هو أنها لم تُجمع من "عينة نموذجية"- فقد تطوع المشاركون، وهذا يعني أن جماعات معينة من الناس تم تمثيلها أكثر من جماعات أخرى. كانت جماعات المشاركين في كل من ١٩٤٨ و١٩٩٠ غالبا من المتعلمين جيدا، والنساء، والكهول، والطبقة الوسطى (5.1). لكن نقص "التمثيل" ليس بالضرورة عائقا بالنسبة لهذا النوع من الدراسة، فالاستجابات من جماعات متماثلة من الناس يعيشون في أزمنة مختلفة يمكن مقارنتها. وفضلا عن ذلك، رغم أن تماثل أنواع الناس الذين استجابوا للتوجيهات في ١٩٤٨ و١٩٩٠، فهناك اختلافات ذات مغزى في طريقة حديثهم عن الطبقة ووصفهم لهويتهم الطبقية.

في ١٩٤٨، كانت الطبقة تفهم على أنها شيء يولد المرء فيه، وينتسب إليه، وبالنسبة لأبناء الطبقة الوسطى خاصة، شيء مسلم به جدلا، وشيء لا يتحدث عنه المرء في الواقع. وبالمقارنة، كان المستجيبون في ١٩٩٠ يميلون للكتابة عن الطبقة بمزيد من التفصيل، وأن يسردوا سيرة ذاتية مطولة لشرح آرائهم (5.4-5.6). وكان هناك أيضا استخدام أكثر وعيا لـ"الخطاب الطبقي"، وهذا في حد ذاته أصبح دالا على الدراية المحنكة والهوية الطبقية. وفي ١٩٤٨، كان المستجيبون يضعون هويتهم الطبقية في الأصل السلالي العائلي، وكانوا يرون أنهم ليس لهم يد في ذلك.

أما المستجيبون فى ١٩٩٠، فقد عبروا عن العلاقة بين العائلـــة والطبقـــة بألفـــاظ مختلفة إلى حد ما، ربما تؤكد نوعا من الوضعية الطبقية "المزدوجة"، أو الحركـــة عبر الطبقات، أو أن هناك أعضاء فى العائلة من طبقة مختلفة (5.7). وفوق ذلـــك، بالنسبة لهؤلاء المستجيبين، الطبقة "مدونة كجزء من هوية الفرد، لكنها جزء مرن" (5.9). وبتعبير آخر، "الطبقة تمثل كجزء من الوساطة الشخصية ولـــيس كـــشىء موروث" (5.9).

رغم أن هناك ازدواجا كبيرا فى تعريف الناس لأنفسهم فيما يختص بالطبقة، فإن مـــصادر الازدواجيـــة [فى ١٩٩٠] مختلفة تماما عن مثيلتها فى ١٩٤٨. فى السنة الأسبق، الطبقـــة شىء لا يصرح به، وأصحابها لا يحبون التحدث عنها. وبحلول ١٩٩٠، أصبحوا سعداء بالتحدث عنها، بطرائق تؤكد هوياتهم الطبقية المهجنة، والتى تستخدم الطبقة كمجموعة من العلامات الخارجية التى يمكنهم أن يعلنوا حولها هويتهم الفردية. (5.9).

وإلى جانب هذه المجادلات بالغة الأهمية، يقدم سافيدج حجة لإعادة استخدام البيانات الكيفية لفحص عمليات التغير التاريخى والاجتماعى بمرور الزمن. فداخل مجادلات إعادة الاستخدام، من المدهش أن كانت "المحاولات القليلـــة للنظـــر إلـــى الدراسات الكيفية المختلفة فى أوقات مختلفة تشير إلى أن يتـــاح للبـــاحثين فحـــص الاتجاهات عبر الزمن" (Savage, 2007a: 1.1). وهذا أمر مدهش، خاصة إذا علمنا أن المقارنة فى نقاط زمنية مختلفة تحفز الكثير من التحليل الثانوى للبيانات الكمية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المؤرخين الاجتماعيين والثقافيين "فى التاريخ البريطـــانى الحديث لم يظهروا أيضا اهتماما كبيرا بكيف يمكن استخدام مثل هذه البيانات [مـــن

الدراسات الكيفية] فى دراساتهم أنفسهم" (1.1). ويرى سافيدج أن هذا الأمر مثير للحيرة بشكل خاص فى ضوء توسع العلوم الاجتماعية فى فترة ما بعد الحرب [العالمية الثانية] وما أعقبها من كثرة المواد النوعية حول نواح كثيرة من الحياة الاجتماعية. وفضلا عن ذلك، فإن الروايات التاريخية عن الاتجاهات الاجتماعية تميل إلى الاعتماد بكثافة على البيانات الكمية، والتى ينظر إليها باعتبارها دولاً على التغير جديرة بالثقة أكثر من الدراسات الكيفية. ومن ثم يسود اعتقاد بأن "الاتجاهات الاجتماعية يمكن تحديدها من دوال تجريدية" (مثل بيانات الأرقام) (2.2)، وأن "الفجوات فى مثل هذه البيانات- الخاصة بالسياق، والمعنى، والسرد- هى نفسها تصبح أشياء محجوبة مصاحبة بشكل أساسى تعتمد عليها المعرفة التجريدية" (2.2). إن فوضى البيانات الكيفية هى بالضبط قدرتها على تنوير نسيج التجربة ومعناها، وهنا تكمن قوتها كمصدر تاريخى.

يدعو سافيدج لمزيد من النشاط، والاسترشاد بالتاريخ فى الارتباط بالبيانات الاجتماعية الكيفية وإعادة استخدامها، وهذا يتطلب مقاربة مختلفة لقراءة البيانات والأهمية المنسوبة لها: "بدلا من تقديم معرفة تجريدية، فإنها [البيانات الكيفية] يمكن قراءتها كبقايا كاشفة لعملية البحث نفسها" (2.3). وفى إشارة إلى موضوع السياق الذى ناقشناه طويلا، يؤكد سافيدج أن الباحثين يأخذون القياد من المؤرخين، حيث يقل اعتناؤهم بقضية إعادة الاستخدام فى حد ذاتها، ويزداد بكيفية استخدام البيانات "بطريقة مماثلة كثيرا لما يفعله المؤرخون عندما يواجهون بمصادر متباينة" (2.3).

إن المثال الذى قدمناه هنا لإعادة استخدام البيانات الكيفية المؤرشفة يبين قدرة هذه الإستراتيجية على فحص التغير التاريخى، ويقدم قضية منهجية مقنعة للغاية لاستخدام الدراسات الكيفية كمصادر للبحث التاريخى. إن المصادر الكيفية

تسمح بالبحث عن الالتباسات، وهذا أمر حيوى فى تعريف وفهم ظـلال التغيـر، ولتصويرها على مستوى السيرة الذاتية والخبرة المجتمعية. وفى هذه الحالة، أظهر لنا أن الانتباه التام للروايات من أجيال مختلفة أنه "شكل الكـلام الطبقـى، ولـيس محتواه، هو الذى يكتسب أهمية" (Savage, 2007a: 6.4).

استنتـاج

الدوام جزء جوهرى مما يجعل لإعادة زيارة الدراسات مغزى كبيرا. فكمـا مع الإثنوجرافيا وفوائد الوقت المطول فى الميدان، فإن انقضاء الوقت بين إجـراء الدراسة والعودة إليها يضفى وضوحا على أهميتها فى إعادة التحليل والمتابعة. فهو يبين حدود المميز، أو العادى، أو المقلق، ويتيح مسافة كافية للمقارنة، وهذا بدوره يساعد على التحقق من فوائده بالنسبة للبحث التاريخى. والبحـث الطـولى أيـضا يتعزز بالمقارنة الزمنية- المتزامنة والمرتبة زمنيا- ولكن الباحث يسير غالبا إلـى جوار المشارك، وفى نفس زمنه. وفى دراسات المتابعة، هناك كسر فـى علاقـة البحث، وتركيز أكثر على نقاط التميز وليس على عمليات التغير وهى تحدث، كما فى حالة البحث الطولى. المقارنة أيضا مركزية فى البحث عبر الأجيال، ولكن كما فى بحث العودة للزيارة، تحددها المسافة الزمنية والتباينات.

وفى فترة تتزايد فيها نداءات وإمكانيات أعظم لأرشفة المواد، من الـصعب أن نعرف أى نوع من البروتوكولات المختارة ينبغى أن تأخذ موقعها أو إن كـان ينبغى أن يسود المزيد من الإستراتيجيات الديمقراطيـة والـشاملة. وقـد هـددت الاتصالات الإلكترونية بتدمير المجموعات الأرشيفية التقليدية الورقية. ولكن القدرة على وضع كميات هائلة من السجلات على هيئة سجلات ديجيتال تقود إلى إمكانات أخرى كما تقود إلى تحديات عملية وفلسفية. وكان المتعارف عليه أن مجرد مرور

الوقت يساعد على اختيار ما جرت أرشفته: أهمية الحدث، أهمية شخص ما، أو ما يمثله، أو اعتياديته، أصبح كل هذا مؤكدا فى "اكتمال الوقت". وبالطبع، كانت هناك- وما تزال- استبعادات، وقد ناقشنا فى هذا الكتاب سياسات الأرشفة والذاكرة العامة. ولكن القدرة على الاهتمام بأرشفة المزيد من المواد تضع أمام الباحثين تحديات جديدة. فهى تدعو للإسراع بالزمن الذى تتخذ فيه القرارات حول الأهمية، ولها نتائج على الطريقة التى يجمع بها الباحثون، ويعدون، ويوثقون مشروعاتهم، مع تزايد وضع الأجيال والجماهير المستقبلية فى أذهانهم.

إن العودة إلى زيارة البحث، فى شكل دراسات متابعة أو إعادة تحليل، تقبض بقوة على تقاطع الماضى والحاضر والمستقبل فى العمليات البحثية. تأخذ الأرشفة من الحاضر لتحفظ سجلات من أجل الجمهور المنتظر فى المستقبل، وبفعل هذا تعوق وتمنع بعض القصص، وبعض الماضى، وتتيح غيره. إعادة تحليل الدراسات السابقة تبرز التغير الجيلى والتاريخى، والصفة المؤقتة للطباع والأنماط المفاهيمية والمنهجية. وبطريقة مماثلة تؤكد دراسات المتابعة الانقطاعات وقدرة الدوام على المساعدة فى إعادة تأطير البحث، لتتيح لموضوعات مختلفة أن تبرز فى مقارنة فترتين من الزمن، بحيث تنتج ليس فقط دراسة متابعة، ولكن أيضا إحساسا مختلفا بمغزى الدراسة السابقة. كما أن العودة لزيارة دراسة ما تمثل أيضا نوعا من البحث بين الأجيال، حيث يعود الباحثون المعاصرون إلى دراسات لجيل سابق، أو عندما تضع دراسات المتابعة رسوما بيانية بالتغيرات الجيلية للمشاركين فى البحث.

إن الاهتمام الكبير بدراسات العودة إلى الزيارة وانفجار النشاط فى الأرشفة وإعادة التحليل يظهر فى وقت يعانى فيه الباحثون من ضغوط لمضاعفة فوائد البحث، وعندما تكون هناك قدرة رقمية ومعرفة بالكيفية للاضطلاع ببعض هذه

المشروعات بسهولة أكبر مما كان موجودا حتى منذ خمس أو عشر سنوات. هـذه التوجهات البحثية أيضا جزء من حالة ثقافية يرتفع فيها الوعى بـالتغير الجيلـى، وحس بالانقطاع الحاد مع ماض ليس بعيدا جدا، ومخاطرة وعدم يقينية المـستقبل- من النواحى البيئية، والجغرافيا السياسية، والطبية البيولوجية- وهى مشاعر تتخلل المناقشات اليومية. إن "تصادم التوصيفات الزمنيـة" **(Harootunian, 2007: 474)** نشعر به فى الطرائق الدنيوية. والعودة إلى المشروعات الكيفية وأرشفتها وإعـادة تحليلها تضخم من تصادم التوصيفات الزمنية فى المنهجيات البحثية، وتضع توكيدا على دور الباحث كنوع من المسافر فى الزمن.

نقاط تلخيصية

- العودة إلى زيارة الدراسات تشمل تلك التى يعود فيها الباحث إلى دراسـة سابقة قام بها، أو إعادة تحليل دراسة أجراها شخص آخر فى الأصل.
- فى كلتا الحالتين، تؤثر الطريقة التى جرت بها أرشـفة الدراسـة الكيفيـة الأولية على ما يمكن قوله حولها فيما بعد. فالأرشفة تحفظ الحاضـر مـن أجل المستقبل (حيث هو ماضى المستقبل) وتبنى، وتعوق، وتتـيح بعـض القصص دون الأخرى.
- الرقمية توسع من إمكانيات الأرشفة، لكن المقرطة المحتملـة للأرشـيفات تمثل تحديات للاختيار وتحديد الأهمية، وتسرّع الوقت الذى ينبغى فيـه أن تستخلص هذه التقديرات.
- دراسات المتابعة بالغة القيمة لإظهار التباينات والتغيرات فى نقاط زمنيـة مختلفة، وليس عملية التغير.
- إعادة استخدام وإعادة تحليل المشروعات والبيانات الكيفية يمكن أن تعيـد

تأطير الدراسة الأولية وتقديم وصف جديد أو إعادة سياق وصف هذه الدراسة.

- السياق، والأخلاقيات، والقبول، جوانب مهمة لإعادة التحليل، ولكن كذلك أيضا أبعاد الذاتية الجماعية للعملية، والخبرة المختلفة لإعادة الارتباط بمشروع كمحلل ثانوى أو باحث أصلى على السواء. ويشمل هذا قلق الباحث الأصلى من أن يتعرض للكشف بطرائق لا يمكن التنبؤ بها عبر التحليل الثانوى، وقيام الباحثين بتهيئة أو مراقبة مشروعاتهم توقعا لجمهور مستقبلى غير معلوم.
- يسير "الباحث العائد للزيارة" فى مناطق زمنية مختلفة، ويزوده ذلك بفرص متميزة للمقارنة وبحث التغير التاريخى والجيلى، بما يشمل حركات وأنماط مناهج البحث الاجتماعى.
- إعادة التحليل تفتح حوارا قويا بين المناهج السوسيولوجية والتاريخية، وتشجع استخدام الدراسات الكيفية كمصادر للتحقيق التاريخى، وأخذ دروس من ارتباط المؤرخين بالأرشيفات وإعادة خلق السياق، وتشجع الاعتناء البالغ بتاريخ المنهجيات البحثية فى العلوم الاجتماعية.

مصادر للاستزادة

Ortner, S.B (2003) New Jersey Dreaming: Capital, Culture and the Class of '58. Durham, NC: Duke University Press.

دراسة متابعة قامت فيها المؤلفة، وهى أنثروبولوجية، بمتابعة زميلات الدراسة فى مدرستها العليا، وتستكشف ما يفعلن كأفراد وكجيل.

Heaton.J. (2004) Reworking Qualitative Data. London: Sage.

دليل مفيد ونظرة عامة للمصطلحات، والتطبيقات، والمجادلات المرتبطة بأرشفة، وإعادة استخدام وإعادة تحليل بيانات البحث الكيفى.

مواقع على شبكة الإنترنت

Mass Observation Studies:

www. massobs.org.uk/index.htm

يقدم نظرة عامة وتاريخا للدراسات، والمجموعات المتاحة، وتفاصيل حول كيف يصبح المرء "ملاحظا" والتوجيهات والمشروعات الحالية.

'Qualidata' Economic and Social Data Service (UK)

www.esds.ac.uk/qualidata/

يقدم معلومات ودعما لأرشفة البيانات الكيفية، ومدخلا لعدد من مجموعات البيانات الكبرى المؤرشفة للعلوم الاجتماعية.

أفلام سينمائية

هناك سلسلتان من الأفلام تجمع عناصر من كل من البحث الطولى الكيفى وبحث المتابعة.

7 Up

مسلسل فيلمى، أخرجه مايكل آبتد، بدأ فى سنوات ١٩٦٠، ويتابع جماعة من الأطفال البريطانيين من خلفيات اجتماعية متنوعة، يجرى مقابلات معهم كل سبع سنوات: المشاركون الآن راشدون، وصل عمرهم فى أحدث الأفلام إلى ٤٩ عاما.

Smokes and Lollies (1975), 14's Good, 18's Better (1980), Bingo, Bridesmaids and Braces (1988), Not 14 Again (1996).

سلسلة من الأفلام أخرجتها جيليان أرمسترونج، بادئة كفيلم وثائقى من ثلاث فتيات من جنوب أستراليا فى الرابعة عشرة من عمرهن. وصنعت أفلامًا للمتابعـــة عندما كانت أعمارهن ١٨، ٢٦، ٣٣.

٨

الزمن والعاطفة والتدريب البحثى

فى الفصول السابقة استعرضنا سلسلة من المنهجيات التى تسعى لتوضـــيح الصفة الزمنية، ليس فقط التدفق الزمنى للحياة والظواهر التى يجرى توثيقها، ولكن أيضا العملية الزمنية للتوثيق نفسها. وفى هذا الفصل قبل الختامى أردنا أن نـــصل بعض الجوانب العملية المجسدة للبحث واستخراج "البيانات" وكذلك بيان أن الطرق المستخدمة لتفسير تلك البيـــانات والكتـــابة عنهـــا هى تطبيقـــــات تحـــدث فـــى أمـــاكن وأوقـــات معينة.

لقد واجهنا مهمة كتابة هذا الفصل ونحن نعمل معا فى المخطوطة النهائيـــة للكتاب عام ٢٠٠٨. واقترحت ريتشيل أن نضع فى اعتبارنا قطعة من الكتابـــة لـــم تنشر وتدور حول المشاعر، ضمن البحث الذى قامت به فى ٢٠٠٤. وفـــى هـــذا النموذج من "التحليل الثانوى" عادت إلى الملاحظات الميدانية والمخطوطات التـــى أنتجت فى مدرسة ثانوية بريطانية عام ١٩٩٧ لإعادة زيارة حدث يجرى "تـــذكره" كحدث عنصرى (Thomson, 2004). وكانت جولى أيـــضا، أثنـــاء عملهـــا فـــى المدارس الأسترالية فى ذلك الوقت، قد تذكرت حدثا مزعجا فـــى ميـــدان العمـــل، واستكشفنا أيضا روايتها عنه المكتوبة فى ٢٠٠٣. ومعا، هذه الحكايـــات مجتمعـــة تصور الحوار المتطرف والمستطرد والمضطرب، والذى يصل أحيانا لدرجة إثارة القلق والمتاعب، بين العمل الميدانى، والملاحظات الميدانية، ومحاولات فهـــم هـــذا "فى اللحظة" و"عند التذكر" (Back, 2007; Law, 2004). ونحن نرى أن اعتـــراف

كل من ريتشيل وجولى بوجود وقائع بحثية مثيرة للقلق- من بين العديد من التجارب الميدانية فى دراستيهما الطوليتين المعنيتين- واللتين برزت فيهما قضايا عنصرية - نحن نرى أن ذلك أكثر من مجرد مسألة خاصة بتزامنية متفردة الخصائص.

الرواية الأولى عن العمل الميدانى استكشفت بعمق، وتختص بعودة إلى مصادر البيانات الأصلية، وشرح للمراحل المختلفة من الاستجابة إلى المعنى، وصناعته، من واقعة البحث. وتتضمن عينات من الملاحظات الميدانية التى كتبتها ريتشيل بعد المقابلة مباشرة، وذكرياتها عن الحدث، ومقتطفات موسعة من مخطوطة المقابلة، وعدة أمثلة من "التحليل الثانوى"، من إعادة زيارة ملاحظات ومخطوطات المقابلة، ومن خلال عيون زملاء آخرين، ومن خلال محادثات بين ريتشيل وجولى، وبالنسبة لريتشيل، بنظرة جديدة، نتيجة المسافة وانقضاء الوقت. والمثال الثانى أقصر ويقدم أسلوبا مختلفا من الاستجابة، أسلوبا نجد فيه المراحل المختلفة للصراع على المعنى والتفاوض حول الخلافات فى التفسير على مدى فترة زمنية ممتدة- نجدها فيه مركبة، يجرى التفكير فيها من أجل التحليل، ولكن لا تقدم بتفصيل كبير. ونتيجة ذلك، بعض الخطوات فى العملية قد تبدو محجوبة، ولكنها موجودة تتخلل النص، ونوع التفسيرات التى استقرت فى النهاية عليها جولى وزميلتها فى البحث لين ييتس **Lyn Yates**، وهما تكتبان فى وقت ومكان معينين، ومن خلال نوع علمى محدد. معا، هذان المثالان من العمل الميدانى يمداننا بتصور لمصادفات الأجندات الفكرية والمنهجية التى كانت موتيفا متكررا فى الكتاب.

والفصل بشكل عام يختص بالتغيرات فى الزمان والمكان والصوت المؤلف: من "نحن" فى ٢٠٠٨، إلى ريتشيل وهى تكتب فى ٢٠٠٤، وجولى تكتب فى ٢٠٠٣، وكذا الأصوات التى التقطتها المخطوطات والملاحظات الميدانية من

البحث الذى جرى بالتوازى فى كل من أستراليا وإنجلترا عام ١٩٩٧. وبدلا من تحويل النص من خلال صيغة المبنى للمجهول إلى حاضر تجريدى وممتد، أو استخدام صقل السرد لمحو الفجوات الزمنية، فقد حافظنا على هذه "الارتباكات"، وأوضحنا الرحلة الزمنية التى هى جزء وقطعة من عملية البحث والكتابة. ونحن نرجو من قرائنا أن يصبروا علينا ونحن نأخذكم عبر الأزمنة والأماكن لتشهدوا عملية البحث وهى تجرى، مع إعطاء لمحات عن الباحثين المستقرين والمجسدين أثناء العمل.

لندن ٢٠٠٤ (انعكاس لبيانات جمعت فى ١٩٩٧)

عندما نكون موجودين فى البيانات (كما عندما نعود إلى مقابلة قمنا بها بأنفسنا)، فإن الزمن جزء لا يمكن تجنبه من العملية التفسيرية، وكذا الذاكرة. وحيثما قمنا بالعمل الميدانى بأنفسنا، نجد علاقة حية بين واقعة البحث واللحظة التى تعود إليه فيها- هذه الصلة هى أنت. لكن كما احتجت ناتاشا ماوثنر **Natasha Mauthner** وزميلاتها (**1998**)، فإن الـ"أنت" التى تقود التحليل، والـ"أنت" التى كانت حاضرة فى المقابلة قد تختلفان كثيرا- خاصة لو كانت قد انقضت فترة زمنية كبيرة بينهما. من الممكن فى أى مجهود بحثى تتبع قصص زمنية مختلفة: **الزمن البيوجرافى** (السرعة التى تنكشف بها أحداث الحياة للباحث والمبحوث)، **وزمن البحث** (الجدول الزمنى لعملية البحث) **وزمن التحليل** (المشروع الأطول والمتكرر للتفكير فى البيانات والكتابة عنها) (انظر: **Thomson and Holland, 2003**).

وقد تقدم العواطف الصلة بين تلك الزمنيات. وتتطلب المقاربة التأويلية (التى ترفض الفصل الوضعى للفاعل عن موضوع المعرفة) أن نعترف بأن إنتاج المعرفة **يعتمد** على التفسير. وهكذا فإن طريقنا إلى معرفة الاجتماعى يمكن أن

نتوصل إليه بواسطة مشاعرنا وذاتيتنا. وهكذا، نحاول أن نكون على وعـــى بـــأن "المنظور" الذى يصوغه القائم بالتحليل مستمد من الطبقة الخاصة التى ينتمى إليها، وموقعه الثقافى (Skeggs, 2004)، سواء كان ذلك عن وعـــى أو لا. وكمـــا يعلـــق ووكرداين وزملاؤه: من المستحيل أن تظل التفسيرات متحررة مـــن الإســـقاطات (Walkerdine et al., 2002: 190) ونحن لا يمكن أبدا أن نتمكن من تفكيك الحدود بينها. واهتمامى بهذا النوع من المقاربة كان دائما أننا نتخلى عن إمكانية التعـــرف على ما هو اجتماعى والعالم، ونستقر بدلا من ذلك على التعرف على أنفسنا– وهذا نوع من العمل بنظرية "لا وجود لشيء غير الأنا" (انظـــر أيـــضا McLeod and Yates, 1997). ولكن قناعتى تتزايد بأن هذين المشروعين ليسا على نفس القدر من الحصر. فلكى نعرف العالم من الضرورى ومـــن المنطقـــى أن نـــستخدم أنفـــسنا واستجاباتنا كأداة ومصدر إثبات.

المـــشـــاق

الكتابة جزء مهم من عملية البحث، وهذا أمـــر شـــديد العاطفيـــة، يخـــتص بالحوار الداخلى حول العلاقة بين الذات والآخر. والكتابة على نحو جمعى أيـــضا تختص بعواطف معقدة بيننا كباحثين. عندما أدفع نفسى إلى التفكير حول العواطف فى عملية البحث يردنى ذلك إلى تجارب العمل الميدانى، ووقائع البحث التى تستمر فى إزعاجى. هذه المناقشة تقوم على رحلة ارتبطت فيها بالعودة إلى زيارة عمـــل ميدانى أجريته فى ١٩٩٧، وإلى واقعة بحث معينة ضايقتنى، ولكننى أحلتها إلـــى قائمتى من "الأشياء التى تعلمتها عن البحث": تلك الأشياء التى تحدث فى الجماعات والتى يكون التحكم فيها فى وقائع البحث أمرا مشحونا أخلاقيا وعاطفيا ومعنويـــا.

وهنا أعود إلى زيارة بيانات إحدى تلك الجماعات، وأقدم تعليقات من المؤلفات التى وجدت أنها مفيدة فى فهم ما وجدته.

العودة للوراء

اللحظة التى علقت بذاكرتى كانت مجموعة مركزية مناقشة قامت بدور جزء من دراسة للمشهد المعنوى العام للشباب. "قيم الشباب: الهوية، والتنــوع، والتغيــر الاجتماعى" (1996-9). وظفت الجماعات تنسيقا على غرار لعبة، يقرأ المشاركون مقولات أخلاقية قوية، ويناقشونها (وللاطلاع عن المزيد حــول المــنهج، انظــر: Thomson and Holland, 2004). والجماعة التى نناقشها هنا كانت فــى مدرســة للطبقة المتوسطة البيضاء. وحضر ثلاثة من الشباب (أقل مما كان متوقعا)، صــبى وبنتان، كلهم فى العام العاشر من التعليم الرسمى. وكنت أقــوم بــدور المــساعدة والتسهيل بالنسبة للجماعة.

أتذكر تعبير العنصرية الذى حدث داخل الجماعة، والشعور بعدم الارتيــاح: القلق من أننى ربما كنت متواطئة وأتساءل إن كنت قد استغللت المشاركين بطريقة ما. فالذاكرة غير المستكشفة أصبحت مَعْلَما على شيء ما- على ما كنــت بحاجــة لأن أقوم به من بعض التفكير. فى مناقشة النظرية والتطبيق فى عمــل الــذاكرة، تؤكد جوان كراوفورد وزميلاتها (اللائى ناقشنا كتابهن فى الفــصل الثــانى) أننــا نتذكر الأشياء لسببين: سلسلة من الأحداث كانت إشكالية فى وقتها ومناسبات كانت فيها ردود أفعال الآخرين غير ملائمــة لتوقعاتنــا (1992: 9). وفــى استحــضار الذكريات، نحن لا نعمل مع الأحداث الأصلية، وإنما مع محاولاتنا الخاصــة لحــل هذه التناقضات. ولكن كباحثين، لنا طرقنا فى العودة إلى الواقعــة التــى تتجــاوز (ولكن تشمل) المعنى الخاص بعمل عمليات الذاكرة. وأبسط طريقة هى من خــلال

الملاحظات الميدانية التي استخدمناها لالتقاط تأمل الباحث في ديناميات الجماعة. والملاحظات الميدانية هذه قد تكون قد كتبت مباشرة بعد الجماعة، وبهذا يمكن أن تقبض على مشاعر متعاصرة وتفسيرات أثارتها التجربة.

وقد استخرجت من الملاحظات الميدانية الجزء الذي يتعلق فقط بمناقشة المقولة: "كل الناس البيض عنصريون". المشاركون الثلاثة معرفون بأرقام ١، ٢، ٣ والأرقام على بداية السطر (نعم= أوافق، لا= لا أوافق) تمثل المكان الذي وضع فيه هؤلاء المشاركون أنفسهم استجابة للمقولات.

الناس البيض فقط يمكن أن يكونوا عنصريين

أوافق ٢ ______ ١ ______ ٣ ____________ لا أوافق.

١- فتاة شقراء جدا وزرقاء العينين، الشعر طويل ومموج وملفوف على شكل كعكة، ملامح ممتلئة، تتحدث بلهجة وسط غرب لندن. ذات مظهر أنثوى. ذات آراء قوية جدا وناضجة، تأخذ القيادة في معظم الأسئلة، ذات صوت مرتفع.

٢- فتاة ذات مظهر مسترجل. شعر بنى فاتح مستقيم متوسط الطول. نحيفة، ليست "جميلة" على نحو تقليدى. آراء قوية و"ذكورية"، لكن تنقصها الثقة. غالبا ما تتفادى تلاقى العيون، تنظر لأسفل كثيرا، تغمغم ثم تضحك، خاصة حول العنصرية، حيث وجدت "الجرأة" لاستخدام كلمة "باكى" (Paki)(*) ثم تنظر إلى صديقيها في كل مرة وتقول "لا تجعلانى أضحك" وفى تلك اللحظة يبدأ الاثنان يضحكان.

(*) كلمة "باكى" **Paki**، اختصار لكلمة "باكستانى"، ويطلقها الإنجليز على كل أبناء جنوب شرق آسيا دون استثناء، ويستخدمونها ككلمة تحط من شأن صاحبها. [المترجمة].

٣- صبى داكن الشعر أزرق العينين، بقع كثيرة، طويل نوعـا. هادئ وتحت سيطرة البنتين، لكن مختلف تماما فى آرائه. فحيث تتسمان بالعنصرية، لا يكون هو عنصريا، وهكذا. عنـدما جـاء وقت المناقشة، يمكن أن يتركهما تسيطران، ولكنه قد يـسـاهم عندمـا يدعى. لم تكن الفتـاتـان تعطيـانه أية فرصة، وكـان لا بد أن يأتى ذلك من المساعد.

مسائل أخرى: جماعة صغيرة. كل الفريق الغائب كانوا من الـصبيان فـى الصف العاشر. التزويد بالمقاعد جعل الأشياء مخادعة إلـى حـد مـا. فـالجلوس وظهورهم للساعة ومقتربين جدا من رقم ١ للشعور بالراحة. كانت الديناميات بـين ١، ٢ تسيطر على الجلسة. وكان ٣ على الخطوط الجانبية، ولكنه بـدا مـستمتعا. كانت ١، ٢ تمثلان نفسيهما كـ"فتيات شقيات" رغم أن ٢ بدا أنها تتحمـل معظـم المخاطرات من أجل ١. كان صغر حجم المجموعة أيضا جيدا فى السماح بمناقشة عميقة. وعبرت هذه الجماعة عن مجموعة من الآراء غير المأخوذة من الكمبيوتر بطريقة ما كنت لأشعر بها فى جماعة أكبر، حيـث ١و٢ قـد لا تكونـان أقـوى الشخصيات فى الغرفة. كانت مناقشة العنصرية غريبة بالنسبة لـى، حيـث إننـى ممزقة بين مواجهة آرائهم وإتاحة الفرصة للمناقشة. وشعرت أنهم كانوا ينتظـرون منى أن أخالفهم أو أصرفهم- خاصة بالنسبة لاستخدام كلمة "باكى". وكنت بالغريزة لا أرغب فى إصدار أحكام- التزاما بروح اللعبة التى تدعو للاستماع إلـى عـدد كبير من الآراء المختلفة. وكانوا يشعرون بقلق إلى حد ما من فكـرة أننـى ربمـا أحاول "الإيقاع بهم" بعدم مخالفتهم. من الواضح أن ٣ لم يكن يشاركهم الآراء رغم أنه وافق على أن "النكات حول الباكى مضحكة" عندما لحق بهـم فـى الـضحك. الاهتمام بكشف العنصرية التى كانت غير ظاهرة فى الاستبيان- فلم تظهر النكـات العنصرية ولا المشاعر العنصرية.

الناس البيض فقط هم العنصريون:

ضع لاصقة بالعبارة فى النهاية الخطأ لأية مناقشة. اتفقت ١ و٢ على أن السود أيضا يمكن أن يكونوا عنصريين، وأن هذا مماثل للعنصرية البيضاء، والحق أنها ليست بهذا السوء؛ لأن العنصرية مفهومة ومبررة! وبالقرب من نهاية المناقشة بدءوا يتحولون إلى مناقشة عائلاتهم نفسها وإلى أى مدى عنصرية عائلتى ١ و٢. ووصفوا ما يقصدون بما يقولون، نفس التعبير الذى استخدمته البنتان، وكيف أنهم يحاولون تحدى آبائهم دون نجاح. والمثيرات الخاصة بالثقافة الشعبية السوداء لم تأت بنتيجة. كلام كثير حول النكات. مركزية العائلة بالنسبة للقيم الخاصة بالعنصرية.

وكلهم استمتعوا بالأمر حقا. قال ٣ إنه سعيد لأنها جماعة صغيرة حيث لو لم تكن كذلك لما تكلم. ١ استمتعت بالكلام عن آرائها، و٢ وافقت مع ١.

شخصيا: بدأت حقا أكره هاتين البنتين. حتى رغم أن معظم العنصرية جاءت من ٢، فإننى كرهت ١ أكثر، حيث إنها كانت شديدة الإلحاح. ثم شعرت ببعض الذنب لأننى كنت أوقع بهم، ثم رأيتهم ينتقلون إلى مناقشة حول عائلاتهم. سوف يكون أمرا مثيرا للاهتمام رؤية هاتين البنتين تتطوران فى المستقبل.

شيء واحد آمل أن تفعله هذه الملحوظة الميدانية، هو أن تقوى من قيمة الملاحظات المعاصرة للحدث، خاصة عندما يمتد المشروع أو يؤرشف. وهى أيضا مثال لنوع التفاصيل التى يمكن تضمينها فى الملاحظات الميدانية. تنظم الملاحظات تحت مجموعة من العناوين، لكنها تشمل أكثر من الملاحظات حول ما قاله المشاركون؛ فهى تضم ردود فعلى العاطفية، و"شعورًا داخليًا" بالنسبة لما يجرى. وما أجد أنه مدهش للغاية هنا هو وصفى للجماعة، والذى يوحى بتنافر حقيقى، خاصة نحو إحدى البنتين.

بعض أدوات التفكير فى العاطفة

قبل الاستمرار فى النظر إلى الوثيقة المكتوبة، أريد أن أتحدث قليلا عن عمل فاليرى ووكرداين، وهيلين لوسى، وجون ميلودى (2001) والذى لجأت إليه ليساعدنى فى فهم المحتوى الوجدانى لهذه القصاصات من البيانات. وعندما أتأمل فى تطبيقهن البحثى، الذى تأثر بأفكار التحليل السيكولوجى وتطبيقات التحليل الجماعى، أجد أنهن يقترحن أنه "لكى تفحص عمليات اللاوعى الخاصة بأناس آخرين ينبغى أن تكون مستعدا وقادرا على الارتباط بعمليات اللاوعى الخاصة بك أنت نفسك" (Walkerdine et al., 2001: 85). والباحثة نفسها هى الأداة الأساسية لهذا النوع من البحث، ولكن لا سبيل إلا إعادة الاستماع إلى المقابلات ومشاركتها مع آخرين حتى تصبح "الطبيعة ذات الطبقات للمقابلة" ظاهرة (p. 93). وفى رأيهن، يميل الباحثون إلى 'سماع ما يتوقعون سماعه أو يشعرون بالارتياح إليه ويحجبون الباقى'. ويؤكدن أن الالتزام بأن يكون الباحث واعيا بالديناميات العاطفية لوقائع البحث يتطلب "رغبة فى الانهماك (إلى درجة أكبر كثيرا من نقطة 'الارتياح') فى عواطف تكون أحيانا صعبة للغاية" (p. 107).

والاقتباس التالى يبين العملية التى استخدمتها ووكرداين وزميلاتها فى دراستهن الطولية "Growin Up Girl" ("الفتاة تكبر") لكى يجرى تفكيك ذاتية الباحث عن تفسيراته للدوافع والمعانى الخاصة بالنساء الشابات اللائى يوثقن حياتهن:

فى المستوى الأول، من المعتاد لكثير من التحليل الكيفى الذى ألقينا عليه نظرة حسب المعنى الظاهرى لـ"قصة" الشخصيات؛ التى تحتوى أحداثا، وشخصيات، وحبكات ثانوية. وانتقل المستوى الثانى للتحليل نحو استكشاف أوّلى لعمليات اللاوعى الدائرة بالانتباه إلى الكلمات، والصور، والمجازات... هنا نظرنا إلى المقابلة إلى جانب الاستجابات العاطفية المسجلة للباحث عن المقابلة.... وفى المستوى الثالث من التحليل... فكرنا كفريق فى استجاباتنا الفردية، وتفسيراتنا، للحالات فى محاولة لإلقاء الضوء على حالة اللاوعى مقابل الاتصال اللاواعى. ولا يكتمل هذا المستوى من تحليلنا بدون المقدمة المنطقية للعمل بأن خبرتنا بدينامية النفس الداخلية يمكن أن تخبرنا بشىء مهم عن علاقة هذا الشخص بالعالم الاجتماعى. ومن المحتم أننا تجاوزنا ما سجلته الباحثة نفسها. ولم يكن ذلك أمرا بسيطا أو تقنيا، أو اعترافا، أو إلهاما ذاتيا، ولكنه تطلب إرادة لإلقاء الاعتبار للمشاعر التى نراها أحيانا متطرفة، والخبرات التى جرى الدفاع عنها بشدة على مستوى اللاوعى -المشاعر التى كانت غير مرغوبة، منكرة، و/أو نشعر بأنها تنتمى للآخرين. (Lucey et al., 2003: 282).

وأجد هذا العمل صعبا، ولكنه أيضا جذاب ومفيد. ولست مستريحة تماما مع نموذج التحليل النفسى الذى يأتى معه، لكن الكثير من التعليقات ذات رنين بالنسبة لى. وأتفق على أن الباحثين من أدوات التحقيق. وأوافق على أننا نتصل

بالمشاركين من خلال عناصر مشتركة من الخبرة، وكلما كانت هذه العناصر أكثر تنوعا كانت العلاقة أكثر ثراء. وأوافق أيضا على أن بعض الصلات والتبادلات لاواعية، وأن مشاعرنا تجاه من نجرى المقابلات معهم قد تكون تجليا لهذه العملية. إن ما نحبه أو نكرهه فيهم يتصل بسيرتنا الذاتية نحن. وأخيرا، أوافق على أن البيانات بحاجة لأن نضعها موضع المساءلة مرة وأخرى على مستويات مختلفة وبمرور الوقت. إن عمل ووكرداين ولوسى وميلودى لا يتهاون بالنسبة للحدود التى ينبغى أن يكون عليها المحلل الفرد. وهن يؤكدن أن الجماعة لها دور فريد فى تحديد نوع التفسيرات التى قد يكون إدراكها سببا فى كثير من الضيق. هذا هو قوام الدراسة الجمعية فى حد ذاته، ويساعدنا على فهم السبب فى أن التجمعات نفسها تجارب ذات دينامية عاطفية تلعب دورا فريدا فى صياغة الرؤى الثاقبة والتفسيرات التى تتجاوز ما يمكن تحقيقه فى الدراسة الفردية.

عندما عدت للنظر إلى هذه الملحوظة الميدانية شعرت بالارتباك أمام وضوح ما تسميه لوسى وزميلاتها "عمليات اللاوعى أثناء حدوثها". إن مشاعرى السلبية تجاه الشابة واضحة، وكذلك مشاعرى الحمائية نحو الشاب. هناك إشارات توحى بالغيرة فى وصفى لعلاقتهم والاهتمام بإبعاد نفسى عن رقم ١ خاصة. عندما أخاطر بالتفكير فى مواضع الاتصال لدينا أدرك أنه من بين كل المدارس التى أجرينا فيها البحث، كانت هذه المدرسة هى الأقرب إلى تجربتى الخاصة. وهى مدرسة يسودها البيض، فى منطقة أغلبها تقريبا من الطبقة الوسطى الريفية. وهؤلاء فتيات الطبقة العاملة اللائى يعرفن أنهن غير متكيفات تماما فى المكان، وأنا أعرف هذا أيضا. ويمكن فهم مشاعر العنصرية لديهن كتعبير عن شعورهن بالإقصاء من الإجماع الليبرالى الخاص بالطبقة الوسطى، والذى يميز كل مناقشات الجماعات المركزية الأخرى فى تلك المدرسة، ولكن الذى يتعارض تماما مع الكثير من النكات العنصرية التى جمعناها عبر الاستبيانات، والتى كانت أيضا

جزءا من منهجيتنا. كان تفسيرى أن أولئك النساء الصغيرات فى أدائهن العنصرى كطريقة لـ"التظاهر" وأن يصبحن "فتيات سيئات"، قد يكون دفاعا ضد فهم أفضل، متجذر فى الخبرة العامة. وربما كان تفكيرى الأخلاقى حول إن كنت قد استغللتهن قد حمانى من اندماج عاطفى ومشاعر أكثر إثارة للضيق.

فى مناقشتهن للعواطف التى جرى تحليلها من خلال عمل الذاكرة، تعلق جوان كراوفورد وزميلاتها (١٩٩٢) بأن الذكريات العاطفية تميل لأن تكون متعلقة بالأحكام الأخلاقية، حيث إننا نسعى لفهم التجارب فيما يتعلق بالنظام الأخلاقى والعلاقات الاجتماعية التى تحدد السلوك المقبول والمنتظر. وحقيقة أننا نتذكر فى الأساس تعنى أن النظام الأخلاقى ربما يكون انتهك، والعمل الذى نقوم به فى هذه الذكريات يسعى لاستحضار بنيتنا الخاصة بالذات داخل نظام أخلاقى مقبول ومفهوم. فما الذى يعتبر هنا مربط الفرس عندما نقلق على أخلاقيات مثل هذه الواقعة؟

ولكى ننظر بإمعان أكثر قليلا على واقعة البحث هذه التى جرى تذكرها، أريد أن أشارككم فى مقتطف طويل من المخطوطة. ويتضمن المقتطف مناقشة أثارتها مقولة "كل الناس البيض عنصريون".

٣: الناس البيض فقط يمكن أن يكونوا عنصريين

أوووه – ضحك وتعليقات غير واضحة

٢: لا، السود عنصريون أيضا، فهم يقولون "اللعنة على البيض" [بنغمة محاكاة].

١: نعم، لكننى لست عنصرية، ولكن، حسنا، أى أحد يجد أن نكات "الباكى" مضحكة، وأنا متأكدة أن الباكى يقولون نكاتا عنك أيضا، وأنا متأكدة أن السود

يقولون نكاتا عنا، وهم يقولون أشياء مثل "أنت... بغى" [بنغمة، محاكاة للصوت].

ضحك وغمغمات غير واضحة

٢: آه، يا إلهى!

ضحك وتعليقات غير واضحة

الباحثة: اشرحى، هيا اشرحى أكثر.

١: لأنه عندما يكون هناك بيض فى عرض ما -بيض فقط- مثل، مثلا، كان مسلسلا تليفزيونيا وكل من فيه من البيض فقط -يتصل السود دائما ويقولون هذا ظلم، إنهم عنصريون، ليس هناك أى سود (نعم)- البيض لا يفعلون ذلك أبدا.

٢: ممم، نعم لا يفعلون ذلك.

٣: إنهم حتى قد لا يلاحظون أنه لا يوجد سوى البيض -إنهم- حسنا، دائما ما يلاحظون لكنهم ربما يفعلون ذلك عن عمد.

الباحثة: قل هذا مرة أخرى.

٣: ربما لا يتعمدون عدم وضع السود فى المسلسل -لكن هذا قد يحدث بالصدفة، نوعا ما.

الباحثة: لا يلاحظون فقط؟

٣: نعم

١: أعنى أن السود يبدو أنهم يدركون ذلك أكثر مما يفعل البيض...

الباحثة: ماذا؟ هم يلاحظون العنصرية؟ أم هم يلاحظون؟...

١: يلاحظون- يشعرون بالانزعاج أكثر مما يفعل البيض لأنهم -لكن السبب- أظن السبب أن السود ضد البيض هو بسبب أنهم اعتادوا أن يكونوا عبيدا، كان أسلافهم عبيدا- وأظن أن هذا هو ما بدأ المسألة- العنصرية وما إلى ذلك، وإذا لم يكن هذا قد حدث أظن كنا نستطيع التعايش معا بدون مشاكل. وأظن أن السود والبيض، أظن أنهم متساوون، لكنى أظن أن السود عنصريون بنفس القدر لأن، مثلما عندما يكون شخص عنصريا معهم، يمكن أن يردوا على ذلك بدرجة أسوأ (نعم ٣) أحيانا قد يفعلون شيئا غبيا حقا لشخص أبيض لأنه- آسفة، لأن شخصا أبيض كان عنصريا معهم سوف يردون بالمقابل بشكل ما.

الباحثة: إذن، لماذا تظنون أن السود شديدو الحساسية هكذا؟

٣: لأنهم عانوا من الأمر طويلا.

١: نعم، لأن البيض والسود كانوا أعداء فترة طويلة حتى أنهم فقط يفكرون أن التصرف السليم هو أن يكونوا أعداء لنا لكن مثل بعض السود يريدون أن يكونوا أصدقاء مع الجميع- يريدون أن يكونوا متساوين، يريدون أن نعرفهم كأشخاص مساوين لنا، لكن بعض البيض....

٣: لا يسمحون بهذا.

١: إنهم لا يريدون أن يعرفوا السود، ولكن أحيانا البيض فى الواقع يصاحبون سودا، وأحيانا يحاولون وفى الواقع أن يكونوا مثلهم، يحاولون ويدخلون بثقافتهم وما إلى ذلك لأنهم يريدون فقط أن يعرفوا ما هى طبيعة الشخص الأسود.

الباحثة: وما رأيك فى هذا؟

١؟ حسنا، أحيانا أفكر أن السود .ينبغى أن يلتزموا بمصاحبة السود والبيض ينبغى أن يلتزموا بمصاحبة البيض، لكن هذا مجرد رأيى- و- لكن زوج أمى، هو عنصرى حقا، ولا يحب السود على الإطلاق، لكن... همم، لا ينبغى أن أقول هذا.

الباحثة: لا، لا، لا، إنه شىء مهم. عندما تقولين إنهم ينبغى أن يصاحبوا بعضهم- لماذا- لماذا ذلك؟ -هل لأنه أسهل أم؟-

١: لا أعرف لأنه من الأسهل حينئذ أن لا يكون هناك الكثير من العنصرية. إذا ظل السود فى بلادهم والتزموا بثقافتهم ومثل ذلك وظل البيض فى بلادهم وثقافتهم فلن يكون هناك الكثير من العنصرية؛ لأنهم سيكونون فى بلد خاص بهم، وسيكون البيض فى بلد خاص بهم.

الباحثة: إذن لا فائدة من محاولة اختلاط الناس معا – هذا يؤدى إلى مشاكل.

٣: نعم، لكن حينئذ سوف يفقدون كل بيوتهم وممتلكاتهم وما إلى ذلك.

٢: الأمر هو أن البيض هم من بدءوا ذلك حقا- هم الذين أحضروهم.

١: نعم.

٢: لا أعرف كيف جاء "الباكيون"، ولكن...

ضحك

٢: ولكنها مضحكة، رغم ذلك، نكات "الباكى".

الباحثة: إذن عندما تتحدث عن السود فإنك تتحدث عموما عن الناس من الكاريبى- شىء كهذا- من جامايكا ومن أفريقيا، نعم- لكن عندما تتحدث عن

الباكى فإنك تتحدث عن الناس من باكستان والهند، إلخ- الآسيويين إذن. هل تظن أن هناك فرقا كبيرا بين المجموعات المختلفة؟ أعنى هل تصنِّف السود جميعا باعتبارهم جنسا أسود؟

١: أظن أن البيض لديهم ضد الباكى أكثر مما لديهم ضد...

٣: السود.

الباحثة: لماذا؟

٣: هناك نكات أكثر عنهم.

الباحثة: إذن لماذا هناك نكات أكثر؟ ما الذى...

٣: لا أعرف...

الباحثة: أنا أسأل عن النكات لأننا سألنا فى الاستبيان عن النكات- أنت لا تذكر لأنك لم تحضر الاستبيان- كنا نسأل عن النكات وجاءنا الكثير من، كما تسمونها، "نكات الباكى". حصلنا على كميات وكميات وكميات من كل مكان فى البلاد، و... المهم- كما تعرفون، لماذا هناك كل هذه النكات، ولماذا هى عن مجموعة معينة من الناس؟ ما رأيكم؟

تعليقات غير واضحة

٢: ربما يقولون أشياء عن الناس البيض أيضا فى المقابل، لكن البيض يفكرون فى نكات عن الباكى، والباكى يفكرون فى نكات عن البيض- هذا هو الواقع بالضبط، ولأن كمّا من البيض هناك فى باكستان والهند، أظن أنه ليس هناك هذا العدد الكبير. ولكن، هنا، إنهم فى كل محلات النواصى ومحطات البنزين – [٣ يضحك]. حسنا، الناس لا يحبون هذا- بعض الناس لا يحبون

ذلك، ومن ثم تظهر نكات الباكى وبعض الناس يجدونها مضحكة- ولا بد أن أعترف أننى كذلك (ضحك) أحيانا أجدها مضحكة. ومع ذلك، فأنا لم أتعود عليها، والآن هناك المزيد والمزيد منها عن أنك تجدها مضحكة.

٣: إنك تعتادينها.

٢: أنت لا تقصد إيذاء الباكيين أو أى شىء من هذا القبيل-

١: ولكن-

الباحثة: وماذا عن الآسيويين المحبوبين، هناك آسيويون فى هذه المدرسة، أليس كذلك؟

٣: نعم

الباحثة: ما رأيهم فى هذه النكات؟

١: هل يمكن أن أقول شيئا. إذا ذهبنا إلى أفريقيا أو شىء كهذا، سوف يتضايقون- سوف يفكرون، ماذا يفعل هؤلاء فى بلادنا؟ إنهم لا مكان لهم فى بلادنا- هذا بالضبط ما نفعله، لكنهم لا يحبون هذا ولأننا نقول لهم، ماذا تفعلون هنا؟ ينبغى أن تعودوا إلى أفريقيا- وأشياء من هذا القبيل- أنا لا أقول هذا فى الواقع، ولكن بعض العنصريين جدا يقولون، هيا، اذهبوا إلى بلادكم، أنتم لا تستحقون أن تكونوا هنا- وهذا بالضبط ما قد يفعله السود معنا. إذا ذهبنا إلى أفريقيا وكنا من البيض، سوف يفكرون، إنهم لا مكان لهم هنا. ولكن بالمثل يوجد الكثير من الناس البيض ويعيشون فى أفريقيا، ولكن بعض السود هناك لا يحبون هذا إطلاقا وبعض البيض هنا لا يحبون أن يمتلك الباكستانيون محطات البنزين والمحلات الصغيرة على الناصية وما إلى ذلك.

الباحثة: أنت قلت شيئا عن الدين، متى كنا نسأل عن لماذا تظنين الناس من باكستان هم، حقا، هم أكثر الجماعات التى يوجه إليها الهجوم؟....

٣: لأنهم لديهم طرق مختلفة عن المسيحيين، ويعتقدون فى أشياء مختلفة تماما، و...

الباحثة: هل الأمر هو اختلافهم إذن؟

٣: نعم.

الباحثة: بينما الناس من الكاريبى بينهم وبينكم المزيد من الثقافة المشتركة.

٣: نعم

٢: ومع ذلك هناك كل أنواع المسيحيين المختلفين، فهناك المسيحيون الأورثوذوكس، وهناك الكاثوليك.

الباحثة: نعم. ولكنى أعنى، مثلا، هل تفكرون فى نفس الأشياء بالنسبة للثقافة الكاريبية؟ أعنى، لأنه يبدو من نواح معينة أن ثقافة الكاريبيين ينظر إليها الكثير من الناس من ناحية الموسيقى، فيرون أنها لطيفة جدا.

٣: نعم.

١: نعم، أظن أن السبب فى أننا كلنا ضد السود هو طريقتهم فى الكلام ونوع الموسيقى التى لديهم- إنها مختلفة تماما عنا وهذا هو ما هم عليه- فى باكستان، هم مسلمون ولديهم دين آخر، وأظن أن هذا هو ما يراه الناس- الأمر مثل... دينهم أو نوع الموسيقى الخاص بهم أو الطريقة التى يتكلمون بها وما إلى ذلك، بعض الناس يجدون ذلك مضحكا عندما يتكلم أسود معك كيف يتكلم- الطريقة مختلفة تماما- وهم سوف يضحكون عليهم ويقولون، لماذا تتكلم بهذه الطريقة؟

لأنهم سيكونون مختلفين بالنسبة لك لأنهم- مثلا، قد جاءوا لتوهم هنا لقضاء أجازة أو ما إلى ذلك، وبدءوا يتحدثون الإنجليزية، ولكنهم فى الواقع من جنوب أفريقيا- الناس يحبون أن يقولوا لهم، لماذا تتحدث هكذا؟ ولكن الطريقة التى نتكلم بها قد تكون غريبة بالنسبة لهم أيضا و-

الباحثة: صحيح؟ أعنى هل تظنين أن هذا طيب، خذى مثالا مدرسة مثل هذه، هل من الصعب أن تكون مختلفة إذا كنت مختلفا عن الأغلبية هل هذا شىء فى الواقع؟

٣: نعم.

٢: هناك قليلون جدا يحبون السود أو الباكى، أوه، آسفة، الهنود هنا.

الباحثة: قولى، استخدمى الكلمات التى تفضلينها.

٢: نحن نسميهم الباكيين [ضحكات] ولكن لا يبدو ذلك لطيفا رغم ذلك، أليس كذلك؟.

الباحثة: نعم، ليس لطيفا.

١: إنه يبدو بشعا.

٢: ولكن هذا ما اعتدنا قوله.

الباحثة: لا عليك، حسنا، نحن نتحدث عن القيم.

٢: وهم قد يقولون البيض أو شىء كهذا، أو جوز الهند...

١: أو سائقو العبيد أو شىء كهذا- بعض السود يسموننا سائقى العبيد أو شىء كهذا أو قد يسموننا حلوى النعناع.

الباحثة: ولكنى أعنى أن استخدامك لكلمة باكى مثير للاهتمام، والواضح أنكم تستخدمونها فقط بين أصدقاء بيض، أليست هناك طريقة رسمية من نوع ما يتحدث بها الناس عن الاختلافات حتى لا تفعلوا ذلك؟ هل تعرفون ما أقصده؟ أليست هناك طريقة تتحدث بها إلى شخص هندى أو آسيوى (رقم. ٣) عن كونه هنديا أو آسيويا؟ ألا يتحدث أحد عن ذلك؟

تعليقات غير واضحة

١: أنا لا أتحدث معهم بهذه الطريقة

٢: قد أتحدث معهم عن ثقافتهم.

١: نعم، لن تقول لهم هذا مباشرة- أعنى قد ترى أنه شيء مضحك بالنسبة لأصدقائك لكنك تفكر- عندما تراهم، تفكر، حسنا، ربما ليس من اللطيف جدا وتحاول أن تكون ودودا معهم، ولكن أحيانا هم- وهم يقولون، لا، نحن لا نحب البيض، نحن لا نصاحب البيض- نحن لا نحب، لا نريدك أن تقترب منا.

[.....]

الباحثة: لا، إذن بعض الاختلافات يمكن أن تراها بعينيك، والبعض لا يمكنك رؤيتها. ولكن، أنت تعلم مثلا، قد تكون هناك اختلافات كثيرة جدا فى الواقع بين الناس، بالنسبة لخلفيتهم الدينية أو الثقافة التى جاءوا منها أو، كما تعلم-

٢: بعض السود إنجليز، ولديهم ثقافة إنجليزية وما إلى ذلك، وبعض الباكيين إنجليز ولديهم ثقافات إنجليزية وما إلى ذلك.

الباحثة: وبعض البيض ليسوا إنجليزيين (نعم) وسوف تكون لهم خلفيات ثقافية مختلفة جدا.

١: الأمر هو أننى أظن أن العنصرية بين السود والباكيين والبيض متماثلة تماما.

[نهاية الوجه الأول من الشريط، بداية الوجه الثانى]

[.....]

الباحثة: ولكنى أعنى هل هذه هى طريقة استجابتنا للاختلافات، أليس كذلك؟ لأننى أعنى من ناحية أنك يمكنك أن يكون رد فعلك على الاختلاف أن تقول، "هذا لطيف حقا"، وكل واحد يريد أن يكون صديق هذا الشخص لأنه مختلف و(نعم) أيا كان الأمر- هذه طريقة- والطريقة الأخرى هى أن لا يعجبك، أو تشعر بالفزع منه، أو، كما تعلم، التفكير بأنهم مضحكون لأنهم مختلفون. وأنا أتساءل: لماذا تكون الأمور دائما بهذه الطريقة وليس بالطريقة الأخرى، كما تعلم، شخص نرى أنه لطيف لأنه مختلف؟ هذا لا يحدث، أليس كذلك؟

١: لا، لا أعرف لماذا.

٢: الحق أن الأمر يتوقف على نوع الشخص نفسه.

الباحثة: صحيح، إذن إن كان يتسم بشخصية قوية أو ما أشبه...

تعليقات غير واضحة

٣: نعم، إن كانوا ممتازين فأنت تحاول أن تنسى شخصيته الأيرلندية ومثل ذلك، ولكن

٢: إذا كانوا مثل باكى صاحب محل على الناصية فى طريقك وكأنهم يقولون، حسنا، أنت، ابتعد من هنا، أنا لا أحب شكلك، أو لا تلمس هذا- لأنك أبيض- ليس لأنك أبيض، لمجرد أنك...

الباحثة: سوف تختلس شيئا؟

ضحك وتعليقات غير واضحة

٢: نعم، أو ليس لأنك سوف تختلس شيئا، ولكن لأنك كنت تقف فى المحل منذ فترة تختار شيئا، أو لأنك تتصرف بطريقة تثير الريبة، يقولون لك، هاى، أنت، اخرج- وحينئذ تصبح مثل، آه، كل الباكيين بهذه الطريقة إذن، أليس كذلك؟ أوه- دعنا نقول المزيد من نكات الباكى.

ضحك وتعليقات غير واضحة

١: أحيانا تقف فى المحل على الناصية، ويأمرونك أن تخرج وأنت تقول لهم، اخرس يا باكى. انظر لحالك، فأنت لون الــ- بووو

الباحثة: وماذا يقولون؟

١: يلتفتون ويقولون لك، وهم يجدون الأمر مهينا جدا إنهم يمنعونك من المحل طوال حياتك الآتية. وأنت تقول: أوه، يا باكى، اخرس يا باكى، أو شيئا من هذا القبيل؛ لأنهم يرون هذا مهينا حقا.

٣: اخرس وكُل رقائق البطاطس، أو شيئا كهذا

١: أو يقولون، اخرس يا حمامة- لأن هذا ما يطلقونه علينا أحيانا- وأنت فقط تضحكين عليهم، أليس كذلك؟ تقولين فقط، حسنا...

[.....]

الباحثة: هذا شيء طريف للغاية، لقد تناولتم غداءكم الآن، أليس كذلك؟

٢: فسحة..

الباحثة: أوه، آسفة- فسحة... تبدو كذلك. هل يمكن أن أسألكم سؤالا آخر سريعا قبل... من الأشياء الطريفة فيما تقولون كما أعتقد ربما كثير من الناس، إن كانوا صادقين، قد .. كما تعرفون، يقولون ما تقولون ولكن من الممكن أيضا أن يقولوا- إذا شخص سألكم هل أنتم عنصريون فبماذا تجيبون؟

٣: أنا أقول لا.

١: أنا قد أقول "نص.. نص".

الباحثة: قد تقولين؟

٣: لا، ربما لا- لكنى أجد النكات مضحكة رغم ذلك، لكنى لا أظن أننى عنصرية.

١: فماذا تقولين أنت؟

٢: أنا أقول لا. أنا لست عنصرية فى الحقيقة- فلن أذهب إلى شخص أسود وأقول له ابتعد عنى أيها الزنجى.

١: نعم، لا لن أقول ابتعد عنى أيها الزنجى. قد أقول لهم، أوه- قد أقول لهم، إن كانوا حقا ودودين يمكن أن أصادقهم، فليس من الخطأ مصادقة شخص أسود، لكن هناك دائما مشكلة عندما تكون ثمة علاقة غرامية بين أولاد وبنات أحدهما أسود والآخر أبيض- هناك دائما مشكلة بين العائلة، لأن العائلة البيضاء قد تقول شيئا ضد السود، والسود سيفكرون حسنا، لماذا يخرج مع بيضاء- لأن الطبيعى أن الأسود سيحب الخروج مع شخصية سوداء مثله، وليس عائلات بيضاء- إنهم لن يتوقعوا منك أن تتجه إلى شخص ذى لون مختلف عنك.

تعليقات مبهمة

٢: الحق أن عائلتى لن تمانع كثيرا حقا، لأنهم ليسوا إنجليزيين فى الواقع.

١: أنا عائلتى ستمانع، لأن عائلتى-

الباحثة: مثلا إذا كان ثمة ثقافتان مختلفتان معا قد لا يمانعون. لكن هل يمانعون إن كان شخصا من باكستان؟

تعليقات مبهمة وضحك

٢: هممم، لا أعرف فى الواقع!

١: وجهها!

٢: ... الباكيين أيضا.

١: عائلتى، كل عائلتى بكاملها، لديهم شىء ضد السود، وضد الباكيين؛ لأنهم لا يحبونهم.

الباحثة: ... عائلتك؟

٣: عائلتى- أبى وأمى لن يمانعا فى الواقع، لا أظن، لكن أجدادى ربما يشعرون بأن الأمر مجلبة للعار.

الباحثة: حسنا، إذن الأمر يختص بالجيل.

٣: نعم.

الباحثة: هل تظن أن الأمر يتغير؟ هل تظن أن الشباب أقل عنصرية من كبار السن؟

٣: نعم، أعتقد هذا حقا لأنهم أكثر اعتيادا على ذلك.

الباحثة: ماذا- أكثر اعتيادا على الثقافة المختلطة؟

٣: نعم.

٢: جدى يبدو كهلا، وهو يسميهم قطرات الشيكولاتة، وهذا وأنا أقول له "لا تَدْعُهم هكذا"- بهذه الطريقة. أنا لا أفعل، أنا فقط أسميهم سودًا- أنا لا أدعوهم باكى أو أى شيئا من هذا النوع.

١: نعم، أنا قد أقول لزوج أمى، حسنا، لا ينبغى حقا أن تقول أشياء كهذه- وهو يقول: لماذا؟ إنهم زنوج، ماذا يفعلون فى هذا البلد؟ وأنا أقول، نعم، حسنا، أنت لا تحبهم عندما يقولون لنا- وما إلى ذلك، وهو سيرد علىّ ويقول، نعم، حسنا، لا ينبغى أن تصاحبيهم، المفروض أن، ثم يقول لى أشياء مثل، إنهم سود، لا ينبغى أن تعجبك مصاحبتهم وأشياء كهذه، مثلما يحدث مع أبى، أبى ليس بهذه الطريقة، لكن زوج أمى كذلك- وأمى ليست ودودة جدا مع السود...

الباحثة: إذن المسألة صعبة تماما، أليس كذلك؟ إنكم جميعا فى عوالم مختلفة أساسا (نعم)- إن لديكم آباءكم، ولديكم مدرستكم، ولديكم أصدقاءكم. سوف نتوقف الآن ولكن شكرا لكم يا فتيان [....]

هذا مقتطف طويل، أطول كثيرا مما اعتدنا استخدامه عند كتابة الأبحاث. ومن أجل أغراض هذا الكتاب ولضيق المساحة، حذفنا بعض مقاطع صغيرة من النص – وهذه المقاطع مشار إليها بـ[....] – ولكن حتى هذا ثبت أنه صعب حيث إنه يرتبط بفصل مقاطع كان يمكن النظر إليها باعتبارها "أقل أهمية" عن الأخرى، وحتى هذه المهمة البسيطة نسبيا هى فعل تفسيرى. وفضلا عن ذلك، أردنا أن نبين كم يصعب وضع معانى النص فى عبارات أو استجابات منفصلة، وأن التدفق،

والتتابع، وحتى الافتقاد إلى البراعة فى المقابلة بحاجة إلى وضعها فى الاعتبار. والمقتطف بكامله فى حد ذاته كسرة من مناقشة جماعة المناقشة بشكل عام (والتى فى الواقع ينبغى النظر إليها كوثيقة واحدة) ولكن أيضا باعتبارها واقعة بحثية وما يعنيه بالنسبة لنا أن ندخل ونتدخل فى عوالم هؤلاء الشباب الصغار بهذه الطريقة.

عندما أنظر إلى هذه المادة الآن أدرك غرابة التدخل. فإذا ركزنا انتباهنا التحليلى على الباحثة يمكن أن نرى دورى فى محاولة صياغة اللغة وبنية الخطاب، والجزء الذى يلعبه المشاركون فى الجماعة فى مناقشة هذا. تبدأ الجماعة بالمسرة التى يلقونها فى التعدى المتأثر باستخدام لغة عنصرية، "أوه يا إلهى، واستجابتى الواضعة أن هذه اللغة لا بأس بها، أقول لهم "اشرح أكثر". ولكن بالطبع هذه طريقة غير مقبولة بالنسبة للطلبة وأحد الكبار فى المدرسة، وأتدخل لتقديم لغة جديدة:

الباحثة: إذن عندما تتحدث عن السود فإنك تتحدث عموما عن الناس من الكاريبى- شىء كهذا- من جامايكا ومن أفريقيا، نعم- لكن عندما تتحدث عن الباكى فإنك تتحدث عن الناس من باكستان والهند، إلخ- الآسيويين إذن. هل تظن أن هناك فرقا كبيرا بين المجموعات المختلفة؟ أعنى هل تصنِّف السود جميعا باعتبارهم جنسا أسود؟

وفى أسلوب تربوى، أنطلق للتساؤل عن منطق مناقشتهم، متحدية الفكرة بأن هناك "مساواة" بين عنصرية مفعول الاضطهاد وفاعله. وإذ بدأت حربا جادة، تستسلم البنتان:

٢: هناك قليلون جدا يحبون السود أو الباكى، أوه، آسفة، الهنود هنا.

الباحثة: قولى، استخدمى الكلمات التى تفضلينها.

٢: نحن نسميهم الباكيين [ضحكات] ولكن لا يبدو ذلك لطيفا رغم ذلك، أليس كذلك.

الباحثة: لا، ليس لطيفا.

١: إنه يبدو بشعا.

وتستمر التفاوضات، وتستحضر الإثنية الخاصة بالشباب الصغار بصراحة فى المناقشة (إحدى الفتاتين من أصل يونانى، والأخرى من العرق الأنجلو بريطانى)، ويعاد توكيد المواقف. وعند النظر إلى المادة مرة أخرى، وجدت أننى انسحبت إلى لحظة معينة فى الإجراءات عندما تسأل إحدى الفتاتين، عبر الصوت المفترض لشخص أسود متخيل:

بالنسبة للسود، الشخص الأسود الذى تتنمرين عليه، قد يقول لك، لماذا تتنمرين علىّ؟ أنا أسود- أترين؟ أنا من نفس لونك.

وأسأل نفسى هل كنت أتنمر عليهم؟ وإن كان الأمر كذلك، فلماذا؟ هل يمكن أن يكون ضيقى من التنمر بدلا من شكوكى الأخلاقية تحرض على خطاب عنصرى يجعلنى أتذكر هذه الجماعة، هذا يعنى أنها لا تزال تؤثر فى نفسى؟ والموقف النهائى نصر واضح. الفتاتان الشابتان تتبرآن من عنصريتهما، وتلقيان باللوم على عائلتيهما اللتين، حينئذ، تتبرآن منهما.

ذكرياتى عن هذه الجماعة هو أن شيئا حدث أثناء العملية. أتذكرها بتبجح الفتاتين وبأن مشاعرى الخاصة بهما لم تكن تحت التحكم كثيرا. أتذكر أيضا أنها كانت جماعة كان فيها بعض الحركة وأن الجلسة انتهت بالفتاتين وقد وجدتا حلا. وعندما عدت إلى البيانات تعززت تلك الذكريات بما وجدته. ولم يحدث إلا حين عرضت العملية على آخرين أن ظهرت الصورة الأخرى الأكثر صعوبة.

ومن حسن حظى أن عملت مع هيلين لوسى **Helen Lucey** وتحدثت عن الحالة معها فى رحلة سيارة إلى مدينة ميلتون كينيس (حيث كنا نعمل معا فى الجامعة المفتوحة). وسألتنى هيلين: ما الذى كان مفزعا فى تعبير الفتاتين عن عنصريتهما. لماذا لم أستطع أن أتركهما تعبران بحرية؟ كما سألتنى أن أفكر لمن كان الحل؟ من ناحية، من الممكن أن أرى تدخلى كتقديم درس فى رأس المال الثقافى. فأنا أشرح:

الباحثة: إذن المسألة صعبة تماما، أليس كذلك؟ إنكم جميعا فى عوالم مختلفة أساسا (نعم)- إن لديكم آباءكم، ولديكم مدرستكم، ولديكم أصدقاءكم.

فكانت الرسالة رغم أننى دعوتهم لإدخال الخطاب الثقافى فى البيت وبين الزملاء إلى واقعة البحث، وفى فعل ذلك ارتكبوا خطأ. لماذا شعرت بأننى ينبغى أن أتدخل بكل هذه الفاعلية التى سوف تأخذ المزيد من الجهد التفسيرى لفهمها.

هذه الموضوعات اتخذها الباحث البريطانى لس باك فى مقال بعنوان "السياسة، والبحث، والفهم"، (**'Politics, Research and Understanding', 2002, 2004**). وفى هذا المقال، يستكشف باك دوافعه الخاصة والمشاعر التى شعر بها عندما قام ببحث مع العنصريين. وعلى عكس عمل لوسى وزميلاتها، الذى يضع المشاعر فى البؤرة وكذلك دفاعا عن نفس الباحث، فإن تعليق باك يضع ثقله فى الأخلاقى والسياسى. وهو يلاحظ أن الرحلة من ماضيه فى جنوب لندن إلى حاضره فى العاصمة قد ارتبط بفرز شرائح ثقافية متراكمة قد تتيح نقطة من الاتصال بينه وبين شخصيات بحثه. وهو يعبر بقلق عن أنه ليس متحكما تماما فى تجربة بحث هؤلاء الناس الذين يجد آراءهم بغيضة لكنه لا بد أن يفهمها. وقرار باك متميز وينم عن معرفة واسعة. واعتمادا على أعمال جورج ماركوس **George**

Marcus حول الإثنوجرافيا، يكشف ادعاءاتنا عن طبيعة العلاقة بين الباحث والمبحوث، بالتشكك فيما إن كنا حقا نريد علاقة حوارية مع العنصريين. ويعتمد على فلسفة لفيناس وتايلور Levinas and Taylor، وأنثروبولوجيا كليفورد جيرتز Clifford Geertz ومقالات بريمو ليفى Primo Levi ليقترح أن التورط الأخلاقى ليس بالضرورة من ملامح الفهم.

ويصف باك (2004) مشروعه بأنه بحث عن "أخلاقيات التفسير". وهو يرى أن الطريقة الوحيدة التى يمكن للإثنوجرافى استخدامها لإنتاج "القراءة التفسيرية الانعكاسية التى تنشأ داخل الحيز القائم بين ما هو مألوف وما هو أجنبى" (p. 266) هى التعلم من خلال الأداة التى هى أنفسنا. وحجته مبنية استجابة لسياسات أخلاقيات البحث التى يفرضها واجب تقوية موضوع البحث ورغبة فى استئصال الاختلاف عن طريق وضع الباحث والمبحوث فى مكانة "متكافئة" على معايير العرقية والنوع وهكذا. وعلى العكس، إن ما يسميه باك (متبعا لروث فرانكنبرج Ruth Frankenberg) "خيانة لا مفر منها" لا بد أن تقبلها كجزء من علاقة البحث والحالة الإنسانية. ذلك أن باك يرى:

> مهمة التحليل التفسيرى الانعكاسى هى إثبات صدق كل رواية، مع البقاء فى حالة انتباه للحركات الاستطرادية والبلاغية المستخدمة لكل من تعداد وإضفاء الشرعية على نظرة معينة للعالم. إن الرؤية النقدية تنتج حيث الأرضية المشتركة ثابتة، أو بنفس القدر عندما تصل آراؤنا العامة الشخصية إلى حالة مواجهة مباشرة. (2004: 269).

وقد وجدت ما كتبه ليس باك مفيدا فى أنه ليس فقط يعترف بالمشاعر المخجلة والخطاب السياسى التأديبى المتصلين بالتعبير عن العنصرية، لكنه أيضا يشير إلى الطرق التى يمكن لاستكشاف المشاعر الشخصية والارتباط بها أن تساهم فى الفهم. فالنظر إلى نفس الباحث ليس مجرد شكل من خدمة انعكاسية كاذبة، ولا هو انغماس فى سيرة ذاتية؛ إنه دليل- إنه تجلى الحيز بين ما هو مألوف وما نسعى إلى معرفته. ويشجعنى بحثه على العودة إلى بيانات مثل تلك التى عرضتها عليكم هنا، ولأن أجد علاقات وانقطاعات فى السعى للفهم. فإذا أضفنا إلى هذا مساهمة لوسى وزميلاتها بأن الحدود بين النفس و.."الآخر" ليست بالوضوح الذى قد نريده، فمن الممكن أن نأخذ خطوة أخرى نحو الفهم دون أن نتوقف مشلولين أمام قوة المشاعر التى تنظم مثل تلك الحدود.

حاضر الكتابة: ٢٠٠٨

بالعودة إلى "حاضر الكتابة"، إلى وقت كتابة هذا الفصل، فوجئنا بموضوعات مختلفة متعددة تعتبر بارزة فى المخطوطة، مما يدفع بتفسيرات جديدة. ولا شك أن القارئ قد جذبه مقتطف البيانات ونتيجة لذلك فلديك الآن أفكارك الخاصة عما كان يحدث حينئذ وطرق فهمه فى "هنا والآن". عملت ريتشيل مع هذا المثال من عملها الميدانى كنقطة انطلاق للتفكير فى دور العواطف فى البحث. ولكن، هناك طرق كثيرة للتفكير فى البيانات عندما نعرف أنها قد كشفت بطريقة غير مباشرة نسبيا. وفى عملية إعداد هذا النص عرضناه على عدد من الناس، ومنهم مارى جين كيلى **Mary Jane Kehily**، والتى أمدتنا بعدد من الأفكار الثاقبة عن هذا المقتطف فى سياق الأفكار الأساسية الأوسع للكتاب. ونبهتنا إلى تزامن الإطارات الزمنية الموجودة فى المخطوطة: المناخ السياسى الذى يجعل دراسة قيم

الشباب ذات معنى وقابلة للرعاية؛ والزمن "الخاص" الذى شكلته جماعة المناقشة والذى يمكن اعتباره داخل الجدول الزمنى المؤسسى، وقوانين السلوك لمدرسة رسمية، ولكنه فى نفس الوقت محذوف جزئيا من ذلك. والفاصل البيوجرافى "الشبابى" والذى يصبح من خلاله "إفراغ الرغبات المكبوتة" وسيطا للارتجال واختبار حدود وتناقضات التطابق مع العائلة، والزملاء وأشكال السلطة. وقد لاحظت مارى جين أيضا إلى أى مدى أنتج منهج جماعة المناقشة خطابا مجردا ومزدوجا عن العرق، والذى كان المشاركون أحيانا يخترقونه بتعبيرات مستمدة من خبرتهم الخاصة- وهى لحظات غالبا ما تميزت بالضحك. ويمكن أن نجد مثالا جيدا لذلك فى الإشارة إلى محلات الناصية، وهو حيز يشعرون فيه أنهم ينظر إليهم بارتياب فى أن يكونوا لصوصا. وهنا، للحظة قصيرة، يمكن أن نلمح سياق استثمارهم وسرورهم بصيغ المقاومة التى تتسم أيضا بالعنصرية. وعلقت مارى جين أيضا على عدم بساطة الباحثة، التى تتحرك بين أدوار المعلمة، والمستمعة الحرة، والباحثة الأخلاقية: سعيا لأن "تعرف" بينما هى لا يعجبها ما يقال.

وقد قاومنا الدافع لإصلاح تقديم هذا المقتطف بما يتماشى مع أفكار مارى جين الثاقبة. وعلى العكس، نقدم تفسيراتها كنموذج للطريقة التى يمكن بها التحليل الثانوى أن يكون ذا فائدة، مع منظور جديد أتاحته مسافة البعد، التى تكشف أشياء بينما تمنع أشياء أخرى. إن وقت ومكان عمل المقابلة، والعودة إلى التحليل والمحاولات التكرارية والتراكمية لبناء المعنى، كل هذا له أهميته. وكذلك الطريقة التى يترك بها العمل الميدانى علامة، ويظل معك، عاطفيا وفكريا، حتى بعد انتهاء مشروع البحث رسميا وبعد التوصل إلى نتائجه ومحصلاته وتوثيقها بزمن طويل. ومن هذه الناحية، فإن العمل الميدانى دينامى وبيوجرافى، وتأثيراته العميقة تتجاوز زمن بحث المشروع. وبنفس الطريقة، فإن أخلاقيات عملية البحث، والارتباط

المستمر مع "البيانات" وبناء التفسيرات على نحو متقطع أو منتظم، كل ذلك اعتبارات مهمة للمناهج الانعكاسية التى كنا نناقشها. وهذه المحاولة لكشف شيء من البحث وعملية الكتابة تجعل الحجج التى كنا نقدمها حول الأبعاد المكانية والزمانية للبحث والتفسير شيئا ملموسا.

التزامن والمناخ الثقافى

ولكن وراء هذه التشخيصات للأبعاد الزمانية والعاطفية لعملية البحث، فوجئنا بما ظهر فى البداية أنه مصادفة غريبة إلى حد ما، ولكننا الآن نراها نموذجا لكيف أن المناخ السياسى والثقافى لا يؤطر فقط نوع البحث الذى نقوم به، ولكن أيضا التفسيرات التى نضعها له والأمور التى نجدها مثيرة للقلق. فى نفس الوقت تقريبا الذى كانت فيه ريتشيل وزميلاتها يجرين بحثهن فى المدارس فى المملكة المتحدة، كانت جولى وزميلتها لين ييتس تقومان بإجراء المقابلات مع الطلبة فى المدارس الأسترالية من أجل دراستهما الطولية (التى ناقشناها فى الفصل الرابع). وهما أيضا أثار قلقهما العميق سلسلة من المقابلات كان موضوعها العنصرية. وفيما بعد، كتبت لين وجولى عن المآزق والصعوبات التى أثارتها حادثة بعينها ومحاولتهما استخلاص رؤية منهجية وواقعية منها (**McLeod and Yates, 2003,2006**).

أجريت هذه المقابلات فى المدارس عام ١٩٩٧، وكان اختيار الموضوع قد فرض نفسه جزئيا بسبب المناقشات العامة والإعلامية المكثفة حول العرق والهوية القومية فى أستراليا فى ذلك الوقت. وكان لذلك صلة بظهور قائدة بارزة لأحد الأحزاب السياسية الصغيرة، هى بولين هانسون **Pauline Hanson**، التى رفعت

صوتها بمعارضة الهجرة والمعاملة الخاصة للأهالى الأصليين لأستراليا. وفيما يختص بالدراسة الطولية، ارتبطت الأسئلة عن العنصرية بمجموعة من القضايا ذات الصلة حول القيم السياسية، والهدف من امتلاك نظرة ثاقبة إلى كل من المنطق الثقافى للعنصرية فى خلفية أمة واحدة، وتشكيل وصناعة القيم السياسية والتوجهات الاجتماعية للشباب. ونلتفت إلى مقتطف من هذه المناقشة لنرى نموذجا لطريقة أخرى جرى بها تحديد فاصل آخر مثير للقلق، والتفاوض بشأنه، وكيف كان تأثير العمل البطىء لواقعة هذا البحث خلال محاولات متعددة للكتابة عنها. والمقتطف أيضا يظهر التأثير الباقى للعمل الميدانى والعودة المتكررة للحادثات والمحادثات لفهم معناها. ويبدأ المقتطف التالى بلين وجولى تفكران فى المصاعب التى لقياها فى بحث العنصرية، ثم ينتقل إلى رواية ما جرى فى مقابلة معينة.

ملبورن ٢٠٠٣ (انعكاس لبيانات جمعت فى ١٩٩٧)

معنى أن يكون المرء عنصريا، ليس بالضرورة واضحا أو متفقا عليه، وذلك رغم أن حصيلة الكثير من المناقشات توحى بأن ثمة معايير مسلما بها لتعريف وتحديد ماهية العنصرية. كانت هذه أيضا هى الحال فى مقابلتنا من حيث إنه لا نحن، ولا الطلبة، قد شرحنا حقا ما نعنيه، أو ما يعنونه، بمصطلح "العنصرية". فمن ناحية، كان ثمة افتراض بأن هناك فهما مشتركا عاما، ولكن من ناحية أخرى، كان الطلبة بوضوح مهتمين بمحاولة التوصل إلى بروتوكولات وصيغة الخطاب العنصرى ومتى يكونون أو لا يكونون عنصريين. كانت هذه توترات مستمرة بالنسبة لنا أيضا، من ناحية كيف قمنا بصياغة ووضع الأسئلة عن العنصرية، وكيف قمنا بتحليل الاستجابات وكتبنا عن خطاب الشباب عن العرق والعنصرية.

ومثل الطلبة الذين نتحدث عنهم، كنا نناضل مع البروتوكـولات ومـشاكل كيف نتكلم ونكتب عن هذا: ما هو اللائق؟ ما هو المهم؟ ما الذى من غير المناسب قوله؟ فى هذا المشروع، نحن – الباحثتين- أجرينا كل المقابلات معـا، وقـضينا كثيرا من الوقت معا نناقش ما نفعله ونحاول أن "نعقله". كانت عملية الكتابـة مـن الطبيعى أن تبدأ بمناقشة، ثم تقوم واحدة منا بكتابة مسودة تمهيديـة، وبعـد ذلـك تعطيها للأخرى التى سوف تعلق عليها وتكتب مسودة ثانية، ويستمر هذا، وأحيانـا يشمل لقاءات ومناقشات أخرى. ولكن لم يكن ثمة جانب للكتابة عن المشروع أكثر صعوبة لنا من محاولة كتابة مقال عن العرق، والعنصرية، والقضايا التى نناقـشها فى هذا الفصل. واستمرت محاولة كتابة مقال حول هذا على مدى ثـلاث سـنوات قبل الاكتمال، وتضمنت فترات طويلة كنا فيها نتجنب حتى محاولة التحدث عنـه. بدا الموضوع يتسبب لنا فى توتر أعمق حتى من الخلافات الفكريـة التـى يمكـن للمنظرين والكتابات الحديثة أن تساعد على فهمها. ولنأخذ مثالا واحدا... استخدمت واحدة منا عبارة "آداب الخطاب العنصرى". وبالنسبة للأخرى، كانت هذه العبـارة صادمة بعنف فيما بدا ما تحمله من تفكيك لتسييس الموضوع. ولكن العبارة أيـضا التقطت شيئا بدا أنه على علاقة بالمنظور الخاص المتاح حول هذا الموضوع مـن نمط الدراسة التى قمنا بها، والقائمة على المقابلة. كان المقصود بالعبارة أن تنقـل القلق المكثف والريبة التى عبر عنها المشاركون فى محاولة فهم ما هى الطريقـة الصحيحة للتحدث عن العنصرية؟ ما هى اللغة المتاحة؟ ماذا يمكن قوله فـى هـذه المرحلة التاريخية والمناخ السياسى؟ كان هذا أيضا موضوعا اهتمت به الميديا فى تعليقاتها، وسط انفجار الجدل حول العرق، والهوية، والأمة. كان شعورنا بالـذنب، ورغبتنا فى قول الشىء الصحيح، وقدرتنا على تجنب الموضوع إذا أردنا، أو تقديم الأحكام السهلة الخالية من الأحقاد عن العنصرية فى الآخرين، وفى نفس الوقـت،

حيث نعرف إلى أى مدى يمكن أن يحكم علينا نحن أيضا، كان مماثلا للتوترات التى نحاول تحليلها فى هؤلاء الآخرين...

بحث العنصرية وبناء الآخر

... نوع آخر من الاستجابة للخطاب العنصرى فى أستراليا قدمه طالب من مدرسة "صب أوربان العليا"، هو "طليق"، الذى ولد فى أستراليا، ومن أبوين عربيين ويمكن تعريفه بأنه "عرقى" نتيجة المظهر البدنى واللهجة. كان يذهب إلى مدرسة فى نهاية الأسبوع لدراسة ثقافة ولغة عائلته، وكان يختلط اجتماعيا وفى المدرسة بالأولاد من نفس الخلفية. وفى المقابلات، هو غالبا كتوم، وأحيانا غير بارع فى أسلوب أسئلتنا، لكنه يظل يأتى طوعا لحضور كل المقابلات، حتى تلك التى أجريت بعد أن انتهى من المدرسة. وطوال المقابلة، يضع نفسه كشخص يعلق على العنصرية، وليس كشخص يعانى من العنصرية.

الباحثة: ما رأيك عنها [بولين هانسون] وعن الجدل الذى تثيره؟

طليق: لا يعجبنى.

الباحثة: هل تحدثت عنه كثيرا مع أصدقائك؟ هل يثار فى البيت؟ وهل تتحدث عنه فى البيت؟

طليق: فى البيت؟ لقد أثير مرتين أو ثلاث فى البيت. مم، ليس مع الأصدقاء.

الباحثة: هل ترى أن هناك الكثير من العنصرية فى أستراليا؟

طليق: مم، فيما عدا بولين هانسون، لا.

الباحثة: أترى أنه لا؟

طليق: لا. (طليق، مدرسة "صب أوربان" العليا، السنة العاشرة).

والتفسير الوحيد الممكن فى مقاومة طليق للبوح بالمزيد وقوله إنه ليس هناك الكثير من العنصرية فى أستراليا هو أن العنصرية تضعه فى مكانة أقل كـشخص دخيل. أو ربما أن طليق ببساطة يعمل وفق قواعد السلوك المهذب بين عائلته وفى الاتجاه السائد فى المدارس: إنه يتجنب أن يجعلنا نشعر بعدم الارتياح عندما يتجنب الإصرار على أن العنصرية تتصل بأولئك الذين من أصل أنجلوساكسونى.

لكن ردود فعل طليق أيضا تثير قضايا منهجية عن تـأثير توجيـه الأسـئلة بطرق معينة، وبالحث غير المقصود وإنتاج استجابات معينة. وفى الاستعادة، وعند الاستماع وقراءة نسخ المقابلة، كان من الواضح أن طريقتنا فى السؤال جعلت مـن الصعب على طليق أن يستجيب بطرق أخرى. (هنا أيضا نحن بحاجة للاعتـراف بالتراكم التاريخى وتأثير مقابلاتنا على مدى السنوات الأربع السابقة، حيث كانـت امرأتان بيضاوان تأتيان مرتين فى العام لإجراء مقابلات خاصة ببحث فى العلـوم الاجتماعية معه فى المدرسة. وفى هذه المقابلات، طليق مهذب ومتعـاون، لكنـه أيضا غير واثق مما نريده حقا، وأى نوع من ردود الفعل ينبغى أن يبديها). كانـت ردود فعله على أسئلتنا فى هذه المقابلة أقصر بدرجة ملحوظة من المعتـاد، غالبـا كلمتين أو ثلاثا، وبدا غير مرتاح، يتوقف فى ردوده، يضحك بعصبية، وينظر بعيدا عنا، ويبدو عليه ارتياح واضح عندما تتوقف الأسئلة. وأثناء المقابلة، نحـن أيـضا شعرنا بالحرج، وكنا غير متأكدتين من كيف ندير لحظات الـصمت والارتبـاك. وكان من الواضح لنا أنه لم يكن يشعر بالارتياح، لكن بدا لنا أيضا أن إنهاء المقابلة مبكرا ليس هو التصرف السليم، حيث إن ذلك أيضا يمكن أن يكون شكلا آخر مـن أشكال الإسكات.

وفى الاستعادة، كان ثابتا أننا سألنا أسئلة عن بولين هانسون والهجرة وكأنه كان خبيرا بتجربة العنصرية (أو "الآخر") وقد استجاب بطريقة أظهرت قدرته على الأسلوب المهذب والخطاب اللائق عن العنصرية عندما يتحدث مع امرأة بيضاء فى جو رسمى نسبيا. ومن الممكن أيضا أن استجاباته كانت تعكس إحساسا (أو رغبة) بالانتماء القومى كأسترالى. فلم يتخذ وضع "آخر يعانى من التمييز" المر الذى قد يدلنا كباحثات إلى بعض الحقائق عن العنصرية. كان هذا هو الموقف الذى كانت أسئلتنا، ربما عن لاوعى منا، موجهة بقصد أن يتحدث منه. لم نسأل التلاميذ الآخرين بشكل نظامى إن كانوا يتحدثون عن بولين هانسون وشعارها "أمة واحدة" فى البيت، لكن بتوجيه هذا السؤال لطليق ("لا بد أن العائلة العرقية قد عانت من العنصرية، قل لنا كل شىء عن هذا") لقد كشفنا رغبتنا بأن يتحدث باعتباره، وبوضعه، فى موقف "الآخر". وفى إجاباته أيضا كان هناك نوع آخر من استشفاف لرغبتنا فى سماع إجابات معينة (أن التعددية الثقافية صالحة. أن أستراليا مجتمع متسامح.) وأن لا يؤذى مشاعرنا كأستراليتين بيضاوين. إذن فإن ديناميات مقابلات البحث أنتجت فى ذات الوقت صيغة من خطاب التعددية الثقافية الرسمى و"آخرية" للمشاركين فى البحث؛ كما كشفت بعض تفكير طليق عن السياق الخاص والطريقة المناسبة للاستجابة إلى أسئلة عن العنصرية وبعض تواطؤنا فى البنية الاستطرادية للـ"آخر".. (McLeod and Yates, 2006: 154-6).

كتابة الحاضر: ٢٠٠٨

نريد أن نختتم هذا الفصل ببعض التأملات الأخيرة حول الزمنية والعواطف فى عملية البحث، اعتمادا على الرؤى المتولدة لنا فى العودة إلى تلك الأمثلة من عملنا الميدانى المشار إليه. إن المناهج التى ناقشناها خلال هذا الكتاب يمكن تمييزها عن معظم مناهج العلوم الاجتماعية الأخرى، فى اتسامها بالصفة الزمنية

الصريحة. كثير من التقنيات البحثية الكيفة تأخذ لمحات من البيانات فتجردها- من الأوقات التى قضاها الباحث والمبحوث، من زمن البحث، من التحليل، ومن العودة إلى التفسيرات وبنائها. وبهذا يصبح من الممكن دراسة المقابلة بمعنى دراسة ما فيها من الخطاب، وموقف الموضوع، والنقلات البلاغية وهكذا. ويصبح من الممكن أيضا أن نؤسس علاقة بين الخاص (سواء كان عبارة أو شيئا، أو صورة) والبنيوى والمجرد. أحد الأشياء التى تجعل هذا النوع من التجريد ممكنا هو إبعاد علاقة الباحث والمبحوث. ويمكن أن نحتوى ما نعرفه، والذى بدوره يسهل التركيز وصيغة من التشييئ. هذه النقلة، كما اقترحنا طوال الكتاب، أكثر صعوبة بكثير فى نوع المنهجيات التى كنا نستعرضها فى هذا الكتاب.

وفى البحث الطولى الكيفى وفى البحث الإثنوجرافى، على سبيل المثال، هناك علاقة زمنية لا تنقطع بين الزمن الحاضر للعمل الميدانى وأنواع الديناميات والتفاعلات التى تلتقط فى النسخ، ثم الزمنية المتواترة التكرار، والتى هى ملمح لمحاولات التفسير والتحليل. وهكذا فإن الملحوظة الميدانية هى المرحلة الأولى لمثل هذه التكرارية، إذ إن ذات الباحث التى تعود إلى المكتب قادرة على محاولة فهم التجربة فى المدرسة فى بعد ظهر ذلك اليوم. وبمرور الوقت، نعود مرة أخرى وأخرى إلى نفس البيانات، وفى كل مرة نفيد بنظرة أخرى إلى الخلف، وبالمصادر الجديدة لحاضر متغير. من المهم أن نظل نعود إلى البيانات، فى حالتها الخام، حيث إن الماضى يمكن ببساطة أن يتحول إلى خيال جامح (فانتازيا) يدعم حاضرا معينا. وفى حالات كثيرة، نصوغ حكاية عمل ثم نستمر فى طريقنا. وفى المنهجيات التى ترتبط بعمل ميدانى متكرر على مدى فترة زمنية، مثل البحث الطولى، ودراسات المتابعة أو الدراسات بين الأجيال، غالبا ما نجد أنفسنا نعود إلى البيانات بنظرة جديدة. وفى بعض الحالات تشدنا الذاكرة إلى الخلف، هذه النماذج المثيرة للقلق التى ليس بإمكاننا أن ننفضها عن الذاكرة، والتى تظل تقفز أمامنا

خاتمة

> الوقت يعبر عن طبيعة ماهية الشخصية... الكينونة تظهر في شخصيتها الزمنية. (John Urry, 1996: 372).

> جعل العالم الاجتماعي يتجمد في مكانه لأخذ صورة له يمكن أن يبدو نوعا من العنف الفظ، حيث يوقف تدفقه المتحول ليصبح لحظات متجمدة محفوظة في جليد الوصف الواقعي. (Les Back, 2007: 17).

نحن نكتب هذا الكتاب فى لحظة أصبح فيها "التغير" مقولة اجتماعية وسياسية مشحونة للغاية، بارزة فى النظرية الاجتماعية (Heaphy, 2007)، والسياسة (Corden and Millar, 2007)، وعلى نحو متزايد، فى العلوم المنهجية (Edwards, 2008). وقد اعترض البعض بأن الزمن المعاصر يتميز بالتسارع، والانطلاق إلى المستقبل (Adam, 2003) وإعادة تصور راديكالية للترتيب الزمنى توقع الفوضى فى الخطية المفترضة: الماضى- الحاضر- المستقبل (Harootunian, 2007). ونفس الآليات التى مكنت من ظهور مخاطرة تسويق الإدارة، والمستقبلية، والتوقعية (لو كان هذا يعجبك، فقد يعجبك ذلك أيضا) قد أمدتنا بطرق لتوثيق الحاضر، وخلق أرشيفات تتطلع إلى المستقبل تفترض قيمة "البيانات" بالنسبة للأجيال المستقبلة. إلا أن هذه اللحظة أيضا تتميز بحنين إلى الماضى، بنظرة إلى الخلف، إلى الدراسات والنظريات والمجتمعات الفكرية للماضى.

فى هذا الكتاب أطلقنا العنان لرغبتنا فى التذكر، فى العودة لزيارة لحظات أقدم فى تاريخ العلوم الاجتماعية لكى نستمد منها ما يفيد مأزقنا الحاضرة. ويعكس

اختيارنا الكثير عن اللحظة المعاصرة وجماعات التفسير الشخصية لنا. وقد ورطتنا رحلتنا فى المرور خلال شيء ممثل لثلاثة أنظمة للحنين وصفها فريد ديفيز (1979) بأنها أولا **بسيطة** (تنتج وهجا دافئا)، وثانيا **انعكاسية** (تثير أسئلة عن هل كان الأمر هكذا حقا) وثالثا **تفسيرية**- تتطلب تحليلا للتجربة ومساءلة للأسباب التى تجعلنا نشعر بهذه الطريقة. ورغم أننا لا نشعر بأننا قد "وصلنا"، فمن المؤكد أن لدينا فكرة أفضل للسبب الذى جعلنا نشعر بضرورة كتابة هذا الكتاب، بل شعورًا أقوى بقيمة استكشاف الجانب الزمنى فى منهجيات البحث الاجتماعى.

كانت طريقتنا هى محاولة تحديد مناهجنا المختارة داخل تاريخ فكرى أوسع، مع تخيل الجمهور الذى تتوجه إليه تلك المناهج، والمشاكل التى تأمل فى حلها. وهناك بعض التوتر بين ذلك والطرق الأكاديمية التقليدية التى ترى أن مناهج البحث موجودة فى عزلة عن الناس، والأزمنة، والأماكن- موضوعة داخل مشهد مجرد، ويحكم عليها فى علاقتها بالمعايير الفلسفية والقيم المعاصرة. وكان وضع عمل الذاكرة، والتاريخ الشفاهى، والبحث الطولى الكيفى، والإثنوجرافيا، والبحث الجيلى ودراسات العودة للزيارة داخل "مجال زمنى" يتطلب الاهتمام بما يتصل بذلك من الإطارات الزمنية، وسرعة الأداء، والتزامن، والتتابعات، والامتدادات، وعمليات الماضى والحاضر والمستقبل (Adam, 2004: 144). ومن هذه الناحية، أنتجنا شيئا يختلف إلى حد ما عن الكتب التعليمية المعتادة للمناهج، بينما فى نفس الوقت حاولنا أن نقدم فهما سهل الاستيعاب لمكونات ومساهمات تطبيقات معينة فى بحث التغير.

النظر فى اتجاهين

فى المقدمة (الفصل الأول) وضعنا الخطوط العامة لأربع موتيفات منهجية مشتبكة فى توجهنا النظرى: تورخة المناهج، وتورخة الموضوعات، والعلاقات الزمنية الدينامية، واتصال بالإمكانية والارتباط. وكل من هذه الموتيفات فى جزء منها تسعى للهروب من الثنائيات القوية التى تميز نموذجا وضعيا للبحث الاجتماعى- بين المعرفة والعالم؛ وبين الذات والموضوع؛ وبين الفاعلية والبنيوية. إلا أنه فى استعراض مسودتنا النهائية، أصبحنا على دراية بمجموعة أخرى من الثنائيات التى نمت فى أعقابها الاختلافات بين المكان والزمان، وبين التحليل التزامنى والتاريخى، وبين الديمومة والمدة الزمنية (أو بين الزمن الذاتى والزمن الموضوعى)؛ وبين التجاور والخطية.

وفى هذه الكلمات الختامية، لا نحاول أن نحل تكرارنا الخاص لهذا التطبيق التحليلى الأساسى والمريح. وعلى العكس، إننا نذكر أنفسنا أنه بينما يكون من الصعب أن نتجنب الثنائيات، فمن الممكن أن نرفض فصلها، مع إدراك أنها تأسيسية على نحو متبادل، مع إيضاح أن كشف جانب يؤدى إلى إخفاء الآخر. والثنائيات التى بقيت لنا فى نهاية هذا الكتاب هى نتاج رغبتنا فى تفضيل الزمنى، إلا أن المفارقة فى أن الزمنى يعبر عن استحالة عزل هذا المشروع- يتطلب أن نهتم بكل من مكانية الزمانى وزمانية المكانى (Massey, 1994). وتطبيقنا كان يستلزم النظر فى الاتجاهين: توظيف الحكايات الخطية وكذلك مجاورة التطبيقات؛ القبض على حسية الديمومة، ولكن تحديد مكانها بزمن ساعة الحائط الموضوعى؛ والإشارة إلى قضايا التزامن وكذلك التتابع؛ وفهم أن الاستمرارية والتغير كليهما مكمل للآخر.

جعل الصفة الزمنية مرئية

إن جعل الصفة الزمنية مرئية يتطلب أن نكون ضد الكثير من عناصر نوع الكتابة السوسيولوجية. وفى اختيار نماذج لهذا الكتاب، جاهدنا أن نجد روايات عن التصميم البحثى توضح الجوانب الزمنية للعملية البحثية. تميل أسئلة التوقيت والتزامن لاكتساب بريق عندما يتحدث الباحثون عن مناهجهم البحثية، عكس الروايات الانعكاسية التى تشير نحو التلاعب بالجداول الزمنية الأكاديمية والعائلية، أو بمكان البحث بين سيرهم الذاتية الأوسع. الصفة الزمنية أقل وضوحا فى الروايات عن التحليل، حيث تميل أساليب الكتابة الأكاديمية لأن تحتل حاضرا ممتدا تظهر ادعاءات التعميم والشرعية ومن خلاله أكثر معقولية. ويستمر اضطراب بحث الحياة الحقيقية يعانى من التهميش بين أنواع الكتابة الأكاديمية السائدة، حتى أننا نادرا ما نرى تحالفات بين مجموعات البيانات والتحليل، الشخصية المؤقتية للتفسير أو الطرق التى تفرض بها أفعال التقارير ختاما تحليليا. وكما رأينا فى الفصل السابق ("الزمن، العواطف، والتطبيق البحثى")، لكى نجعل الصفة الزمنية ظاهرة نكشف أعرافا أخرى للكتابة الأكاديمية، من ضمنها موقف المؤلف وصوته الشخصى.

وجعل الصفة الزمنية مرئية يبرز أيضا أزمات أخلاقية معينة. فى حالة المشروعات التى تجرى على مر الزمن، مثل العمل الميدانى فى الدراسات الكيفية الطولية أو فى دراسات المتابعة، يحدث تضخيم للتعقيد الأخلاقى نتيجة الارتباط طويل المدى للباحث، والمطالب المتغيرة للموافقة، ووجهة النظر، والتمثيل. إعادة تحليل البيانات والعمل فى المشروعات المؤرشفة يمثل تحديات أخلاقية مختلفة للمحلل الثانوى بالنسبة للسياق وما يعنيه الدخول إلى المشروع الفكرى لشخص آخر. وهذا بالإضافة إلى الأسئلة حول إن كانت الموافقة باقية، أو ماذا تعنى

الموافقة بالنسبة للمشاركين وهل ذلك يسرى على المشروعات المؤرشفة وإعادة استخدام البيانات فيما بعد. ولكن، فى كل مناهج البحث التى تناولناها بالمناقشة، كانت علاقة التقارب بين الباحث والمبحوث، والتى تطورت، فى، و، بمرور الزمن، تحمل معها تحديات أخلاقية معينة بالنسبة لكيف نقوم بالتفسير، والعرض، والكتابة عن "مصادر المعلومات". إن الانغماس اليومى فى موقع الميدان الإثنوجرافى، وإثارة والاستماع إلى قصص الحياة التى تحكى فى كثافة مقابلة واحدة، أو الدخول إلى حياة وتاريخ الديناميات العائلية من خلال المقابلات بين الأجيال، كل هذا يخلق حميمية ويؤكد الطبيعة المستقرة والمجسدة للبحث. وفكرة الباحث المستقر (سواء كان فى علاقة مستمرة بالبيانات أم لا)، تتيح لنا تطوير منظورات ثابتة ومتحركة تاريخيا تتغير بمرور الزمن، بين المشروعات البحثية والفرق البحثية.

المناقشة والتعاون

كانت كتابة هذا الكتاب تدريبا تعاونيا، وتدريبا مفعما بالتحدى إذا وضعنا فى الاعتبار موقع كل منا على الجانب الآخر من الكوكب. وما جعله ممكنا هو البريد الإلكترونى، ومنح التفرغ، والسفر الجوى الرخيص والقذر، وبلسان أمومة مشتركة ومراجع ثقافية مشتركة. كانت هناك لحظات مهمة أثناء كتابة الكتاب أصبح فيها ضمير المؤلفتين "نحن" الذى نستخدمه غالبا فى النص، أصبح واقعا- عندما كنا نستطيع الجلوس، والكلام، والسير معا، نراجع ونتأكد من فهمنا وتفسيراتنا. وفى أوقات أخرى عملنا بشكل أكثر استقلالية. وقد كان التفكير فى الانفصالات بين هذه الأوضاع الجراماتيكية- والمجسدة، ونستعرضها مع آخرين، جزءا مثمرا من المراحل الأخيرة من كتابة وتحرير المخطوطة.

كثير من الدراسات التى استعرضناها هنا كنماذج مثالية فى هذا الكتاب أجريت أيضا فى حالة تعاونية. وفى بعض الحالات قربت هذه الدراسات بين أناس من أفرع علمية مختلفة؛ وفى أخرى كان المنهج هو المتحرك، ينتقل بين التقاليد والمجتمعات الأكاديمية. التاريخ، والاجتماع، وعلم النفس، والدراسات الثقافية ودراسات النوع، كل هذه الأفرع العلمية موجودة كخلفية، إلا أنها تعقدت بالقومية، لتعطينا اجتماع العائلة الفرنسية، الدراسات الثقافية الإنجليزية، الإثنوجرافية الأمريكية، علم النفس الاجتماعى الأسترالى، ودراسات النوع الجرمانية. الموقع، واللحظة، والجمهور، أشياء مهمة، وتشكل العلاقة بين المجتمعات والعلوم الأكاديمية والعمليات السياسية الأوسع.

كان جزء من الحنين المرتبط بكتابة هذا الكتاب العودة لزيارة الأزمنة والأماكن التى كان الباحثون قادرين على أن ينفقوا الوقت، وأداء عملهم الميدانى فيها وعندما كانت الخطوط بين العمل الأكاديمى، والفكرى، والفنى، والفعالية أقل وضوحا مما تبدو عليه اليوم. إن هوية الشاعر الاجتماعى (التى نسبت إلى أعضاء الجماعة التى أسست "أرشيف المراقبة الجماهيرية") تبدو بعيدة، ولكنها ملهمة فى عصر يسيطر فيه على الثقافات الأكاديمية استعراض الأداء والتسليم "فى الوقت بالضبط". ونأمل أننا استطعنا تمكين القراء من رؤية الجزء الذى تلعبه ادعاءات المعرفة الأكاديمية داخل المشروعات السياسية لعلم الاجتماع والأبحاث النسوية، والغربية وما بعد الكولونيالية، بما يساعدنا على التعرف على الإمكانية المستمرة للبحث الاجتماعى لجعل التغير ممكنا وكذلك سهل التسجيل.

إن اللحظة المعاصرة قد تكون مميزة بمسافة معينة بين إنتاج المعرفة الأكاديمية والسياسات الرسمية، إلا أنها أيضا مميزة بالتقارب مع الثقافة الشعبية وممارسات المعرفة التجارية. وقد كان هذا سببا للقلق إذ يقدم تليفزيون الواقع التجارب النفسية الشعبية باسم الترفيه (**Woods and Skeggs, 2004**)، وإذ تتفوق مواقع الشبكة الباحثة عن الملكية على الإحصاءات القومية فى وصل تنوع كبير من مجموعات البيانات (**Savage and Burrows, 2007**). وقد وصف سافيدج وبورروز هذا اللحاق بمصادر المعلومات بأنه بشير بتحول وصفى فى البحث الاجتماعى. ولكن نوع الأوصاف التى ننتجها مفتوحة للتفاوض. وكما يقول لس باك، يمكننا تخيل البحث كحرفة كما هو علم، حيث "الاستماع الاجتماعى مقيد بفن الوصف" (**Back, 2007: 21**). وهذا يوحى بنوع مختلف من التحول الوصفى، نوع يفضل اللجوء إلى الفهم فوق الشرح (أو التنبؤ)، المشحون عاطفيا والذى يستخدم الرشاقة الوصفية كمعيار للشرعية.

البحث رحلة فى الزمن

التفكير والكتابة عن الزمن تجربة متواضعة. فمن السهل أن تخرج من أعماقك، وأن تجد نفسك تطوف بين العمق والسطحية. ولكى نقبض على الصفة الزمنية، حاولنا أن نكون محددين، وصفيين، وانعكاسيين، "تغذى الوعى بنواحى الإمكانية والضعف الموظفة فى هذه الكلمات البسيطة: أكون، نكون، يكونون، تكون، يكون" (**Farrell Krell, 1993: 35**). وهناك صورة مجازية قوية لهذا النوع من المقاربة نجدها فى فكرة هايدجر عن "ممر فى الغابة" **holzwege (woodpath):** الطرق التى تؤدى إلى مكان ما لا يمكن التنبؤ به أو التحكم فيه. فى بعض الأحيان

مررنا بتلك التجربة ونحن نتجول بلا هدف فى غابة، محاولين اتباع "الممر، وليس المنتج النهائى أبدا"، لنعلم أن "التحقيق، مثله تماما مثل موضوعه، مؤقت جوهريا ونهائيا" (Adam, 2004: 58). وقد شمل اهتمامنا بتورخة مناهج البحث الاجتماعى وضع أنفسنا فى موقعنا، كباحثتين طوليتين وكذلك كاتبتين لهذا الكتاب. وميلنا لوصف أنفسنا بأننا نضع وصفا للمناهج هو فى جزء منه محاولة لمتابعة هذا السبيل، جعل طريقنا خلال "الغابات المنهجية" مرئيا للآخرين.

ولأننا باحثتان، فنحن نرتبط بالسفر عبر الزمن، سواء كان ذلك من خلال استكشافاتنا للذاكرة، أو اكتساب "حمى" الأرشيف، أو أن نشتبك فى تعقيدات إعادة زيارة بياناتنا نحن أو بيانات غيرنا. إن طبيعة ممارسة العلوم الاجتماعية تتطلب أن نفكر فى العلاقة بين الباحثين، ومناهجهم، و"البيانات" الناتجة، وكذلك جوهر ما يجرى تسجيله. ونعتقد أن ذاتية الباحث توفر آلية مهمة يمكن من خلالها أن يلتقى المرء بالصفة الزمنية وأن ينقلها. ولا يعنى هذا أن نطلق العنان لأنفسنا، أو نقلل من السجل السوسيولوجى للسيرة الذاتية الفكرية. فعندما نلقى الاعتبار لوجود الباحث يمكن أن نبدأ فى تحديد موقع عملية توليد البيانات واستعادة الصلة الوثيقة المعاصرة للمواد التى يمكن بغير ذلك أن ينظر إليها باعتبارها "راح زمانها".

وطوال هذا الكتاب كنا نجادل من أجل جذب المزيد من الانتباه إلى توقيت وموقع منهجيات البحث. وقد حاولنا أن نبين أهمية دراسة العمليات الزمنية- فى كل من تطبيق البحث وموضوعاته. الزمن التاريخى، والبيوجرافى، والتوليدى- السياق والزمن اللذين فيهما نكتب، ونقرأ، ونبحث، ونحلل- كل ذلك يتصل بلا فكاك، وعلى نحو مثمر، بمنهجيات البحث التى نتبناها ونوع المعرفة والفهم اللذين تجعلهما هذه المنهجيات متاحة. وبطرق مختلفة، وفى فصول مختلفة، أظهرنا بعض الطرق غير الخطية التى يتضارب فيها الزمن ونمر بتجربته، وفهمه، وتصويره

فى التطبيقات البحثية. والمنهجيات التى تبدو موجهة للمستقبل يمكن فى التطبيق أن تنتج نظرة إلى الماضى كحصة تحليلية. والعلوم المنهجية التى تبدو موجهـــة إلـــى الماضى هى بنفس القدر عن الحاضر، وعن العلاقة بين الماضى والحاضـــر، بـــل وأيضا تدل على المستقبل بمعنى الزمن والجمهور المتوقعين للبحث.

مراجع الكتاب

Adam, B. (2003) 'Reflexive modernization temporalized', Theory, Culture and Society, 20 (2): 59-78.

Adam, B. (2004) Time. Cambridge: Polity Press.

Adkins, L. (2002a) Revisions: Gender and Sexuality in Late Modernity. Buckingham: Open University Press.

Adkins, L. (2002b) 'Reflexivity and the politics of qualitative research', in T. May (ed.), Qualitative Research in Action. London: Sage. pp. 332-48.

Alastalo, M. (2008) 'The history of social research methods', in P. Alasuutari, L. Bickman and J. Brannen (eds), The Sage Handbook of Social Research Methods. London: Sage, pp. 36-41.

Alexander, B.K. (2005) 'Performance ethnography: the re-enacting and inciting of culture', in N.K. Denzin and Y.S. Lincoln (eds), The Sage Handbook of Qualitative Research (3rd edn).Thousand Oaks: Sage. pp. 411-41.

Andrews, M. (2007) Shaping History: Narratives of Political Change. Cambridge: Cambridge University Press.

Ansell Pearson, K. and Mullarkey, J. (eds) (2002) Bergson: Key Writings. London: Continuum.

Appadurai, A. (ed.) (2001) Globalization. Durham, NC: Duke University Press.

Atkinson, P., Coffey, A., Delamont, S., Lofland, J. and Lofland, L. (eds) (2002) Handbook of Ethnography. London: Sage.

Attwood, B. (2001).' "Learning about the truth": the stolen generations narrative', in B. Attwood and F. Magowan (eds), Telling Stories: Indigenous History and Memory in Australia and New Zealand. Crows Nest, Sydney: Allen and Unwin. pp. 183-212.

Back, L. (2002) 'Guess who's coming to dinner? The political morality of investigating whiteness in the gray zone', in V. Ware and L. Back (eds), Out of Whiteness: Color, Politics and Culture. Chicago: University of Chicago Press, pp. 33-59.

Back, L. (2004) 'Politics, research and understanding', in C. Seale, G. Gobo, J. F. Gubrium and D. Silverman (eds), Qualitative Research Practice. London: Sage. pp. 249-64.

Back, L. (2007) The Art of Listening. Oxford: Berg.

Baker, B. and Heyning, K. (2004) 'Dangerous Coagulations? Research, education and a travelling Foucault', in B. Baker and K. Heyning (eds), Dangerous Coagulations? The Uses of Foucault in the Study of Education. New York: Peter Lang. pp. 1-79.

Beck, U. (1992) Risk Society: Towards a New Modernity. London: Sage.

Behar, R. (1996) The Vulnerable Observer: Anthropology that Breaks Your Heart. Boston, MA: Beacon Press.

Bertaux, D. (1981a) 'Introduction', in D. Bertaux (ed.), Biography and Society. The Life Historical Approach in the Social Sciences. London: Sage. pp. 5-15.

Bertaux, D. (1981b) 'From the life historical approach to the transformation of sociological practice', in D. Bertaux (ed.), Biography and Society: The Life Historical Approach in the Social Sciences. London: Sage. pp. 29-45.

Bertaux-Wiame, I. (1993/2005) 'The pull of family ties: intergenerational relationships and life paths' in D. Bertaux and P. Thompson (eds), Between Generations: Family Models, Myths and Memories. Oxford: Oxford University Press/Transaction Books. pp. 39-50.

Bertaux, D. and Bertaux-Wiame, I. (1997/2003) 'Heritage and its lineage: a case history of transmission and social mobility over five generations', in D. Bertaux and P.Thompson (eds), Pathways to Social Class: A Qualitative Approach to Social Mobility. Oxford: Calrendon Press, pp. 62-97.

Bertaux, D. and Thompson, P. (1993/2005) 'Introduction', in D. Bertaux and P.Thompson (eds), Between Generations: Family Models, Myths and Memories. London: Transaction Books, pp. 1-12.

Bertaux, D. and Thompson, P. (1997/2003) 'Introduction', in D. Bertaux and P.Thompson (eds), Pathways to Social Class: A Qualitative Approach to Social Mobility. Oxford: Clarendon Press, pp. 1-31.

Biersack, A. (1989) 'Local knowledge, local history: Geertz and beyond', in L. Hunt (ed.), The New Cultural History: Essays. Berkeley: University of California Press, pp. 72-96.

Bishop, L. (2005) 'Protecting respondents and enabling data sharing: reply to Parry and Mauthner', Sociology, 39 (2): 333-6.

Bishop, L. (2007) 'A reflexive account of reusing qualitative data: beyond primary/secondary dualism', Sociological Research Online, 12 (3).

Bjerrum Nielsen, H. (1996) 'The magic writing pad - on gender and identity', Young: Journal of NordicYouth Studies, 4 (3): 2-18.

Bjerrum Nielsen, H. (2003) 'Historical, cultural, and emotional meanings: interviews with young girls in three generations', NORA: Nordic Journal of Women's Studies, 11 (1): 14-26.

Bjerrum Nielsen, H. and Rudberg, M. (1994) Psychological Gender and Modernity. Oslo: Scandinavian University Press.

Bjerrum Nielsen, H. and Rudberg, M. (2000) 'Gender, love and education in three generations', European Journal of Women's Studies, 7 (4): 423-53.

Blaxter, M. (2007) 'Commentary on a "reflexive account of reusing qualitative data: beyond primary/secondary dualism" (Libby Bishop)', Sociological Research Online, 12 (3).

Bornat, J. (2003) 'A second take: revisiting interviews with a different purpose', Oral History (Spring): 47-53.

Bornat, J. (2005) 'Recycling the evidence: different approaches to the reanalysis of gerontological data', Forum: Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research, 6 (1).

Bornat, J. and Diamond, H. (2007) 'Women's history and oral history: developments and debates', Women's History Review, 16 (1): 19-39.

Bornat, J. and Wilson, G. (2008) 'Recycling the evidence: different approaches to the re-analysis of elite life histories', in R. Edwards (ed.), Researching Families and Communities: Social and Generational Change. London: Routledge. pp. 95-113.

Bourdieu, P. (1993) 'Youth is just a word', Sociology in Question. London: Sage. pp. 94-102.

Bourdieu, P. (2001) Masculine Domination (trans. R. Nice). Stanford, CA: Stanford University Press.

Bourdieu, P. and Wacquant, L.J.D. (1992) An Invitation to Reflexive Sociology. Chicago: University of Chicago Press.

Brannen, J. (2005) 'Time and the negotiation of work-family boundaries: autonomy or illusion?', Time and Society, 14 (1): 113-31.

Brannen, J. and Nilsen, A. (2006) 'From fatherhood to fathering: transmission and change among British fathers in four-generation families', Sociology, 40 (2): 335-52.

Brannen, J., Moss, P. and Mooney, A. (2004) Working and Caring over the Twentieth Century: Change and Continuity in Four-Generation Families. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Bringing Them Home: Report of the National Inquiry into the Separation of Aboriginal and Torres Strait Islander Children from their Families (1997) Commissioned by the Commonwealth government, and conducted by the Australian Human Rights and Equal Opportunity Commission. Retrieved from: www.humanrights.gov.au/social_justice/bth_report/index.html.

Britzman, D. (2000)' "The question of belief ": writing poststructural ethnography', in E. St Pierre and W. Pillow (eds), Working the Ruins: Feminist Poststructural Theory and Methods in Education. London: Routledge. pp. 27-40.

Brown, S. (2003) 'Desire in ethnography: discovering meaning in the social sciences', in M. Tamboukou and S. Ball (eds), Dangerous

Encounters: Genealogy and Ethnography. New York: Peter Lang. pp. 69-90.

Brown, W. (1995) States of Injury: Power and Freedom in Late Modernity. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Brown, W. (2001) Politics Out of History. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Burawoy, M. (2000) Global Ethnography: Forces, Connections, and Imaginations in a Postmodern World. Berkeley: University of California Press.

Burchall, G. (1993) 'Liberal government and techniques of the self, Economy and Society, 22 (3): 267-82.

Burke, P. (1992) History and Social Theory. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Byng-Hall, J. (1995) Rewriting Family Scripts: Improvizations and Systems Change. New York: Guilford Press.

Chamberlayne, P., Bornat, J. and Wengraf, T. (eds) (2000) The Turn to Biographical Methods: Comparative Issues and Examples. London: Routledge.

Charles, N., Aull Davies, C. and Harris, C. (2008) 'The family and social change revisited', in R. Edwards (ed.), Researching Families and Communities: Social and Generational Change. London: Routledge. pp. 114-32.

Clendinnen, I. (2006) 'The history question: who owns the past?', Quarterly Essay, 23: 1-72.

Clifford, J. (1986) 'Introduction: partial truths', in J. Clifford and G.E. Marcus (eds), Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography. Berkeley: University of California Press, pp. 1-26.

Clifford, J. (2003) On the Edges of Anthropology (Interviews). Chicago: Prickly Paradigm Press.

Clifford, J. and Marcus, G. (eds) (1986) Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography. Berkeley: University of California Press.

Coffey, A. (1999) The Ethnographic Self: Fieldwork and the Representation of Identity. London: Sage.

Comaroff, J. and Comaroff, J. (1992) Ethnography and the Historical Imagination. Boulder, CO: Westview Press.

Connerton, P. (1989) How Societies Remember. Cambridge: Cambridge University Press.

Corden, A. and Millar, J. (2007) 'Time and change: a review of the qualitative longitudinal research literature for social policy', Social Policy and Society, 6 (4): 583-92.

Corsaro, W.A. and Molinari, L. (2000) 'Entering and observing children's worlds: a reflection on longitudinal ethnography of early education in Italy', in P. Christensen and A.James (eds), Research with Children: Perspectives and Practices. London: Sage. pp. 179-200.

Corti, L. (2000) 'Progress and problems of preserving and providing access to qualitative data for social research: the international picture of an emerging culture', Forum: Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research, 1 (3).

Corti, L. and Thompson, P. (2003) 'Secondary analysis of archive data', in C. Seale, G. Gobo, J.F. Gubrium and D. Silverman (eds), Qualitative Research Practice. London: Sage. pp. 279-313.

Coslett, T, Lury, C. and Summerfield, P. (eds) (2000) Feminism and Autobiography: Texts, Theories, Methods. London: Routledge.

Cousins, M. (2006) 'The aesthetics of documentary', Tate Etc, 6 (Spring): 41-7.

Crang, M. and Cook, I. (2007) Doing Ethnographies. London: Sage.

Crawford, J., Kippax, S., Onyx, J., Gault, U. and Benton, P. (1992) Emotion and Gender: Constructing Meaning from Memory. London: Sage.

Crotty, M. (1998) The Foundations of Social Research: Meaning and Perspective in the Research Process. St Leonards: Allen and Unwin.

Crow, G. (2008) 'Thinking about families and communities over time', in R. Edwards (ed.), Researching Families and Communities: Social and Generational Change. London: Routledge. pp. 11-24.

Dale, R. (2006) 'From comparison to translation: extending the research imagination', Globalisation, Societies and Education, 4 (2): 179-92.

Darian-Smith, K., and Hamilton, P. (eds) (1994) Memory and History in Twentieth Century Australia. Melbourne: Oxford University Press.

Davies, C.A. (2008) Reflexive Ethnography: A Guide to Researching Selves and Others (2nd edn). London: Routledge.

Davis, F. (1979) Yearning for Yesterday: A Sociology of Nostalgia. New York: The Free Press.

De Beauvoir, S. (1949/1997) The Second Sex. London: Vintage.

Denzin, N.K. and Lincoln, Y.S. (eds) (2005) The Sage Handbook of Qualitative Research (3rd edn). Thousand Oaks, CA: Sage.

Desai, K. (2006) The Inheritance of Loss. London: Penguin.

Dwyer, P. and Wyn, J. (2001) Youth Education and Risk: Facing the Future. London: RoutledgeFalmer.

Edmunds, J. and Turner, B. (2002) Generations, Culture and Society. Buckingham: Open University Press.

Edwards, R. (ed.) (2008) Researching Families and Communities: Social and Generational Change. London: Routledge.

Eisenhart, M. (2001) 'Changing conceptions of culture and ethnographic methodology: recent thematic shifts and their implications for research on teaching', in V. Richardson (ed.), Handbook of Research on Teaching (4th edn). Washington, DC: AERA. pp. 209-23.

Elias, N. (1992) 'Time: an essay', in N. Elias, S. Mennell and J. Goudsblom (eds), On Civilization, Power, and Knowledge: Selected Writings. Chicago, IL: University of Chicago Press, pp. 253-68.

Elliott, J., Holland, J. and Thomson, R. (2007) 'Qualitative and quantitative longitudinal research', in L. Bickman, J. Brannen and P. Alasuutari (eds), Handbook of Social Research Methods. London: Sage. pp. 228-48.

Ellis, C. (2004) The Ethnographic I: A Novel about Autoethnography. Walnut Creek, CA: AltaMira Press.

Erben, M. (1998) Biography and Education: A Reader. London: Falmer.

Farrell Krell, D. (1993) 'General introduction: the question of being', in M. Heidegger (ed.), Basic Writings. London: Routledge. pp. 3-35.

Ferri, E., Bynner, J. and Wadsworth, M. (eds) (2003) Changing Britain, Changing Lives: Three Generations at the Turn of the Century. London: Institute of Education, University of London.

Fielding, N. (2004) 'Getting the most from archived qualitative data', International Journal of Social Research Methodology, 7 (1): 97-104.

Finch, J. and Mason, J. (1993) Negotiating Family Responsibilities. London: Routledge.

Fine, M. and Weis, L. (1998) The Unknown City: The Lives of Poor and Working-ClassYoung Adults. Boston, MA: Beacon Press.

Foster, G.M., Scudder, T., Colson, E. and Kemper, R. (1979) Long Term Field Research in Social Anthropology. New York: Academic Press.

Foucault, M. (1982) 'Afterward: the subject and power', in H.L. Dreyfus and P. Rabinow (eds), Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics. Chicago: University of Chicago Press, pp. 208-26.

Foucault, M. (1984) 'Nietzsche, genealogy, history', in P. Rabinow (ed.), The Foucault Reader. New York: Pantheon Books, pp. 76-100.

Fraser, R. (1984) In Search of a Past: The Manor House, Amnersfield, 1933-1945. London: Verso.

Frisch, M. (1990) A Shared Authority: Essays on the Craft and Meaning of Oral and Public History. Albany, NY: State University of New York Press.

Frosh, S., Phoenix, A. and Pattman, R. (2002) Young Masculinities. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Geertz, C. (1973) The Interpretation of Cultures: Selected Essays. New York: Basic Books.

Geisen, B. (2004) 'Noncontemporaneity, asynchronicity and divided memories', Time and Society, 13 (1): 27-40.

Gelder, K. (2007) Subcultures: Cultural Histories and Social Practice. London: Routledge.

Gergen, K.J. (1984) An introduction to historical social psychology', in K.J. Gergen and M.M. Gergen (eds), Historical Social Psychology. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum Associates, pp. 3-36.

Giddens, A. (1991) Modernity and Self Identity: Self and Society in the Late Modern Age. Cambridge: Polity Press.

Gillies,V. (2008) 'Secondary analysis in investigating family change: exploring substantive and conceptual questions', in R. Edwards (ed.), Researching Families and Communities: Social and Generational Change. London: Routledge. pp. 77-94.

Gillies, V. and Edwards, R. (2005) 'Secondary analysis in exploring family and social change: addressing the issue of context', Forum: Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research, 6 (1).

Gillies, V., Harden, A., Johnson, K., Reavey, P., Strange, V. and Willig, C. (2004) 'Women's collective constructions of embodied practices through memory work: Cartesian dualism in memories of sweating and pain', British Journal of Social Psychology, 43 (1): 99-112.

Gillies,V., Harden, A., Johnson, K., Reavey, P., Strange, V. and Willig, C. (2005) 'Painting pictures of embodied experience: the use of non-linguistic data in the study of embodiment', Qualitative Research in Psychology, 2 (3): 199-212.

Gluck, S.B. and Patai, D. (eds) (1991) Women's Words: The Feminist Practice of Oral History. New York: Routledge.

Goldbart, J. and Hustler, D. (2005) 'Ethnography', in B. Somekh and C. Lewin (eds), Research Methods in the Social Sciences. London: Sage. pp. 16-23.

Goodwin, J. and O'Connor, H. (2006) 'Contextualising the research process: using interviewer notes in the secondary analysis of qualitative data', The Qualitative Report, 11 (2): 374-92.

Greenwood, D. and Levin, M. (2006) Introduction to Action Research: Social Research for Social Change. London: Sage.

Grosz, E. (2004) The Nick of Time: Politics, Evolution and the Untimely. Durham, NC: Duke University Press.

Grosz, E. (2005) Time Travels: Feminism, Nature, Power. Durham, NC: Duke University Press.

Hacking, I. (1995) Rewriting the Soul: Multiple Personality and the Sciences of Memory. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Haebich, A. (2002) 'Between knowing and not knowing: public knowledge of the stolen generations', Aboriginal History, 25: 70-90.

Hagestad, G.O. (1985) 'Continuity and connectedness', in V.L. Bengtson and J.E Robertson (eds), Grandparenthood. London: Sage. pp. 31-48.

Halbwachs, M. (1950/1992) On Collective Memory (trans. L.A. Coser). Chicago: University of Chicago Press.

Hall, S. and Jefferson, T. (eds) (1976) Resistance through Rituals. London: Hutchinson.

Halpern, D., Bates, C., Beales, G. and Heathfield, A. (2004) Personal Responsibility and Changing Behaviour: The State of Knowledge and its Implications for Public Policy. London: Cabinet Office, Prime Minister's Strategy Unit.

Hamilton, P. (1994) 'The knife edge: debates about memory and history', in K. Darian-Smith and P. Hamilton (eds), Memory and

History in Twentieth-Century Australia. Melbourne: Oxford University Press, pp. 9-32.

Hamilton, P. and Shopes, L. (2008) 'Introduction: building partnerships between oral history and memory studies', in P. Hamilton and L. Shopes (eds), Oral Histories and Public Memories. Philadelphia, PA: Temple University Press, pp. vii-xvii.

Hammersley M. (1997) 'Qualitative data archiving: some reflections on its prospects and principles', Sociology, 31 (1): 131-41.

Hammersley, M. (1998) Reading Ethnographic Research: A Critical Guide (2nd edn). London: Longman.

Hammersley, M. and Atkinson, P. (2007) Ethnography: Principles in Practice (3rd edn). London: RoutledgeFalmer.

Harootunian, H. (2007) 'Remembering the historical present', Critical Inquiry, 33 (Spring): 471-94.

Harper, D. (1992) 'Small n's and community studies', in S. Ragan and H.S. Becker (eds), What is a Case? Exploring the Foundations of Social Inquiry. Cambridge: Cambridge University Press, pp. 139-58.

Haug, F. (2001) 'Sexual deregulation or, the child abuser as hero in neoliberalism', Feminist Theory, 2 (1): 55-78.

Haug, F., Andresen, S., Bunz-Elfferding, A., Hauser, K., Lang, U, Laudan, M. et al. (1999). Female Sexualization:A Collective Work of Memory (trans. E. Carter) (1987,2nd edn). London:Verso.

Heaphy, B. (2007) Late Modernity and Social Change: Reconstructing Social and Personal Life. London: Routledge.

Heath, R. (2006) Please Just F* Off, It's Our Turn Now: Holding Baby Boomers to Account. Melbourne: Pluto Press.

Heaton, J. (2004) Reworking Qualitative Data. London: Sage.

Henderson, S., Holland, J. and Thomson, R. (2006) 'Making the long view: perspectives on context from a qualitative longitudinal (QL) study', Methodolgical Innovations On Line, 1 (2).

Henderson, S., Holland, J., McGrellis, S., Sharpe, S. and Thomson, R. (2007) Inventing Adulthoods:A Biographical Approach to Youth Transitions. London: Sage.

Henderson, S., McGrellis, S. and Sharpe, S. (2004) 'Capitalising on both sides: experiences in a longitudinal research project', in R. Edwards (ed.), Social Capital in the Field: Researchers' Tales (Working Paper 10). London: Families and Social Capital ESRC Research Group, London South Bank University.

Heron, L. (1993) Truth, Dare or Promise: Girls Growing Up in the Fifties. London:Virago.

Hey, V. (1997) The Company She Keeps: An Ethnography of Girls' Friendships. Buckingham: Open University Press.

Hirsch, J. (2003) Portrait of America: A Cultural History of the Federal Writers' Project. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Hobsbawm, E. (1994) Age of Extremes: The Short Twentieth Century. London: Michael Joseph.

Hockey, J. (2008) 'Lifecourse and intergenerational research'. Paper presented at the Launch ofTimescapes Study, University of Leeds, 31 January.

Hodgson, S.M. and Clark, T. (2007) 'Sociological engagements with computing: the advent of e-science and some implications for the qualitative research community', Sociological Research Online, 12 (3).

Holland, J.,Thomson, R. and Henderson, S. (2006) 'Qualitative longitudinal research: a discussion paper', Working Paper 21, Families and Social Capital ESRC Research Group, London South Bank University.

Hollway, W. (1994) 'Beyond sex differences: a project for feminist psychology', Feminism and Psychology, 4 (4): 538-46.

Hollway, W. and Jefferson, T. (2000) Doing Qualitative Research Differently: Free Association, Narrative and Interview Methods. London: Sage.

Huggins, J. (2005) 'So what is memory and the task of recording memory?' Paper presented at the Deadly Directions Conference, AITSIIS Library Conference, Adelaide.

Human Rights and Equal Opportunity Commission Australia (2008) Bringing them home. The 'Stolen Children' report (1997) www.humanrights. gov. au/social_justice/bth_report/ about/personal_stories.html [accessed 22 August 2008].

Hunt, L. (ed.) (1989) The New Cultural History: Essays, Berkeley: University of California Press.

James, H. (1981) The Notebooks of Henry James, ed. P.O. Matthiessen, and B. Murdock Chicago: University of Chicago Press.

James, J. and Sorensen, A. (2000) 'Archiving longitudinal data for future research: why qualitative data add to a study's usefulness', Forum: Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research, 1 (3).

Jedlowski, P. (2001) 'Memory and sociology: themes and issues', Time and Society 10 (1): 29-44.

Jones, G. (2005) The Thinking and Behaviour of Young Adults (Aged 16-25). Literature review for the Social Exclusion Unit.

Kehily, M.J. (2002) Sexuality, Gender and Schooling: Shifting Agendas in Social Learning. London: Routledge.

Kemper, R. and Peterson Royce, A. (eds) (2002) Chronicling Cultures: Long-Term Field Research in Anthropology..Walnut Creek, CA: AltaMira Press.

Kennedy, R. (2001) 'Stolen Generations testimony: trauma, historiography, and the question of "truth" ', Aboriginal History, 25: 116-31.

Kenway, J. and McLeod, J. (2004) 'Bourdieu's reflexive sociology and "spaces of points of view": whose reflexivity, which perspective?', British Journal of Sociology of Education, 25 (4): 525-44.

Kenway, J., Kraack, A. and Hickey-Moody, A. (2006) Masculinity Beyond the Metropolis. London: Palgrave Macmillan.

Kilby, J. (2002) 'Redeeming memories: the politics of trauma and history', Feminist Theory, 3 (2): 201-10.

Kluge, S. and Opitz, D. (2000) 'Computer-aided archiving of qualitative data with the database system "QBiQ" ', Forum: Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research, 1 (3).

Kohli, M. (1996) 'The problem of generation: family, economy, polities', Public Lectures No. 14 Collegium Budapest: Institute for Advanced Studies. Available at www.colbud.hu/main_old/PubArchive/PL/PL14-Kohli.pdf [accessed 4 February 2008].

Koselleck, R. (1985) Futures Past: On the Semantics of Historical Time. Cambridge, MA: MIT Press.

Kuhn, A. (1995) Family Secrets: Acts of Memory and Imagination. London: Verso.

Lamb, S. and McKenzie, P. (2000) Patterns of Success and Failure in the Transition from School to Work in Australia, Longitudinal Survey of Australian Youth, Research Report 18. Australian Council for Educational Research, Camberwell, Victoria.

Laslett, P. (1965) The World We Have Lost. London: Methuen.

Latour, B. (2005) Reassembling the Social:An Introduction to Actor-Network-Theory. Oxford: Oxford University Press.

Law, J. (2004) After Method: Mess in Social Science Research. London: Routledge.

Lawler, S. (2000) Mothering the Self: Mothers, Daughters, Subjects. London: Routledge.

Leiserling, L. and Walker, R. (eds) (1998) The Dynamics of Modern Society: Poverty, Policy and Welfare. Bristol: Policy Press.

Leonard, D. (1980) Sex and Generation: A Study of Courtship and Weddings. London: Tavistock.

Lewis, J. (2007) 'Analysing qualitative longitudinal research in evaluations', Social Policy and Society, 6 (4): 545-56.

Lucey, H., Melody, J. and Walkerdine,V. (2003) 'Project 4:21: transitions to womanhood: developing a psychosocial perspective

in one longitudinal study', International Journal of Social Research Methodology, 6 (3): 279-84.

Macintyre, S. and Clark, A. (2003) The History Wars. Melbourne: Melbourne University Press.

MacLure, M. (2003) Discourse in Educational and Social Research. Buckingham: Open University Press.

Mannheim, K. (1952) 'The problem of generations', in P. Kecskemeti (ed.), Essays on the Sociology of Knowledge. London: Routledge & Kegan Paul. pp. 276-323.

Marcus, GE. (1992) 'Past, present and emergent identities: requirements for ethnographies of late twentieth century modernity worldwide', in S. Lasch and J. Friedman (eds), Modernity and Identity. Oxford: Blackwell. pp. 309-30.

Marker, C. (1998) Immemory, CD ROM. Berkeley, CA: Exact Change.

Massey, D. (1993) 'Power geometry and a progressive sense of space', in J. Bird, B. Curtis, G. Putnam, G. Robertson and L.Tickner (eds), Mapping the Futures: Local Cultures, Global Change. London: Routledge. pp. 59-69.

Massey, D. (1994) 'Politics and space/time', in D. Massey (ed.), Space, Place and Gender. Cambridge: Polity Press, pp. 249-72.

Mauthner, N., Parry, O. and Backett-Milburn, K. (1998) 'The data are out there, or are they? Implications for archiving and revisiting qualitative data', Sociology, 32 (4): 733-45.

McLeod, J. (2000) 'Metaphors of the self: searching for young people's identity through interview', in J. McLeod and K. Malone (eds), ResearchingYouth. Hobart: Australian Clearing House for Youth Studies, pp. 45-58.

McLeod, J. (2003) 'Why we interview now - reflexivity and perspective in a longitudinal study', International Journal of Social Research Methodology, 6 (3): 201-12.

McLeod, J. andYates, L. (1997) 'Can we find out about girls and boys today - or must we settle for talking about ourselves? Dilemmas of a feminist, qualitative, longitudinal research project', Australian Educational Researcher, 24 (December): 23-42.

McLeod, J. and Yates, L. (2003) 'Who is "us"? Students negotiating discourses of racism and national identification in Australia', Race, Ethnicity and Education, 6 (1): 29-49.

McLeod, J. and Yates, L. (2006) Making Modern Lives: Subjectivity, Schooling and Social Change. Albany, NY: State University of New York Press.

McRobbie, A. and McCabe, T. (1981) Feminism for Girls: An Adventure Story. London: Routledge & Kegan Paul.

Middleton, S. (1998) Disciplining Sexuality: Foucault, Life Histories and Education. New York: Teachers College Press.

Molloy, D.,Woodfield, K. and Bacon, J. (2002) 'Longitudinal qualitative research approaches in evaluation studies', Working Paper 7. London: HMSO.

Moore, N. (2005) (Re)using qualitative data?', CRESC Working Paper. Presented at the CRESC Methods Workshop, University of Manchester, 23 September.

Moore, N. (2007) '(Re)using qualitative data?', Sociological Research Online, 12 (2).

Munslow, A. (1997) Deconstructing History. New York: Routledge.

Nayak, A. and Kehily, M.J. (2008) Gender, Youth and Culture: Young Masculinities and Feminities. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Neale, B. and Flowerdew, J. (2003) 'Time, texture and childhood: the contours of longitudinal qualitative research', International Journal of Social Research Methodology, 6 (3): 189-99.

Neale, B., Flowerdew, J., Smart, C. and Wade, A. (2003) Enduring Families? Children's Long Term Reflections on Post Divorce Family Life. Research report for ESRC (No. R000239248).

Nora, P. (1996) 'General introduction: Between memory and history', in P. Nora (ed.), Realms of Memory: Rethinking the French Past. Vol. 1: Conflicts and Divisions, English version edited by L. D. Kritzman, trans. A.B. Goldhammer. New York: Columbia University Press, pp. 1-20.

O'Brien, E. (2006) The Light of Evening. Boston, MA: Houghton Mifflin.

O'Farrell, C. (2005) Michel Foucault. London: Sage.

Okley, J. and Callaway, H. (eds) (1992) Anthropology and Autobiography. New York: Routledge.

Ortner, S.B. (2003) New Jersey Dreaming: Capital, Culture and the Class of'58. Durham, NC: Duke University Press.

Ortner, S. (2006) Anthropology and Social Theory: Culture, Power and the Acting Subject. Durham, NC: Duke University Press.

Parry, O. and Mauthner, N.S. (2004) 'Whose data are they anyway? Practical, legal and ethical issues in archiving qualitative research data', Sociology, 38 (1): 139-52.

Parry, O. and Mauthner, N.S. (2005) 'Back to basics: who re-uses qualitative data and why?', Sociology, 39 (2): 337-42.

Passerini, L. (1987) Fascism in Popular Memory: The Cultural Experience of the Italian Working Class. Cambridge: Cambridge University Press.

Passerini, L. (1990) 'Mythobiography in oral history', in R. Samuel and P.Thompson (eds), The Myths We Live By. London: Routledge. pp. 49-60.

Passerini, L. (2002) 'Shareable narratives? Intersubjectivity, life stories and reinterpreting the past'. Paper presented at the Advanced Oral History Summer Institute, Berkeley, CA, 11-16 August.

Perks, R. and Thomson, A. (eds) (2006) The Oral History Reader (2nd edn). Abingdon: Routledge.

Peterson Royce, A. and Kemper, R. (2002) 'Long term field research: metaphors, paradigms and themes' (eds), in R. Kemper and A. Peterson Royce (eds), Chronicling Cultures: LongTerm Field Research in Anthropology. Walnut Creek, CA: AltaMira Press. pp. xiii-xxxviii.

PilcherJ. (1995) Age and Generation in Modern Britain. Oxford: Oxford University Press.

Plummer, K. (1995) Telling Sexual Stories: Power Change and Social Worlds. London: Routledge.

Plummer, K. (2001) Documents of Life 2: An Invitation to Critical Humanism. London: Sage.

Pollard, A. and Filer, A. (1996) The Social World of Children's Learning: Case-Studies of Pupils from Four to Seven. London: Cassell.

Pollard, A. and Filer, A. (1999) The Social World of Pupil Career: Strategic Biographies through Primary School. London: Continuum.

Popkewitz,T. (1998) Struggling for the Soul: The Politics of Schooling and the Construction of the Teacher. New York: Teachers College Press.

Popular Memory Group (1982) 'Popular memory: theory, politics, method', in R.Johnson, G. McLennan, B. Schwarz and D. Sutton (eds), Making History: Studies in History-Writing and Politics. London: Hutchison in association with the Centre for Contemporary Cultural Studies University of Birmingham, pp. 205-52.

Portelli, A. (1990) 'Uchronic dreams: working-class memory and possible worlds', in R. Samuel and P.Thompson (eds), The Myths We Live By. London: Routledge. pp. 143-60.

Powell, A. (1997) A Dance to the Music of Time: Winter. London: Mandarin.

Powell, A. (2000) A Dance to the Music of Time: Spring. London: Mandarin.

Rabinow, P. (2003) Anthropos Today: Reflections on Modern Equipment. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Radstone, S. (ed.) (2000) Memory and Methodology. Oxford: Berg.

Ramazanoglu, C. and Holland, J. (1999) 'Tripping over experience: some problems in feminist epistemology', Discourse: Studies in the Cultural Politics of Education, 20 (3): 381-92.

Read, P. (1982) 'The stolen generations: the removal of Aboriginal children in New South Wales 1883 to 1969', Occasional Paper, New South Wales, Ministry of Aboriginal Affairs; No. 1, Government Printer, Sydney.

Reavey, P. and Brown, S.D. (2006) 'Transforming agency and action in the past, into the present time: adult memories and child sexual abuse', Theory and Psychology, 16: 170-202.

Reavey, P. and Warner, S. (eds) (2003) New Feminist Stories of Child Sexual Abuse: Sexual Scripts and Dangerous Dialogues. London: Routledge.

Reay, D. (2005) 'Doing the dirty work of social class? Mothers' work in support of their children's schooling', in M. Glucksmann, L. Pettinger,J. Parry and R.Taylor (eds), A New Sociology of Work. Oxford: Blackwell. pp. 104-15.

Ricoeur, P. (2004) Memory, History, Forgetting (trans. K. Blarney and D. Pellauer). Chicago: University of Chicago Press.

Rose, N. (1999) Powers of Freedom: Refraining Political Thought. Oxford: Oxford University Press.

Rosenthal, G. (1998) The Holocaust in Three Generations: Families of Victims and Perpetrators of the Nazi Regime. London: Cassells.

Rubin, G. (1975) 'The traffic in women: notes on the political economy of sex', in R. Reiter (ed.), Toward an Anthropology of Women. New York: Monthly Review Press. pp. 157-210.

Saldana, J. (2003) Longitudinal Qualitative Research: Analyzing Change through Time. Walnut Creek, CA: AltaMira Press.

Samuel, R. (1994) Theatres of Memory. Vol. 1: Past and Present in Contemporary Culture. London: Verso.

Samuel, R. and Thompson, P. (eds) (1990) 'Introduction', in R. Samuel and P. Thompson (eds), The Myths We Live By. London: Routledge. pp. 1-22.

Savage, J. (2008) Teenage:The Creation of Youth Culture. London: Pimlico.

Savage, M. (2005) 'Revisiting classic qualitative studies', Historical Social Research, 3 (1): 118-39.

Savage, M. (2007a) 'Changing social class identities in post-war Britain: perspectives from Mass Observation', Sociological Research Online, 12 (3).

Savage, M. (2007b) 'Revisiting class qualitative studies', Forum: Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research, 6 (1).

Savage, M. and Burrows, R. (2007) 'The coming crisis of empirical sociology', Sociology, 41 (5): 885-9.

Schostak, J.F. (2006) Interviewing and Representation in Qualitative Research. Buckingham: Open University Press.

Scott, J.W. (1992) 'Experience', in J. Butler and J.W. Scott (eds), Feminists Theorize the Political. London: Routledge. pp. 22-40.

Simon, R.I. (2005) The Touch of the Past: Remembrance, Learning and Ethics. London: Palgrave Macmillan.

Skeggs, B. (1997) Formations of Class and Gender: Becoming Respectable. London: Sage.

Skeggs, B. (2004) Class, Self Culture. London: Routledge.

Smart, C. (2007) Personal Life: New Directions in Sociological Thinking. Cambridge: Polity Press.

Smith, D. (2005) Insitutional Ethnography: A Sociology for People. Lanham, MD: AltaMira Press.

Spence, J. (1986) Putting Myself in the Picture: A Political, Personal and Photographic Autobiography. London: Camden Press.

Spry, T. (2001) 'Performing autoethnography', Qualitative Inquiry, 1 (6): 706-32.

St Pierre, E.A. and Pillow, W. (2000) Working the Ruins: Feminist Poststructural Theory and Methods in Education. New York: Routledge.

Stanley, L. (1992) The Auto/biographical I: Theory and Practice of Feminist Auto/biography. Manchester: Manchester University Press.

Stanley, L. (2007) 'Epistolarity, seriality and the social: letters - between "biography" and "history"'. Paper presented at Constructing Lives: Biographical Methodologies in Social and Historical Research, The Open University, 4 December.

Steedman, C.K. (1986) Landscape for a Good Woman. London: Virago.

Stephenson, N. and Papadopoulos, D. (2006) Analysing Everyday Experience: Social Research and Political Change. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Stephenson, N., Kippax, S. and Crawford, J. (1996) 'You and I and she: memory work, moral conflict and the construction of self', in S.Wilkinson (ed.), Feminist Social Psychologies. Buckingham: Open University Press, pp. 182-200.

Summerfield, P. (2000) 'Dis/composing the subject: intersubjectivities in oral history', inT. Cosslett, C. Lury and P. Summerfield (eds), Feminism and Autobiography: Texts, Theories, Methods. London: Routledge. pp. 91-106.

Tamboukou, M. and Ball, S. (eds) (2003) Dangerous Encounters: Genealogy and Ethnography. New York: Peter Lang.

Temple, B., Edwards, R. and Alexander, C. (2006) 'Grasping at context: cross language qualitative research as secondary qualitative data analysis', Forum: Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research, 1 (4).

Thompson, P. (1978) The Voice of the Past: Oral History. Oxford: Oxford University Press.

Thompson, P. (1988) The Voice of the Past: Oral History (2nd edn). Oxford: Oxford University Press.

Thompson, P. (1981) 'Life histories and the analysis of social change', in D. Bertaux (ed.), Biography and Society: The Life Historical Approach in the Social Sciences. London: Sage. pp. 289-306.

Thompson, P. (1993/2005) 'Family myth, models and denials in the shaping of individual life plans', in D. Bertaux (ed.), Between Generations: Family Models, Myths and Memories, Second edition. Oxford: Oxford University Press, pp. 13-38.

Thompson, P. (2000) 'Re-using qualitative research data: a personal account', Forum: Qualitative Sozialforschungl Forum: Qualitative Social Research, 1 (3).

Thomson, A. (2007) 'Four paradigm transformations in oral history', Oral History Review, 34 (1): 49-71.

Thomson, R. (2000) 'Dream on: the logic of sexual practice', fournal of Youth Studies, 4 (4): 407-27.

Thomson, R. (2004) 'Finding and keeping emotions in the research process'. Paper presented at 'Reflexive Methodologies Seminar', 21-22 October, Helsinki Collegium for Advanced Studies, Finland.

Thomson, R. (2007) 'The qualitative longitudinal case history: practical, methodological and ethical reflections', Social Policy and Society, 6 (4): 571-82.

Thomson, R. (forthcoming 2009) Unfolding Lives: Youth, Gender and Change. Bristol: Policy Press.

Thomson, R. and Holland, J. (2003) 'Hindsight, foresight and insight: the challenges of longitudinal qualitative research', International fournal of Social Research Methodology, 6 (3): 233-44.

Thomson, R. and Holland, J. (2004) 'Youth values and transitions to adulthood: an empirical investigation', Working Paper 4, Families and Social Capital ESRC Research Group, London South Bank University.

Thomson, R. and Holland, J. (2005) 'Thanks for the memory: memory books as a methodological resource in biographical research', Qualitative Research, 5 (2): 201-91.

Thomson, R., Henderson, S. and Holland, J. (2002) 'Imagining adulthood: resources, plans and contradictions', Gender and Education, 14 (4): 337-50.

Thomson, R., Plumridge, L., and Holland, J. (2003) 'Longitudinal qualitative research: a developing methodology', International Journal of Social Research Methods'.Theory and Practice, 6 (3): 185-7.

Timescapes (2007) Retrieved 5 February 2008, from www.timescapes.leeds.ac.uk.

Urry, J. (1996) 'Sociology of time and space', in B.Turner (ed.), Blackwell Companion to Social Theory. Oxford: Blackwell. pp. 416-43.

Walkerdine, V., Lucey, H. and Melody, J. (2001) Growing Up Girl: Psychosocial Explorations of Gender and Class. London: Palgrave Macmillan.

Walkerdine, V., Lucey, H. and Melody, J. (2002) 'Subjectivity and qualitative method', in T. May (ed.), Qualitative Research in Action. London: Sage. pp. 179-96.

Weeks, J. (2007) The World We Have Won: The Remaking of Erotic and Intimate Lives. London: Routledge.

Weis, L. (2004) Class Reunion: The Remaking of the American White Working Class. New York: Routledge.

Wengraf, T. (2001) Qualitative Research Interviewing: Biographic, Narrative and Semi-Structured Method. London: Sage.

Wengraf,T (2006) 'The biographical interpretive method: principles and procedures', in SOSTRIS Working Papers, No. 2. London: Centre for Biography in Social Policy. Available at: www.uel.ac.uk/cnr/Wengrafo6.rtf-.

Williamson, H. (2004) The Milltown Boys Revisited. Oxford: Berg.

Willis, P. (1981) Learning to Labor: How Working Class Kids Get Working Class Jobs. New York: Columbia University Press.

Willis, P. (2000) The Ethnographic Imagination. Cambridge: Polity Press.

Woods, H. and Skeggs, B. (2004) 'Notes on ethical scenarios of self on British reality TV, Feminist Media Studies, 4 (1): 205-8.

Woolcott, H.F. (2002) Sneaky Kid and Its Aftermath: Ethics and Intimacy in Fieldwork. Walnut Creek, CA: AltaMira Press.

Yates, L. (2003) 'Interpretive claims and methodological warrant in small-number qualitative longitudinal research', International Journal of Social Research Methodology, 6 (3): 223-32.

Yetman, N.R. (n.d.) 'An introduction to the WPA slave narratives', www.memory.loc.gov/ ammem/snhtml/snintro00.html.

Yow,V. (1997)' "Do I like them too much?" Effects of the oral history interview on the interviewer and vice-versa', Oral History Review, 24 (1): 55-79.

مسرد بالمصطلحات والأسماء الأجنبية الواردة فى الكتاب

Alessandro Portelli	أليساندرو بورتيلى (مؤرخ شفاهى ايطالى)
Althusserian perspectives	وجهة النظر الألتوسيرية
Ann Mooney	آن مونى
Annette Kuhn	أنيت كيون
Anthony Giddens	أنطونى جيدنز
Anthony Powell	أنتونى باول
atheoretical empiricism	تجريبية لانظرية
autoethnography	الإثنوجرافيا الذاتية
Baby Boomers	أبناء الازدهار (جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية)
Bain Attwood	باين أتوود (مؤرخ أسترالى)
bean pole family	عائلة "عمودية"
Bergson, Henri-Louis	برجسون، هنرى لويس
Biographic Narrative Interpretive Method (BNIM)	المنهج التفسيرى لسرد السيرة الذاتية

Birmingham Centre for Contemporary Cultural Studies [BCCCS]	مركز برمنجهام للدراسات الثقافيــة المعاصرة
Bourdieu, Pierre	بيير بورديو
Bren Neale	برين نيل
Brendan Nelson	برندان نلسون (أحد زعماء المعارضة في أستراليا)
Brian Heaphy	برايان هيفى
Carolyn Steedman	كارولين ستيدمان
Charlotte Aull Davies	تشارلوت أول ديفيز
Clifford Geertz	كليفورد جيرتز
collective analysis	التحليل الجمعى
communitarians	العلماء الاجتماعيون
consciousness	الوعى
consciousness-raising	رفع الوعى
cross-sectional	عرضيا
cross-sectional methods	مناهج مستعرضة
cultural studies	الدراسات الثقافية
Daniel Bertaux	دانييل برتو (الاجتماعى الفرنسى)

Diana Leonard	ديانا ليونارد
distancing techniques	تقنيات التنائى – تقنيات الإبعاد، الابتعاد
Dominick LaCapra	دومينيك لاكابرا (مؤرخ)
durée	الديمومة، الدوام (فى وصف برجسون)
Economic and Social Data Service (ESDS)	خدمة البيانات الاقتصادية والاجتماعية
Economic and Social Research Council [ESRC]	مجلس الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية
Edna O'Brien	إدنا أوبريان
empirical method	منهج تجريبى
empirical paradigms	النماذج التجريبية
Erica Carter	إريكا كارتر
ethnographic stance	الموقف الإثنوجرافى
Ethnography	إثنوجرافيا: مصطلح مشتق من اليونانية، بمعنى "كتابة الثقافة"
existentiality	الوجودية
facticity	الواقع الفعلى

Faye Lynam	فاى لينام: امرأة من أهالى أســتراليا الأصليين
Feminism	النسوية – الاتجاه النسوى
fly-on-the-wall perspective	النظرة "الطائرة فوق الجدار"
follow-up studies	دراسات المتابعة
Foucaul, Michel	فوكو، (ميشيل)
Foucauldian genealogy	نظرية النسب الثقافى الفوكولدى، تسلسل تاريخ الأفكار الفوكولدى (نسبة لميشيل فوكو)
Fred Davis	فريد ديفيز
Frigga Haug	فريجا هاوج
Mead, G.H.	جى. إتش. ميد
gender identity	هوية النوع
gender subjectivity	ذاتية النوع
George Marcus	جورج ماركوس
gerontology	علم الشيخوخة
grand narrative	رواية عظمى
habitus	الطبع
Hanna Diamond	هنا داياموند

Harriet Bjerrum Nielsen	هارييت بجيروم نيلسن
Helen Lucey	هيلين لوسى
hermeneutic circle	دائرة تأويلية
hermeneutic epistemology	نظرية المعرفة التأويلية
hermeneutics	التأويل
historicizing	تورخة
Historicizing of method	تورخة المنهج: إضفاء الصفة التاريخية على المنهج
holzwege (woodpath)	ممر فى الغابة: صورة مجازية استخدمها هايدجر للتعبير عن الطرق التى تؤدى إلى مكان لا يمكن التنبؤ به أو التحكم فيه
hyper-remembering	التذكر المفرط
iGeneration	جيل المعلومات
inter-generational	بين الأجيال
intergenerational research	البحث بين الأجيال
intersubjectivity	الذاتية الجماعية
interviewee	من تُجْرَى معه المقابلة
interviewer	من يُجْرِى المقابلة

invented traditions	تقاليد مخترعة
Jackie Huggins	جاكى هاجينز، مؤرخ ومن زعماء أهالى أستراليا الأصليين
Jane Kilby	جين كيلبى
Jane Lewis	جين لويس
Janet Holland	جانيت هولاند
Jennifer Flowerdew	جنيفر فلاورديو
Jenny Hockey	جينى هوكى (أنثروبولوجية بريطانية)
Jenny Onyx	جينى أونيكس
Jo Spence	جو سبنس
Joanna Bornat	جوانا بورنات
John Byng-Hall	جون بينج هال
John Howard	جون هاوارد: رئيس وزراء سابق لأستراليا ينتمى للمحافظين
Johnny Saldana	جونى سالدانا
Julia Brannen	جوليا برانين
June Crawford	جين كراوفورد
June Melody	جون ميلودى

Karl Mannheim	كارل مانهايم
Ken Plummer	كن بلامر
Kenneth Gergen	كينيث جرجين
Kevin Rudd	كيفين رود: تولى رئاسة وزراء أستراليا عام ٢٠٠٧، وقدم اعتذارا رسميا للأهالى الأصليين
Liz Heron	ليز هيرون
Lois Weis	لويس وايز
longitudinal	طولى
Luisa Passerini	لويزا باسرينى (مؤرخة شفاهية إيطالية)
Lyn Yates	لين ييتس
magic -writing pad	رقعة الكتابة السحرية
Malinowski	مالينوفسكى
Mark Cousins	مارك كوزينز
Martin Kohli	مارتن كولى
Mary Jane Kehily	مارى جين كيلى
Maurice Halbwach	موريس هالبواتش

melancholia	انقباض
memoropolitics	سياسات التذكر
memory-work	عمل الذاكرة
method	منهج
Michael Apted	مايكل آبتد: مخرج العمل التليفزيوني **7 Up**
Michael Frisch	مايكل فريش (مؤرخ أمريكي)
Michelle Fine	ميتشيل فاين
Mike Savage	مايك سافيدج
Monica Rudberg	مونيكا ردبيرج
Murray Centre	مركز موراي (جامعة هارفارد)
narrative accrual	تراكم سردي
narrative approaches	مناهج سردية
narrative coalescence	اندماج سردي
Natasha Mauthner	ناتاشا ماوثنر
neo-liberal individualism	الفردية الليبرالية الجديدة
neo-liberalism	الليبرالية الجديدة
New Statesman	جريدة نيو ستيتسمان

non-linear	غير خطى
Nungala Fejo	نونجالا فيجو: امــرأة مــن أهــالى أستراليا الأصليين
Objective time	الزمن الموضوعى
online	على شبكة الإنترنت
oral histories	القصص الشفاهية
oral testimonies	الشهادات الشفاهية
oral/life histories	تاريخ الحياة/التاريخ الشفاهى
Pam Benton	بام بنتون
Parthe, Roland	بارت، رولان
Paul Ricoeur	بول ريكوير
Paul Thompson	بول ثومبسون
Pauline Hanson	بولين هانسون
performative dimension	البعد الأدائى
Peter Burke	بيتر بيرك
Peter Laslett	بيتر لازليت
Peter Moss	بيتر موس
Peter Read	بيتر ريد

Pierre Bourdieu	بيير بورديو
Pierre Legrende	بيير لوجريند
Pierre Nora	بيير نورا
positivism	المذهب الوضعى
post-structuralism	ما بعد البنيوية
Primo Levi	بريمو ليفى
problematizing	خلق إشكالية
Proust, Marcel	بروست، مارسيل
psychoanalytic insight	رؤية نفسية تحليلية
psychodynamic	الدينامية السيكولوجية
Qualidata	(مركز) كواليداتا (جامعة إسكس بالمملكة المتحددة)
qualitative longitudinal research (QLR)	البحث الكيفى الطولى
qualitative longitudinal studies	الدراسات الكيفية الطولية
Raphael Samuel	رافائيل صمويل
real time	الوقت الحقيقى
reality tv	تليفزيون الواقع
real-life drama	دراما الحياة الواقعية

reflexive project of self	مشروع الذات الانعكاسى
reflexive sociology	علم الاجتماع الانعكاسى
reflexive understanding	الفهم الانعكاسى
reflexivity	الانعكاسية
ressentiment	الامتعاض الشديد، استياء عدوانى
Roger Simon	روجر سايمون
Ronald Fraser	رونالد فريزر
Rosanne Kennedy	روزان كينيدى
Ruth Frankenberg	روث فرانكنبرج
Ryan Heath	ريان هيث
schooling	التَّمَدْرُس
secondary revision	مراجعة ثانوية
sequential	تتابعى
sexuality	الجنسانية، الشخصية الجنسية
Sheena McGrellis	شينا ماكجرليس
Sheila Henderson	شيلا هندرسون
Shoah Foundation	مؤسسة شواه [التى تأوى شهادات الناجين من الهولوكوست]

skinhead youth	شباب الرأس المحلوق
social mobility	الحراك الاجتماعى
social science	العلوم الاجتماعية
socialization	التأهيل الاجتماعى، التكيف الاجتماعى
solipsism	نظرية تقول أنه لا وجود لشيء غير الأنا
Stolen Generations	الأجيال المسروقة (الأطفال الذين انتزعوا من عائلاتهم فى أستراليا)
subject/object	الذات والموضوع
Subjective time	الزمن الذاتى
subjectivity	الذاتية
Sue Kippax	سو كيباكس
Sue Middleton	سو ميدلتون
Sue Sharpe	سو شارب
symbolic-interactionist studies	الدراسات الرمزية التفاعلية
Synchronous	متزامن
temporal relations	العلاقات الزمنية

the Baby Boom	ازدهار المواليد
Theoretical generativeness	التوليد النظرى
Trobriand	جزر تروبرياند فى غينيا الجديدة
uchronia	يوكرونيا: الزمن الموازى أو البديل
Uchronic	لازمنى
uchronic stories	قصص لازمنية
Ulrich Beck	أولريتش بيك
Una Gault	أونا جولت
Valerie Walkerdine	فاليرى ووكرداين
Wendy Brown	وندى براون
William James	وليام جيمس
Wright Mills, Charles	تشارلز رايت ميلز: عالم اجتماع أمريكى

المؤلفتان فى سطور:

جولى ماكليود Jolie McLeod

أستاذ مساعد العلوم الاجتماعية: المنهج التعليمى، والمساواة، والتغير الاجتماعى، وعضو مجلس معهد ملبورن للأبحاث التعليمية، وعضو الجمعية الأسترالية لأبحاث التعليم، وعضو الجمعية الأمريكية للأبحاث التعليمية.

من مؤلفاتها (ومعظمها بالاشتراك مع آخرين):

Guest Editors, 'Troubling gender and education', (2008); Learning from the Margins: Young women, social exclusion and education (2007); 12 to 18: A qualitative longitudinal study of students, values and difference in Australian schools (2007); Making Modern Lives: Subjectivity, Schooling and Social Change (2006); Researching Youth, Australian Clearing House for Youth Studies (2000).

ريتشيل طومسون Rachel Thomson

أستاذة البحث الاجتماعى بكلية الصحة والرعاية الاجتماعية بالجامعة المفتوحة– جامعة ليدز بالمملكة المتحدة، ومديرة مشروع ديناميات الأمومة. اشتركت فى العديد من الأبحاث الطولية الكيفية، ومن مؤلفاتها:

Unfolding lives: youth, gender and change (2009); Researching change: qualitative approaches to personal, social and historical processes (2009); Inventing adulthoods: a biographical approach to youth transitions (2007)

المترجمة فى سطور:

سحـــر توفيـــق

روائية ومترجمة مستقلة، من مؤلفاتها: أن تنحدر الشمس (مجموعة قصصية)، طعم الزيتون (رواية)، رحلة السمان (رواية)، بيت العانس (مجموعة قصصية).

ترجمت العديد من الكتب، ومنها:

فلاحو الباشا (كينيث كونو)؛ أرض الحبايب بعيدة: رحلة نقدية فى حياة وأعمال بيرم التونسى (ماريلين بوث)؛ المذنبة (مارجريت أتوود)؛ المرأة المحاربة (ماكسين هونج كنجستون)؛ كريك وأوريكس (مارجريت أتوود)؛ الطريق الطويل مذكرات صبى مجند (تأليف إشمائيل بيه)؛ الهوية والعنف: وهم المصير الحتمى (أمارتيا صن)؛ ألوان أخرى (أورهان باموك)؛ العشب يغنى (دوريس لسنج)؛ شهيرات النساء: أدب التراجم وسياسات النوع فى مصر (ماريلين بوث).

المراجع فى سطور:

محمود الكردى

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة.

له دراسات وبحوث عديدة فى مجالات البحث الاجتماعى، أهمها ما يتصل بمشكلات المدينة، والمجتمعات الحضرية، فضلا عن بحوث التنمية الاجتماعية بالمجتمعات الآخذة فى النمو، والسكان، والعشوائيات، والأبعاد الاجتماعية والثقافية للأنماط العمرانية المختلفة... إلخ.

التصحيح اللغوى : رجـب عبد الوهــاب
الإشــراف الفنى : محســـن مصطفـــى